دكتور حسان حلاق

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية

١٨٩٧ - ١٩٠٩

دار النهضة العربية

موقف الدولة العثمانية
من
الحركة الصهيونية

١٨٩٧ - ١٩٠٩

دكتور حسّان حلّاق

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية

١٨٩٧ - ١٩٠٩

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ١١-٧٤٩

الطبعة الثانية 1999 م.

الناشر
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

الادارة : بيروت - شارع مدحت باشا - بناية كريدية
تلفون : 743166 / 743167 / 736093
برقيا : دانهضة - ص.ب 749-11
فاكس : 735295 1 00961

المكتبة : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون : 854161

المستودع : بئر حسن - بناية الدجى
تلفون : 833180

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــداء

إلى روح والدتي الطاهرة التي
أنارت قلبي بحنانها وأنشأتني
على طلب العلم.
وإلى روح والدي الطاهرة الذي
شاركها هذا الفضل.

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية

مضى أكثر من عشرين عاما على اصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب، حيث صدر عن اصدارات جامعة بيروت العربية عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، بتوصية من كلية الآداب ، وذلك نظرا للأهمية البالغة لموضوع " موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧- ١٩٠٩" ، ونظرا للمعالجة العلمية والاكاديمية التي تميز بها ، فضلا عن المصادر والوثائق الاساسية التي استند اليها .

ان الموقف العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) من الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية الى فلسطين ما يزال يعتبر حتى اليوم موقفا مشرفا وجريئا ، نظرا لرفض السلطان العثماني جميع الاغراءات الصهيونية واليهودية ، المالية منها والاقتصادية والسياسية . وبسبب هذا الموقف قررت الحركة الصهيونية ، والقوى الدولية ، والماسونية ، والقوى العلمانية التركية ، الثورة على السلطان عبد الحميد الثاني تحت ستار اعادة العمل بالدستور العثماني " المشروطية " . وبالفعل فقد تحالفت هذه القوى واعلنت الثورة عام ١٩٠٨ ، غير انها لم تكتف بالثورة ، ورأت ان اطماعها في فلسطين لن تتحقق طالما بقي السلطان عبد الحميد الثاني في الحكم .

لقد ضاعفت الحركة الصهيونية جهودها متعاونة مع الدونمة ، والماسونية ، والقوى الدولية ، وجمعية الاتحاد والترقي ، بهدف خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ، لانها رأت ان اهدافها وتطلعاتها ومطالبها لن تتحقق طالما بقي هذا السلطان - المعادي للصهيونية وللهجرة اليهودية الى فلسطين - في الحكم . من اجل ذلك تضافرت جميع الجهود لخلعه وازاحته عن سدة السلطنة . وبالفعل فقد نجحت المؤامرة الصهيونية- الدولية - المحلية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش عام ١٩٠٩ ، وبذلك تحققت اولى اهداف الحركة الصهيونية ، بالسماح لليهود بهجرات واسعة الى الاراضي المقدسة في فلسطين .

لقد دفع السلطان عبد الحميد الثاني عرشه وسلطته وحياته ثمنا لمواقفه الجريئة ضد محاولات الصهيونية اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، ولو على غرار نموذج متصرفية جبل لبنان (١٨٦١ - ١٩١٥) الذي سبق للزعيم الصهيوني تيودور هرتزل ان طالب بتحقيقه لليهود في فلسطين على غرار ما طبق للمسيحيين لاسيما الموارنة في جبل لبنان .

وفي الفترة ، الممتدة بين اعوام (١٩٠٩-١٩١٨) وهي سنوات النفي التي قضاها السلطان عبد الحميد الثاني في المنفى لاسيما في سالونيك معقل الصهيونية والدونمة والماسونية ، فقد قضى قبل وفاته سنوات عجاف تعرض فيها لاقسى صنوف الذل والمهانة من شبان جمعية الاتحاد والترقي التي بغالبية اعضائها من اليهود والدونمة والماسونية .

ان القضية الفلسطينية التي نشأت منذ أكثر من مائة عام ، وبالتحديد منذ نشؤ الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ ، ما تزال الشغل الشاغل لكل فلسطيني ، ولكل عربي ، ولكل مسلم . ولا نبالغ القول اذا قلنا ان هذه القضية باتت قضية دولية تمثل مفصلا اساسيا لكل قضايا المنطقة العربية وتفرعاتها ، والتي ارتبطت بالقضايا الاقليمية والدولية . وانطلاقا من مبدأ " نفعية التاريخ"، وانطلاقا من اهمية " الذاكرة التاريخية " كان لا بد من اعادة طبع هذا الكتاب نظرا للأهمية الكبرى التي يمثلها ، ولكونه ينشر معلومات على غاية من الأهمية والدقة ، ولانه حتى اليوم لم يستطع أي مؤلف ان يحل مكانه ، وان يقدم معلوماته. وبالمناسبة فاننا نتوجه بجزيل الشكر الى دار النهضة العربية في بيروت المحروسة ممثلة بمؤسسها وصاحبها السيد مصطفى كريدية لتكرمه بتبني هذه الطبعة الجديدة في حلة راقية ومتطورة .

د.حسان حلاق

وقفة جبل عرفه الجمعة في ٩ ذي الحجة ١٤١٩ هـ

الموافق في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٩٩ م

مقدمة الطبعة الأولى

تمثل الفترة موضوع البحث ١٨٩٧ – ١٩٠٩ فترة مهمة على صعيد القضية الفلسطينية، باعتبارها الفترة التي شهدت مولد حركتين إحداهما سياسية وهي الحركة الصهيونية والأخرى حركة عسكرية – سياسية وهي حركة الاتحاد والترقي. وكان لظهورهما من الناحية العملية دورٌ مؤثرٌ ومباشرٌ في مستقبل فلسطين السياسي، حيث أن الحركة الأولى خططت للسيطرة عليها بينما ساعدت الحركة الثانية – بطريقة أو بأخرى – في تحقيق غايات الحركة الصهيونية. وقد كان لنشاط الحركتين الأثر البارز في تحويل مجريات السياسة العثمانية والدولية. وتتمثل أهمية فترة البحث بعاملين اثنين يمكن شرحهما على النحو التالي:

العامل الأول – أن عام ١٨٩٧ هو العام الذي ولدت فيه الحركة الصهيونية كمنظمة سياسية لها طابعها الخاص لايجاد وطن قومي لليهود. وكانت هذه الحركة تفضل فلسطين على سواها من مناطق مثل أوغندا والأرجنتين باعتبارها أرض الميعاد، بالرغم من أن قسماً كبيراً من اليهود قد عارضوا فكرة إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين أو في غيرها، إلا أن الحركة الصهيونية بقيادة زعيمها تيودور هرتزل استطاعت الاتفاق مع دول الغرب الاستعماري على أن إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين إنما يكرس تحقيق التطلعات الاستعمارية على اعتبار أن اليهود سيكونون رسلاً للحضارة الأوروبية في الشرق. ومن أجل ذلك كان هرتزل بين الأعوام ١٨٩٦–١٩٠٤ يجوب أوروبا والدولة العثمانية للإتصال بأباطرتها وقياصرتها وسلاطينها لإقناعهم بأهمية مشروعه من الناحية الحضارية والسياسية والإقتصادية، وقد اتسمت مواقفهم بين القبول والرفض. ويمكن القول أن التطورات الدولية قد اسهمت إسهاماً هاماً في تطور الحركة الصهيونية فكان عام ١٩٠٥ هو عام التشبث الصهيوني بفلسطين، وتكرس ذلك عملياً في مقررات مؤتمر «كامبل بانرمان» عام ١٩٠٧ بضرورة جعل فلسطين قاعدة استعمارية للغرب بزرع الشعب اليهودي فيها.

والجدير بالذكر أن موقف الدولة العثمانية كان يتميز بطابع خاص من النشاط الصهيوني والدولي على السواء، فقد أصر السلطان العثماني على رفض المشروع الصهيوني سواء أفي مباحثاته مع هرتزل أو مع الوسطاء الأوروبيين لأن « القدس مقدسة مثل مكة » على حد قول « ڤامبري » (Vambery). وتجسد هذا الموقف باصدار الفرمانات السلطانية المتلاحقة التي تمنع دخول اليهود الأجانب إلى فلسطين إلّا للزيارة ولمدة محددة. ونظراً لخطورة الحركة الصهيونية ودور الدول الأوروبية في تشجيعها ودعمها فقد «كان السلطان يخشى أن تصبح فلسطين جبل لبنان ثان، وأن تلعب الدول الأوروبية في فلسطين نفس الدور الذي لعبته في لبنان » وذلك على حد قول (Bein Herzl). ويرى السلطان – كما يذكر في يومياته – من « أن هدف الدول الأوروبية كان لخلق المشاكل الداخلية والفتن في أمبراطوريتنا لأنها تريد اضعافنا ». ولأن السلطان كان زعيم الجامعة الإسلامية – والدين لا يزال يمثل روح العصر في الدولة العثمانية ويسيطر على أكثر العثمانيين – فلا يعقل والحالة هذه أن يتخلى عن الأراضي المقدسة لشعب غريب عن المنطقة، كما أنه لا يريد إيجاد أقلية جديدة فمشاكله مع الأقليات في أمبراطوريته تكفيه وهي كثيرة. وقد استمر في موقفه هذا من الصهيونية والهجرة اليهودية حتى قيام ثورة الإتحاد والترقي عام ١٩٠٨ وخلعه عام ١٩٠٩. ومما يجب التأكيد عليه أنه كان لردود الفعل العربية الأثر البارز في موقف السلطان بعد أن شكلت ضغطاً متواصلاً وعبرت عن ذلك بعدد من الاحتجاجات والمظاهرات والعرائض والهجمات على اليهود الأجانب في فلسطين وعلى مستوطناتهم الزراعية.

العامل الثاني – إن ولادة حركة الاتحاد والترقي تعود إلى فترة متقاربة من ولادة الحركة الصهيونية، وبالرغم من أنه كان لكل منهما غاية تختلف عن الأخرى، إلا أن الموقف العثماني من الحركة الصهيونية وحّد بين أهداف الحركتين وأصبح لهما قاسم مشترك هو التخلص من السلطان عبدالحميد الثاني، وتمثل ذلك في تعاونهما في ثورة عام ١٩٠٨ وحادثة خلع السلطان عام ١٩٠٩. إلا أنه يمكن القول بأن المنظمة الصهيونية استطاعت استغلال رجال تركيا الفتاة حيث كان عدد منهم لا يعلم حقيقة نوايا الصهيونية والدونمة – مسلمون من أصل يهودي – الذين لعبوا دوراً فعالاً في تنظيم لجان جمعية الاتحاد والترقي، كما فتح اليهود محافلهم الماسونية في سلانيك لعقد الاجتماعات السرية

للجمعية التي يترأسها محام يهودي ماسوني هو قراصوه. ومما أتاح النجاح لهذه الاجتماعات كون غالبية سكان سلانيك من اليهود الذين شكلوا تغطية لهذه الاجتماعات الماسونية – اليهودية – الاتحادية. هـذا بالإضافة إلى أن سلانيك كانت منطقة على غرار متصرفية جبل لبنان يظهر فيهـا النفوذ الأجنبي الاستعماري.

وتبرز الوثائق المعاصرة من أن أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي هم اليهود والدونمة والدول الأجنبية على حد قول (Seton-Watson). ويؤكد « لوثر » (Lowther) – السفير البريطاني في الاستانة – هذه الحقيقة من « أن جمعية الاتحاد والترقي تبدو في تنظيمها الداخلي تحالفاً يهودياً – تركياً مزدوجاً ». كما يؤكـد « مارلنغ » (Marling) من « أن وحي الحركة في سلانيك يبدو يهودياً بصفة رئيسية ». ويذكر أرنست رامزور (E.Ramzour) ومحمد رشيد رضا وجواد رفعت اتلخان – القائد التركي – من أن الثورة التركية عام ١٩٠٨ كلها تقريباً من عمل مؤامرة يهودية ماسونية نظراً لعظم نفوذ اليهود الماسون فيها. كما أكدت التقارير البريطانية من أن الحكم الجديد في تركيا لم يعد خاضعاً للنفوذ السياسي الصهيوني فحسب وإنما للنفوذ الإقتصادي أيضاً. وكان لهـذا النفوذ الدور البارز في سياسة الإتحاديين ولا سيما فيما يختص بسياسة تتريك العرب (عربلرى توركلشديره جكز) للقضاء على معالم القومية العربية ولغتها وكيانها، ولقد امتدت يد العزل والإضطهاد والسجن إلى الشخصيات العربية من وزراء وعلماء وموظفين. وكان العربي أينما وجد يسمع كلمات الأهانة والمذلة، وكانت كلمة « بيس عرب » (عربي قذر) يسمعها العربي أينما سار في الاستانة. وقد تولى حسين جاهد – صاحب صحيفة طنين – هجوماً عنيفاً عـــلى العرب ونوابهم الذين وصفهم بأنهم جواسيس للسلطان عبد الحميد الثاني.

ومن الأهمية بمكان القول أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين تضاعفت في العهد الاتحادي بشكل ملحوظ، وفي نفس الوقت تزايدت حركة المعارضة العربية سواء من قبل شعب فلسطين أو صحافته الجديـدة أو ممثليه في المبعوثان. ويمكن القول أيضاً أنه في العهد الاتحادي ظهرت خلافات حادة بين الاتحاديين أنفسهم حول مستقبل فلسطين والهجرة اليهودية إليها. واعتبر عدد من الاتحاديين بأنهم استغلوا للقيام بالثورة وتأييدها ليس لصالح تركيا

وإنما خدمة للحركة الصهيونية ، إلا أن الجناح المؤيد للصهيونية كان الجناح الأقوى خلال السنوات الأولى من حكم الاتحاديين .

وينتهي البحث عند عام ١٩٠٩ حين شهدت القضية الفلسطينية مرحلة أخرى من مراحل تاريخها الحديث . والواقع أن الهدف من هذا البحث هو التركيز على موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية ١٨٩٧ — ١٩٠٩ ، إلا أنني وجدت أن القضية الفلسطينية — في هذه الفترة — لم تنشأ بمعزل عن التيارات السياسية والعسكرية الاستعمارية الدولية بل كانت جزءاً حيوياً منها . ولذا آثرت أن أشير إلى هذه التيارات وما رافقها من مباحثات ومواقف الدول الأوروبية من إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، ورأيت أيضاً أنه لا يجوز اغفال ردود الفعل العربية من الهجرة اليهودية نظراً لأهميتها وفعاليتها .

والجدير بالذكر أن المؤرخين العرب والأجانب الذين أرخوا لموقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ — ١٩٠٩ مروا به مروراً عابراً دون التركيز بصورة أساسية على هذا الموقف ، بل يكاد يكون هامشياً في بحثه في مؤلفاتهم . والبحث الوحيد المعتمد على دراسة وثائقية بين أعوام ١٨٨٢—١٩١٤ هو الذي قام به « ماندل » (N. Mandel) ونال على أساسه درجة الدكتوراه عام ١٩٦٥ تحت عنوان : (Turks, Arabs, and Jewish Immigration into Palestine 1882-1914) وبالرغم من أن ماندل عالج موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلا أن تركيزه على العلاقات التركية — العربية والعربية — اليهودية كان الطابع الغالب على البحث ، بالاضافة إلى ناحية هامة وهي أن اعتماده على وثائق الأرشيف الصهيوني في القدس قد أعطى البحث طابعاً خاصاً ومنحازاً . أما بقية الأبحاث التي عالجها مؤرخون آخرون فان هدفها الأساسي لم يكن الموقف العثماني من الهجرة اليهودية ، فقد عالج « يعقوب روا » (Yacov Roi) في بحثه (The Zionist Attitude to the Arabs 1908-1914) الحركة الصهيونية وموقفها من ردود الفعل العربية أكثر من اهتمامه بالموقف العثماني ، كما أن بحثه يبدأ في عام ١٩٠٨ وينتهي عام ١٩١٤ . وعالج « بوراث » (Porath) في بحثه : (The Political Awakening of the Palestinian Arabs) اليقظة السياسية للفلسطينيين دون التطرق إلى الموقف العثماني من الهجرة اليهودية ،

بل تحدث عن موقف العرب وزعمائهم من هـذه الهجرة. وأما الكتب العربية التي تبحث جانباً من موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، فيأتي في مقدمتها كتاب خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه الذي نالت به درجة الدكتوراه عام ١٩٧٢ من جامعة القاهرة، وهو يعتمد على وثائق الأرشيف البريطاني. وقد استفدت بعض الشيء من هذا الكتاب، إلا أنه لا يعالج بصورة رئيسية موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية بقدر مـا يعالج النشاط الصهيوني في فلسطين وخارجها لإنجاح عمليـة الهجرة، أضف إلى ذلك فإن البحث يبدأ في عام ١٩٠٨ وينتهي في عام ١٩١٨. أما رسالة الماجستير المقدمة من وليم فهمي: الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، فان الباحث ركز بصورة واضحة على الهجرة اليهودية ونشاط يهود العالم لتحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين دون البحث إلا ما ندر في الموقف العثماني، كما أن رسالة الدكتوراه المقدمة من حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، ركزت بصورة أساسية على المحاولات العديـدة المبذولة من قبل الدول الاستعمارية والمنظمـة الصهيونية لاستيطان فلسطين دون التطرق إلى الموقف العثماني. والواقع أن هناك أبحاثاً عربيـة وأجنبية أخرى لم تعالج موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ولكن لا يسع المجال لذكرها الآن.

أما المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث فهي تضم العربية والتركية والأجنبية ويمكن عرض البعض منها على سبيل المثال لا الحصر مثل:

١ – يوميات هرتزل: تعتبر هذه اليوميات بمثابة وثائق صهيونية أساسية على قدر كبير من الأهمية لأنها تسجل آراء وأفكار وممارسات رائد الحركة الصهيونية، وكان قد دونها يوماً بيوم. ولا بد لكل باحث لنشاط الحركة الصهيونية من الرجوع إلى هذه اليوميات، ولكن يجب ألَّا يُعتمد عليها منفردة وبشكل مسلّم به لأن واضعها له ميوله الخاصة باعتباره مؤسس الصهيونية، إلا أنها بدون أدنى شك تبقى مصدراً أولياً وهاماً. وتكمن أهمية اليوميات – فيما يختص بموضوع البحث – أن هرتزل أشار فيها إلى علاقاته ومحاولاته الحثيثة لاقناع السلطان والحكومة العثمانية بتحقيق مشروع استيطاني يهودي في فلسطين. وقد اعترف الزعيم الصهيوني في مذكراته وفي اكثر من مرة بفشله في تحقيق أي نجاح للحركة الصهيونية بسبب رفض

السلطان المطلق للمشروع . ويمكن أن نستخلص عدة أمور من خلال دراسة اليوميات اعترف بها هرتزل نفسه وهي :

أ — أن الأسلوب المتبع مع السلطان كان أسلوباً لحركة رجعية تهدف إلى القضاء على الحركة العربية الناشئة والحركة التركية وإقناع تركيا بقبول القروض اليهودية مقابل إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين .

ب — تعتبر الحركة الصهيونية حركة استعمارية نشأت وترعرعت في أحضان الدول الاستعمارية .

جـ — تعتبر الحركة الصهيونية حركة يمينية معادية للحركات الثورية في العالم، وللأنظمة الاشتراكية حيث أبدت استعدادها للتعاون مع الدول الكبرى للقضاء على هذه الثورات وإبعاد اليهود عن الاشتراكية .

٢ — محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الأثري [١] : ولاية بيروت — القسم الجنوبي جـ ١ ، ١٩١٧ م — ١٣٣٥ هـ . ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة نظراً لدقة أكثر المعلومات الواردة فيه ، لأنها جاءت نتيجة لمشاهدات شخصية ومعلومات من مصادر عربية وتركية وأجنبية موثوقة . وتعود أهمية الكتاب إلى أنه يشرح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لفلسطين ومختلف مناطق ولاية بيروت الجنوبية ، وقد تحدث عن الصهيونية والهجرة اليهودية وشرح الظروف المحيطة باليهود في كل منطقة من مناطق فلسطين . وقد اعتمد المؤلفان على عدد وفير من المصادر التركية مثل : تاريخ سياسي لكامل باشا ، ودولت عثمانية عصر حاضر تاريخي لعلي رشاد بك ، وعلى مصادر عربية مثل: تاريخ أورشليم — القدس الشريف — لخليل سركيس، وتاريخ سوريا لجرجي يني الطرابلسي، وتاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس

(١) يعتبر المؤلفان من ثقاة المثقفين في تلك الفترة ، فالتميمي كان مديراً للمدرسة السلطانية ، بينما كان الأثري مديراً للمدرسة التجارية . وهما من مواليد بلاد الشام ، فالأول من مواليد نابلس عام ١٣٠٣ هـ ، شغل فترة منصب استاذ لمادتي التاريخ والجغرافيا في المكتب السلطاني في بيروت ثم في أزمير ودمشق . ومن مؤلفاته : ولاية مدحت باشا على الطونة بالفرنسية ، والتاريخ عمومي في ثمانية أجزاء وكان حتى عام ١٩١٧ غير معد للطبع . أما الثاني فهو من مواليد حلب عام ١٣٠٨ هـ ، وله مؤلفات وكتابات ودواوين شعر نشرها عام ١٩٠٨م — ١٣٢٦ هـ في مجلة « رسملي كتاب » وفي صحيفة « ثروت فنون » ، كما كتب في صحيفة «طنين» و« تصوير أفكار » و« جريدة عدلية »، وله كتاب مطبوع تحت عنوان: «أرغنون»، وهو كتاب يحوي الشعر ومقاطع تمثيلية ، وقد نال الأثري شهادة في الحقوق وبعدها علم مادة الفلسفة في بيروت ودمشق .

وغيرها ، كما اعتمد المؤلفان على مؤلفات فرنسية وانجليزية وألمانية منها :
V. Guinet; *Syrie, Liban et Palestine.* — Vernet et Danbonne; *Les Puissances Etrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine.* Guy le Strange ; *Palestine under the Moslems.* — Churchill ; *Mount Lebanon (3 vols).* — *Zeitschrift der Palestina Vereins.* — Diener; *der Libanon.*

٣ – شاهين مكاريوس (١٨٥٣ – ١٩١٠) (١) : « حسر اللثام عن نكبات الشام » ، مصر ١٨٩٥ ، و « تاريخ الاسرائيليين » ، مصر ١٩٠٤ . وفي الكتاب الأول أغفل مكاريوس اسمه تجنباً من ملاحقة الحكم العثماني له ، وقد بحث فيه الأوضاع السياسية والاجتماعية في الدولة العثمانية منذ أيام الحكم المصري لبلاد الشام وما تبعه من أزمات . ثم هاجم مكاريوس الحكم العثماني هجوماً عنيفاً وأبدى رغبته في الخلاص منه ، وأورد أيضاً معلومات تاريخية وسكانية عن فلسطين ودرس أحوال اليهود في بعض مدنها وتزايد هجرتهم ونفوذهم في الأراضي المقدسة . أما كتابه الثاني « تاريخ الاسرائيليين » فقد أبدى مكاريوس أعجابه بالصهيونية والشخصيات اليهودية المقيمة في مصر وبقية أنحاء العالم ، ثم أرّخ حياة كل شخصية يهودية مشهورة وثرية ، وتحدث في هذا الكتاب أيضاً عن جهود اليهود والمنظمة الصهيونية للسيطرة ليس فقط على فلسطين وإنما أيضاً على جنوب لبنان . هذا وتعود كراهية مكاريوس للحكم العثماني أنه كان أحد أعضاء « جمعية بيروت السرية » الهادفة إلى التخلص من السيطرة العثمانية ، وكان أيضاً أحد الأعضاء البارزين في المحافل الماسونية ، ويميل إلى تأييد الحركة الصهيونية واليهود في العودة إلى فلسطين. ومن ناحية أخرى فان شاهين مكاريوس لم يشر في كتابيه السابقين إلى المصادر التي استقى منها معلوماته ، إلا أنهما يعتبران من الكتب الهامة والنادرة والمفقودة من أكثر المكتبات الخاصة والعامة . وكان مكاريوس أحد أصحاب صحيفتي : « المقتطف » و« اللطائف المصورة » المؤيدتان للهجرة اليهودية إلى فلسطين .

---

(١) شاهين مكاريوس (١٨٥٣ – ١٩١٠) ولد في قرية « ابل السقي » في منطقة مرجعيون بجنوب لبنان ، تعلم في صغره مبادىء القراءة وتربّى على يد المعلم يواكيم مسعود . جاء إلى مصر عام ١٨٨٤ مع زميليه الدكتور صروف وفارس نمر وأنشأ فيها مجلة (اللطائف) ، واشترك في إدارة (المقطم) و (المقتطف) . من مؤلفاته الأخرى : ١ – الآداب الماسونية ، مصر ١٨٩٥ . ٢ – الاسرار الخفية في الجمعية الماسونية ، مصر ١٩٠٠ . ٣ – الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية ، مصر ١٨٩٧ . ٤ – فضائل الماسونية ، مصر . ٥ – تاريخ ايران ، مصر ١٨٩٨ . ٦ – السمير في السفر والأنيس في الحضر ، مصر ١٨٩٥ .

٤ – أرنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ [١]، ويشرح الباحث في كتابه عن كيفية تكوين حركة تركيا الفتاة عام ١٨٨٩ وجهودها السرية والعلنية داخل الأمبراطورية العثمانية وخارجها واتصال زعمائها بالسياسيين الأوروبيين وزعماء المحافل الماسونية والحركة الصهيونية . ويعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الهامة في تاريخ حركة تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ إذ استقى المؤلف معلوماته من أهم المصادر المعاصرة للأحداث، ومن أشخاص معاصرين لعبوا دوراً هاماً في ثورة ١٩٠٨ حيث أرسل له بعضهم رسائل ومخطوطات تنشر للمرة الأولى، كما اجتمع بالبعض الآخر، ومن هؤلاء جامي بيكرت وزير الداخلية التركي الأسبق، وفضلي تونغ ورحمي بك وعمر فوزي ماردين وابراهيم تيمو ورضا توفيق . وبالاضافة إلى ذلك فقد اعتمد أرنست رامزور على مصادر أجنبية معاصرة منها :

Ch. R. Buxton ; Turkey in Revolution, (London 1909).
Tahsin Pasha ; Abdül-Hamit ve Yildiz Hatiralari, (Istanbul 1931).
A. Vambery ; The Story of my Struggles, (New-York 1904).
A. Galanté ; Turcs et Juifs, (Istanbul 1932).
Lieutenant-Colonel Malleterre ; L'Armée Jeune Turque, (1911).

واعتمد الباحث أيضاً على مجموعة كبرى من المؤلفات والمجلات المعاصرة مما لا يتسع المجال لذكرها .

٥ – أما المقالات التاريخية المعاصرة للبحث والتي اعتمدت عليها فيأتي في مقدمتها ثلاثة مقالات : الأول، أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة لمحمد روحي الخالدي، والثاني، السر المصون في شيعة الفرمسون للويس شيخو . والثالث، الاسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي لمؤلف مجهول .

أ – محمد روحي الخالدي المقدسي – نائب القدس ١٩٠٨ – أسباب الأنقلاب العثماني وتركيا الفتاة (١٩٠٨) وقد تحدث الخالدي في هذا المقال عن الظروف السياسية التي أدت إلى انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨، ولما كان الكاتب معاصراً للأحداث فقد جاءت معلوماته فريدة وهامة ودقيقة، لا سيما وأنها جاءت من رجل مثقف ودبلوماسي في الوقت نفسه، باعتباره كان سفيراً للدولة العثمانية في بوردو بفرنسا ونائباً عن القدس

(١) نال أرنست رامزور على هذا البحث درجة الدكتوراه، وقد ترجمه صالح أحمد العلي من الانجليزية إلى العربية وقدم له وراجعه نقولا زياده عام ١٩٦٠ .

الشريف بعد ثورة ١٩٠٨ . وقد استطعت من خلال دراستي للمعلومات الواردة في المقال إثبات التدخل الدولي والصهيوني في تلك الثورة دون أن يشير إلى ذلك صاحب المقال ، ولكن الوقائع الواردة في طياته تثبت ذلك . بالإضافة إلى أنني استفدت من معلومات هامة أخرى في مجال البحث .

ب – لويس شيخو (١٨٥٩–١٩٢٨) ، السر المصون في شيعة الفرمسون ، (بيروت ١٩١١) ، ويعتبر هذا المقال من أهم المقالات الخاصة بدراسة الماسونية وعلاقتها بالصهيونية ودورهما في ثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩ . وقد أكد الأب لويس شيخو العلاقة الوطيدة بين مبادئ الصهيونية والماسونية بحيث اعتبرهما كمحفل أو منظمة واحدة على حد قوله . وأضاف بأن ثورة ١٩٠٨ يمكن اعتبارها من عمل ماسوني وأن من مظاهرها قوة نفوذ اليهود فيها نظراً لوجود أكثر من وزير يهودي في الحكومة الجديدة ، كما أنه كشف النقاب بأن من غايات هؤلاء اليهود استيطان فلسطين والسيطرة عليها بواسطة المنظمة الصهيونية . وقد أوضح الأب شيخو بأن أعظم خطأ ارتكبه ضباط الاتحاد والترقي الأتراك بأنهم رضوا أن يكون اليهودي الماسوني قراصوه احد أعضاء الوفد الذي حمل فتوى الخلع للسلطان عبدالحميد الثاني .

والواقع أنه كان لمقال الأب شيخو الأثر الواضح في البحث باعتباره مقالاً معاصراً وهاماً ، وقد اعتمد الكاتب على عدد من المصادر والصحف المعاصرة مثل : الأهرام والمنار ومورننغ بوست . هذا وللأب شيخو ما يقارب ٣٢ مؤلفاً منها كتاب : الخلاصة الماسونية ، بيروت ١٨٨٥ [١].

ج – كاتب مجهول : الاسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي (نهضة العرب ١٩٠٩). ويعتبر هذا المقال – مؤلفه عضو سابق في جمعية الاتحاد والترقي – من أهم المقالات المعاصرة التي تكشف بوضوح أهداف الاتحاديين من ثورتهم على السلطان عبدالحميد الثاني ، كما يكشف المقال دور الماسونية والحركة الصهيونية في ثورة عام ١٩٠٨ وحادثة خلع السلطان عام

(١) للمزيد من التفصيلات عن سيرة ومؤلفات الأب لويس شيخو . أنظر : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، جـ ٢ ، ص ١١٦٦ ، جمع وترتيب يوسف الياس سركيس ، مصر ١٩٢٨ .

١٩٠٩ وارتباط ذلك بإنشاء « مملكة اسرائيل » في فلسطين . ثم يبرز الكاتب كيف أن جيش سلانيك القادم إلى الإستانة كان في مجمله من اليهود ، نظراً لأن السلطان رفض تحقيق تطلعاتهم في فلسطين ، ويرى الكاتب أيضاً بأن الهدف لم يكن خلع السلطان عبد الحميد بل تقويض أركان وملك الدولة العثمانية الى الابد .

ويمكن القول أن هذا المقال الهام هو تعبير حي ومعاصر لجميع الملابسات التي أحاطت بحوادث ١٩٠٨ — ١٩٠٩ .

أما المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها في دراسة البحث فهي كثيرة ولكن أعرض بعضها على سبيل المثال لا الحصر ومنها :

١ — N. Azouri; Le Reveil de la Nation Arabe dans l'Asie Turque, (Paris 1905). ويعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التي تتحدث عن يقظة القومية العربية والمقترحات والمحاولات المبذولة لاستقلال الشعوب العربية في اطار الحكم العثماني، ولا تقتصر أهميته على ذلك، بل يعتبر نجيب عازوري من أوائل الباحثين الذين تنبأوا بالخطر الصهيوني وباستمرار الصراع بين الحركة العربية والحركة الصهيونية إلى أن يتم انتصار إحداها على الأخرى . وتعود أهمية الكتاب أيضاً إلى أن نجيب عازوري كان قريباً جداً من الأحداث ومعاصراً لها ، وكان على اطلاع على الأحداث الجارية في فلسطين باعتبار أنه كان موظفاً في ادارة القدس ، ما لبث أن طرد منها بعد خلاف بينه وبين السلطات التركية ، إلا أنه عاد من باريس إلى فلسطين بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨ .

٢ — N. Sokolow; History of Zionism 1600-1918, (London 1919). ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة ، كما يعتبر مؤلفه أحد الزعماء الصهيونيين الذين ساهموا مساهمة فعالة في خلق المنظمة الصهيونية والدولة اليهودية . وقد شرح فيه تاريخ الصهيونية القديم والوسيط والحديث ونشاطها لامتلاك فلسطين . وتحدث في كتاب آخر اشترك في تأليفه مع آخرين (٢) بعنوان : Zionism, Problems and Views, (London 1916) عن تطور الحركة الصهيونية والمشاكل التي واجهتها وموقف بريطانيا المؤيد للصهيونية .

---

(٢) للكتاب مقدمة هامة للزعيم الصهيوني « ماكس نوردو » (Max Nordeau) كما اشترك في التأليف جوزف كوان (Joseph Cowen) وهو أحد مرافقي هرتزل إلى الاستانة .

وقد أمدني المصدران بمعلومات مهمة عن الحركة الصهيونية ثم جهود زعيمها هرتزل للحصول على فلسطين ومفاوضاته في الاستانة مع السلطان عبدالحميد الثاني ، إلا أنه يجب ألَّا يُؤخذ بكل ما جاء فيهما من معلومات نظراً لأنهما يمثلان وجهة النظر الصهيونية البحتة .

٣ — D. Ben Gurion; The Jews in their Land, (London 1966)
ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الصهيونية المهمة جداً(١) ، ليس لأن بن غوريون كان أحد مؤسسي دولة اسرائيل ورئيساً لوزرائها فيما بعد فحسب ، بل لأنه كان مهاجراً مبكراً إلى فلسطين حيث وصلها عام ١٩٠٦ ، وهناك بدأ بنشاط مكثف لتثبيت العمل الصهيوني للسيطرة على فلسطين . وقد عرض بن غوريون في كتابه ظروف الهجرة اليهودية ومعاناة اليهود من ردود الفعل العربية ، ثم تحدث عن الوسائل التي مكنت المستعمرين من إقامة مستوطناتهم . والواقع أن المعلومات الواردة في هذا الكتاب لا تعود أهميتها إلى المصادر الأولية والوثائق فحسب ، وإنما أيضاً إلى التجارب والممارسات التي قام بها بن غوريون نفسه في فلسطين على أن هذا المرجع ليس الوحيد لبن غوريون ، ولكن رجعت إلى مرجعين آخرين هامين هما :
a) Rebirth and Destiny of Israel, (New York 1959).
b) Memoirs, (New York 1970).

والجدير بالذكر أنني رأيت خدمة للبحث العلمي أنه لا بد أيضاً من معايشة الأحداث بالاعتماد على الصحف والدوريات المعاصرة العربية والأجنبية على السواء . فقد كنت أتردد خلال فترة إعداد البحث على دور الكتب الكبرى في لبنان ومكتبات جامعة بيروت العربية والجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية ، بالإضافة إلى دار الكتب الوطنية العامة في بيروت ، وقد استطعت الحصول على مجموعة من الصحف والدوريات الصادرة في الفترة من ١٨٩٧ إلى ١٩٠٩ وقبلها وبعدها بقليل . ولكن الأمر الذي واجهني هو فقدان بعض الأعداد من هذه الصحف والدوريات ، فما هو موجود في هذه المكتبة مفقود في تلك ، الأمر الذي اضطرني إلى أن أكون دائم التنقل بين تلك المكتبات العامة لملاحقة المعلومات وترتيبها وتنسيقها من الوجهة التاريخية والعلمية حتى استطعت أخيراً الخروج بمادة يمكن اعتبارها

(١) للكتاب مقدمة هامة لسلمان شازار رئيس جمهورية اسرائيل السابق .

مادة وثائقية. ومن هذه الصحف: الأهرام، تركيا الفتاة، ثمرات الفنون، الخلافة، الكرمل، لسان الاتحاد، المنار، المقتطف، المشرق، نهضة العرب، الهلال، وعدد وفير آخر من الصحف والدوريات الأخرى بحيث وصل عددها إلى ثمانٍ وعشرين صحيفة ودورية. ويمكن الإضافة إلى ذلك إلى أنني أطلعت على مجموعة «الكونت فيليب دي طرزي» الصحفية وقد استفدت منها استفادة كبرى، على أن بعضها لم يعطني جديداً لاسيما الصحف التي كانت تكتب بخط اليد مثل مجلة «صهيون» الصادرة في بيروت عام ١٩٠٦، و «الأحلام» الصادرة في القاهرة عام ١٩٠٨ وغيرهما. ويمكن القول بأن الأعداد الناقصة من مجموعة فيليب دي طرزي الموجودة في دار الكتب الوطنية في بيروت، قد استطعت الحصول عليها من مصادر علمية خاصة.
أما أهم الصحف والموسوعات الأجنبية التي أطلعت عليها فيأتي في مقدمتها مجلة: .(Revue du Monde Musulman, (Paris 1907-1909 بمجلداتها الخمسة المعاصرة للأحداث، وهذه الدورية بأعدادها ومجلداتها موجودة كاملة في المكتبة العامة بجامعة بيروت العربية. كما اعتمدت على «الموسوعة اليهودية» (The Jewish Encyclopedia) الصادرة بالانجليزية عام ١٩٠١ في الولايات المتحدة الامريكية، ثم عدت إلى «الموسوعة اليهودية» الصادرة بالروسية في بطرسبرج بعد عام ١٩٠١، وذلك محاولة مني للمقارنة بين الموسوعتين. ونظراً لأن الموسوعة الثانية صدرت بعد الأولى بسنوات فقد أمدتني بمعلومات وافية عن موقف السلطان عبد الحميد الثاني من اليهود والحركة الصهيونية أكثر مما أمدتني به الموسوعة الصادرة بالانجليزية لاسيما وأن النسخة الروسية معتمدة في ترجمة حياة السلطان عبد الحميد على كتابات صديقه وصديق الصهيونية «ڤامبري» (Vambery) :

Theodor Herzl und Abdul-Hamid *(Ost und West* 1904).
The Story of my Struggles, 1904.

والواقع أن البحث لا تستكمل مادته العلمية ـ بنظري ـ إلا بالاعتماد على الوثائق لاسيما غير المنشور منها. ومن أجل ذلك كانت وثائق البحث تنقسم إلى قسمين: وثائق منشورة، ووثائق غير منشورة، ويأتي في مقدمة الوثائق المنشورة:

١ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني [١] (Hatira Defteri) التي

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني: (١٨٤٢ ـ ١٩١٨)، هو ابن السلطان عبد المجيد، وقد تولى الحكم في ٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٦ ـ ١٨ شعبان ١٢٩٣ هـ، إلى أن تم خلعه في ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ـ ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧ هـ.

نشرتها عام ١٩٧٤ مجلة « ترجمان » (Tercuman) التركية [١]. وبالرغم من أن هـذه المذكرات قد أمدتني بمادة غنية عن موقف السلطان في صراعه مع الدول الأجنبية ، إلا أن مجلة « ترجمان » أغفلت موقف السلطان حيال الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين ما عـدا فكرة لا تتعدى سطراً واحداً فقط ، وربما يعود ذلك إلى قلة المادة أو عدم تيسرها بالنسبة لجامع المذكرات (Ismet Bozdag) . إلا أنه لا يمكن التسليم بهذا الواقع نظراً لصدور مذكرات السلطان في كتاب بعنوان (Siyasi Hatiratim) في استانبول عام ١٩٧٤ ، وقد أمدني بمعلومات قيمة حول موقف السلطان من الاستيطان اليهودي في فلسطين ، كما أنـــه يضم معلومات حول هذا الموضوع تنشر لأول مرة .

٢ — المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ١٨٤٠ — ١٩١٠ ، وهي الوثائق التي جمعها الخازنيان — فيليب وفريد — وهي بمثابة تقارير للقناصل الأجانب في الدولة العثمانية ، ومنقولة عن الكتاب الأصفر الفرنسي والكتاب الأزرق الانجليزي ومعاهدات الباب العالي لجامعة البارون دي تستا . إلا أنه مما يؤسف له أن هذه المحررات لم ينشر منها إلا ثلاثة مجلدات لوثائق الفترة الواقعة بين ١٨٤٠—١٨٦١ ، وليس كما هو مقرر لها من قبل الخازنيان حتى عام ١٩١٠ وذلك بسبب إعدامهما على يد الدولة العثمانية عـــام ١٩١٥ . ولكن المهم في هذه المحررات أن مطلق باحث عالج القضية الفلسطينية لم يتطرق إليها لا من قريب ولا من بعيد ، رغم أنني استطعت من خلال دراستي لوثائق المجلدات الثلاثة من الكشف والعثور على وثائق هامة تتعلق بفلسطين وبالقضية الفلسطينية وموضوع بحثي ، وهي بذلك تنشر للمرة الأولى في بحث يختص بالهجـرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة وموقف الدولة العثمانية من هذه الهجرة .

٣ — A. Hyamson; The British Consulate in Jerusalem in Relation to the Jews in Palestine 1838 - 1914, 2vols. (London 1939-1941) . وتعتبر هذه المجموعة الوثائقية من أهم الوثائق المنشورة فيما يختص بالهجرة اليهودية إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها . وقـد جمعها

---

(١) أبدي أسفي لعدم تمكني من تثبيت ارقام الصفحات في الهامش فيما يختص بهذه المذكرات ، وذلك بسبب وصولها إليّ مصورة من تركيا مما حال دون ظهور ارقام الصفحات بوضوح .

« هايمسون » من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية وضمها في مجلدين ضخمين . وقد استفدت من هـذه الوثائق التي تـكمن أهميتها بأن أي باحث يتوخى دراسة القضية الفلسطينية بأسلوب علمي وثائقي فيما بين ١٨٣٨ و ١٩١٤ لا بد له من أن يعود إليها ويعتمد عليها .

أما الوثائق غير المنشورة الخاصة بالبحث ، فبالرغم من معاناتي في الحصول عليها نظراً لندرتها في الدور والمكتبات العلمية العربية ، فقد تابعت الجهد والسفر إلى بعض العواصم العربية إلى أن استطعت الحصول على بعض الوثائق العربية الهامة ، ويأتي في مقدمتها :

١ — وثائق مـديرية الوثائق التاريخية بالمتحف الوطني ببيروت : وهي مصنفة تحت أرقام عديدة وليست تحت رقم واحد . وأهميتها تـكمن في أنها تبحث في أحوال اليهود في بلاد الشام وتحكمهم ببعض النواحي الاقتصادية والمالية في عهد الدولة العثمانية لاسيما في المناطق الشامية والمصرية .

٢ — وثائق مديرية الوثائق التاريخية بدمشق : وهي غير مصنفة ، وقد عثرت فيها على بعض سندات بيع الأراضي في فلسطين وبلاد حوران في عهدي السلطانين عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد (الخامس) .

٣ — وثائق المكـتبة الظاهرية بدمشق : وهي تضم عـــدة وثائق ومخطوطات منها :

أ — محمد عارف الحسيني : أعظم المآثر السلطانية العثمانية السكة الحديدية الحجازية — الشامية [١]. وتعود أهمية هذا المخطوط إلى أنه يلقي الضوء على سياسة عبد الحميد الثاني الإسلاميــة ، ونظرة بعض الشخصيات الإسلامية إلى هذه السياسة وأهدافها .

ب — مؤلف مجهول : مخطوط سلاطين آل عثمان ، ج ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني . ويوضح فيه المؤلف سياسة عبد الحميد الثاني العسكرية والسياسية مع باقي الدول الأوروبية ، وكيفية معاملته للطوائف المقيمة في الدولة العثمانية .

---

(١) يوجد مخطوط آخر للسيد محمـد عارف الحسيني بعنوان : السعادة النامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية . وهو من مجموعة مكتبة قصر « يلدز » . حقق المخطوط ونشره بنصه العربي مع ترجمة له بالأنجليزية المؤرخ اليهودي : ;Jacob. M. Landau بعنوان :
The Hejaz Railway and The Muslim Pilgrimage (U. S. A. 1971).

ج – مؤلف مجهول : في سياسة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، وهو جزءان . وتعود أهمية هذا المخطوط بجزئيه إلى أن مؤلفه كان رحالة ومعاصراً للأحداث ، وقد وصف فيه الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في فلسطين بشكل دقيق مع ذكر بعض الاحصائيات السكانية لعدد من المدن والقرى الفلسطينية .

والواقع أن اعتمادي على وثائق عربية فحسب ، كان يعطي البحث طابعاً خاصاً كما سبق وأعطي غيره من أبحاث سواء أعربية أو أجنبية . لذا رأيت أنه لا بد من السفر إلى لندن للإطلاع على الوثائق البريطانية الموجودة في مركز الوثائق العامة (Public Record Office) ولكن من حسن حظي أنني وجدت مجموعة كبرى من هذه الوثائق مصورة على ميكروفيلم في مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ببيروت ، وهي تتضمن التقارير والمراسلات المتبادلة بين القناصل والسفراء البريطانيين من جهة وبين السفراء ووزارة الخارجية البريطانية من جهة ثانية وهي مصنفة تحت الأرقام التالية :

F.O. 78.
F.O. 195.
F.O. 371.

وقد كان لهذه الوثائق – التي تنشر لأول مرة – دورٌ بارزٌ في اعداد هذا البحث لما لها من أهمية بالغة فيما يختص بموقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين(١) .

لقد حاولت في هذا البحث أن أوضح السياسة العثمانية حيال فلسطين وما ترتب على هذه السياسة من نتائج في الفترة ١٨٩٧ – ١٩٠٩ معتمداً الأسلوب العلمي الوثائقي ومتجنباً الأسلوب العاطفي الذي لا يخدم قضية العلم ولا قضية فلسطين . ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أشكر كل من أعانني على اخراج هذا البحث المتواضع ، وأخص بالذكر موظفي دور الوثائق والمتاحف والمكتبات الجامعية ومركز الأبحاث ومؤسسة الدراسات

(١) لا بد من الاشارة إلى أن بعض الوثائق البريطانية سترد بدون ترقيم ، وهذا ليس نتيجة لتقصير ، وإنما لأن هذه الوثائق اما هي برقيات غير مرقمة أو وثائق عادية لم ترقم أيضاً من قبل المصنفين .

الفلسطينية ، كما لا يسعني إلا أن أشكر الاستاذ يوسف اورالگيراي – استاذ اللغة العربية في جامعة أنقره – والاستاذ الروسي محمد رسول – استاذ اللغة الروسية بجامعة بيروت العربية – ولا بد من تقديم امتناني إلى السيد توفيق راشد الحوري الذي عرّفني بالاستاذين السابقي الذكر والذي أمدّني بمصادر هامة سهلت مهمتي في اعداد البحث . هـذا ولا بد أن أنوه بالملاحظات الدقيقة والتوجيه الصحيح والعناية الأكاديمية التي أبداها لي استاذي المشرف الدكتور عمر عبدالعزيز عمر الذي لولاه لما أضحى هذا البحث على هذا المستوى من الاعداد .

حسان حلاق

١٣/٤/١٩٧٥

الفصل الأول
الحركة الصّهيونية وارتباطها بالسّياسة الاستعماريّة

١ – اليهود والفكر الصهيوني في العصر الحديث .

٢ – الحركة الصهيونية وارتباطها بالغرب الأوروبي .

الفصل الأول
الحركة الصّهيونية وارتباطها بالسّياسة الاستعماريّة

١ – اليهود والفكر الصهيوني في العصر الحديث

لعبت ظروف أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية دوراً بارزاً في تشكيل نواة الحركة الصهيونية حيث كان يعيش عدد كبير من اليهود، على أن العوامل السياسية لم تكن بعد قد أخرجتها إلى حيز الوجود العملي، ولذلك كان لا بد من التفريق بين مرحلتين: مرحلة ما قبل عام ١٨٩٧ حين كانت الصهيونية في طور التكوين الفكري، ومرحلة ما بعد عام ١٨٩٧ عندما اتخذت الحركة الصهيونية شكلها التنظيمي، وأصبح للفكرة أداة تعمل بشكل دائب ومستمر لتحقيق غايات هذه الحركة[١].

ونظرة سريعة على التاريخ اليهودي، تعطينا فكرة عن العوامل التي خلقت اتجاهات هذا الشعب نحو غيره من الشعوب والدول التي عاش بين ظهرانيها. ففي الوقت الذي كان فيه اليهود يعاملون معاملة طيبة في ظل النظام العربي، أصدر الملك «أدوار الأول» ملك انجلترا (Edward I) مرسوماً في عام ١٢٩٠ يقضي بطرد اليهود من الأراضي البريطانية، وكان رجال الدين المسيحي يجوبون المناطق لاثارة الناس على مناهضة «الكفار اليهود». فقد رحل ما يقارب ستة عشر ألف يهودي عن البلاد، متوجهين إلى فرنسا، على أن ملكها «فيليب له بل» (Philipe Le Bell) قرر في عام ١٣٠٦ طردهم إلى اسبانيا[٢] وقد توجه عدد منهم إلى «البندقية» و «امستردام» وغيرها من المناطق الأوروبية، إلا أن الجماعات اليهودية

---

(١) عبد الوهاب الكيالي: الاطماع الصهيونية التوسعية، ص ١١.

(٢) أندره موروا: بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا – سيرة دزرائيلي – ترجمة متري نعمان ص ٩، ١٠.

شعرت بالفرق الشاسع بين معاملة الأوروبيين وبين معاملة العرب لهم سواء أفي اسبانيا [1] أو في بعض البلدان العربية ، ومن هنا فضل عدد كبير منهم الاقامة في المناطق العربية نظراً للتسامح الذي لاقوه . وما أن بدأت الحروب الصليبية ، وسيطر الصليبيون على بعض المناطق العربية حتى بدأ اضطهاد اليهود مرة أخرى على يد الصليبيين ، فحرم عليهم امتلاك الأرض وكثيراً من المهن الحرة ، ولم يترك لهم إلا التجارة الصغيرة وتسليف النقود [2]. ولذلك قل عددهم كثيراً في العهد الصليبي وتركوا مناطقهم إلى الخارج .

ومنذ بداية القرن السادس عشر، بدأ اليهود يعودون إلى المناطق العربية في اطار الحكم العثماني وبدأ يهود اسبانيا يهربون من الحكم الاسباني إلى الأمبراطورية العثمانية التي فتحت لهم أبوابها على الرحب والسعة [3]. ومن هنا نراهم يتحمسون لاحتلال العثمانيين لفلسطين ، إذ أن السيطرة العثمانية للبلاد فتحت المجال أمام الهجرة اليهودية من اسبانيا وشمال أفريقيا ، على أن الأتراك لم يشجعوا الهجرة ولا عرقلوها [4]. إنما حرصوا على معاملة اليهود معاملة حسنة . وكان أن أصدر السلطان « بايزيد الثاني » — بعدما طُرد اليهود من اسبانيا عام ١٤٩٣ — مرسوماً يقضي بحسن معاملتهم في أملاكه . وبلغ النفوذ اليهودي أوجه في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦–١٥٧٤) [5]. وذلك بسبب السماح لهم بحرية التجارة والأشتغال بالأمور الاقتصادية والمصرفية .

أما في أوروبا فقد عاش اليهود حياة انعزالية مغلقة ، وكونوا « نظام الأحياء اليهودية » المعروفة باسم (Ghetto System) ونوعاً خاصاً أيضاً من « الحارات اليهودية » (Territorial Ghetto) كان لها الأثر الواضح في احتفاظ اليهود بتقاليدهم وعاداتهم ، وعدم ذوبانهم . وكانت ممارساتهم وأوضاعهم قد ساعدتهم على نزعة الخوف من الشعوب التي يعيشون معها ، وساعدتهم بالتالي على الكره والحقد لجميع الشعوب الأوروبية الأخرى ، وتمنوا السيطرة والحكم وأوضح مثال لهذه النزعة العنصرية ما جاء في

---

(١) خضعت اسبانيا للحكم العربي في الفترة الممتدة من ٧١١ م إلى ١٤٩٢ م .

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٩٨٥ .

(٣) A. Chouraqui ; *L'Alliance Israélite Universelle*, p. 103.

(٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٨٥ .

(٥) عبدالعزيز عوض : الادارة العثمانية في ولاية سورية : ١٨٦٤ – ١٩١٤ ، ص ٣٠٧ .

أناشيدهم الدينية وخاصة ما نظمه « يهودا هاليفي » (Yehuda Halevi) (١٠٨٥—١١٤٠) وهو من أكبر شعراء اليهود في العصور الوسطى ، وقد توفي في فلسطين ، ومن أشهر قصائده التي كتبها « أناشيد صهيون »[١].

وكان اليهود — لاسيما في أوروبا الشرقية — محظوراً عليهم تولي المناصب العامة أو مزاولة بعض المهن والحرف ، إلا أن هذه القيود زالت تدريجياً[٢]. ونظراً لتردي أوضاعهم ، اعتبروا أنفسهم غرباء في البلاد التي يعيشون فيها ، إلا أن بعضاً منهم حاول التكيف مع المجتمعات الاوروبية قدر الامكان سواء بالخروج من عزلته أو عن طريق التنصر أو الادعاء بالتنصر بل بلغ الأمر ببعضهم أن ادّعى أنه المسيح المنتظر[٣]. وفي عام ١٤٨٩ أمر « لويس الثاني عشر » ملك فرنسا بنفي اليهود ، متهماً قادتهم وجماعاتهم بارتكاب الجرائم ، وخيّرهم بين النفي وبين التنصّر ، فقام «جامور» (Gamor) حاخام مدينة « أرل » باستشارة حاخامي « الاستانة » وأخبرهم عن أحوال اليهود ، والمضايقات التي تعرضوا لها ، وطلب رأيهم فيما يجب عمله ، فأرسل « مجلس الحاخامين » في الاستانة كتاباً يتضمن الأسلوب الواجب اتباعه معتبرين أن « الغاية تبرر الوسيلة » وهو المبدأ الذي اعتمدته الجماعات اليهودية لفترة طويلة سواء في أوروبا أو في الدولة العثمانية ، ورد المجلس الحاخامي « بأن ملك فرنسا يطلب بأن تعتنقوا الديانة المسيحية ، فلبوا طلبه ، إذ ليس باقتداركم مخالفته ، ولكن احفظوا على الدوام شريعة موسى في قلوبكم ،

---

(١) أديب قعوار : « الصهيونية كفكرة » ، مجلة الثقافة العربية ، العدد ٢ ، بيروت ١٩٥٨ ، ص٧.

(٢) جفري بطرس غالي : فلسطين ، ص ٨ .

(٣) برز في مختلف العصور والمناطق العديد من اليهود ممن ادّعى أنه « المسيح المنتظر » وأصبح لهم أتباع أيضاً ومن هؤلاء داوود الرائي الذي ظهر في كردستان عام ١١٦٣ وأثار الفتنة بين العرب والمسلمين ثم جهز جيشاً للقضاء على المسلمين واستعادة القدس منهم لاعلان حكومة يهودية مستقلة فيها تعيد مملكة داوود وسليمان ولكنه قتل على يد الجنود المسلمين . وكان ان ظهر قبله من اليهود ممن ادّعى النبوة كأحدهم الذي قتل في فرنسا عام ١٠٨٧ وآخر في قرطبة عام ١١١٧ وثالث في فاس بالمغرب عام ١١٢٧ ، إلا أن أهم يهودي ادّعى أنه المسيح المنتظر هو شبتاي زيفي (١٦٢٦ – ١٦٧٥) الذي عاش في تركيا وأحدث فتناً وقلاقل بين الأتراك ، وكاد السلطان محمد الرابع أن يعدمه ، ولكنه أسلم متظاهراً وبقي على يهوديته سراً إلى أن كشف أمره فنفي إلى ألبانيا حيث توفي هناك ودفن في مدافن المسلمين الأتراك . حول هذه المعلومات أنظر : حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي — أطواره ومذاهبه ، ص ١٣٥ – ١٥١ .

وتقولون بأنهم يقصدون الإستيلاء على أموالـكم ، فاجعلوا ابناءكم تجاراً ، فبواسطة التجارة تسترجعون مالـكم وتضيفون عليه مالهم . تؤكدون لنا بأنهم يهدمون مجامعكم وكنائسكم ، فابذلوا الجهـد لأن يصير أولادكم كهنة وأكليريكيين . وهكذا يتسنى لـكم أن تهدموا كنائسهم ... »[١] والواقع أن يهود أوروبا اتبعوا هـذه الأساليب ، للمحافظة على وجودهم ، وهذا يسوقنا للمقارنة بين هذه الجماعة اليهودية وبين يهود « سلانيك »[٢] « الدونمة » الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً ، وتمسكوا باليهودية جوهراً[٣] .

وهناك أساليب أخرى إتبعها اليهود لتحقيق غاياتهم وأهدافهم ، ففي عام ١٨٦٩ ألقى الحاخام « رايخون » (Raichon) خطاباً في مقبرة اليهود بمدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا تأبيناً لكبير الحاخامين « سيمئون بن يهودا » (Simeon BenYehuda) عدد فيه الأساليب الواجب اتباعها على بني قومه ومنها ضرورة السيطرة على القوة المالية والذهب لأن « عن طريقه تستطيعون التحكم في الدول التي تطلب القروض المالية » ، وأنه من الواجب السيطرة على وسائل النشر كالصحف والمجلات والكتب « وعلينا أن نختفي تحت شعار العدالة والمساواة ... سيغتبط الفلاحون بهذا الشعار ... » وعندما يقعون في عجز مالي سيضطرون إلى الاستدانة لمتابعة أعمالهم الزراعية . وسيؤدي هذا إلى ارتمائهم في أحضان الرساميل اليهودية. « هذا وسنقوم في الوقت المناسب بانقلابات ستهدم الطبقات والأسر غـير اليهودية . وعند ذلك يكون وعد « يهوا » للشعب اليهودي قد تحقق »[٤].

ولما كانت أوروبا مركزاً للأستيطان اليهودي ، فقد نشأت هذه الأفكار في أوساطها ، وكان اليهود — بالفعل — يهتمون بالأمور المالية ، فتجمعوا

---

(١) حبيب فارس : صراخ البري في بوق الحرية ، القاهرة، ١٨٩٠ – ١٨٩١ ، ص٣٥٢، ٣٥٣، مخطوط بدار الكتب الوطنية ببيروت تحت رقم ٦٥٢ .

(٢) تكتب وتلفظ كلمة « سلانيك » (Selânik) بالتركية على هذا النحو ، بينما تكتب وتلفظ في اللغات الأوروبية (Salonique) بينما تستعمل في العربية على النحوين السابقين « سلانيك » و « سالونيك » .

(٣) « الدونمة » كلمة تركية تعني « المرتدين » ومشتقة من تركيبين « دو » أي اثنين وهي فارسية الأصل و « نمة » بمعنى نوع وهي الطائفة القائمة على نوعين من الأصول ، النوع اليهودي والنوع الإسلامي . وهـذه الطائفة هي من اتباع شبتاي زيفي وسنتحدث بالتفصيل عن دور هذه الطائفة في الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ – ١٩٠٩ في الفصل الخامس من البحث .

(٤) ضياء أويغور : جذور الصهيونية ، ترجمة ابراهيم الداقوقي ، ص ١٢٢ – ١٢٥ .

حول نواة تجارية مالية ، تؤلف طوائف انعزالية وقد خلق موقع الطوائف الاقتصادي ، والتعصب الديني في كثير من الأحيان ظروف الاضطهاد ، رغم أن الاضطهاد لم يكن قاصراً على اليهود وحدهم إلا أنه كان أمراً واقعاً[١]. وقد ساعد تطور النظام الرأسمالي في أوروبا على إظهار اليهود كعامل منافس للرأسمالية الغربية ، بعد أن تمكنوا من تشكيل قوة مالية أثرت في الاقتصاد الأوروبي . وفي هذه الفترة أطلق على اضطهاد اليهود عبارة « اللاسامية » (Anti-Semitism) ، ولما لم يكن هناك شعوب سامية في أوروبا سوى اليهود ، أصبح هذا التعبير يعنى مباشرة اضطهاد ومعاداة اليهود ، بحيث عرف أيضاً بتعبير آخر هو «اللايهودية» (Anti-Juive) .

وكانت مشكلة الاندماج والانصهار تثار بين حين وآخر في أوروبا ، فعارضت فئات يهودية هذا الاتجاه للحفاظ على العرق « اليهودي » على الرغم من أن الظروف السياسية المستجدة في أوروبا لا سيما بعد قيام الثورة الفرنسية ، وحروب نابليون وظهور النهضة القومية ، وصدور قوانين تضمن حقوق الأقليات ، كل ذلك جعل فئات يهودية مثقفة ذات ميول متفتحة تطالب بتحرير اليهود وتنمية المفاهيم الحديثة بينهم والعمل للاندماج وكسر جدران « الجيتو » ، والتفاعل مع المجتمعات الأوروبية . وقد نجحت هذه الدعوة بين عدد من اليهود ، بينما لاقت معارضة من فئات يهودية ذات ميول دينية متزمتة ، بحجة أن عدم الاندماج هو الميزة والرد الوحيد لمقاومة « اللاسامية » ، وجاءت الحركة الصهيونية لتشجع هذه الاتجاهات وتغذيها من أجل تحقيق « الدولة اليهودية » (Der Judenstaat) .

والواقع أن اليهود تمتعوا بمساواة في ظل القوانين الفرنسية بعد قيام الثورة الفرنسية . وما ان جاء عام ١٨٤٨ حتى انتخب « ليونيل روتشيلد » (L. Rothschild) [٢] لعضوية مجلس النواب ، ولم يكن هو أول يهودي

---

(١) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ ، ص ١٥ .

(٢) تعتبر أسرة « روتشيلد » من أهم الأسر اليهودية التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ اليهود والحركة الصهيونية ، ويعتبر اليهودي « أمشيل ماير » (Amschel Mayer) المعروف باسم « روتشيلد الأول » (١٧٤٣ – ١٨١٢) مؤسس هذه الأسرة . وقد عاش مع زوجته « غوتاشنابير » (Gutta-Schnapper) في فرنكفورت جنوب ألمانيا في الشارع اليهودي (Judengasse) وكانا يمارسان البيع على الرصيف وفي منزلها الخشبي ، حيث يجد الانسان كل أنواع الأدوات المستعملة معروضة للبيع وقد وضع فيه « درع أحمر» سمي بالألمانية (Rothschild). ولهذا =

يصل إلى مناصب مهمة في فرنسا أو أوروبا ، فقد كان المسيو « كريميه » (Adolphe Crémieux) نائباً يهودياً في مجلس النواب الفرنسي ، وهو الذي لعب دوراً هاماً في توجيه السياسة الفرنسية أبان الحكم المصري لبلاد الشام حيث أوعز لحكومته التدخل عسكرياً في لبنان ، وتدخل هو شخصياً لصالح اليهود في سوريا وفلسطين أكثر من مرة .

ويذكر المؤرخ اليهودي « اسحق دويتشر » : « أن تلك المساواة القانونية سارت يداً بيد مع الاستيعاب المتنامي للطائفة اليهودية ، لأنه حتى تلك الفئات التي احتفظت بدينها ووعيها اليهودي ، استوعبت من خلال تبنيها لغات البلدان التي عاشت فيها ، واكتسابها للمظهر الخارجي لمواطنيها . أما في شرقي أوروبا فقد عاشت كتلة ضخمة من اليهود ، ملايين منهم ، في جماعات متلاحمة محكمة الأواصر منفصلة عن محيطها غير اليهودي[١] على أنهم لم يلزموا عنوة بأحيائهم[٢] لأن القوانين المفروضة لم تكن تمنع اليهودي من الانصهار مع سكان البلاد ، ولكن اليهود هم الذين فرضوا على أنفسهم « الأحياء الانعزالية » حيث يعيشون في جماعات متماسكة ، يرتدون ملابس مميزة تكملها اللحى والسوالف ، وكانوا يتحدثون لغتهم الخاصة ، وأنشأوا ثقافتهم الخاصة ، وأدبهم الخاص ، وكانت معرفتهم بالبولندية أو الروسية في كثير من الأحيان أقل من بدائية ، فقد ظل لسانهم يديشياً[٣] . وكان هذا يختلف عما حدث في بلدان غربي أوروبا ، إذ استطاعت جماعة منهم الاندماج ، واتقان لغة البلاد اتقاناً تاماً ، حتى أن « هرتزل » (Herzl) نفسه لم يكن يعرف من العبرية إلا إسمها .

ومن الأهمية بمكان القول ، أن بعض المؤرخين اليهود أمثال « شالو بارون » (Shalo Baron) يعترفون بأن اليهود أنفسهم هم سبب وجود هذه الأوضاع الخاصة بهم ، ومنها « الأحياء الخاصة » (Ghetto) ، بل أكثر من ذلك ، فان مثل هذه الأحياء تقررت في البرتغال بناء على طلب عام من اليهود ،

= اكتسب كل أبناء « أمشيل » اسم « روتشيلد » . أنظر حول هـذا الموضوع : شيريب سبيريدوفيتش : حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(١) اسحق دويتشر : دراسات في المسألة اليهودية ، ترجمة مصطفى الحسيني ، ص ٥٧ .

(٢) أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار : ١٨٩٧ – ١٩٢٢ ، ص ٣١ .

(٣) اسحق دويتشر : المرجع السابق ، ص ٥٧ .

وقد أكد الحاخامون التلموديون دائماً على ضرورة الإنفصال التام عن غير اليهود حفاظاً على التقاليد بصورة شاملة[١] متأثرين بتعاليم التلمود ، وظلت هذه المعازل عـدة قرون في ذلك التحجر ، حتى بدا أنها تشكل معزلاً واحداً[٢]. على أن نظام هذه الأحياء « الجيتو » كان كنظام « الملة » في الدولة العثمانية ، والفارق بينهما أن أوروبا لم تضع نظـام « الجيتو » ولا أقرته قانونياً ، بينما وضعت الدولة العثمانية « قوانين ملية » لتنظيم علاقات الدولة بغير المسلمين من اليهود والمسيحيين ، ومع وجود هذه التنظيمات فانها لم تقر وجود « الأحياء الخاصة » سواء لليهود أو للمسيحيين . ومن أجل ذلك أظهرت أوروبا استياءها من انطواء اليهود مما حمل الوسط المحيط بهم على احتقارهم بسبب ممارستهم طقوساً وعادات موغلة في القدم[٣]. ويذكر أن هذا الاحتقار بلغ بالأوروبيين إلى ممارسات غـــير قانونية ، ويصف « رستم باز » أوضاع جزيرة مالطة في عام ١٨٤٠ بأنه « ... لا يوجد بها يهودي أبداً ، وأن وجد يهودي ، وكانت جمعة الآلام ، يقبضوه ، ويعذبوه ويصلبوه ، ولا من يسألهم ، فلذلك تتجنبها اليهود ...[٤] ولعل من أسباب اضطهادهم في أوروبا « تعاملهم بالربا واستغلالهم للناس بشكل لا يتصوره العقل ، إذ زادت الفائدة التي فرضوها على ٦٠٠٪ »[٥].

ومن أجل ذلك ظـــل اليهود يشعرون بوجود الحواجز « النفسية » (السيكولوجية) في المجتمعات الغربية التي عاشوا فيها ، في الوقت الذي كانوا فيه يتوقون إلى المطالبة بالمنافع والخيرات دون الرغبة في الانسجام[٦]. ومما يسترعي الانتباه ، أنه بالرغم من التسامح الذي لمسه اليهود في الأمبراطورية العثمانية — وهو تسامح لم يلاقوا مثله في أية منطقة سكنوها — وبالرغم من اعطائهم حريتهم الدينية ، وتولي عـدد كبير منهم المناصب الهامة ، فأنهم أوجدوا لأنفسهم الأحياء الخاصة بهم ، لا قسراً ولا امتثالاً لقانون أو نظام وإنما بدافـع نفسي وتقليدي ، ويلاحظ أن خروجهم من عزلتهم كان في

---

(١) لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، ترجمة ابراهيم ميخائيل خوري ، ص ٧٥ .
(٢) J. Thauraud ; *L'Histoire des Juifs*, pp. 19-20.
(٣) لوران غاسبار ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .
(٤) مذكرات رستم باز : ١٨٩٧ - ١٩٠٢ ، ص ٤٥ ، حققها وعلق عليها فؤاد افرام البستاني .
(٥) J. Thauraud ; *op. cit.*, pp 29-39.
(٦) أرنولد توينبي : فلسطين جريمة ... ودفاع ، ص ٢٣ .

بمحله لترويج تجارتهم ، وفي ظروف الاستغلال الاقتصادي للمجتمع الذي يعيشون فيه . ومن هنا وجدت الكثير من « المعازل » والأحياء اليهودية في بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد وتونس وغيرها من المناطق العربية ، أطلقوا على كل حي اسم خاص يميزه عن بقية الأحياء المجاورة لأحيائهم.

والواقع أن اليهود الأوائل رسموا الطريق لصهيوني القرن التاسع عشر الذين استمدوا تعاليمهم ممن سبقهم في شتى ميادين ممارساتهم ، بالاضافة إلى أنهم استمدوا تعاليم سياسية وفكرية من قادة السياسة والاستعمار في أوروبا. ومن خلال دراستنا لبعض مفكريهم نستطيع أن نتبين الأسس التي قامت عليها الصهيونية بكافة اتجاهاتها وأساليبها وأفكارها الهادفة إلى تحويل أنظار اليهود في العالم والدول الاستعمارية إلى فلسطين ، ليرحل إليها كل معذب ومضطهد من اليهود . ومن أجل ذلك عاش اليهود ينتظرون « المخلص » (Messianism) ليعيدهم مرة أخرى إلى « أرض الميعاد » اسرائيل (١).

ونذكر بين هؤلاء المفكرين اليهود : « مندلسون » (Mendelssohn) (١٧٢٩ – ١٧٨٦) الذي ظهر في ألمانيا ، ونادى بأن اليهودية ليست عقيدة دينية فحسب ، لليهودي أن يتبعها في حياته الخاصة ولكن عليه أن يتكيف مع الشعب الذي يحيا معه ، وأن يأخذ بعاداته وتقاليده وثقافته ، وبذلك يرد عنه الاضطهاد (٢) . وبالتالي أن يتخلى عن بعض الأمور المتعلقة بالدين اليهودي مثل إباحة أكل الخنازير ، وعدم تقديس يوم السبت ، واستعمال اللغة الدارجة بدلاً من العبرية في المراسيم الدينية (٣).

ولما كانت « الدعوة المندلسونية » تهدف إلى التوفيق بين الدين اليهودي وروح العصر فقد لاقت مؤيدين بين عدد قليل من اليهود بينما لاقت معارضة كبرى لاسيما بين المتعصبين واليهود الأرثوذكس الذين اعتبروا أن اليهودية إلى جانب كونها عقيدة دينية ، فانها أيضاً ظاهرة جنسية خاصة لشعب معين وشعور معين ، وأنه يجب على اليهودي أن يؤمن بأنه من شعب يهودي ، وأن يتمسك بلغته العبرية ، وعقيدته اليهودية (٤).

---

(١) J. Parkes; *A. History of the Jewish People*, p.182.

(٢) J. Thauraud; *op. cit.*, p. 219.

(٣) الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٩٦٨ .

(٤) وليم فهمي : الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة ، ص ٢٣ ، انظر ايضاً : الموسوعة العربية، ص ١٩٨٥ .

أما الحاخام « زڤي هيرش كاليشر » (Rabbi Zvi Hirsch Kalischer) (١٧٩٥ــ١٨٧٤) فقد وضع كتاب « السعي لصهيون » (Derishat-Zion) عام ١٨٦٢ وقال : « أن خلاص اليهود لا يكون على يد مسيح منتظر وإنما عن طريق الجهد البشري اليهودي ، لتخليص أنفسهم بالمبادرة إلى بناء مجتمع يعتمد على ارتباط اليهودي بأرض يزرعها تكون بمثابة وطن قومي له ، ولا يتم ذلك إلا في فلسطين »[١]. وقد استغل «كاليشر» الفكر الديني معتمداً على تعاليم التلمود ، ورأى أن « اللاسامية » (Anti-Semitism) لا يمكن أن تختفي طالما « اننا لا نملك وطناً قومياً خاصاً بنا » . وهكذا يكون « كاليشر » قد حث على العودة إلى فلسطين عن طريق الهجرة والاستعمار وقدم حله للمشكلة اليهودية من منطلقات دينية[٢]. وقام بخطوات جادة في هذا السبيل ، فطلب من الممولين اليهود المساهمة في تكوين جمعية هدفها استعمار فلسطين ، وبالتالي تشجيع يهود شرقي أوروبا وألمانيا الهجرة إليها ، وإقامة مدارس زراعية لتدريب المهاجرين اليهود على الأعمال الزراعية التي لم يكن أكثرهم يتعاطاها ، وضرورة تكوين حرس من الشباب اليهودي لحماية المستوطنات اليهودية .

والجدير بذكره أن « كاليشر » استطاع فعلاً تأسيس « جمعية استعمار أرض اسرائيل » عام ١٨٦٤ . وقد تعاونت هذه الجمعية تعاوناً وثيقاً مع « الاليانس الإسرائيلي العالمي » (L'Alliance Israélite Universelle) ، وأقامت أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين عند مدخل مدينة يافا عام ١٨٧٠ ، وعرفت باسم « مدرسة نيتر » (Charles Netter) .

ويمكن القول ، أن مبادئ « كاليشر » أثرت في الحركة الصهيونية التي قام بها هرتزل فيما بعد ، والفرق بينهما أن دعوة « كاليشر » قامت على أسس دينية عملية ، وان كانت توصل إلى السياسة ، أما هرتزل فان دعوته ، قامت على أسس سياسية ، وان كانت اتخذت الدين وسيلة لتحقيق الأهداف الصهيونية السياسية الاستعمارية[٣] .

(١) N. Mandel; *Turks, Arabs, and Jewish Immigration into Palestine (1882 — 1914)*, p. 79.

انظر ايضاً : انيس صايغ ولطفي العابد وآخرون ؛ الفكرة الصهيونية ــ النصوص الاساسية ، ص ١٣ .

(٢) عبد الوهاب الكيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ١٦ .

(٣) يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، ص ٩٠ .

وكان « موسى هس » (Moses Hess) (١٨١٢–١٨٧٥) متأثراً بالقومية الايطالية ونجاحها في توحيد ايطاليا تأثراً كبيراً ، مما دعاه إلى تأليف كتابه « روما والقدس » (Rome and Jerusalem) عام ١٨٦٢ ، دعا فيه إلى إيجاد قومية يهودية تحرر القدس ، وتكون بداية عهد الانبثاق الجديد على غرار « المدينة الخالدة روما » ، وطالب فرنسا بإقامة مستوطنات يهودية تمتد من السويس إلى القدس ، ومن الأردن إلى البحر المتوسط ، مع احتلال شبه جزيرة سيناء (١). وأضاف « هس » : أن الشعب اليهودي حين يعي رسالته التاريخية ، ويشعر بقوميته ، ويستولي على فلسطين ، سوف يدشن ثورة الأجناس المضطهدة ضد سلطان الشعوب المستبدة (٢) ، ورأى أن اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية لا يشكل حلاً عملياً للمشكلة اليهودية ، ونادى بأن « الجنس اليهودي » من أقدم وأعرق الأجناس البشرية ، وإليه ترجع وحدة اليهود ، لأن الجنس اليهودي حفظ صفاءه عبر مئات السنين ، وعلى ذلك فيجب أن يكون اليهود أحراراً ، ولا يتحقق ذلك إلا في فلسطين « الأرض الموعودة » (٣) إلا أن كتابه « روما والقدس » لقي معارضة شديدة من جانب الاصلاحيين اليهود في ألمانيا ، ولم يهتم به الاشتراكيون مطلقاً ، حيث وصفه « ابراهام جايغر » (Abraham Gaiger) بأنه ليس ولادة عهد جديد ، بل القبر المفتوح لعهد مضى ولذلك لم يقيض لدعوة « هس » النجاح بسبب اندماج يهود المانيا في مجتمعاتهم ويضيف المؤرخ اليهودي « اسرائيل كوهين » (Israel Cohen) مبرراً عدم نجاح دعوة « هس » : بأن العوائق اللغوية حالت دون اطلاع اليهود في بلاد أخرى على كتابات « هس » (٤).

أما « بيريتز سمولنسكن » (Peretz Smolenskin) (١٨٤٢ – ١٨٨٥) فقد كان متأثراً بأفكار يهود روسيا نظراً لولادته وإقامته فيها حتى أصبح شاباً ، فهاجر إلى أوديسا عام ١٨٦١ ثم انتقل إلى ڤينا عام ١٨٦٨ ، حيث أصدر هناك مجلة شهرية بعنوان « الفجر » (Hashalar) . وقد انتقد المجتمعات اليهودية ، ودعا إلى توحيدها وضرورة تماسكها ، ليتسنى لها الهجرة

(١) I. Cohen ; *A Short History of Zionism*, p. 22.

(٢) انيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٣) J. Parkes ; *op. cit.*, p. 183. (٤) I. Cohen ; *op. cit.*, p. 22.

إلى فلسطين ، وقد عرض آراءه في عام ١٨٧٥ في كتابه « فلنبحث عن الطريق » (Let us Search our Ways) [١] ورأى أن اليهود غير متحدين ، وهذا هو سر ضعفهم وانحدارهم إلى الحضيض ، ونظرة الشعوب إليهم باحتقار ، وعاب عليهم عدم شعورهم بقوميتهم ، ثم دعا إلى الهجرة الجماعية إلى « أرض اسرائيل » (Eretz Israel) التي يمكنها أن تعيل أربعة عشر مليوناً ، وقال : « أن فكرة استيطان اليهود في أرض اسرائيل ينبغي أن تكون منذ الآن الموضوع الرئيسي للجدل والحوار بين الذين يحبون شعبهم » [٢].

واستمر «سمولنسكن» في نقده، إذ هاجم حركة «الحسكلة»(Haskalah)[٣] وقال : « أنها تقوم على فكرة شريرة فاسدة ، هدفها ليس مجرد بث المعرفة ، بل هدفها الأساسي هو اجتثاث اليهودية ... » [٤].

وفي عام ١٨٨٢، وضع د. « ليوبنسكر » — يهوذا لايب —(١٨٢١—١٨٩١) كتاب « التحرر الذاتي » (Auto-Emancipation) — نداء من يهودي روسي إلى بني قومه — بالألمانية ، ذكر فيه أن تحرر اليهود لا يتم إلا بالاعتماد على أنفسهم ، وطالب فيه بالحل القومي « للمشكلة اليهودية عن طريق خروج اليهود من البلاد التي يعيشون فيها مضطهدين إلى أي بلد دون أن يحدد فلسطين بالذات ، على أن يكون بلداً يهودياً مستقلاً ، يعيش فيه اليهود بعيدين عن الاضطهاد ، وأن يكونوا أمة واحدة تجمع بينهم لغة وعادات مشتركة » ، وذكر « بأن اليهود أينما وجدوا ينظر إليهم على أنهم غرباء ، ومن أجل ذلك كانوا يحتقرون ... وأن التحرر الحقيقي هو في خلق قومية يهودية للشعب اليهودي ليعيش هذا الشعب على أرض موحدة ومحددة » [٥] وأضاف قائلاً : « ويجب أن يكون لهم مأوى ان لم يكن لهم بلد خاص

---

(١) لسمولنسكن كتب ومقالات أخرى مثل ، كتاب : « المتجول في سبيل الحياة » (Ha-Toech Be - Dareche) ، وله مقال بعنوان ، « حان وقت الزرع » (It is Time to Plant).

(٢) ملف وثائق فلسطين ، ج ١ (٦٣٧ – ١٩٤٩) ، ص ٥٧ .

(٣) دعاة « الحسكلة » (Haskalah) هم الذين طالبوا اليهود بتقليد الشعوب التي يعيشون بينها ، وترك المبادىء والأفكار اليهودية البالية. ومن اجل ذلك وصف سمولنسكن هذا الأتجاه «بانه النتيجة الحتمية للقضاء على المشاعر التي هي اساس وحدتنا والأساس المتين لقيام اسرائيل» .

(٤) ملف وثائق فلسطين ، المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

(٥) L. Pinsker; *Auto - Emancipation*, p. 20.

بهم ...»[١] على غرار شعوب العرب والرومان ، ثم تحدى العالم أن يتجرأ بعد ذلك «على إصدار حكم يستخف بنا أو السخرية منا بانعدام الرجال العباقرة بيننا . ونحن الآن لا نزال نحيا تحت ظلم الشرور التي ابتليتمونا بها . وأن ما ينقص اليهود ليس العبقرية بل احترام النفس والإحساس بالكرامة الإنسانية التي سلبتمونا إياهـا »[٢]. ووضع « بنسكر » آراءه على الصعيد العملي وطالب بعقد مؤتمر يهودي ... هدفه شراء أرض تستوعب لاستيطان عدة ملايين من اليهود »[٣].

ونظراً لأهميـة كراس «التحرر الذاتي» فقد اعترف هرتزل بأهميته ، وذكر بأنه لم يطلع عليه إلا بعد نشر دعوته لقيام الدولة اليهودية عام ١٨٩٦ ، وأضاف ، أنه لو أطلع عليه من قبل لما كان وجد هناك مبرراً إلى نشر آرائه المشابهة في كراس الدولة اليهودية .

والجدير بالذكر ، أن بنسكر نظراً لتطلعاته اليهودية ، وحرصه على مصالح اليهود ، تزعم فيما بعد حركة « أحباء صهيون » (Chibbat Zion) ، التي شجعت على استيطان فلسطين ، وبتأييد منه تأسست في روسيا « جمعية تأييد المزارعين وأصحاب الحرف اليدوية اليهود في كل من سوريا وفلسطين » ، المعروفة بلجنة أوديسا وذلك في عام ١٨٨٧ .

وقد لعب رجال الدين اليهود دوراً مؤثراً في تكوين الفكر الصهيوني الحديث ، حيث رأى الحاخام « صموئيل إيزاكس » (Samuel Izakess) (١٨٢٥–١٩١٧) أن لليهود اسرائيلين : اسرائيل الصغرى واسرائيل الكبرى ، ولكل منهما في نظره حدود معينة جاءت في التوراة ، والدارس للإصحاح ٣٤ من سفر العدد : ١–١٢ من العهد القديم ، يعرف مدى الأطماع الصهيونية نتيجة لتأثرها بما ورد في هذه الإصحاح والهادفة إلى جعل الأراضي المقدسة حدود إسرائيل الصغرى . إلا أن « ايزاكس » لا يكتفي بالأراضي المقدسة فحسب ، بل يراها أشمل من ذلك فيرسم خريطة يدخل فيها لبنان كله ، وشمال غربي سوريا ، وقسماً من جنوب تركيا[٤] .

---

(١) A. Cohen; *Israel and the Arab World*, pp. 32-38.
انظر ايضاً L. Pinsker; *op. cit*, p. *32*

(٢) L. Pinsker; *op. cit.*, p. 25.

(٣) L. Pinsker; *op. cit.*, p. 38.

(٤) للمزيد من التفصيلات حول هـذا الموضوع انظر : أسعد رزق : إسرائيل الكبرى ، ص ٣١٨ – ٣٢٨ ، يوسف هيكل ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

أما حدود « إسرائيل الكبرى » فيأخذها « ايزاكس » من التوراة أيضاً في سفر التثنية : ١١–٢٣–٢٤ ، وهي الأراضي التي منحها إله إسرائيل لبني إسرائيل ، بشرط تطبيق الشروط والوصايا الدينية الواردة في التوراة. ولا يكتفي « ايزاكس » بحدود « إسرائيل الصغرى » المعروفة بأرض كنعان ، بل رأى أنه من الضروري أن تمتد إلى حدود « إسرائيل الكبرى » لأن « وعود الله المشروطة لا تلغى أبداً ، بل يحتفظ بها لكي تتحقق في زمن مستقبل » . وقد عثر – فيما بعد – في خزانة روتشيلد على خريطة يهودية في مدينة فرنكفورت تؤكد هذه الحقيقة ، وقد كتب عليها « مملكة إسرائيل » وهي تضم فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق حتى خليج البصرة ، ما عدا القسم الشمالي من العراق ، وسيناء والدلتا من الأراضي المصرية ، والمدينة المنورة ، وما حولها من مناطق بني قريظة وبني النضير وخيبر وغيرها من شمالي الحجاز »[١] .

وكان د. « ماكس نوردو » (Max Nordeau) (١٨٤٩–١٩٢٣) يمثل الإتجاه اليهودي والثقافة اليهودية الخالصة التي تلقاها في بودابست مركز ولادته ، وإن كان يعتبر نفسه ثائراً على التقاليد القديمة . وكان « ماكس » يتابع دراسة الطب ويمارس الكتابة في وقت واحد ، فقد أصبح في عام ١٨٧٣ مراسلاً لصحيفة نمساوية تصدر بالألمانية ، وأصدر عدداً كبيراً من المؤلفات[٢] ذاعت شهرته بواسطتها . وعندما استقر في باريس عام ١٨٨٠ حيث مارس الطب ، تعرّف هناك « بهرتزل » الذي حرص على كسب تأييده للدعوة الصهيونية ، وأصبح « ماكس » – فيما بعد – تحت تأثير هرتزل الشخصي وسيطرته ، وهو من أول المنتمين إلى الحركة الصهيونية .

والواقع أن هرتزل كان يعلق أهمية كبرى على اكتساب « نوردو » لدعوته ، إذ أن اعتناقه للصهيونية كان سيجعلها تظهر بمظهر تقدمي ويطبعها

---

(١) مذكرة عن خليج العقبة ومطامع اليهود السياسية والأقتصادية في الاقطار العربية وحوض البحر الاحمر وشرقي افريقيا ، ص ٩ ، وضع الهيئة العربية العليا لفلسطين ١٩٥٧ .

(٢) من مؤلفات « ماكس نوردو » « من الكرملين الى الحمراء » ١٨٨٠ « اكاذيب مدنيتنا التقليدية » ١٨٨٣ « مفارقات » « مرض العصر » و« انحطاط » . وقد هاجم في هذه الكتب المفاهيم التقليدية في الدين والأخلاق مما حدا بالكنيسة الكاثوليكية الى حظر بعض كتبه ومنها « اكاذيب مدنيتنا التقليدية » ، وهاجم في المؤلفات الأخرى بعض الكتاب الذين اعتبرهم منافقين .

بطابع الإستحسان ، ويساعد بالتالي على كسب تأييد المثقفين اليهود الشباب أمثال ، « برنارد لازار » و« إسرائيل زانغويل » للدعوة الجديدة[١] ، هذا، وقد لعب « نوردو » دوراً أساسياً في مسيرة الحركة الصهيونية ، حيث عُهد إليه إلقاء الخطاب الإفتتاحي في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، الذي تعمّد فيه إظهار اليهود بأنهم أُمــة تعيسة وشقية ومضطهدة ، وذلك ليستحث أعضاء المؤتمر على القيام بكل طاقاتهم من أجل حل « المسألة اليهودية » ، فقد ذكر في خطابه أنه « يتوفر عند اليهود الغربيين الخبز ، لكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ... » واعترف بأن اليهود هم الذين خلقوا « الأحياء الخاصة » بأنفسهم « فاليهودي عزل نفسه، فكان إذا لم تضعه السلطات في مكان منعزل تراه يبني لنفسه منطقة منعزلة من تلقاء نفسه ، يسكن بمفرده دون أن يتعاطى مع المسيحيين إلا في أمر العمل ... »[٢] إلا أنه اعترف بأن اوروبا حررت اليهود ، وأعطتهم حق المواطنية « ولقد أصبح عنـدهم الآن بيوت جديدة فلم يعودوا بحاجة إلى عزلتهم . أصبح لديهم الآن معارف جدد فهم غير مجبرين للعيش مع إخوانهم في الدين »[٣] . ولكنه عــاد ليؤكد بأن اللاسامية لا تزال منتشرة في أوروبا ، وأن اليهودي أينما ذهب يجد اللافتة التي كُتب عليها « ممنوع دخول اليهود » ، ورأى أنه لا بدّ من ايجاد وطن بل دولة قومية لليهود ، ومانع تنصّر اليهود واندماجهم في المجتمعات الأوروبية لأن ذلك سيخلق ــ على حد قوله ــ « مرانو » (Marrano) جديداً[٤] ، وهو أسوأ بكثير من القديم .

وكان « أحد هاعام » (Ahad Haam) (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧)[٥] ، أول مؤسس للصهيونية الثقافية والروحية ، لأنه رأى أن حلّ المشكلة اليهودية لا يتمّ بنقل اليهود من مكان إلى آخر وإنمـا يتم عن طريق الحفاظ على

---

(١) انيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون : الفكرة الصهيونية ــ النصوص الاساسية، ص١٢٩ .
(٢) أنيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠-١٣٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٤ .
(٤) كلمة « مرانو » اطلقت على يهود اسبانيا الذين اجبروا على التنصر في القرنين الرابــع عشر والخامس عشر، ولكنهم ظلوا يمارسون اليهودية سراً .
(٥) ان الاسم الأصلي « لأحد هاعام » هو « جنسبرج » (Asher Zvi Ginsberg) ونظراً لانتقاده سياسة حركة « أحباء صهيون » فقد فضل التوقيع باسم متخفٍ وهو الاسم الأول الذي يعني « واحداً من الناس » .

الروح اليهودية وتطويرها ، وتحقيق ذلك يكون بإيجاد مركز روحي ثقافي في فلسطين(١) . وقد رأى ضرورة العمل في فلسطين ببطء وعناية فائقة ، وقد أثارت أفكاره عاصفة من الخلافات التي استمرت إلى ما بعد ظهور الدعوة الهرتزلية(٢) . ولكن « أحد هاعام » لم يمانع في بقاء اليهود في أوطانهم الأصلية ، على أن يكونوا مواطنين مخلصين موالين للحكومات والشعب ، وأن يسلكوا طريقاً مستقيماً في تعاملهم مع هؤلاء المواطنين ، ويحافظوا في الوقت ذاته على روحهم اليهودية ، ويهاجر من استطاع منهم إلى الأراضي المقدسة لينهل من الروح الثقافية اليهودية من ينابيعها الأولى ، وبذا كانت صهيونيته تطوراً للصهيونية الدينية التقليدية .

وكان « أحد هاعام » قد انضم إلى حركة « أحباء صهيون » عام ١٨٨٦ ، لكنه ما لبث أن انتقد سياسة الحركة في مقالات وقعها باسم « واحد من الناس » ونشرت في مجلة « هاميليتز » (Hamilitz) عام ١٨٨٩ بعنوان « ليس هذا هو الطريق » . وكان من نتيجة مقالته الأولى أن تأسست جمعية سرية داخل حركة « أحباء صهيون » ، عُرفت باسم « بني موسى » (Beni - Moshe) ، حيث أصبح « أحد هاعام » رئيسها الأول ، وقاد من خلالها اتجاه الصهيونيين الروحيين الثقافيين ، ولكنها انحلت بعد تأسيس المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٧ . ويمكن القول أن « أحد هاعام » من الصهيونيين القلائل الذين تنبأوا بقيام معارضة وردود فعل عربية للهجرة اليهودية إلى فلسطين(٣) .

ومن الأهمية بمكان القول ، إن قادة الفكر الصهيوني الحديث ، كان لهم أهمية بالغة في نشأة الحركة الصهيونية ، واهتمام دول العالم بها باعتبارها حركة يمكن استغلالها للمصالح الاستعمارية ، كما كان لهؤلاء المفكرين الدور الأول في ايقاظ الفكر اليهودي وشده نحو فلسطين(٤) .

---

(١) يوسف هيكل ، المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٢) أنيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .
(٣) سنتحدث عن نماذج مفصلة لكتابات « أحد هاعام » فيما يختص بردود الفعل العربية في الفصل الرابع من البحث .
(٤) للمزيد من التفصيلات الوافية حول كتابات وجهود المفكرين الصهيونيين ، أنظر الدراسة الخاصة بجميع المفكرين الصهيونيين في : أنيس صايغ ولطفي العابد وآخرون: الفكرة =

-الحركة الصهيونية وارتباطها بالغرب الأوروبي:

كانت بلاد الشام تتعرض لاستعمار اقتصادي، وتسرب الأموال الأوروبية إليها، لا سيما الفرنسية والبريطانية والألمانية، وكان سياسيو واقتصاديو الدول الأوروبية قد استغلوا حركة الاستغراب - أي الأخذ من الثقافة الأوروبية - التي قام بها والي مصر محمد علي باشا، وزاد هذا الاستغلال بعد صلح باريس عام ١٨٥٦، حين تأسست المصارف والبيوتات المالية في مدن الشام الرئيسية. وشهدت بلاد الشام سيلاً هائلاً من بعثات التبشير والبعثات المستغلة لحركة التبشير، وقد لعبت هذه البعثات دوراً سياسياً أكثر منه دينياً. وكان ذلك مظهراً من مظاهر التنافس الدولي على المنطقة يتخذ حيناً شكل الدين، وحيناً آخر شكل المساعدة، ولكن جوهر المنافسة كان عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، حتى اضطرت البعثات الأمريكية والإنجليزية إلى إبرام اتفاق بينها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - ١٨٥١ - لاقتسام مناطق العمل، فتخصص الإنجليز في فلسطين، بينما ركز الأمريكيون جهودهم على لبنان. والواقع أن صلح باريس عام ١٨٥٦ كان فاتحة لتحويل الدولة العثمانية وممتلكاتها العربية إلى شبه مستعمرة للرأسمال الأجنبي(١).

واتجهت أنظار الدول الاستعمارية إلى فلسطين، لاستغلال تطلعات اليهود إليها باعتبارها المنطقة التي يفضلون إقامة وطن لهم فيها. فمنذ أواخر القرن الثامن عشر سعت فرنسا إلى إيجاد ملجأ لليهود، وخصوصاً عندما أصدر حكام فرنسا عام ١٧٩١ قوانين تنص على مساواة اليهود بالفرنسيين أمام القانون، ليس في فرنسا فحسب، بل في كل المناطق التي تسيطر عليها الجيوش البونابرتية(٢). وفي عام ١٧٩٨ وجه خطاب إلى يهود فرنسا غُفل من التوقيع، اقترح فيه صاحبه إنشاء مجلس يهودي من

= الصهيونية - النصوص الأساسية.

أنظر أيضاً: J. Soustelle; *La longue Marche d'Israël*, pp. 22-25.

(١) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص ٣٧٤، ٣٧٥. أنظر أيضاً:

A. Rappoport; *History of Palestine*, p. 322.

هاني الهندي: حول الصهيونية واسرائيل، ص ٣٦.

عادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٣، ص ٧٤.

(٢) B. Lazard; *L'Antisémitisme*, pp. 199,202.

كل يهود العالم ، يسعى لدى الحكومة الفرنسية من أجل ايجاد ذلك « الملجأ » والمطالبة بإعادة « الدولة اليهودية » إلى « شعبها التقليدي » . وقال هـذا المنشور : « إن البلاد التي نطالب بأن نحتلها ستضم – وهذا مرهون بتلك الإتفاقات التي تراهـا فرنسا مقبولة – مصر السفلى بإضافة منطقة تكون حدودها خطاً يجري من عكا إلى البحر الميت ، ومن الطرف الجنوبي لهذه البحيرة حتى البحر الأحمر » . ويعلّق « جفريز » (Jeffries) على هذا المنشور بقوله : « ثم تابع الكاتب خطابه إلى تبيـــان الفوائد الإقتصادية بالنسبة للجميع من وراء هذا الاحتلال الذي عرضه بكل هدوء وبلا حياء »[١] . وأضاف موجـه الخطاب قوله لليهود : « يجب أن لا تدخروا وسيلة أو تضحية في سبيل الوصول إلى هذه الغاية – أي الرجوع إلى بلادنا – حيث يمكن أن نعيش في ظل شرائعنا الخاصة »[٢] .

وفي عام ١٧٩٩ وجه الحاخام الأكبر للقدس « آرون ليفي » نداءً إلى اليهود « لإعادة بناء أسوار المدينة اليتيمة – القدس – وبناء معبد الرب » . وحثّ اليهود على القدوم إلى فلسطين بقوله : « ليجتمع كل رجال الشعب اليهودي القادرين على حمل السلاح وليأتوا إلى فلسطين »[٣] . ورأى اليهود بابتعادهم عن القدس صوراً مؤلمة لهـــذه المدينة المقدسة ، وكانت المحافل الماسونية تشجع الإتجاهات القاضية بإعادة القدس ، وكانوا يلقبون أنفسهم بأبناء الأرملة – القدس – A moi les fils de la veuve[٤] .

وكان حافز اليهود على تلك الدعوات ، النداء الذي وجهه نابليون إليهم حين طلب مساعدتهم لاحتلال فلسطين عن طريق القوة العسكرية . ويذكر أن هذا النداء لإعـــادة تأسيس القدس القديمة للورثة الشرعيين لفلسطين هو الأول من نوعه في عصر ما بعد النهضة الأوروبية[٥] . لا سيما وأن فرنسا كانت بحاجة ماسة إلى التمويل اليهودي فقد كان آل روتشيلد في مقدمة الممولين لجيش نابليون[٦] . وقد تضمن نداء نابليون في ٤ نيسان

---

(١) جفريز : فلسطين ، إليكم الحقيقة ، ص ٧٨ ، ترجمة أحمد خليل الحاج .
(٢) إيلي ليفي أبوعسل : يقظة العالم اليهودي ، ص ١٠١ ، ١٠٢ وما بعدهما .
(٣) ابراهيم العابد : العنف والسلام ، دراسة في الاستراتيجية الصهيونية ، ص ٧ .
(٤) E. Drumont; *La France Juive*, T. II, pp. 319-329.
(٥) عبد الوهاب الكيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ١٢ ، ١٣ .
(٦) شاهين مكاريوس : تاريخ الاسرائيليين ، ص ١٨٥ .

(إبريل) عام ١٧٩٩ ما يلي : « إن العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا ... جعلت من القدس مقري العام ، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها بلد داوود » . وتابع نابليون نداءه إلى « ورثة فلسطين الشرعيين » ، وطلب منهم « لا العمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب ... بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمة لتحفظونها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين » . ثم طلب منهم النهوض للدلالة على « أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً في سبيل تثبيط همة أبناء هؤلاء الأبطال التي كانت محالفة إخوانهم تشرّف اسبرطة وروما »(١) . وتذكر بعض المصادر الصهيونية بأن نابليون كان يهدف إلى كسب تأييد حايم فارحي اليهودي صاحب النفوذ المالي والتمويني لمدينة عكا(٢) . وتنفي مصادر اخرى استجابة اليهود لنداء نابليون ذلك أن يهود الدولة العثمانية لم يهتموا بدعوة نابليون وظلوا موالين للحكم العثماني(٣) . بدليل أن بعض الموظفين أمثال « شالوم فارحي » ظلوا موالين للجزار حاكم عكا ، بالرغم من محاولة نابليون كسبه إلى جانبه(٤) .

والواقع أن السبب في موقف اليهود من نداء نابليون ، كان حرصهم على تجنب إثارة ولاة وحكام المنطقة ، ونظراً لأن نفوذهم الاقتصادي قد أوصلهم إلى مراتب سياسية هامة ، لذلك تريثوا في الإستجابة فوراً للنداء ، على الرغم من أن أهدافهم في فلسطين تتوافق إلى حدٍ كبير مع نداء وسياسة نابليون . ومن أجل ذلك رأينا التعاون العسكري الفرنسي ــ اليهودي في سبيل إعادة فلسطين ذلك أن الحصول على الدعم اليهودي للفرنسيين في الشرق ... بتأسيس كومنولث يهودي في فلسطين شكّل جزءً من الخطط السرية لحكومة الإدارة عام ١٧٩٨ ... وأنه في الوقت الذي كان فيه نابليون يقوم بمحاولته الجريئة لبناء امبراطورية شرقية وضرب المصالح البريطانية ، وجّه نداءً يطلب فيه من اليهود في آسيا

---

(١) عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية في الواقع العربي ، ص ٢٤ ، أنظر أيضاً : إيلي ليفي أبوعسل ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) N, Sokolow; *History of Zionism*, vol. I, p.50.

(٣) *Esco Foundation for Palestine*, vol. I, p. 2.

(٤) A. Rappoport; *op. cit.*, p. 318.

وأفريقيا الالتفاف حول رايته من أجل إعادة مملكة القدس القديمة[1]. وقد « جنَّد في جيشه عدداً كبيراً منهم وها هي كتائبهم تهـدّد مدينة حلب »[2].

والواقع أن جريدة « المونتير » الناطقـة باسم الحكومة الفرنسية هي التي كشفت هذا المشروع الفرنسي ـ الصهيوني في عددها بتاريخ ٢٢ أيار (مايو) عام ١٧٩٩ ، ولكنها ذهبت بعـد أسابيع إلى تبرئة نفسها من مسؤولية نشر رسالة نابليون لأسباب ظلت مجهولة ، ثم أوضحت « أن بونابرت لم يفتح سوريا لمجرد أن يعيد لليهود مدينتهم القدس ، إن في رأسه خططاً أوسع من هذا ، خططاً في الزحف منها على القسطنطينية ، وإلقاء الرعب في قلب ڤيينا وسانت بطرسبرج » . ولعل السبب في هذا التراجع ، أن ما نشر في « المونتيز » أثار استياءً في أوساط الشعب الفرنسي ، وقلل من حماسته للحملة الفرنسية في الشرق . هذا ويرجح « جفريز » أن الأسباب التي دعت الصحيفة إلى التراجع عما أوردته تتمثل فيما يلي :

١ ـ إن نشر معلومات هدفها إعـــادة القدس إلى اليهود لا يعطي المعطيات والمبررات للشعب الفرنسي خاصـــة والأوروبي عامة ، إذ أن تكوين حملة فرنسية لهذه الغاية سيكون مصيرها الفشل ، بالإضافة إلى ضآلة الحماسة بين صفوف الجيش الفرنسي وقادته .

٢ ـ لم ينف تراجع الجريدة عما أوردته فكرة الزحف على القـدس حينما تقول : « إن في رأسه خططاً أوسع من هذا ، خططاً في الزحف منها على القسطنطينية » . وبهذا يرضي نابليون اليهود ، ويُعطي الحملة زخماً أقوى حينما يُصرح بأن الزحف سيكون على القسطنطينية والنمسا[3] .

هذا ويؤكد المؤرخ اليهودي « ايلي ليڤي أبو عسل » ، بأن علماء التاريخ من فرنسيين وإسرائيليين أجمعوا من عهد بعيد على التسليم « بأن فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين لتجديد إنشائها ، كانت في طليعـة المرامي والمشاريع الاجتماعية السامية التي كانت تجول في مخيلة نابليون الوقادة ، ويطمح إلى تحقيقها حيال المسألة الشرقية ... وكان هذا العبقري ... يتوق وجداً إلى

(١) L. Wolf; *Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question*, p. 104.
(٢) جفريز ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .
(٣) جفريز ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

بلوغ هذا المأرب لاستمالة قلوب اليهود إليه ، واكتساب ودهم إذا قدر له الحظ ... وأن النداء الذي وجهه نابليون فلا اعتراض أنه لا يتنافى مع آراء حكومته ولا نزاع في موافقتها له ... »[١] .

والواقع أن مشروع نابليون تلاشى بعد معارك عكا وأبي قير ، ولكن يلاحظ من خلال التعاون الفرنسي اليهودي أنه قبل ميلاد الحركة الصهيونية العالمية بفترة طويلة وضح الارتباط الوثيق بين أي وجود فعلي لليهود في فلسطين وبين اللجوء إلى السلاح[٢]. وقد عرف قادة الصهيونية[٣] ضرورة اللجوء إلى هذه الأساليب ، مع استعمال المال والرشوة ، وضرورة قوة عالمية لتحقيق أهدافهم ، فبعد هزيمة فرنسا في المنطقة على يد الانجليز في أوائل القرن التاسع عشر ، تخلت عن تبني الحلم اليهودي ، وكان توّسع محمد علي في سوريا بداية لقاء بين المصالح البريطانية في الشرق وتوطين اليهود في فلسطين[٤] .

ومن الأهميــة بمكان القول ، أن بريطانيا كانت تهتم بضرورة تأمين مواصلاتها إلى الهند عن طريق استمرار نفوذها في بلاد الشام ، لذا اقتضت مصالحها الإستعمارية ، ايجاد شعب بديل في فلسطين ، يتوافق وجوده مع مصالحها ، وقد ظهرت نداءات يهودية في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، تطالب بالعودة إلى فلسطين ، كالنداء الصادر عن (James Bicheno) في كتاب « إرجاع اليهود -- أزمة جميع الأمم » الصادر عام ١٨٠٠ حيث طالب البريطانيين باستخدام نفوذهم « لدى الباب العالي كي يتخلى الأتراك عن ذلك الجزء من ممالكهم الذي طرد منه اليهود ، ويعيدونه إلى أصحابه الشرعيين ، وبذلك يؤدي عملاً لا مثيل له في سماحة النفس ... »[٥] وبدأت الفكرة تخرج إلى حيز الوجود ، حينما عُقد في أوائل القرن التاسع عشر اجتماعاً يهودياً في بريطانيا بدعوة من حاخام لنــدن وموسى مونتفيوري[٦] حيث جمعا فيه ما يقرب من ١٣٠

---

(١) إيلي ليفي أبوعسل ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .
(٢) ابراهيم العابد ، المرجع السابق ، ص ٧ .
(٣) أمثال كلاتزكن وهرتزل وبيرود يشفسكي وغيرهم .
(٤) د . خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه: ١٩٠٨ – ١٩١٨ ، ص ١٢ .
(٥) ملف وثائق فلسطين ، جـ ١ ، ص ٤١ .
(٦) «موسى مونتفيوري» (Moses Montefiore) يهودي بريطاني حرص على خدمة اليهود في =

الف جنيه استرليني لتنفيذ مشروع عودة اليهود إلى فلسطين.

وفي أثناء الحكم المصري لفلسطين اتخذت « المسألة الفلسطينية » طابعاً دولياً، وبدأت المشاورات الدولية حول مصير فلسطين، وهل من الأفضل إبقاءها في أيدي المصريين، أو إعادتها إلى العثمانيين، أو إقامة دولة مستقلة خاصة؟ وفي ظل هذه الظروف الدولية، اكتسبت فكرة إقامة « دولة إسرائيل » تأييد كثير من السياسيين البريطانيين وكثير من اليهود، وقد روّج لهذه الفكرة أحد سكان أُورشليم وهو الراب « يهودا حاي القلعي » الذي نشر مؤلفات عبرية بهذا الصدد متأثراً بتحرر اليونان آنذاك[١]. ومن هنا بدأ « مشروع مونتفيوري » (Montefiore Project) لانقاذ اليهود من الاضطهاد في بلدان شرقي اوروبا وروسيا، على أمل استعمار فلسطين وتوطين « بضعة آلاف من إخوتنا في أرض إسرائيل »، وبدأ ببناء أول حي للسكن خارج أسوار مدينة القدس، واقتنى بالقرب من يافا « بيّارة » جعلها لتدريب اليهود على الزراعة أُقيم عليها — فيما بعد — « حي مونتفيوري » ولكن « مشروع مونتفيوري » لم يكن مقتصراً على منطقة ضيقة في فلسطين، بل تمنّى الحصول على مساحات شاسعة لاستيعاب المهاجرين اليهود. ولما « كان السير « موسى مونتفيوري » في طليعة المبشرين والمتكهنين بزوغ شمس الصهيونية، وكان أعظم رجل وقف حياته على خدمة انكلترا واليهودية ... »[٢]، سعى مع بريطانيا وبعض الحاخامين أمثال « إبراهام شوشنة » و « صموئيل عبو » لإقناع محمد علي باشا — التي كانت فلسطين تحت سيطرته في الفترة الممتدة من ١٨٣١ إلى ١٨٤١ — بتحقيق مشروعه وشراء أو استئجار أراضٍ في فلسطين لمدة خمسين سنة، إلا أن محاولة « مونتفيوري » باءت بالفشل، بينما يذكر مؤلف « يقظة العالم اليهودي » بأن السير « مونتفيوري » وسّط لهذه الغاية وزير الخارجية البريطاني « بامستون » (Palmerston)، لإقناع محمد علي، وعلى حد زعمه، بأن اللقاء تمّ في مصر بين « مونتفيوري »

= العالم، وسعى مع السياسة البريطانية على إقامة دولة يهودية في فلسطين منذ أوائل القرن التاسع عشر، وواصل نشاطه لهذه الغاية في عهد حكم محمد علي لبلاد الشام، وقام بجهود مضنية من أجل إنجاح المستوطنات الأولى التي أقامها لليهود في فلسطين، وتدخل في حوادث القتل والفتن التي أرتكبها اليهود في سوريا وفلسطين بين أعوام ١٨٤٠ — ١٨٦٠ لتبرئتهم منها.

(١) بولاك: اسرائيل أمة وتاريخها، ص ١٣٨، ترجمة، رسمي بيادسه، تحرير، إلياهو أغاسي.

(٢) إيلي ليفي أبوعسل، المصدر السابق، ص ١٣٧.

والوالي المصري ، وكان من نتيجته « الترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سوريا ، ويرغب السلطان أن يمنحها لهم بمجرد طلبهم » . ويضيف « ايلي ليڤي أبو عسل » بأن محمد علي قال للسير أنه « يمكنكم والحالة هذه أن تنتخبوا حكاماً يقع اختياركم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها ، وإنني لا أدخر وسعاً في سبيل معاونتكم وشد أزركم في ايجاز هذا المشروع الحميد المفيد »[١] . ويضيف « أبو عسل » متأثراً ، بأن تراجع محمد علي عن سوريا وخاصة بعد معركة نصيبين[٢] ، أدى إلى فشل المشروع اليهودي « وسحقاً لهذا الزمن الغاشم فقد أصابت هذه الضربة كبد المشروعات التي كان يكدُّ مونتفيوري في إنجازها ، فصارعتها وقطّعت أوصالها تقطيعاً »[٣] .

والواقع أن تراجع محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا عن فلسطين ، لم يكن سبباً لإفشال ذلك المشروع ، لأنه لم يتم اتفاق بشأنه كما يزعم « أبو عسل » وهذا ما يؤكده « مونتفيوري » نفسه في مذكراته حيث يقول : « عبثاً حاولت أن أُقنع إبراهيم باشا وأباه محمد علي أن يؤجراني أرضاً مساحتها خمسون فداناً ومئتي قرية من قرى فلسطين لخمسين عاماً »[٤] . كما تؤكد الوثائق المعاصرة للحكم المصري موقف محمد علي من اليهود وتفاعله مع أهل فلسطين وتلبية مطالبهم على الرغم من أن اليهود كانوا دائماً يتقربون من الوالي المصري لتنفيذ أغراضهم مدعين بأنه « ليس لهم استناد على أحد

---

(١) إيلي ليڤي أبوعسل ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) معركة نصيبين (نزيب): وقعت بين الجيش المصري والجيش العثماني في ٢٤ حزيران(يونيه) ١٨٣٩ — ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ. انظر حول هذا الموضوع : محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٣٦ . (مصر، الطبعة الأولى ١٨٩٣ ، الطبعة الثانية ١٩١٢ ، الثالثة، بيروت ١٩٧٧). هذا وكان محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري، توفي في سويسرا عام ١٩١٩ حيث كان يسعى مع فتحي باشا زغلول للحصول على استقلال مصر . ومن مؤلفاته الأخرى : ١ — البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية ، بولاق ١٣٠٨هـ. ٢— تاريخ الرومانيين، ج ١، مصر ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م. ٣— رحلة محمد فريد بك ١٩٠١ — ١٩٠٤ للمزيد من التفصيلات ، أنظر : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ج ٢ ، ص ١٦٨٥ ، ١٦٨٦ .

(٣) إيلي ليڤي أبوعسل ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٤) جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة ، ص ٨٠ . أنظر أيضاً : عارف العارف : تاريخ القدس ص ١١٦ .

وما لهم إلا مراحم وشفقة هذه الدولة المصرية ...»[١] . وبالفعل فإنه من الناحية الدينية لاقى اليهود والنصارى من الحكم المصري حرية وعدلاً ومساواة ، وهذا ما أكده النائب الإسرائيلي المسيو « كريميه » في خطاب له في البرلمان الفرنسي . فبعد مقابلته لمحمد علي الذي أكد له بأنه « أنا وأولادي لنا في الأديان المخالفة ديانتنا آراء ومذاهب ، خاصة ولي الأمل بأنها تستمر حية في أُسرتي . فنحن لا نتدخل في أُمور الغير ، بل كلٌّ يمارس ديانته حسبما يراه موافقاً ، ونتجنب كل تدخل لئلا نعكّر كأس الأمن العامة ، فنحن ننصب ميزان المساواة بين الجميع ... »[٢] ، ولكن والي مصر كان حريصاً على الإستجابة لمطالب الفلسطينيين فيما يتعلق بعلاقتهم مع اليهود ، ففي ٧ نيسان (إبريل) عام ١٨٣٨ (٢٤ محرم ١٢٥٣ هـ) ، طلب اليهود أخذ الموافقة من محمد علي باشا لتوسيع نشاطهم التجاري وأنه « هل يترخص لهم بمشترى الأملاك وأراضي للزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وتعاطي مصابن ومعاصر بناء يدفعوا المرتب الميري مثل الرعايا »[٣] . ولما علم مجلس القدس الشريف بطلب اليهود احتجوا على ذلك بحجة أن هؤلاء اليهود هم أجانب وليسوا من أهل البلد ، كما أن الشرع لا يقرُّ ذلك . ونظراً لهذا الاحتجاج ، فقد رفض محمد علي السماح لليهود بما طلبوه « فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ما عدا تعاطي البيع والشراء بالتجارة التي يجلبونها من بلادهم[٤]... قياس أمثالهم الذميين ، فهذا ليس لهم معارضة به ، فيلزم والحالة هذه إفادة مجلس القدس بذلك لكي يكون معلوماً عند حضرات أرباب المجلس أن جوابهم بذلك بمحله ٢٤ م سنة ٥٣ »[٥] .

ومن دراسة هذه الوثيقة يتبين موقف الحكم المصري من شعب فلسطين ، ومن أطماع اليهود بمساعدة بريطانيا في استعمار فلسطين ، ومن أجل هذا

---

(١) أسد رستم : وثائق الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ، ص ٢٥ .

(٢) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان : ١٨٤٠ – ١٨٦٠ ، م ١ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ . من خطاب المسيو « كريميه » النائب الاسرائيلي في مجلس النواب الفرنسي في ٣ تموز (يوليه) ١٨٤٧ .

(٣) أسد رستم ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٤) ان هـذه العبارة « يجلبوها من بلادهم » تعني بأن هؤلاء اليهود ليسوا يهود فلسطين ، وإنما يهود من الخارج .

(٥) أسد رستم ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

الموقف والتطلعات الإستعمارية ، اتفقت روسيا بشخص مندوبها البارون « دي برونو » ، مع انجلترا بشخص اللورد « بامستون » في أيلول (سبتمبر) ١٨٣٩ ، على أنها مستعدة لأن تترك لانجلترا حرية العمل في مصر ، وتساعدها على إذلال محمد علي باشا ، بشرط أن تسمح لها بانزال جيش بالقرب من اسلامبول – استانبول – ، ثم لأن محمد علي أقام أول وحدة عربية في التاريخ الحديث ، رأت الدول الأوروبية أن ذلك يشكل عقبة في وجه مطامعها وفي تحقيق أحلام اليهود ، فعملت على فرض تسوية لندن في ١٥ تموز (يوليه) عام ١٨٤٠ التي عقدت لتقرير مصير بلاد الشام والعمل على اخراج القوات المصرية منها[١] .

وكان محمد علي قد تفهم الأطماع الإستعمارية والصهيونية في فلسطين بعد « مشروع مونتفيوري » الذي رفضه ، وبعد محاولة يهود أوروبا التوسع في نشاطهم التجاري والزراعي والصناعي والذي رفضه أيضاً بناء لرغبة مجلس القدس الشريف ، وزادت شكوكه بعد إنشاء أول قنصلية أجنبية في القدس عام ١٨٣٨ ، وهي القنصلية البريطانية برئاسة وليم يونغ (W. Young) الذي وصلته تعليمات « بامستون » (Palmerston) وزير الخارجية البريطاني تقضي بمنح الحماية لليهود في فلسطين[٢] . وأخذ الوزير البريطاني على عاتقه تأسيس دولة يهودية في فلسطين بمؤازرة بريطانيا ، فأرسل في ١١ آب (اغسطس) عام ١٨٤٠ مذكرة إلى السفير البريطاني في الآستانة يطلب فيها التوسط لدى الباب العالي بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، لأن لدى هؤلاء « شعوراً قوياً بأن الوقت الذي ستعود فيه أُمتهم إلى فلسطين آخذ في الاقتراب ... وأن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة ... فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان فسيكون في هذا حائلاً بين محمد علي ومن يخلفه ، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل[٣] ...

---

(١) أنظر : نصوص معاهدة تسوية لندن ١٨٤٠ في كتاب : محمد فريد بك ؛ المصدر السابق ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ . أنظر أيضاً : الملحق رقم (١) وهو منشور الدول الأوروبية موجه إلى أهل الشام عام ١٨٤٠ ، لاخبارهم بإنهاء حكم محمد علي باشا .

(٢) J. Parkes; *A History of the Jewish People*, p. 183.

(٣) أن هذه العبارة الخاصة بمحمد علي ، تؤكد بأن تسوية لندن وسياسة بريطانيا بوجه خاص ، كانت تهدف إلى إنهاء حكم محمد علي في فلسطين وبقية بلاد الشام ، حتى يتيسر لها إنشاء وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة مرغبة السلطان بأن تحقيق ذلك مفيد للدولة العثمانية. والواقع أن الدولة العثمانية في هذه الفترة ، كان يهمها إخراج محمد علي من المنطقة ، لاسيا =

وسترى الحكومة التركية في الحال كم سيكون مفيداً لقضية فلسطين أن تكسب أصدقاء مفيدين في كثير من الأقطار بقانون واحد بسيط كهذا »[١].

وقد تابع « بامستون » مساعيه لفتح باب المفاوضات مع الباب العالي لنيل امتياز في فلسطين ، أصبح مقدمة للدولة اليهودية[٢]. ففي شباط (فبراير) عام ١٨٤١ أرسل رسالة ثانية إلى السفير البريطاني في الآستانة يذكر فيها بأنه « سيكون مفيداً جداً للسلطان إذا ما أغرى اليهود المبعثرين في أوروبا وأفريقيا بالذهاب والتوطن في فلسطين ... لذلك فإني أقترح أن يكون في استطاعتهم الإعتماد على حماية بريطانيا ، وأن يسمح لهم بأن ينقلوا إلى الباب العالي شكاواهم عن طريق السلطات البريطانيه ».

والجدير بالذكر ، أن السياسة البريطانية ذهبت في تأييدها لليهود أكثر من ذلك بكثير ، فقد طالبت بريطانيا الدولة العثمانية في عام ١٨٤٥ بطرد سكان فلسطين المسلمين وإسكان اليهود مكانهم ، لإن إقحام « الغرباء اليهود » مكان السكان الفعليين ، قد تترتب عليه نتائج مؤذية ، لذا يستحسن « إستمالة الحكومة العثمانية في اعتماد خطة إنحسار السكان المحمديين وتقهقرهم صوب تلك المناطق الشاسعة ... من آسيا الصغرى حيث يتم تمليكهم المساحات وقطعات من الأراضي تتمتع بالحسنات ذاتها[٣] ...

وكان اللورد البريطاني « شافتزبري » يروّج لأفكار مماثلة ، وفي مقدمتها إنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين ، وبدأ يروّج لهذه المشاريع في جريدة (Quarterly Review) و (Times) ، وقد لاقت استحساناً لدى يهود

= بعد إقامته أول وحدة عربية فيها ، مما يؤدي بصورة حتمية إلى انفصال بلاد الشام عن سيطرة الحكم العثماني، وقد أصدر السلطان محمود الثاني في أواخر أيامه خط كلخانة عام ١٨٣٩ للحصول على دعم أوروبي لاخراج محمد علي من بلاد الشام. حول جهود الدولة العثمانية لمواجهة محمد علي أنظر : E. Creasy; *History of the Ottoman Turks*, p. 506.

(١) ملف وثائق فلسطين ، ج ١ (٦٣٧-١٩٤٩) ، ص ٤٧ .

(٢) يوسف الحاج : هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٣) ملف وثائق فلسطين ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

ويلاحظ أنه في هذه الفترة نشطت المنظمات الماسونية لتأييد التطلعات اليهودية وفي مقدمة هذه المنظمات منظمة (B'nai Brith) التي تأسست عام ١٨٤٣ ، ومن أهدافها مكافحة أعداء السامية ، والعمل من أجل الوطن البعيد (La Patrie Lointaine) . وقد أنشأت هذه المنظمة في مدينة القدس وفي بعض المدن الأمريكية فروعاً تابعة لها عرفت باسم « بيت هيلال » (Maison Hillel) . أنظر : M. Catane; *Les Juifs dans le Monde* p. 153

فرنسا وفي مقدمتهم أحد أقطابهم « جوزيف سلفادور » ، الذي رأى أنه « ستنشأ دولة جديدة على بحر الجليل ، وفي كنعان القديمة حيث سيسيطر المطلب اليهودي ... » وكان يهود فرنسا قد تجاوبوا مع دعوات الساسة البريطانيين والفرنسيين على السواء ، لا سيما وأن عدداً وفيراً من اليهود في فرنسا كانوا يتمتعون بنفوذ قوي فقد « تربع ستة منهم في منصب الصدارة أولهم « كريميه » المحامي الشهير الذي صار وزيراً للحقانية سنة ١٨٤٨ ، ثم « غودشو » الذي صار وزيراً للمالية في تلك السنة ... »[١].

والواقع أن مسألة حماية اليهود كانت الشغل الشاغل للقنصلية البريطانية في القدس[٢] . ومن أجل ذلك أصبح من مهام القنصل البريطاني فيها منح حماية لليهود بشكل عام ... ورفع تقرير في أقرب فرصة ممكنة عن الوضع الحاضر لليهود المقيمين بفلسطين .[٣] وقد ادعت بريطانيا بأن سبب هذه الحماية لليهود ، هي ما يقابلها من حماية فرنسية للاتين والكاثوليك ، وحماية روسية للروم الأرثوذكس ثم ادعت بحمايتها في الحقبة ذاتها على يهود حلب والشام وسالونيك ، بل والأرمن والإرساليات البروتستانتية[٤]. ومما يلفت النظر في إدعاء بريطانيا حمايتها لليهود من أن اليهود في بريطانيا ذاتها لم يكونوا متمتعين بالحقوق السياسية والمدنية ، ولم يتخلصوا من القيود والقوانين التي كانت تحدُّ من حريتهم هناك إلا في عام ١٨٩٠[٥] . ولكن المسألة تجاوزت قضية حماية اليهود في فلسطين فالجالية اليهودية كانت صغيرة لا تتجاوز تسعة آلاف وسبعمائة نسمة موزعين بين القدس والجليل وصفد وطبرية[٦] حسب تقدير نائب القنصل البريطاني نفسه ، ومن أجل ذلك كانت هناك أسباب أكثر أهمية من مسألة حماية اليهود تتمثل فيما يلي :

١ - أيقظ نداء نابليون لليهود السياسة البريطانية ورأت ضرورة منافسة فرنسا في الشرق عن طريق استغلال عواطف اليهود الدينية نحو فلسطين من أجل ضمان نفوذها في المنطقة .

---

(١) المقتطف ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ ، م ٤٣ ، ج ٦ ، ص ٥٦٣ .

(٢) A, Hyamson; *The Brilish Consulate in Jerusalem in Relation to the Jews in Palestine* (1838-1914), vol. 1, p. 34.

(٣) أسعد رزوق : اسرائيل الكبرى ، ص ٦١ .

(٤) R. Pinon ; *L'Europe et L'Empire Ottoman*, p. 566.

(٥) عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية في الواقع العربي ، ص ٤١ .

(٦) A. Hyamson ; *op. cit.*, p. 34.

٢ – عدم ارتيـاح بريطانيا إلى تزايد التقارب بين فرنسا ومحمد علي ، لا سيما بعد أن وجدت قوة نفوذ القناصل الفرنسيين في مصر ، ويأتي في مقدمتهم المسيو « دروڤتي » (Drovetti) على الرغم من أن فرنسا ستتخلى عن محمد علي – فيما بعد – في صراعه مع الدولة العثمانية[١] .

٣ – إن ضرب الوحدة بين مصر والشام لا يمكن ضربها إلا بإقامة حاجز بشري غريب يتمثل باليهود على حدٍّ قول « بامستون » إلى سفيره في الآستانة .

٤ – إستفادة بريطانيا من البيوتات المالية اليهودية لتنفيـذ مخططاتها ، وهذا ما أكدته الأحداث عند شراء أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥ بأموال يهودية . وقد ذكر « متيفورد » أحـد الحكام البريطانيين في عام ١٨٤٥ أهمية تهويد فلسطين بالنسبة لبريطانيا « بأن المميزات التي تتاح لإنجلترا في مثل هـذه الخطوة عظيمة إلى حدٍّ يكاد يبدو وكأن هدفي الحقيقي كان أن أُفيد بلادي بحد ذاتها بدل أن أُدافع عن قضية عنصر مسالم »[٢] .

واستمراراً للسياسة البريطانية في بلاد الشام ، وضعت الحكومة البريطانية عدداً من قادتها لخدمة اليهود وخدمـة أهدافها الإستعمارية ، وفي مقدمة هؤلاء « الكولونيل روز » و « الكولونيل تشارلز هنري تشرشل »[٣] ، حيث أرسل الأخير من لبنان مذكرة إلى المجلس اليهودي في بريطانيا ورئيسه « مونتفيوري » يطلب فيها السعي لإنشاء دولة يهودية ويقترح فيها أن يتولى المجلس اليهودي القيام بمهمة الإتصال بيهود اوروبا بهدف تكتيلهم حول فكرة « الدولة اليهودية » وتوجيههم نحو هذا الهدف[٤] .

والواقع أن نتائج تسوية ١٥ تموز (يوليه) ١٨٤٠ في لندن ، قد أحدثت انقلاباً في الأوضـاع السياسية في منطقة الشرق ، وفتحت عهداً جديداً للنشاط الأوروبي الإستعماري فيها ، لا سيما بعد انكفاء محمد علي والي مصر مما أحدث فراغاً سياسياً وعسكرياً في المنطقة ، نشطت على أثره السياسات

---

(١) عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ مصر الحديث : ١٧٩٨ – ١٩١٤ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٢) الحكم دروزة : ملف القضية الفلسطينية والصراع العربي الاسرائيلي ، ص ١٥ .
(٣) أنظر حول جهود تشرشل في بلاد الشام كتابه :
Ch. Churchill; *Mount Lebanon a Ten Years Residence* (London 1853), 3 vols.
(٤) عودة بطرس عودة ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

العسكرية والاقتصاديه والدينية للدول الأوروبية ، وكانت بريطانيا قد بدأت بانتهاج سياسة مقنّعة تتمثل في سياسة البعثات الطبية والثقافية والدينية ، وأنشأت بعض المستشفيات والعيادات والمدارس والكنائس في فلسطين وبعض أنحاء الشام الأخرى[١] .

وكان الصراع البريطاني – الفرنسي والألماني – الفرنسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صورة لتلك الحقيقة وكان للبابوية دور" بارز" في تأييد السياسة الفرنسية بحماية الكاثوليك في الشرق، وذلك لمواجهة التوسع الألماني في المنطقة ، والذي اقتضى استمالة الكاثوليك وتحويل الحماية من فرنسا لصالح ألمانيا[٢] ... على أن بريطانيا بالإضافة إلى سياستها التقليدية ، كانت قد اتبعت اسلوباً عسكرياً فسيطرت منذ أيلول (سبتمبر) عـــام ١٨٤٠ على بيروت ومعظم مدن الساحل اللبنـاني والفلسطيني[٣] ، للضغط على الحكم المصري في بلاد الشام تنفيذاً لاغراضها ولتطلعات اليهود في فلسطين ، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية التي رأت من الأنسب لها أن تتقرّب من محمد علي ، وبالفعل فقـــد دعي إلى زيارة استانبول في صيف ١٨٤٦ حيث عُومل معاملة لائقة[٤] .

والواقع أن عودة فلسطين إلى أحضان الدولة العثمانية منذ عام ١٨٤١ ، لم توقف أطماع اليهود ، بل اشتد تطلعهم إلى إقامة وطن قومي في « أرض إسرائيل »[٥] . حيث ظل « مونتفيوري » يسعى لتوطين اليهود في فلسطين وتكررت زيارته إلى منطقة الشام للتشاور مع اليهود فيها ، فقد اجتمع أكثر من مرة في دمشق مع « إسحق حاييم فارحي » أحد زعماء اليهود . وفي عام ١٨٤٩ ذهب إلى فلسطين بصحبة الكولونيل البريطاني « جورج جولد » المؤيد لمشاريع مونتفيوري . وكانت بريطانيا حريصة على التعاون مع اليهود حيث سمحت لهم بالاستعدادات اللازمة وإقامة المدارس اليهودية منذ عام ١٨٥٤ لتخريج الحاخامين للمؤسسات البريطانية[٦] . ونتيجة للتعاون

---

(١) عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، جـ ١ ، ص ١٤ ، ١٥ .
(٢) R. Pinon; *op. cit* , pp, 553-558.
(٣) عادل اسماعيل ، اميل خوري : السياسة الدولية في الشرق العربي ، جـ ٣ ، ص ٧٤ .
(٤) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
(٥) بولاك ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(٦) M. Catane ; *op. cit.*, p. 23.

البريطاني ـ الصهيوني استطاع « مونتفيوري » في عام ١٨٥٥ أن يمول عملية شراء أول ضيعة في فلسطين بجوار يافا ليستغلها مهاجرون يهود ، يريدون أن يعودوا إلى « أرض الميعاد »(١) .

ونظراً للتحركات الأوروبية عامة والبريطانية خاصة ، حرصت الدولة العثمانية على ضرب النفوذ الأجنبي قدر استطاعتها ، لا سيا بعد ان شعرت بأن الدولة الوحيدة التي أعلنت حمايتها لليهود هي بريطانيا . ويؤكد القنصل البريطاني في القدس القنصل « فين » في تقرير له عام ١٨٥٩ من أن الإدارة التركية في كل من بيروت وفلسطين « إنما من الجلي أن رغبة واحدة سائدة في كلتا الإدارتين قوامها كسر النفوذ الأوروبي »(٢).

وكان اليهود في بلاد الشام أداة السياسة البريطانية القائمة على تعميق وتحريك الفتن الطائفية ، وهم الذين لعبوا دوراً بارزاً في فتن عام ١٨٦٠ ، وزادوا من حدتها ، وهذا ما تؤكده الوثائق المعاصرة وتقارير القناصل الأجانب ، فقامت الدولة العثمانية وقتذاك بالقبض على بعضٍ منهم ، بعد أن علمت دورهم في هذه الفتن(٣) ، وأكد هذا الدور كل فئات الشعب من المسلمين والمسيحيين من أهل الشام ، لا سيا في مدينة دمشق ، فطلب أعيان اليهود حماية بريطانيا ، وأرسلوا مذكرة مطولة إلى السير مونتفيوري في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ ، طالبوه فيها التدخل لحمايتهم وإنقاذهم باعتباره

---

(١) جفري بطرس غالي : فلسطين ، ص ٢٥ .

(٢) المحررات السياسية ... م ١ ، ص ٣٨٢ ، من تقرير القنصل « فين » إلى اللورد ج . روسل . القدس في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٩ . ويضيف القنصل « جيمس فين » في تقرير إلى الكونت « دي ملمسبوري » ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٥٨ ، أن المواطنين العرب يعتدون يومياً على الأجانب « الإسرائيليين منهم والمسيحيين » . أما الباشا فانه لا يسارع إلى التحقيق في شكوى هؤلاء « وفي خلال محادثته ترجماني بدرت منه كلمة بأن مهمته هنا موجهة خاصة قبل كل شيء إلى كسر شوكة السيطرة الأوروبية وتقليص ظلها... » ويؤكد القنصل في تقارير أخرى بأن مساعديه كانوا من اليهود وكان أيضاً « ترجماني اسرائيلي » . أنظر : المحررات السياسية ، المجلد الأول ص ٣٤٤ ـ ٣٤٨ .

(٣) يذكر « حبيب فارس » في مخطوط « صراخ البري في بوق الحرية » أكثر من أربعين حادثة قتل ارتكبها اليهود في الشرق والغرب أحدثت قلقاً وفتناً في المناطق التي جرت فيها ومنها: جرائم حلب ١٨١٠ ، وبيروت ١٨٢٤ ، وانطاكية ١٨٢٦ ، وحماة ١٨٢٩ ، وطرابلس الشام ١٨٣٤ ، ودمشق ١٨٤٠ ، والإسكندرية ١٨٨٠ و ١٨٨١ ، وأزمير ١٨٨١ ، والاستانة ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ ، ومن جرائم الغرب : براغ ١٣٠٥ ، وميونيخ ١٣٤٥ ، ومسينا ١٣٤٧ . وبروسيا ١٨٨٨ وغيرها .

« المحسن إلينا ومنقذنا ... ونضرع أولاً إلى الله عزّ وجل أن يطيل حياتكم ... وينقذ الأمة الإسرائيلية في أيامكم » . وبعد أن شرح اليهود ظروف اعتقال جماعة منهم طلبوا « أن تمدوا لنا يد العون فتحصلوا لنا على أوامر من الحكومة الإنجليزية لقناصلها وقوادها البريين والبحريين في سوريا ليساعدونا ... » ثم نفى اليهود تدخلهم في إشعال الفتن الطائفية ، وقتل المسيحيين متوسلين تدخل ملكة إنجلترا ، « وفي هذه الأزمة نطرح توسلاتنا على أقدامها ملتمسين أن تشمل شعب إسرائيل المضطهد في دمشق بعين شفقتها ورأفتها ، وهو يرغب إليها أن تمدّ له يد المساعدة وتظلله بظل نفوذها العظيم ... »[1] وادعى اليهود بأن موقف الدولة العثمانية معادٍ لهم فهي تعتدي « على أفضل رجال طائفتنا وأعظمهم شأناً كيعقوب أبو لقيا وسليمان فارحي[2] بن إسحق حاييم فارحي » .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيهـــا اليهود إلى السير « مونتفيوري » ففي ١٥ شباط (فبراير) عام ١٨٤٠ أتهم اليهود بقتل الأب تومـــا الكبوشي في دمشق ، فتتدخل فرنسا بشخص اليهودي « أدولف كريميه »[3] (Adolphe Crémieux) وانجلـترا بشخص اليهودي « موسى مونتفيوري » (Moses Montefiore) ويتقابلان في الاسكندرية ، ويتفقان مع يهودها للمطالبة بتطبيق العدل والرحمة « لأبناء طائفتنا في الشام » . ويتفقان أيضاً مع قناصل أوروبا لممارسة نفوذهم لدى محمد علي باشا ، وينتهي الأمر لصالح اليهود على اعتبار أنهم براء من تلك الجريمة[4] ، بالرغم من أن أحد الرحالة الأجانب – الذي زار بلاد الشام في تلك الفترة – يؤكد أنه « رأى في أحد المعابد المسيحية في دمشق مخطوطة تثبت تاريخ وفاة الأب

---

(١) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان : ١٨٦٠ ، م ٢ ص ٣٦٨ . من رسالة أعيان الاسرائيليين في دمشق إلى السير « مونتفيوري » في ٧ تسري ٥٦٢١ – ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ .

(٢) كان سليمان فارحي من رعايا فرنسا وتحت حمايتها .

(٣) يذكر « كريميه » أنه لما كان في الشرق « هاجتني عاطفة الشفقة ... لرؤية أولئك التعساء... لم نتردد في الجزم بأنه عما قريب ستضرم نار العقيدة والايمان في مصر والاسكندرية ، وتمتد إلى سوريا وأورشليم فيتململ الشرق في هجعته الطويلة ويستيقظ من سباته العميق » . إيلي ليفي أبوعسل ، المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) حسن ظاظا ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

توما ، وتقول أنه قتل مع خادمه من قبل اليهود »[1] لذلك نرى أن اليهود في عام ١٨٦٠ يذكرون السير « مونتفيوري » بانقاذه لهم من تلك المحنة وغيرها من المحن السابقة فيبادرونه بالقول : « بما انك انقذتنا سابقاً ، فخلصنا الآن وكن واسطة لإنهاء محننا »[2].

وبالفعل فقد تدخل « مونتفيوري » في حادثة ١٨٦٠ ، ووسط الحكومة البريطانية وسفيرها في الاستانة والقنصل البريطاني « برانت » الذي أرسل رسالة سرية إلى فؤاد باشا في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ « بأني تلقيت رسالتين إحداهما من حكومتي والأخرى من سفيرها في الإستانة يستوضحان بها عن اشتكاء اليهود ... »[3] وقد استطاع التدخل البريطاني أن ينهي هذه الأزمة لصالح اليهود إلا « أنه لم يبق في السجن سوى اسرائيلي واحد لتراكم الشكاوى عليه ، وعدم تقديم شهود لتبرئته ... »[4]

واستمرت الحكومة البريطانية في تأييد اليهود وتطلعاتهم بصورة متناهية ، وقد عبر عن ضرورة هذا التأييد « توماس كلارك » (Thomas Clark) في كتابه « الهند وفلسطين » (India and Palestine) الصادر عام ١٨٦١ . وفي عام ١٨٦٥ لعب « صندوق اكتشاف فلسطين » البريطاني (Palestine Exploration Fund) دوراً هاماً في عملية الاستيطان المبكرة لليهود في الأراضي المقدسة . وقد أسدى « الصندوق » للحركة الصهيونية ولبريطانيا خدمات كثيرة ، حيث شاركت مجموعة من البريطانيين في اكتشاف المناطق الهامة في فلسطين كالقدس وغربي الأردن ومناطق أخرى تدخل في نطاق « اسرائيل الكبرى » مثل بيروت وجنوب لبنان . وكان في مقدمة هذه المجموعة : الكابتن « وارين » والكابتن « ويلسون » والكابتن « كوندر » ، الذين زاروا هذه المناطق في أعوام ١٨٦٦ و ١٨٦٧ و ١٨٦٨ على التوالي ، ورفعوا تقارير بشأنها إلى الحكومة البريطانية ، مرفقة بخرائط مفصلة

---

(١) G. Flaubert; *Voyage en Orient, 1849-1851*, p.180.

(٢) المحررات السياسية ... م ٢ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ . من رسالة أعيان الاسرائيليين في دمشق .

(٣) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان : ١٨٦٠ - ١٨٦١ ، م ٣ ، ص ٨٤ ، تقرير القنصل البريطاني « برانت » إلى فؤاد باشا . بيروت ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(٤) المحررات السياسية ... م ٣ ، ص ٨٥ . من رسالة فؤاد باشا إلى القنصل « برانت » في ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٠ .

ومؤلفات عن «أرض الميعاد». وكانت اقتراحاتهم تقضي بتطوير الأراضي الفلسطينية، وكان الهدف من دعوة التطوير يعني إدخال اليهود إلى البلاد لاحتلالها وحكمها[١]. وقد تكررت المشاريع البريطانية – الصهيونية، لاسكان اليهود في فلسطين، ومنها مشروع «لورنس أوليفانت» (Laurence Oliphant) الذي دعا فيه إلى استعمار «سورية الجنوبية» في كتابه «أرض جلعاد»[٢] (The Land of Gilead) «مع نزهات في جبل لبنان» الصادر عام ١٨٨٠. واقترح فيه هجرة يهودية إلى فلسطين، بعد أن أعجب جداً بخصوبة سهل مرج ابن عامر. وبتشجيع من جمعية «أحباء صهيون» التي ينتمي إليها، سافر «أوليفانت» إلى الإستانة في أوائل الثمانينات لحمل السلطان عبدالحميد الثاني على منح أولئك اليهود مساحات من الأراضي في شرقي الأردن وسوريا الجنوبية بموجب براءة تخولهم تنفيذ الاستعمار والاستيطان هناك، وجعل شعاره العلني «تجديد شباب تركيا بواسطة اليهود وتحت إشراف بريطانيا»، ثم تقدم بمشروع من السلطان يدعو إلى منح اليهود رقعة أرضية عرضها ميلان... لكن المشروع لم يكتب له النجاح... ولم يكتم السلطان عبدالحميد مخاوفه من تحول فلسطين إلى جبل لبنان ثانٍ. وقد أفهم السلطان مبعوث الصهيونية: «أن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من المملكة إلا في فلسطين، لأن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين، ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة مملكة لهم في فلسطين أساسها الدين»[٣].

هذا ويتمثل التعاون البريطاني – الصهيوني في عملية شراء أسهم قناة السويس حيث ساهم رئيس الوزراء البريطاني، اليهودي دزرائيلي في اتمام الصفقة لا كتوظيف مالي، ولا كصفقة تجارية، وإنما كعملية سياسية[٤] وقد مول هذه الصفقة المتمول اليهودي البارون «روتشيلد» وبعدها أرسل دزرائيلي إلى الملكة رسالة يوضح فيها: «بأنك ستحصلين سيدتي على أربعة ملايين جنيه استرليني!... آل روتشيلد وحدهم يستطيعون تلبية مثل هذا

---

(١) أسعد رزوق، المرجع السابق، ص ٤١.
(٢) تقع «أرض جلعاد» في شرقي الأردن.
(٣) فرانك مانويل: بين أمريكا وفلسطين، ص ٢٥.
(٤) أنظر: عودة بطرس عودة، المرجع السابق، ص ٦٦. أنظر أيضاً: محمد مصطفى صفوت: انجلترا وقناة السويس: ١٨٥٤–١٩٥١، ص ٤٦، ٤٧.

الطلب . وقد تصرفوا تصرفاً رائعاً ، فقدموا المال بفائدة جد زهيدة ...»[١] لأنه كان لبيت روتشيلد ثقة متناهية بدزرائيلي والحكومة البريطانية ...[٢]

وبعد إتمام الصفقة في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٥ أصبحت بريطانيا وملكتها صاحبة كلمة نافذة في ادارة القناة ...[٣] ، وأصبح دزرائيلي صاحب سيادة مطلقة في بريطانيا ، وقد استطاع هذا اليهودي أن يرسم سياسة الاستعمار والصهيونية لمن تبعه من السياسيين البريطانيين فانتهجوا نهجه وتبعه فيما بعد كبلنج وروزبري وتشمبرلن وملنر وبلفور وكرزن[٤].

وبعد سيطرة بريطانيا سيطرة تامة على قناة السويس ، تزايد التخوف البريطاني على مستقبل القناة ومصر ، عندما علم « دزرائيلي » عام ١٨٨٠ ، بأن الآستانة هي التي تشرف على الطريق إلى الهند ، لذا رأى أن القضاء على نفوذها في المنطقة هو المبرر الوحيد لاستمرار السيطرة البريطانية ولذا كان دزرائيلي يفضل دائماً الإستيلاء على آسيا الصغرى ذاتها[٥] . ورأت بريطانيا أن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقة القناة ، ووصل هذا الشعور إلى مرحلة الخوف ، حين بدأت المشروعات الألمانية تظهر واضحة جلية في المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية ، وربما كان تدخل الدولة العثمانية في شؤون مصر يعود إلى شعورها بفقدان سيطرتها عليها ، وبسبب النفوذ البريطاني فيها ، فبالنسبة للدولة العثمانية كانت مصر جزءاً حيوياً من ممتلكاتها ، وازدادت أهميتها خصوصاً بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، لأنها كانت المركز المناسب المتوسط الذي يستطيع منه السلطان نشر دعايته للجامعة الإسلامية في شمال أفريقيا ووسطها[٦] . في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وسائر الدول الأوروبية تعمل قدر استطاعتها لإبعاد سيطرة السلطان عن

---

(١) أندره موروا : بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا – سيرة دزرائيلي ، ترجمة متري نعمان ، ص ٣٠١ . أنظر أيضاً : محمد صفوت ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ . للمزيد من التفصيلات عن قناة السويس وأهميتها الدولية أنظر : محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس – أهميتها السياسية والاستراتيجية ، مصطفى الحفناوي : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة .

(٤) هربرت فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث : ١٧٨٩ – ١٩٥٠ ، ص ٣٧٧ .

(٥) محمد مصطفى صفوت ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٦) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

مصر، حتى يتسنى لها تحقيق مطامعها في المنطقة العربية. وما أن أُشيع بأن السلطان يريد إعادة سيطرته على مصر بالقوة العسكرية حتى انزعجت الدول الأوروبية وجالياتها الموجودة في مصر(١) لأن ذلك يهدد – ولو من الناحية النظرية – استقرارها وبقاءها فيها. وقد كان للبرلمانيين اليهود في انجلترا نفوذ قوي وأثر كبير في توجيه سياسة بريطانيا في الشرق العربي، ففي الثمانينات من القرن التاسع عشر كان اليهود في انجلترا قد احتلوا مناصب عديدة في مجالسها البرلمانية وتمثلوا بآل «روتشيلد» (Rothschild) و«ملشات» (Melchett) و«إسحق» (Isaac)(٢)...

ومن الأهمية بمكان القول، أن بريطانيا استغلت رجال الدين المسيحيين لخدمة الحركة الصهيونية، ويأتي في مقدمة هؤلاء القس «وليام هشلر» (William Hischler)(٣) الذي أبدى اهتماماً بالغاً في مطلع الثمانينات بيهود أوروبا الشرقية، وجمع الأموال لمساعدتهم على الإستيطان في فلسطين في ظل الحماية البريطانية. وفي عام ١٨٨٢ كلفته الحكومة البريطانية بنقل رسالة من الملكة ڤيكتوريا إلى السلطان عبد الحميد الثاني بشأن مسألة احتلال بريطانيا لمصر، واتجاه السلطان نحو ألمانيا لإنشاء حلف ثنائي مما يهدد الوجود البريطاني في المنطقة العربية، وقد جرى بشكل أو بآخر البحث في مسألة اليهود وإمكانية عودتهم إلى فلسطين.

وتمنى «هشلر» أن تتبنى كلٌّ من ألمانيا وبريطانيا الحركة الصهيونية

---

(١) عمر عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٧٢.
(٢) للمزيد من التفصيلات حول نفوذ اليهود في بريطانيا في القرنين التاسع عشر والعشرين انظر:
M. Catane; *op. cit.*, p. 18.
(٣) كان القس «وليام هشلر» عضواً في «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» (London Society for Promoting Christianity amongst the Jews) وكان على علاقة مع دوق بادن الأكبر باعتباره استاذاً لابنه، وهناك تعرف على غليوم الثاني الذي أصبح امبراطوراً عام ١٨٨٨. وفي عام ١٨٨٣ أصدر كتاباً بعنوان «مطرانية القدس» (The Jerusalem Bishopric)، وخلال اقامته في لندن أصدر كراساً عنوانه «ارجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء». وحدث ان التقى بتيودور هرتزل وتم الاتفاق بينهما على مساعدة الحركة الصهيونية، فأرسل «هشلر» رسالة إلى دوق بادن يلفت نظره إلى كراس هرتزل «الدولة اليهودية» (Der Judenstaat) الذي صدر عام ١٨٩٦، ويلخصه له بالقول: «الدولة اليهودية ضرورة عالمية». ويؤكد حق اليهود بالعودة إلى فلسطين، التي أعطاها الرب لابراهيم ونسله.

والدولة اليهودية ، وذلك بعد أن سار في ركاب السياسة البريطانية القائلة بوجوب إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون بمثابة مركز للنفوذ البريطاني في المنطقة. ومما يسترعي الانتباه هي تلك الخريطة الضخمة لفلسطين التي كانت بحوزة « هشلر » ، فقد وصفها هرتزل بأنها « خريطة عسكرية هائلة » في أربعة أقسام وكبيرة لدرجة جعلتها تغطي أرض الغرفة[١].

وفي هذه الفترة نشرت بعض المقالات عن توافق مصالح بريطانيا والصهيونية ، ورأت أن على انجلترا واجب أن تبقي سيطرتها على سوريا ، وأن تؤيد اليهود وقوميتهم لإعادة دولتهم القديمة ... وأنه يقع على عاتقها مهمة تأييد استيطان اليهود في فلسطين[٢]. ومن هنا ندرك مدى توافق السياسة البريطانية والتزامها بتطلعات اليهود ، بالإضافة إلى تطلعاتها الخاصة. فبعد احتلال مصر عام ١٨٨٢ وقف « ادوارد كوزليت » (Edward Cozlette) اليهودي البريطاني يقول : « إن احتلال مصر قد وحّد بين مصالح الأمبراطورية في الشرق ، وبين مصالح اليهود في فلسطين ». ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٩١٧ ، كان الأتراك يخشون الانكليز ويشكون في نواياهم نحو فلسطين[٣]. هذا وتؤكد الأحداث بأن الذي حرّك المطامع اليهودية في فلسطين هو سقوط مصر في أيدي الانجليز عام ١٨٨٢ ، فقد وجدوا أن الإستعمار الغربي بدأت تكون له اليد العليا في المنطقة ، وأن في وسعهم أن يحصلوا من الانجليز على ما لم يحصلوا عليه من سلطان الأتراك[٤]. ويلاحظ من دراسة مجلد الخديوي توفيق[٥] من أن السيطرة على مصر لم يكن عملاً إنجليزياً صرفاً ، ولكنه عملٌ ومؤامرة دولية حيث اظهرت الرسوم البحارة الأمريكيين والبحارة الفرنسيين يعاونهم جنود الطوارق التابعين لفرنسا وقتذاك ، بالإضافة إلى بحارة البنغال ، كما وُجد في لوحات أخرى

---

(١) أسعد رزوق ، المرجع السابق ، ص ٥١ — ٥٧ .

(٢) للمزيد من التفصيلات عن تلك المقالات أنظر :
N. Sokolow; *History of Zionism, Vol. 1*, p. 206.

(٣) فرانك مانويل ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٤) أنظر : يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، ص ٨٦ ، ٨٧ . أنظر أيضاً : أنيس صايغ الهاشميون والثورة العربية ، ص ٥٥ .

(٥) مجلد ضخم من مقتنيات الخديوي توفيق ، يضم مجموعة كاملة من رسوم قيمة معاصرة تسجل حوادث احتلال الانجليز لمصر عام ١٨٨٢ ، بما في ذلك ضرب الاسكندرية ومعركة التل الكبير واحتلال القاهرة ، والقبض على عرابي ومحاكمته ...

أن سفناً أوروبية مختلفة الجنسيات كانت مشتركة أيضاً في احتلال مصر كالسفن اليونانية والروسية والايطالية .

وتبرز أهمية قناة السويس بالنسبة للصهيونية بعد خضوعها لبريطانيا ، فيما يطالعنا به « زانغويل » (Zangwill) من أنه « الآن وليس في أي وقت آخر هو فرصة اسرائيل ، فهناك تغييرات سياسية كثيرة . لن نصبر لا اليهود ولا فلسطين بعد أن نقلت قناة السويس العالم إلى أبواب فلسطين »[1].

ونظراً للأخطار الجديدة في المنطقة إثر الاحتلال البريطاني لمصر ، طلبت الدولة العثمانية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٨ عقد اتفاق فيما بينها وبين الدول الأوروبية (انجلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، النمسا ، ايطاليا ، روسيا) لوضع تنظيمات جديدة لقناة السويس . وقد نصت الفقرة الثالثة من المادة العاشرة من معاهدة الاستانة على حياد القناة وحرية المرور ، إلا أن أحكام هذه المادة لا تسري على البلاد العربية الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر بما فيها خليج العقبة . وقد توخت الحكومة العثمانية من ذلك استبعاد خليج العقبة ومضايقه من نظام حرية المرور الخاص بقناة السويس الذي أقر أن خليج العقبة خليج عربي مغلق وليست له أية صفة دولية ، وأن مياهه ومياه مداخله ومضائقه مياه أقليمية وغير مفتوحة للملاحة الدولية[2] .

والواقع أن الموقف العثماني كان موقفاً معارضاً للتحركات البريطانية في منطقة العقبة نظراً لخطورتها على مستقبل فلسطين . ويذكر « حسن تحسين باشا » في مذكراته ، بأن السلطان عبد الحميد الثاني غضب عندما علم أن الأنجليز يوسعون منطقة نفوذهم من جهة العقبة إلى داخل البلاد العثمانية . ويضيف بأن السلطان « أرسل رشدي بك على رأس قوة كبيرة من الجند ... والأنجليز ... تعجبوا من أمره ، فأوفدوا اثنين من جواسيسهم بصفة كونهما من رؤساء قبائل العرب لمقابلة رشدي بك ومعرفة حقيقة نواياه . ورشدي بك — وقد أدرك حقيقة أمرهما — أبدى الشدة حيالهما وأفهمهما أن حركاته جدية ، وأن الأوامر التي تلقاها من السلطان صريحة واضحة وهي ضرب كل من يحاول الاقتراب من المنطقة العثمانية ... وكان أن فاز ببغيته وحمل الأنجليز

---

(١) I. Zangwill; *The Return to Palestine*, p. 827.

(٢) مذكرة عن خليج العقبة ومطامع اليهود ... ، ص ٦ .

على الابتعاد بقواتهم عن تلك الجهة وتأمين سيادته عليها »[١].

كان السلطان عبد الحميد الثاني حذراً جداً من الانجليز وعلى عداوة شديدة معهم بسبب أطماعهم وتدخلهم في شؤون الدولة العثمانية وصرح « بأنني كنت أبذل كل ما لدي من مجهود وقوة لإحياء البلاد العربية ومنع الأجانب وخصوصاً الأنجليز من التدخل في شؤونها »[٢]. وكان تدخل الدول الأوروبية أكثر ما يزعج السلطان سواء أفي المناطق العربية أو الأوروبية كالمناطق المكدونية مثلاً مما جعله يفقد صبره ، وبالتالي رفض أن يلين لضغط السفراء الشديد ومطالبهم التي كانوا يقررونها في مؤتمراتهم[٣].

وكانت بريطانيا تعمل على إثارة الدولة العثمانية عن طريق تشجيعها الهجرة اليهودية إلى فلسطين فقد شجعت حركة « أحباء صهيون » في انجلترا على الاستمرار في العمل الاستيطاني ، وعلى اتخاذ مبادرات سياسية معينة أيضاً[٤]. ويلاحظ بأن فلسطين منذ عام ١٨٨٢ ، شهدت موجات يهودية متلاحقة ، أثرت في مجريات الحياة الفلسطينية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، كما أثرت في موقف الدولة العثمانية من اليهود والحركة الصهيونية .

---

(١) الاسرار ، ١٠ ايار (مايو) ١٩٣٨ ، العدد ٦ ، ص ٢ ، ٣ .
(٢) الاسرار ، تموز (يوليه) ١٩٣٨ ، العدد ١٥ ، ص ١ .
(٣) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٥٤ .
(٤) N. Sokolow; *History of Zionism*, *Vol. 1*, p. 231.

الفصل الثاني

موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

١ - فلسطين في ظل الحكم العثماني .

٢ - موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

أ - الهجرة اليهودية ١٨٦٨ - ١٨٨١ .

ب - الهجرة اليهودية ١٨٨٢ - ١٨٩٦ .

٣ - النشاط الصهيوني قبل عام ١٨٩٧ وموقف الدولة العثمانية منه .

الفصل الثاني

موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

١ - فلسطين في ظل الحكم العثماني

يعتبر (جفريز) (Jeffries) أن خضوع فلسطين للعرب منذ ثلاثة عشر قرناً هو خضوع حديث ، ذلك أن العرب في فلسطين أقدم بكثير ويقول : « إنه بدأ امتلاك العرب لفلسطين قبل خمسة آلاف سنة ، ولم ينقطع عنها في يوم من الأيام ، إنه أقدم امتلاك على ظهر الأرض وأشدها قوة وإمعاناً ، إنه امتلاك ... له رسوخه الطويل في التربة العربية ... إن تلك الأجيال التي لا تحصى من الفلاحين الذين رسخت أقدامهم في تراب فلسطين لهي التي تجعل امتلاك العرب لها يعلو على كل امتلاك عداه »[١] .

وبعد خضوع فلسطين للحكم العثماني عام ١٥١٦ ، ظل العرب يعتبرون أنفسهم حكام البلاد وأهلها الشرعيين ، في الوقت الذي نظر فيه المسلمون العرب إلى الخلافة العثمانية ، على أنها إمتداد للخلافة الإسلامية الأولى . وكان العثمانيون بدورهم يعتبرون أن الإسلام هو المادة الأولى للحكم والنظام ، فاعتمدوا على المسلمين وأشركوهم في حكم البلاد وتولي المناصب الحكومية ، فأثبتوا نجاحهم في الميادين السياسية والإقتصادية والإجتماعية ، ولم يكن شعب فلسطين بمنأى عن هذه المناصب والوظائف الهامة ، بل ساهم مساهمة بارزة في تاريخ فلسطين في كافة المستويات والأصعدة ، وإن كانت الدولة العثمانية قد استأثرت بالنفوذ والسلطة وجعلت في كثير من الأحيان تعيين الهيئة التنفيذية والمتصرفين في فلسطين حكراً على الأشخاص الأتراك .

---

(١) ج. جفريز : فلسطين اليكم الحقيقة ، ص ٤٥ .

وكانت فلسطين في ظل الحكم العثماني تابعة لأقسام الشام الإدارية، وكانت الشام وقتذاك تتألف من خمس ولايات وهي: ولاية حلب، ولاية بيروت، ولاية الشام أو سوريا، متصرفية القدس، متصرفية جبل لبنان. وجميع هذه الولايات الشامية كانت تابعة في أمورها العسكرية إلى مشير العرض الهمايوني الخامس من قوى الجيش العثماني ومركزه دمشق(١). أما فلسطين فكانت تقسم كوحدة إدارية إلى المناطق التالية:

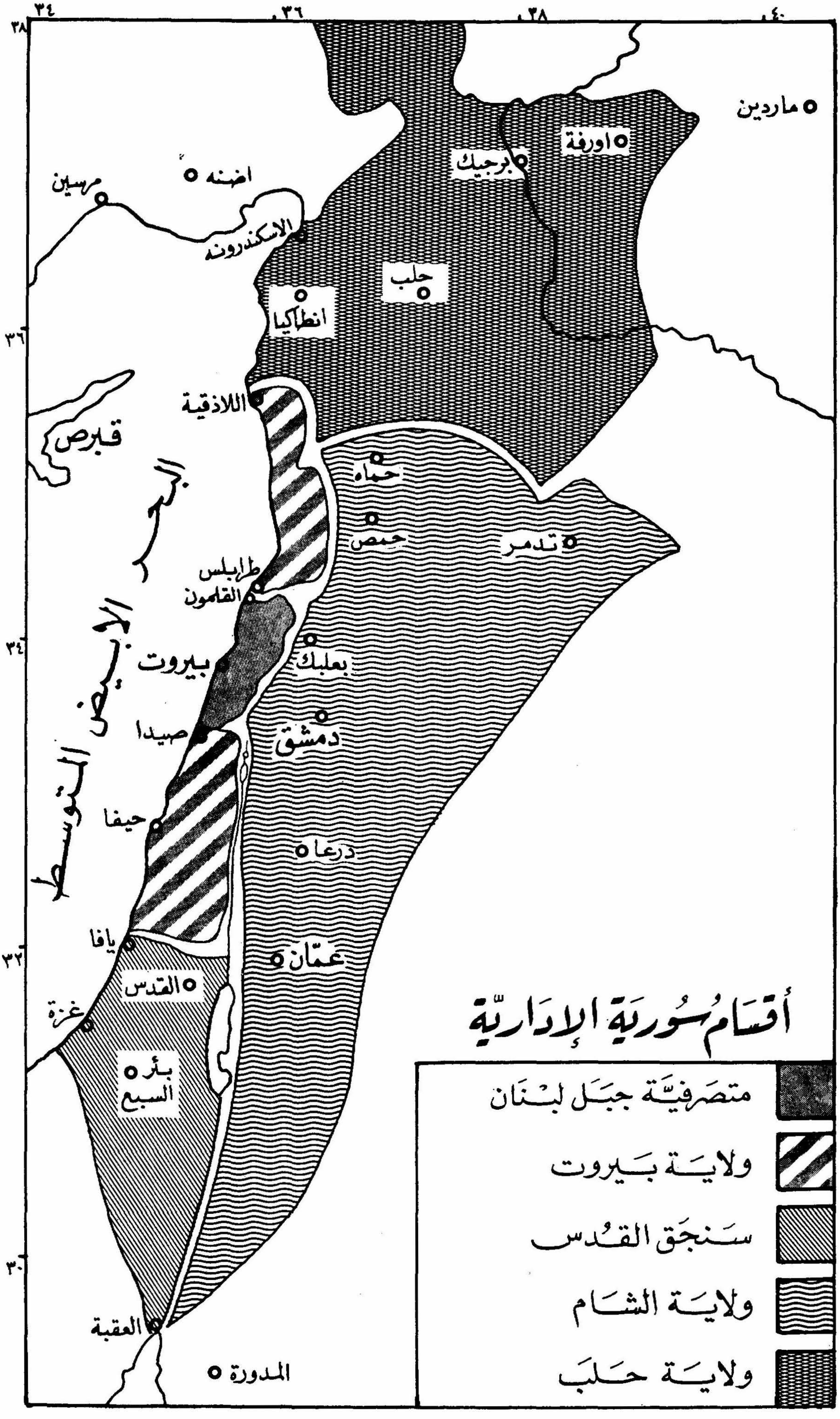
١ – في الشمال: متصرفية عكا وتشمل أقضية: حيفا، طبريا، صفد. ومتصرفية نابلس(٢) وتشمل قضائي جنين وطولكرم، وكلها تتبع ولاية بيروت.

٢ – في الجنوب: متصرفية القدس الشريف المستقلة، وتشمل أقضية: القدس، يافا، غزة، الخليل، بئر السبع، وتخضع مباشرة للحكومة المركزية في الآستانة(٣). أما مناطق شرقي الأردن فجعلت جزءاً من ولاية

(١) شاهين مكاريوس: حسر اللثام عن نكبات الشام، ص ١٣، ١٤ (مصر ١٨٩٥).

(٢) كانت نابلس مركز متصرفية البلقاء وفيها يقيم المتصرف والادارة الحكومية، وهي ايضاً مركز اقامة متروبوليت الروم الارثوذكس الذي كرسيه في سبسطية (السامرة)، وفيها قس وطني بروتستانتي هو يوحنا القرى، وقس آخر اجنبي من قبل الجمعية الانكليزية هو المستر فيشر... انظر حول هذا الموضوع وحول أوضاع المتصرفيات الأخرى: مخطوط بعنوان: في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية، ج ٢ وعنوانه: اورشليم أو القدس الشريف، ص ٨١، المكتبة الظاهرية – دمشق – رقم ٤٩٢٠.

(٣) انظر: عمر البرغوتي وخليل طوطح: تاريخ فلسطين، ص ٢٥٧، ٢٥٨، انظر ايضاً: N. Mandel; *op. cit., p. 79.* والواقع ان القدس اعتبرت سنجقاً مستقلاً عن ولاية دمشق بفرمان من السلطان عبد الحميد الثاني صدر عام ١٨٨٧، واصبحت متصرفية لها اتصال مباشر بالاستانة، وذلك بسبب مركزها الديني وبسبب تزايد الهجرة اليهودية اليها، الا ان أول اشارة عن استقلالها ورد في الوثائق العثمانية عام ١٨٧٤ على النحو التالي: «قدس شريف متصرفليغي ادارة مستقلة» أي «متصرفية القدس الشريف ذات الادارة المستقلة». وكان يعين عليها احياناً حاكما برتبة «ميرمران» أي أمير الأمراء، وأحياناً أخرى أحد الوزراء من الباشوات. والجدير بالذكر انني عثرت على وثيقة تثبت الأهمية الكبرى لسنجقية القدس، وتثبت الإهتمام الذي أولته الدولة العثمانية بها ويظن أنها كتبت قبل العام ١٨٧٤ والعام ١٨٨٧، يمكن استخلاصها من رسالة الأمير عبد الله شهاب «الى المشايخ الغرار أولاد ابو ناصيف» يخبرهم فيها مدى فرحه لأنه «تشرفنا بمرسوم شريف وسعادة والدنا ايده الله فحواها السامي يوضح أنه تشرف بمرسوم كريم من لدن سعادته صاحب السعادة دامت دولته متضمن فحواها السامي... قاضي البحر... الدولة العلية صانها رب البرية بتوجيه سنجقية قدس الشريف وجبل نابلس وجنين مالكانه لعهدة سعادته السامية...» وتوضح الوثيقة الأفراح التي عمت الديار مع الأدعية للدولة العلية بالبقاء «وطول العمر لها ولسعادته». حول هذه الوثيقة انظر: وثيقة رقم ٥٦٥١ في مديرية الوثائق التاريخية بالمتحف الوطني – بيروت.


أقسام سورية الإدارية
متصرفية جبل لبنان
ولاية بيروت
سنجق القدس
ولاية الشام
ولاية حلب
٣٤
٣٦
٣٨
٤٠
٣٢
٣٠
ماردين
اورفة
برجيك
اضنه
مرسين
الاسكندرونه
حلب
انطاكيا
اللاذقية
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
حماه
حمص
تدمر
طرابلس
القلمون
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
حيفا
درعا
يافا
عمّان
القدس
غزة
بئر السبع
العقبة
المدورة

دمشق . وكانت متصرفية القـــدس تبعاً لاستقلالها وأهميتها تقيم علاقاتها واتصالاتها مباشرة مع وزارة الداخلية العثمانية دون أن تتبـع أية ولاية من الولايات . وكانت هذه المتصرفيات والأقضية تخضع لوالٍ عثماني يعـيّن من قِبل السلطان ، وكان على رأس الإدارة في كل سنجق متصرف وفي كل قضاء قائمقام وفي كل ناحية مدير ناحية ، وكان يُسمى المتصرف سنجق بك أو باشا ومن ذلك جاءت كلمة « باشاليك » الاسم التركي للولاية[١] .

وكانت مساحة الامبراطورية العثمانية ، بمـــا فيها الولايات الممتازة : ١،٦٦٢،٠٠٠ ميل مربـع وعدد سكانها نحو ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ نسمة . وكانت بلاد الشام بما فيها فلسطين من الولايات الممتازة في الامبراطورية العثمانية[٢] . على أنه بالرغم من التقسيمات الإدارية العثمانية في بلاد الشام ، إلا أنه كان لفلسطين ــ بصورة خـاصة ــ مفهوم عربي جغرافي مميز ، ويعود ذلك إلى أسباب دينية مرتبطة بمعنى الأراضي المقدسة ، وإلى أسباب تاريخية تتعلق بالتطور الإداري الذي شهدته المنطقة منذ تاريخ الفتح العربي الإسلامي[٣] . وكان العـــامل المميز لفلسطين يزداد وضوحاً مع بروز عامل جديد ، فبالأضافة إلى العوامل الدينية والتاريخية ، فقد ظهر عامل سياسي استيطاني صهيوني ، حيث بدأ يشكل خطراً على فلسطين وشعبها . ومنذ ظهور هذا العامل الأخير بدأت المفاهيم السياسية تتبلور حيال فلسطين وتتخذ طابعاً أكثر أهمية وجدّية .

وكانــ لطبيعة النظام الإداري العثماني دورٌ بارزٌ في تردي الأوضاع الاقتصادية للسكان ــ لاسيما الفلاحين منهم ــ وإحداث الفروقات الاجتماعية الشاسعة بين فئات المجتمع الفلسطيني ، مما ساهم إلى حد كبير بتسهيل بيع الأراضي الفلسطينية للطبقة الاقطاعية والرأسمالية من اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين بأسعار متدنية ، وبيعها من قبـــل هؤلاء للمهاجرين اليهود بالتعاون مع الادارة التركية الفاسدة . أما النظام الضرائبي العثماني فكان

---

(١) انظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، أهارون كوهين : الشرق العربي ، ص ٣٢٢ .

(٢) للمزيد من التفصيلات حول اسماء الولايات العثمانية الممتازة والعادية ومساحتها وعدد سكانها انظر : الهلال، ١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٧ ، ج ١ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣) Y. Porath; *The Political Awakening of the Palestinian Arabs and their Leadership Towards the End of the Ottoman Period*, pp. 1, 2.

يمثل قمة ذلك التردي « ... وذلك ما كان مرتباً على حرفة الفواخرية من فخار إلى المتسلم وإلى أعيان نابلس ، وكذلك الذي مرتب على جناين نابلوس من الخضرة المرتبة إلى بيت المتسلم في كل يوم ، وكذلك ما كان يأخذه من أعشار المتسلمون فيما يباع ويشرى من أملاك أهالي نابلوس »[١]. وكان الفلاحون يستأجرون الماشية للحراثة من أسيادهم ويشترون الحبوب الزراعية من أثرياء القرى والمدن ، وكانت الفوائد المتوجبة على الفلاحين من هذا الدين في القرن الثامن عشر تتراوح بين ١٢٪ و ٣٠٪ ، ثم ارتفعت إلى ٥٠٪ حوالي عام ١٨٣٠[٢].

وكانت الاقطاعات الواسعة تخصص للسلطان نفسه ، الذي كان يفوض « المقاطعجية » والادارة المحلية التركية حق جباية الأعشار والضرائب والخراج ، وبالتالي ابتزاز الفلاح الفلسطيني وجميع فلاحي الدولة عموماً ، وكان هذا العامل سبباً بضيق العيش وفقدان حقوق شعوب الدولة العثمانية[٣]. كما وكانت هناك ضرائب غير رسمية تفرض على الفلاحين إذ أنه من الناحية العملية كان يزداد على الضرائب والخراج ما يسمونه بالمال المضاف أو « المال البرّاني »[٤].

وفي عام ١٨٥٦ شددت التنظيمات العثمانية الصادرة لإصلاح الادارة من قبضة العائلات الاقطاعية على مصادر معيشة الفلاح الفلسطيني ، مما اضطر الكثير من صغار الملاك من الفلاحين إلى تسجيل ممتلكاتهم وأراضيهم بإسم الأقطاعيين وبتشجيع منهم ، أو التخفيض من مساحة أراضيهم عند التسجيل وذلك تهرباً من الضرائب والجندية معاً . ففي عام ١٨٥٨ صدر « قانون الطابو »[٥] فزاد من تردي أوضاع الفلاحين الفلسطينيين حيث ملكت الحكومة العثمانية رقبة الأراضي الزراعية التي اقتضى تسجيلها مع فرض رسوم وضرائب جديدة علاوة على ضريبة العشر التي كانت بمثابة زكاة تُستوفى عيناً . كما وضعت الحكومة قيوداً على بعض الأراضي ومنعت انتقالها بالوراثة

(١) الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ، ص ٢٣ .
(٢) بولياك : الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ص ١٨٧ .
(٣) أهارون كوهين ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .
(٤) بولياك : المرجع السابق ، ص ١٨١ . « البراني » لفظ سائد في بلاد الشام ، ويعني دخل مالي عن طريق الرشوة وهو غير الراتب الرسمي .
(٥) قانون تسجيل الأراضي .

أو التوصية بها لأحـد ومنع غرس الأشجار فيها أو البناء عليها. وبالاضافة إلى ذلك فقد خشي كثير من الفلاحين تسجيل أراضيهم على أسمائهم، لأنهم اعتبروا التسجيل مقدمـة للرديف[١]، والخدمة العسكرية الاجبارية في الجيش العثماني. ونظراً لعجز الفلاحين المالي تراكمت الرسوم والضرائب الجديدة على اراضيهم، فعمدت الدولة إلى استيفاء ديونها بعرض هذه الأراضي في المزاد، وكان أهم المشترين السلطان نفسه وبعض الأغنياء اللبنانيين والسوريين[٢].

وفي عام ١٨٥٩ ازدادت عمليات بيع الأراضي الزراعية بواسطة المزاد لاستيفاء الضرائب المترتبـة على الفلاحين، وبهذه الطريقة حصل أغنياء بيروت وتجارهـا أمثال عائلات: بسترس وسرسق وتويني ومتى وفرح وسليم الخوري على أخصب أراضي فلسطين في مرج ابن عامر[٣]. وذلك بقيمة ثمانية قروش للدونم الواحد، وهم الذين باعوها لليهود بأسعار مغرية بعد ان كان الهدف من شرائها المتاجرة ببيعها وليس العمل على استغلالها استغلالاً اقتصادياً. وقد زادت حركة شراء الأراضي الفلسطينية فيما بعد، وكانت قرية معلول العربية الإسلامية ـ المسيحية واحـدة منها، وكانت أراضي هذه القرية قد نقلت إلى إسم مشتريها اللبناني العثماني من السراسقة المقيم في بيروت[٤].

والواقع فإن السلطات المحلية العثمانية لعبت دوراً فعّالاً في مضاعفة تردي الأوضاع لأن التعيين والتوظيف لم يكن يتم إلا بواسطة رشوة رجال السلطان، فيكون الشغل الشاغل للموظفين المحليين الجدد ـ بعـد توليهم مناصبهم ـ أن ينهبوا من الشعب أضعاف ما دفعوه في العاصمـة، ولهذا أصبحت المناصب في تلك الأيام لا تقدر برواتبها الرسمية، بل بمقدار ما تدره على الموظف من المال البرّاني. وكان الموظفون الاتراك يذكرون أن الوظيفة الفلانية راتبها كذا من القروش ولكن «البرّاني» فيها هو ثلاثة

---

(١) الرديف: يقابل النظام الروماني القديم القاضي بفرض ضرائب مرتفعة على اصحاب الاراضي وما يستتبع ذلك من التزامات مالية وعسكرية نحو الدولة.

(٢) فرنسيس املي نيوتن: خمسون عاماً في فلسطين، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٣) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٥٤.

(٤) فرنسيس املي نيوتن، المرجع السابق، ص ١٤٩.

أمثال الراتب أو أربعة أمثاله ، وكانوا يكررون لفظة «البرّاني» في منتهى البساطة [1] . وكان الحكام المحليون يتبدلون سنوياً وبسبب هذا التبدل السنوي بين الحكام العامين في سوريا وفلسطين كانت الحالة حالة قلق وفوضى .

ويؤكد القنصل البريطاني في القدس « جيمس فين » في تقريره إلى اللورد « رسل » بتاريخ ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٥٩ « سوء تصرف ملتزمي الأعشار وضررهم ، وقد وجدوا كل مرة غير مسؤولين إلى الباشا والقانون... وقد جمعت الأدلة لرفع بيان إلى سفير جلالتها في الاستانة في كيفية ابتزازهم الأموال في فلسطين » [2] وكان من المنتظر أن يعامل الملتزمون مزارعيهم معاملة صارمة وسيئة جداً ، فحاول السلطان العثماني تقويم هذا الوضع بفرض نظام المملكة أو «المليكياني» ، غير أن الجهود المبذولة لتطبيق هذا النظام كانت جهوداً فاشلة بسبب عجز السلطان والحكومة عن حماية هذا النظام الجديد إزاء تصلب كل من زعماء العشائر والحكام المحليين وكبار الأغنياء ، لأن هذه الطبقات كانت المستفيدة الأولى من النظام العثماني الفاسد ، وكان باستطاعة كل رجل ثري وصاحب نفوذ أن يصبح ملتزماً للأراضي على أن أقلية الملتزمين أو المتدركين كانت من غير المسلمين كالأقباط في مصر واليهود في فلسطين ، وكانت هناك قرى عديدة يدير شؤونها أفراد من عائلة فارحي اليهودية التي كان لها في النصف الأول من القرن التاسع عشر شأن مرموق في الحياة الإقتصادية والسياسية في ولايتي دمشق وعكا [3] .

والواقع أن الحكومة العثمانية لم تكن في تلك الأيام « تسأل حكام المقاطعات في أغلب الاحيان إلا أداء الأموال الأميرية المضروبة على بلادهم... فيظلمون أو يرحمون كما يريدون ويبتغون ، والناس يحتملون ذلك ولا يجسرون على الشكوى أو إبداء المعارضة لحاكمهم في بيان تظلمهم فاذا أقدم واحد على ذنب التظلم للحاكم أو لأهله وعرف الحاكم به جوزي وأهله بالدمار وقلع الآثار ... » [4] ويذكر أحد الرحالة المعاصرين أنه كان « لكل قرية

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي : محاضرات في الاستعمار ، ج ٢ ، ص ٢٦ .
(٢) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية ، م ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ . انظر ايضاً : اهارون كوهين : الشرق العربي ، ص ٣٢٤ ، فرنسيس املي نيوتن ، المرجع السابق ، ص ٤٩.
(٣) بولياك ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .
(٤) شاهين مكاريوس : حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ٢٨ .

شيخ يتقلد أحكامها ويأخذ منها ما يشاء من الأموال دون ممانع أو معارض. وكان عند الإقتضاء أو عند طلب العيان الحاكمة يقوم بتقديم الأموال لهم وكان يجمعها بفرض الضرائب على الفلاحين[١].

ولعل مقال «نجيب نصار» ــ الأعشار والخزينة والأهالي ــ[٢] هو من أهم ما كتب عن حالة الفلاح الفلسطيني وسوء الادارة العثمانية، حيث يصور تصويراً دقيقاً واقع فلسطين الإقتصادي وجشع الملتزمين وتظلم الفلاحين. ويذكر «نجيب نصار» أنه حدثت تغييرات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بالنسبة لنفوذ الحكام المحليين بالرغم من أن الاجراءات التعسفية كانت بلا ريب غير مفقودة أثناء حكمه (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ولكن القوة التعسفية للزعماء المحليين كانت محطمة، وكان التنظيم الاداري قد أُدخل تحت المراقبة المباشرة على موظفي الحكومة بواسطة الباب العالي[٣].

والواقع أن الأساليب الضرائبية والإدارية التي مورست بحق الفلاح الفلسطيني ومـــا ترتب عليها من أوضاع اقتصادية متردية، تبين للدارس أن هدفها كان جرّ هذا الفلاح رغم إرادته إلى بيع أرضه، وقد نجحت في بعض الأحيان، إلا أنه بالرغم من المعاناة والضيق والفقر وتراكم الديون والفوائد، فقد ظل الفلاح الفلسطيني متمسكاً بأرضه ومرتبطاً بها ارتباطاً عضوياً، وكان نشاطه وكفاءته موضع تقدير وإعجاب زوار فلسطين من مؤرخين ورحالة وسياح. وتشير الأدلة على مواصلة الفلاح الفلسطيني في العمل في أرضه ومضاعفة إنتاجه الأمر الذي أكد أن فلسطين كانت قبل بدء الغزو الصهيوني تـدر الخيرات والمكاسب[٤] وليس كما تدعي المصادر الصهيونية أو كما يدعي «إيلي ليفي أبو عسل» من «أن أراضي فلسطين كانت أسوأ حالاً وأشد بؤساً وأكثر انحطاطاً وأعظم عقماً وأشد أجداباً قبل أن تغمرها تلك الهجرة. فقد بذل هؤلاء اللاجئون [اليهود] إليها دماءهم وأنفقوا أموالهم ...»[٥] وقـد اعترفت بعض المصادر الصهيونية

---

(١) مخطوط : في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية، ج ١، ص ٦١، المكتبة الظاهرية - دمشق، رقم ٤٩١٩.

(٢) ثمرات الفنون، ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨، العدد ١٦٧٩، ص ٣، انظر الملحق رقم (٢١).

(٣) A. Rappoport; *History of Palestine*, p. 322.

(٤) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، ص ٤٥.

(٥) ايلي ليفي ابو عسل : يقظة العالم اليهودي، ص ٢٤٩.

وزوار فلسطين من اليهود وفي مقدمتهم « أوليفانت » (Oliphant) من أن سهول فلسطين كانت تدر الخيرات قبل الهجرة اليهودية إليها ، وقد أبدى إعجابه الشديد بخيرات فلسطين وراح يصف خيرات مرج سهل ابن عامر بقوله : « قد يدهش القراء أن يعلموا أن كل فدان من سهل (ازدرلون) يزرع خير زراعة ، وأن الأمن يسود نواحيه كلها حيثما توجه المتوجه وقصد وأنا بذلك كله الشهيد . وها هو اليوم أمامي بحيرة خضراء يتماوج قمحها حول قرى ودساكر ناهضة كالجزائر فوق هضب مستقرة آمنة : صورة للخصب والبحبوحة باهرة... ومعظمه ملك اثنين : السلطان والسراسقة — الصيارفة السوريين المقيمين في بيروت — وحسبي في تقدير مقادير غلاله أن نفقات نقل الحبوب الحاصلة من مواسم السنة الماضية إلى حيفا وعكا بلغت ٥٠٠٠٠ ريالاً كما قال لي السيد سرسق نفسه ، وهذا عن أراضي السراسقة لوحدهم[١].

ويؤكد تقرير بريطاني لاحق للسير « جون هوب سمبسون » « أنه من الخطأ أن يظن أن مرج ابن عامر كان قفراً بلقعاً قبل أن يحتله المستعمرون اليهود ، وأنه أصبح الآن جنة من الجنان ... وليس من العدل أن يقال بأن الفلاح الفقير الذي أُجلي عن هذه الأراضي كان عالة على الأرض ، وأنه لم يستنتج منها شيئاً قط . فهذا القول على ما يظهر جلياً لا يمثل الحقيقة قط . كان المرج قديماً غنياً بالحبوب والعرب يحسبونه حتى الآن أخصب قطعة في فلسطين ... »[٢] ، وكان قد اعترف بأهمية أرض فلسطين آخرون أمثال الكولونيل « كوندر » والجنرال « تشارلز وارين » وغيرهما وأكد هؤلاء أن فلسطين يمكنها إعالة أُمة كاليهود[٣] .

ويؤكد أحد الرحالة في رحلة قام بها إلى فلسطين « أنه منذ سبع أو ثمانِ سنين أخذت بعض العربان الساكنة في تلك [النواحي] تحرث أجزاء... وهي تأتي بمحاصيل تفوق درجة الإعتدال ، وربما من لم ير الأراضي لا يصدق ما يقال له ما تأتي به محاصيلها ، فإنه قيل بأن مد الشعير اعطى

(١) فرنسيس املي نيوتن : المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) السير جون هوب سمبسون : فلسطين — تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران ، ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) N. Sokolow ; *History of Zionism, vol. I,* p. 230.

بخمسين وأكثر والقمح بثلاثين ... وأنا أولاً قاومت هذه الأقوال غير أنني لما رأيت جذور قصبات الحنطة والشعير تأكدت صدق المقال ... » وتمنى هذا الرحالة على الدولة لو أنها تساعد الفلاح الفلسطيني لتصبح مناطق بئر السبع وغيرها من مناطق فلسطين أكثر ازدهاراً ، « ويا حبذا لو اعتنت حكومتنا السنية بأمرها وشرعت في بناء مدن في تلك السهول المخصبة التي لم تشاهد عينيّ نظيرها . ولو شرعت لأتكلم عن جودتها وخصبها وحسن الهواء هناك لما وجدت في لغتنا العربية الواسعة كلاماً يساعدني على التعبير عنها ، ولكن بوجه الاختصار أقول بأن هذه الأراضي لا يماثلها شيء .. وهي كتبر من ذهب تفتحها أيدي الإجتهاد والغيرة في الأعمال .. »(١)

وانطلاقاً من ذلك كله يمكن تحديد المسؤولية التاريخية والسياسية والإقتصادية على فئتين هما :

أ – الحكم العثماني وما يمثله من سطحية وفساد في إدارة الولايات العربية .

ب – حركة المقاطعجية من اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين المستفيدين من طبيعة النظام العثماني . كما ساهم التدخل الأجنبي فيما آلت إليه الأمور في فلسطين نتيجة تسهيله الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة ومساعدته المهاجرين على الإقامة وشراء الأراضي .

٢ – موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين

يذكر أن احتلال الصليبيين لفلسطين أنهى وجود اليهود فيها ، ولم ينه وجود العرب بالطبع ، حتى أنه في عام ١١٧٠ م . لم يكن فيها سوى شخص يهودي واحد في اللد وآخر في حيفا ، وإثنين في بيت لحم ، وأربعة في القدس يعملون صباغين بموافقة ملك الصليبيين . وما أن عادت فلسطين إلى الحكم العربي حتى سمح صلاح الدين الأيوبي لليهود بالعودة إليها ، فعادوا وعاد معهم يهود من فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وألمانيا أيضاً . ويؤكد « بن غوريون » (Ben Gurion) من أن اليهود كانوا يعملون في الحرب والسمسرة ، وأنهم لم يكونوا يلاقون مضايقات من العرب ، وكان من حوافزهم

(١) مخطوط : في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، ج ١ ، آثار جبل الخليل مع بعض أوصافه ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

الرئيسية للهجرة وقتذاك إضطهادهم في المنفى[١].

وبعد خضوع فلسطين للحكم العثماني في أوائل القرن السادس عشر ، بدأ يهود اواسط أوروبا يهاجرون إليها ، وأقـاموا في الأماكن المقدسة ـ القدس ، طبريا ، صفد ، الخليل ـ وفي منتصف القرن الثامن عشر هاجر عدد من يهود بولندا وروسيا إلى فلسطين بسبب اضطهادهم هناك ، واستقر معظمهم في صفد وطبريا حيث لاقوا تحت حكم ظاهر العمر الحماية والأمن[٢]. كما لاقوا من مختلف السلاطين العثمانيين المعـاملة الحسنة ، وتعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحصل فيها[٣] لليهود اضطهاد . وقد بلغ عدد اليهود في فلسطين عندما غزا نابليون البلاد عـام ١٧٩٩ خمسة آلاف فحسب ، ثم ازداد عددهم في أوائل القرن التاسع عشر بعـد أن ازداد تدفقهم من أسبانيا بسبب مظالم فرديناند الكاثوليكي وفيليب الثاني ، ويسمى هؤلاء اليهود باسم « سفارديم » (Sephardim) أي أهل الكتاب[٤]. والظاهر أن عددهم ارتفع إلى حوالي ستة آلاف في عام ١٨٣٩ مقابل ما يقرب من ٣٠٠،٠٠٠ عربي ، أي أن اليهود لم تتعد نسبتهم ٢٪ من مجموع سكان فلسطين[٥]. بينما يذكر « ماندل » (Mandel) بأن عـدد اليهود عام ١٨٨٠ لم يتعد ٢٣ ألف يهودي موزعين في المدن الأربع المقدسة[٦].

وفي عام ١٨٩٥ كان عدد سكان فلسطين أكثر من نصف مليون نسمة حتى وصلوا عام ١٩١٤ إلى ٧٠٠ ألف نسمة ، وهذا العـدد هو للمسلمين السنّـة (Sunni Muslim) فحسب ، بينما قدر عدد اليهود فيها عام ١٨٩٥ بحوالي ٦٠ ألف يهودي[٧]. وهناك مصادر تبالغ في عدد اليهود في هذه الفترة فيشير صاحب « حسر اللثام عن نكبات الشام » أن عددهم في عام ١٨٩٥ يقرب من مائة ألف أكثرهم في الأراضي المقدسة مثل القدس الشريف

---

(١) D. Ben Gurion; *The Jews in Their land*, pp. 215-217.
انظر ايضاً : شاهين مكاريوس : تاريخ الاسرائيليين ، ص ١٩٥ (مصر ١٩٠٤) .

(٢) A. Rappoport; *op. cit.*, pp. 313, 314.

(٣) شاهين مكاريوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت – القسم الجنوبي ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٥) وليم فهمي : الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٦) N. Mandel; *Turks, Arabs, and Jewish Immigration into Palestine (1882 - 1914)* pp. 79, 80.

(٧) *Esco Foundation for Palestine, vol.* I, p. 463.

ونواحيها[١] . بينما يذكر الأب « لامنس » أن عـــدد اليهود في فلسطين عام ١٨٩٧ يقارب ٨٠ ألفاً وهم في ازدياد[٢] . على أن المصادر الصهيونية تؤكد أن عدد اليهود كان أقل من ذلك بكثير فقد كان عددهم في عام ١٨٩٧ ما يقارب ٥٠،٠٠٠ ألف يهودي ، منهم حوالي ٤٥ ألفاً يعيشون في ٩ مدن صغيرة وكبيرة ، بينما لم يكن هناك سوى ٤٣٥٠ يهودياً يتوزعون على ١٩ مستوطنة من مناطق الإستيطان الحديث[٣] التي كانت تعتمد — حتى هذه الفترة — على نظام الصدقات من « الحالوقا » (Haluka) و « السيناغوغ » (Synagogue)[٤] التي كان يرسلها كبار المتمولين اليهود في العالم لمساعدة فقراء اليهود على البقاء في الأراضي المقدسة وتشجيعهم على عـدم تركها . هذا ويذكر أنه ما بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١٤ بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين حوالي مائة ألف أكثر من نصفهم عادوا إلى بلادهم لا لشيء إلا لصعوبة الحياة وقوانين الحكم العثماني ، ومـا تبقى من المهاجرين بلغ فقط ٥٠،٠٠٠ يهودي[٥] .

أ — الهجرة اليهودية ١٨٦٨ — ١٨٨١[٦]

سعى الرواد الأوائل من يهود ألمانيا في عـام ١٨٦٠ إلى الهجرة إلى فلسطين ، وقد تزعّم هذه الحركة رجل يهودي يدعى « هوفمان » (Hoffmann) من بلدة ورتنبرغ بألمانيا ، وكانت دعوته ذات مظهر ديني ، فأسس جمعية دينية عُرفت باسم « تامبل » أو « جمعية محبي القدس الشريف » . وقبل أن تبدأ الجمعية نشاطها المنظم أرسلت كلاً من رئيسها « هوفمان » مع يهودي آخر هو « هاردج » وذلك في عام ١٨٦٨ ، وطلبا من السلطان عبد العزيز ترخيصاً بتأسيس مستعمرة يهودية ألمانية في الأراضي المقدسة يقطنها المهاجرون اليهود . وبالفعل فقد تمّ لهم الأذن فيما طلباه ، فتوجه « هوفمان » و« هاردج » إلى حيفـــا ومناطق أخرى في سوريا للاطلاع على الإمكانيات المتوفرة

(١) شاهين مكاريوس : حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ٦ ، ٨ .
(٢) المشرق ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٩٤ .
(٣) D. Ben Gurion; *op. cit.*, p. 278.
(٤) Synagogue : هو الكنيس أو المعبد اليهودي .
(٥) N. Mandel; *op. cit.*, p. 79.
(٦) عن تاريخ الهجرة اليهودية الى فلسطين وبقية اراضي الدولة العثمانية انظر مقال :
L'Immigration Juive en Turquie, في *Revue du Monde Musulman,* T-8, 1909, pp. 250 - 251.

والتخطيط للاستيطان اليهودي الألماني .

وفي عام ١٨٦٩ بدأت قوافل « ورتنبرغ » تطأ أرض فلسطين حيث استقرت في حيفا ، وقام « هوفمان » بابتياع أراضي في يافا والقدس وأسكن فيها المهاجرين الألمان الذين أسسوا قرية « صارونة » التي تبعد عن يافا ثلاثة أرباع الساعة . وقد أصابت الفاقة والعوز قسماً كبيراً من المهاجرين لا سيما في حيفا فأنشئت لهم قرية ويلهلمه (حميدية) وذلك عام ١٩٠٠[١] .

وكان لإمدادات الاليانس الإسرائيلي العالمي (L'Alliance Universelle Israélite) أثر واضح في تدعيم عمليات الهجرة والإستيطان بعد تأسسه عام ١٨٦٠ بفرنسا بواسطة ستة أشخاص من اليهود الفرنسيين البارزين ، وهدفه تحرير اليهود من الجهل والتشتت والدفاع عن مصالحهم حيثما وجدوا . وكان الأليانس يولي أهمية كبرى لتعليم اللغة الفرنسية إلى جانب العبرية ، ولذلك بدأ بإرسال المندوبين إلى فلسطين لدراسة أوضاعها والبحث عن سبل لاستملاك الأراضي لتكون بمثابة نواة لمستعمرات يهودية تعدُّ لاستقبال المهاجرين اليهود . وقد نجح رئيس الإليانس « أدولف كريميه » — النائب الإسرائيلي في مجلس النواب الفرنسي — عام ١٨٦٨ في الحصول على ميثاق من السلطان العثماني عبد العزيز يمنح الإليانس أرضاً تبلغ مساحتها ٢٦٠٠ دونم بالقرب من يافا ، بموجب عقد ايجار مدته ١٩ عاماً لإنشاء مدرسة زراعية ، وقد تمّ بناء المدرسة عام ١٨٧٠[٢] بالتعاون مع البارون « ادموند روتشيلد » وعرفت باسم مدرسة « شارل نتر » ممول عملية الشراء والبناء وهو يهودي فرنسي ، وعُرفت أيضاً باسم « مكفة إسرائيل » أي « أمل إسرائيل »[٣]. بينما يسميها الأب لامنس « منزل إسرائيل » حيث يتخرج

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت ، المصدر السابق، ص ٢٣٨ . ويذكر الأميرالاي اسماعيل سرهنك في كتابه : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨١ . انه في عام ١٨٦٨ جاء قوم من مملكة ورتنبرغ الالمانية وانشأوا في الجهة الغربية على مقربة من موقع حيفا القديمة مستعمرة متقنة البناء كثرت فيها الصناعة والزراعة ، فأحيوا كثيراً من الأرض وأوجدوا مركبات مخصوصة تسير بين حيفا وعكا والناصرة . وقد تساهلت الدولة العثمانية لرغبتها في اصلاح تلك الجهات .

(٢) انجلينا الحلو : عوامل تكوين اسرائيل ، ص ٥٧ . انظر ايضاً : حول جهود الأليانس في مساعدة الحركة الصهيونية واليهود وانشاء « المدرسة الزراعية » Ferme — Ecole Mikveh — Israel. A. Chouraqui ; *L'Alliance Israélite Universelle,* pp. 256 - 257.

(٣) انظر حول هذا الموضوع : *Esco Foundation for Palestine,* vol. 1, p. 5. =

منها زهاء ستين شاباً من اليهود على الفنون الزراعية[1] . كما ساهمت السيدة « مينور » (Minor) الأمريكية[2] بتطور المستعمرات الصهيونية بعد أن حوّلت أملاكها لصالح المهاجرين اليهود ولمستعمرة « مكفة إسرائيل » .

أما عن موقف الدولة العثمانية من إنشاء هـذه المستوطنات الزراعية اليهودية ، فلم يكن في هذه الفترة موقفاً صارماً بل متساهلاً إلى حد ما لقناعة المسؤولين العثمانيين بأن الهجرة اليهودية لا تشكل خطراً على فلسطين، وأن الهدف من إقامـة المستوطـنات هو لتطوير الوضع الإقتصادي للدولة العثمانية وإنماء الزراعة في فلسطين على حـد قول « أدولف كريميه » بعد حصوله على الفرمان العثماني . بالرغم من أن الهدف الرئيسي من إنشاء المدارس الزراعية واستئجار المساحات الشاسعة من الأراضي إنمـا يهدف إلى إيجاد مراكز لتدريب اليهود على العمل الزراعي لأسباب استيطانية واقتصادية وسياسية تتعلق بالأماني اليهودية في فلسطين .

وظل النشاط الصهيوني يتزايد لتسهيل الهجرة إلى فلسطين ، فقد تأسس عام ١٨٧٠ أليانس اسرائيلي في بريطانيا عرف بإسـم (Anglo - Jewish Association) وهو على نسق الأليانس الإسرائيلي العـالمي ، ويهدف إلى تطوير اليهود ثقافياً واجتماعياً في البلاد المحرومة والمتخلفة إقتصادياً والتي يتواجد فيها اليهود[3] . وفي عام ١٨٧٣ تأسس أليانس ألماني « على نفس أهداف الأليانس الفرنسي في نشاطه التعليمي . وفي هـذه السنة اشترى بعض يهود القدس مساحة من الأرض أقاموا عليها مستعمرة « بتاح تكفا » (Petah Tekivah) أي « بوابة الأمل »[4] . وبالاضافة إلى هذه المؤسسات وجدت مؤسسات يهودية وماسونية كثيرة تتعاون فيما بينها لخدمة اليهود والصهيونية[5] . وقـد بلغ من خطورة « الأليانس الإسرائيلي العالمي » أن

= خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي، ص ١٤ ، هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، محمود منسى : وعد بالفور ، ص ١٩ .

(١) المشرق ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٨٩ .

(٢) السيدة مينور: سيدة اميركية جاءت الى فلسطين في منتصف القرن الثامن عشر، وامتلكت فيها أراض واسعة أوصت بتحويلها بعد وفاتها الى مستعمرة « مكفة اسرائيل » .

(٣) M. Catane ; *Les Juifs dans le Monde*, p. 22.

(٤) محمود منسى : وعد بالفور، ص ٢٠ .

(٥) حول هذا الموضوع انظر : E. Drumont; *la France Juive*, p. 57. وقد ذكر « دريمون » =

نشاطه لم يقتصر على فلسطين فحسب بل امتد إلى مناطق أخرى مثل لبنان وسوريا ومصر وغيرها متعاوناً مع المحافل الماسونية فيها ومع أغنياء اليهود المتحكمين ببعض الأمور الإقتصادية [1]. وقد استطاع النافذون من اليهود إقناع عدد كبير من البورجوازية المسيحية على الدخول في المحافل الماسونية للقضاء على الدولة العثمانية، ولجأ المسيحيون بدورهم إلى الوجهاء المسلمين للإشتراك معهم في هــذه المحافل، على أن المسلمين في بيروت لم

= المؤسسات التالية : L'Union of American Hebrew Congregation, Les B'nai Brith, Le Judish Orthodox, La Société des Damas, L'Accord Israélite, Les Israélites Français, Le Bien d'Israël, Les Enfants de Sion, etc...

(١) تؤكد الوثائق ان كثيراً من يهود الدولة العثمانية قد سيطروا على النشاط الاقتصادي بواسطة اشتغالهم بالصيرفة والربا والتجارة الخارجية التي اقاموها بـين بلاد الشام ومصر، ومن بين هؤلاء عائلة فارحي والخواجـه يعقوب وديتيو أفندي وهارون جديد واسحق الفندري وغيرهم. (وثائق رقم: ٩٩٨٦، ١٤ محرم ١٢٥٢ هـ، ١٢٠٥٥، ١٣ ذي الحجة ١٢٥١ هـ، ٨٠٠٦، ١٠ ذي الحجة ١٢٥٤ هـ. مديرية الوثائق بالمتحف الوطني - بيروت.) ويبرز النشاط الإقتصادي اليهودي في الدولة العثمانية في دراسة بعض الرسائل التجارية المرسلة من قبل بعض التجار أمثال: بطرس عكاوي وميخائيل ساروفيم وعبد القادر الحفـار إلى عمر وعبدالله الحلبي، فتذكر إحدى رسائل الحفار إلى آل الحلبي - بعد أن سألاه بعض المال - أن «اليوم اليهود معطلين والصراف مسكر [مقفل] لا يكون لكم فكرة تصلكم صرة [صرة مال]» (وثيقة رقم: ٩٨٨٩، جماد الآخر ١٢٥٢ هـ) وعن الربا الذي كان يقوم به حاخام اليهود ببيروت مدور أفندي أنظر: (وثيقة رقم: ١٤٤١، ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٧ م ووثائق أخرى موجودة في مديرية الوثائق بالمتحف الوطني - بيروت).

وفي دمشق مارس اليهود نشاطاً إقتصادياً بارزاً تمثل بالإشتغال بالصيرفة وشراء السندات الماليـة بثمن بخس لإستغلالها في الظروف المناسبة (أنظر: عبد العزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سوريا، ص ٣٠٧، نقلاً عن أرشيف استانبول وثيقة رقم: ٢٤٤، ٧ صفر ١٣١٧ هـ). وفي مصر مارس اليهود الأعمال المالية واستغلوا الشعب المصري بعد أن أسس «البنك المصري العقاري» عام ١٨٨٠ ثلاثة من كبار المرابين اليهود المقيمين في مصر وهم: سوارس، ورولو، وقطاوي، بالإتفاق مع ثلاثة من أكبر بنوك فرنسا هي: بنك الكريدي ليونيه، سوسيته جنرال، كونتوار ناسيونال دي سكونت، وقد امتد نشاط هـذا البنك إلى الأهالي بشكل مخيف حتى استطاع أن يسلب الشعب مـاله وأرضه. (أنظر: طلعت حرب: علاج مصر الإقتصادي، القاهرة ١٩١١، أو مجلة العربي شباط (فبراير) ١٩٧١، العــدد ١٤٧، ص ١٦٥، أنظر أيضاً: يعقوب الخوري: اليهود في البلدان العربية، بيروت ١٩٧٠) وقد بلغ من قوة نفوذ اليهود أن عطلوا الصحف المناهضة لسياستهم كمحاولتهم تعطيل صحيفتي «المحروسة» و «الفلاح» القاهريتين وأن «غرامة القضية ألف أو ألفين جنيه تدفع لتعطيل المحروسة ولو ستة أشهر مـع سجن صاحبها يكون أشرف لنا ...» واستطاعوا عملياً تعطيل صحيفة البشير «البيروتية» و «أن التعطيل كان بسبب اليهود». وعطلوا صحيفة «استامبول» في الإستانة. أنظر: مخطوط: صراخ البري في بوق الحرية، ص ٢٣، ٦١، ٦٥، وصفحات متفرقة أخرى.

يتجاوبوا كثيراً مع هذه الإتجاهات ، بدليل أنه لم ينضم إلى الماسونية سوى عدد قليل منهم [١]. وكانت بيروت قد شهدت افتتاح فروع للماسونية في أراضيها لاسيما محافل الشرق الفرنسي والاسكتلندي في عامي ١٨٦٨ و ١٨٦٩ .

وكان « الأليانس الإسرائيلي العالمي » في فلسطين قد حرص على نشر مبادئه وأهدافه بين يهود الدولة العثمانية لتسهيل وتحقيق أهدافه . وفي بيروت مارس « الأليانس الإسرائيلي » سياسته تحت شعار العلم والثقافة وإنشاء المدارس ، ومن هذه المدارس « المدرسة الإسرائيلية » التي تأسست عام ١٨٧٦ . وكان الحاخامون يتصلون بأغنياء بيروت ولاسيما اليهود منهم لتمويل المدرسة بحجة أن امكانياتها المادية لا تسمح لها بالاستمرار ، وكانت هذه الأساليب محاولة لإخفاء أهدافها الأساسية بل أن مجلة « الهلال » ترثي هذه المدرسة بقولها : « ألا يعد سقوط هذه المدرسة والحالة هذه عاراً على الطائفة الإسرائيلية وفيها جمعية الأليانس الشهيرة » [٢] .

وللدلالة على التعاون الوثيق بين المدارس الإسرائيلية والأليانس الإسرائيلي في الدولة العثمانية عدم سقوط تلك المدرسة الإسرائيلية أو إقفالها ، بل أكثر من ذلك فقد تأسست مدارس جديدة وجمعيات يهودية جديدة تابعة للإليانس الإسرائيلي ، ومن هذه الجمعيات جمعيتان دينيتان إحداهما في صيدا وتعرف بإسم « جمعية صهيون » وكانت تهتم باحياء التراث الصهيوني واليهودي ، وفي إحدى حفلات الجمعية قدمت خطبة نفيسة في تاريخ صهيون [٣]. وهناك جمعية أخرى تعرف بإسم « جمعية الإحسان الإسرائيلية » التي قامت برئاسة حضرة حاييم أفندي مخائل دانا [٤].

وتعود أهميـة تواجد الاليانس الإسرائيلي والجمعيات اليهودية في البلاد المتاخمة لفلسطين حرصها الشديد على إدخال المهاجرين اليهود إلى الأراضي المقدسة ، فبعد أن يصطدم هؤلاء بقوانين الهجرة — الصادرة عن الدولة العثمانية — في موانئ فلسطين ، يتجه المهاجرون إلى صور وصيدا وبيروت.

---

(١) زين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٦١ .
(٢) الهلال ، ١ أيار (مايو) ١٨٩٤ ، ج ١٧ ، ص ١١٦ .
(٣) الجنان ، ١١ تموز (يوليه) ١٨٩٦ ، رقم ١٥٨٩ ، ص ٢٢٩ .
(٤) الهلال ، ١٥ شباط (فبراير) ١٨٩٧ ، ج ١٢ ، ص ٤٧٣ .

للاتصال بالمسؤولين اليهود لتيسير تسللهم إلى فلسطين عبر المناطق الجنوبية للبنان – ولاية بيروت الجنوبية – وكثيراً ما تكررت هذه الحوادث .

وشهدت مصر نشاطاً فعّالاً « للإليانس الإسرائيلي العالمي » حيث تعاون مع يهودها على تأسيس المحافل مثل محفل « إبن ميمون » عام ١٨٨٧ ومحفل « الياهو حنابي » ومحفل « الإخلاص » والعديد من الجمعيات اليهودية والمدارس التابعة لها ، والعديد من الصحف الإسرائيلية الداعية إلى عودة اليهود إلى فلسطين ومنها : صحيفة « الرسول الصهيونية » ، « مصر الإسرائيلية » ، « الشمس » و « المنبر اليهودي » . وكان يهود مصر لا يدينون مطلقاً بالولاء لمصر ، بل للدول الأوروبية التي كانت بنظرهم المؤيد الأول لتطلعاتهم . وكان أكثرهم أعضاء في الجمعيات الماسونية أمثال : جاك بخور ده منشه الذي انتظم فيها منذ عام ١٨٧١ [١].

هذا بالنسبة لبعض المناطق العثمانية المحيطة بفلسطين . أما في فلسطين فقد حدث أن أسس الحاخام « يهودا شيلوم حاي القلعي » عام ١٨٧١ جمعية لاستعمار الأراضي في القدس ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تخليص اليهود من الشتات والنفي (Diaspora) باعتبار أن فلسطين هي السبيل الوحيد أمام اليهود ، لأن الهجرة إليها تعني التوبة « تشوبح » (Teshubah) ، والتوبة لا تعني فقط العودة إلى الله ، وإنما العودة إلى الأرض أيضاً والبحث عن صهيون (Derishat Zion) . وكانت فكرة العودة إلى فلسطين جزءاً من المعتقدات الدينية اليهودية ، إلا أنها اعتبرت نوعاً من المعجزات ترتبط بظهور المسيح المنتظر الذي سيعود لإنقاذ الشعب اليهودي من منفاه وإعادته إلى أرض صهيون ، إلا أن مثل هذه المعتقدات أصبحت مسرحاً خصباً لكتّاب الأساطير مهووسي العظمة [٢]. ومهما يكن من أمر ، فقد استمر الحاخام « القلعي » في اتجاهه ، إلا أنه لقي معارضة من جانب « الحالوقا » (Haluka) التي كانت تمثل اتجاهاً لدى الكثير من اليهود المهاجرين إلى فلسطين ،

---

(١) حول النشاط الصهيوني واليهودي والماسوني انظر : A. Chouraqui; *op. cit.*, p. 163.
J. Landau; *Jews in Nineteenth- Century Egypt*, p. 85.
أحمد غنيم ، أحمد ابو كف : اليهود والحركة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ - ١٩٤٧ ، ص ٢٩ – ٣٧ ، مجلة العربي شبـاط (فبراير) ١٩٧١ ، العدد ١٤١ ، ص ١٦٥ ، مجلة اللطايف ، السنة الأولى ١٨٨٦ ، جـ ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) I, Zangwill ; *The Return to Palestine*, p. 616.

ويعود سبب هذه المعارضة إلى سببين :

الأول : حينما يهاجر يهود العالم إلى فلسطين يحدث إهمال « الحالوقا » وإهمال عائلات يهودية كثيرة في فلسطين .

الثاني : أن العمل في الأرض يصرف اهتمام « شعب إسرائيل » عن دراسة التوراة التي يجب أن تكون في طليعة الإهتمامات اليهودية ، فالحالوقا مؤسسة دينية أرسلت على نفقة المؤسسات الدينية اليهودية إلى فلسطين لتعميق المفهوم الديني وتشجيع الدراسات الموسوية . أضف إلى ذلك أن هجرة أعداد جديدة من اليهود ستؤدي حتماً إلى تدني نسبة مداخيل « الحالوقا » مما يشكل منافسة معيشية ومالية لها الأثر الواضح على ممن يعيشون على الصدقات والحسنات .

وفي عام ١٨٧٦ استمرت محاولات تشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين عندما فاوض « حاييم غوديلا » — ابن أخ مونتفيوري — الحكومة العثمانية على شراء مساحات من الأراضي في فلسطين على أن السلطان العثماني رفض هذه المرة هذه الإقتراحات بعد أن رأى تزايد الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة . وبالفعل فقد امتدت رقعة الإستيطان إلى مناطق أخرى غير مناطق حيفا ويافا وطبريا والقدس مثل بيت عمر ، ففي عام ١٨٧٤ بلغ عدد اليهود في مقاطعة بيت عمر قرب جبل الخليل ٤٠٠٠ يهودي في مقابل ٥ نصارى و ٣٢،٤٠٠ مسلم[١] . وقد تكاثر اليهود أيضاً في منطقة الجاعونة لاسيا بعد ان اشترى اليهوديان « فريدمان » و « مانشتاين » — وهما من يهود صفد — جزءاً من أراضي القرية من رجال الإقطاع وذلك في عام ١٨٧٧ ، وبدأ تنظيم الهجرة إليها ، واستغلال مناطقها الزراعية ، على أن الصعوبات المالية والمعيشية والمهنية بالاضافة إلى مضايقات الأهالي — التي بدأت تواجه اليهوديين ومن معهما — اضطرتهم إلى بيع تلك الأراضي إلى مهاجري رومانيا الذين توافدوا بعد حركة الإضطهادات فترك بعضهم البلاد إلى كندا وبعضهم الآخر إلى فلسطين[٢] . كما واجهت المهاجرين الجدد في الجاعونة عقبات

(١) مخطوط : في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

(٢) تصف صحيفة « الجنان » اوضاع اليهود في رومانيا ومدى الغبن اللاحق بهم من الحكومة التي كانت تغض الطرف عن اضطهادهم ، فطالب جماعة من مثقفي رومانيا ايجاد حل لهذه المشكلة « والظاهر من رسالة برقية صادرة من بخارست ان الحكومة أمست في حيص بيص ، فهي غير =

كثيرة في مقدمتها ردود فعل الأهالي وقلة المال وعدم الخبرة الزراعية ، فتقدموا إلى البارون « روتشيلد » وطلبوا منه تسليفهم مبلغاً من المال ، فأرسل البارون إلى الجاعونة موظفاً يسمّى « شايت » لمساعدتهم على تحقيق الإستيطان . ومنذ ذلك الحين بدأوا باستعمار القرية بمزروعاتها وبأبنيتها وبمؤسساتها على حساب البارون[١] .

أما بالنسبة إلى قضاء صفد ، فقد اتجه إليها جماعة من مهاجري بولونيا الروسية ، وكانوا يعتقدون بهبوط السيد المسيح في أرض فلسطين وقد اعتمدوا في حياتهم على الصدقات والإنعامات الخارجية من أثرياء اليهود ، بينما كانت فئة قليلة تعمل في التجارة . ويذكر « ماندل » (Mandel) — المؤرخ اليهودي — أن هجرة اليهود عام ١٨٨٠ إلى البلاد المقدسة كانت بأعداد قليلة ، ولكن التغيير الجذري في مسألة الهجرة حدث بالنسبة إلى يهود شرقي أوروبا نتيجة الإضطهاد في أواخر القرن التاسع عشر ، وتكوّن لدى أكثرهم شعور بضرورة الهجرة ولا سيما من روسيا القيصرية ، فاتجهت غالبيتهم إلى أمريكا بينما عدد قليل منهم هاجر إلى فلسطين[٢] .

والواقع أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد تزايدت بعد اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثاني عام ١٨٨١ — وكان اليهود قد شاركوا في اغتياله — وبذلك ظهرت موجة من الاضطهادات ضد اليهود الروس[٣] . واتخذت الحكومة الروسية عدداً من القرارات المناهضة لليهود والمقيدة لحريتهم . ويذكر بأن اغتيال القيصر لم يكن السبب الوحيد لإصدار مثل هذه القرارات إنما جاءت نتيجة لتحذيرات الإقتصاديين الروس وتنبيه الحكومة إلى وجوب إتخاذ إجراءات جذرية لمنع انهيار الاقتصاد القومي والحياة الاجتماعية بسبب الوسائل غير المشروعة التي يستخدمها التجار والمرابون اليهود[٤] ،

= قادرة على تغيير القوانين بدون رضى مجلس المبعوثين [النواب] والظاهر ان اكثر المبعوثين قد تعهدوا لمنتخبيهم قبل انتخابهم لهم بأن يضادوا كل ما ياول [يؤول] الى مساواة الاسرائيليين». وختمت الصحيفة قولها : «فهذا يدل على تأخر أهالي رومانيا ويجلب عليهم العار» . انظر: الجنان ، ١ آب (اغسطس) ١٨٧٩ ، ج ١٥ ، ص ٤٥٤ .

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت ، ولاية بيروت - القسم الجنوبي ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٢) N. Mandel ; *op. cit.*, p. 79.

(٣) J. et J. Thauraud; *Histoire des Juifs*, pp. 221-223.

(٤) الأميرال وليم غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ١٥٨ .

الذين ألحقوا الأضرار بالشعب الروسي ، وكانت الطبقة التي أُصيبت بالأذى أكثر من غيرها من جراء ممارساتهم هي الطبقة الفقيرة ، ولذلك فقد قوي شعور العداء لدرجة جعلت عامة الناس تتهم أغنياء اليهود بأنهم يستعبدون الشعب ويستغلونه [١] . ويذكر « حبيب فارس » — صاحب مخطوط « صراخ البري في بوق الحرية » — بأن الرأي العام في روسيا طالب بالإنتقام من اليهود « إذا لم يجدوا سبيلاً للتخلص من المكر والحيل والدهاء المقرون بالبغض والخبث والبخل ... قد شاهدوا جمع الكثيرين من اليهود للمال بطريق الغش والاحتيال ، ولم ينظروا فيهم من يحرث الأرض أو يكسب المعيشة بعرق الجبين » [٢] .

وقد ذكرت جريدة « الأهرام » — نقلاً عن جريدة النورد — مقالة مطولة شرحت فيها الأسباب التي اضطرت روسيا إلى معاملة يهود بلادها بهذا الشكل فقالت : « إن الإسرائيليين ينفرون من الاشتغال بالزراعة والفلاحة وأن ليس للصناعة عمل عظيم في الروسيا ، فينصبّون لذلك على التجارة بسائر أنواعها وما فيها من المضاربة انصباباً يجعلهم أن يحتكروها لأنفسهم فينتج عن ذلك غناءهم وفقر الروسيين . ثم قالت : أو على فرض امتداد الصناعة في الروسيا أفترى الإسرائيليين لا يأنفون من الاشتغال فيها ، وهل يرفضون أن يكونوا عملة [عمّال] في المعامل ؟ » [٣] .

ويمكن أن نفسر بأن سبب تدهور أوضاع اليهود هذه في روسيا وأوروبا الشرقية إنما يعود إلى عامل إقتصادي هام ، وذلك نتيجة للمنافسة الاقتصادية اليهودية للشعب الروسي ، بالإضافة إلى عوامل سياسية واجتماعية اخرى . أما في أوروبا الغربية فقد كان اليهود يلقون معاملة أفضل بقليل مما يلقونه في أوروبا الشرقية ، وكانت الشخصيات اليهودية ممثلة في غالبية أحزاب انجلترا ، كما أن النواب الإنجليز كانوا يؤيدون الصهيونية ، وبالرغم من ذلك فقد ظهرت في بعض الأحيان حملات لا سامية ضد اليهود [٤] .

---

(١) اسعد رزوق : اسرائيل الكبرى ، ص ٥٨ . انظر ايضاً حول اليهود في روسيا : L. Greenberg; *The Jews in Russia.* ، شيريب : حكومة العالم الخفية ، ص ٧٢ .

(٢) مخطوط : صراخ البري في بوق الحرية ، ص ٢٣٣ .

(٣) الأهرام ، ١٥ تموز (يوليه) ١٨٩١ ، العدد ١٣٦ .

(٤) M. Catane; *Les Juifs dans le Monde,* p. 18.

ولما كانت انجلترا تشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتتخذ منها موقف المؤيد ، فإن نظرتها إلى الهجرة اليهودية كانت تتبدل إذا ما تحولت إليها وتقول « الأهرام » في هذا الصدد : « إن انجلترا تنظر شذراً إلى العمال الإسرائيليين في لندن إلى حدٍّ يحملنا على الظن بأن اهتمام الانجليز بيهود الروسيا والشفاعة بهم لم يكونا إلا لخوفهم من أن يخرجوا من الروسيا فيدخلوا بلادهم ، فإن اللورد سالسبوري قد استلفت [لفت] أنظار سفيره في برلين إلى المهاجرة الإسرائيلية الروسية وأوصاه بأن يُفهم هؤلاء المهاجرين بأن لا مكان لهم في انجلترا حيث سوق الأعمال قد ضاقت بالنازلين فيها ، فبادر السفير إلى تسكين خاطر الوزير بإطلاعه على أن لجنة برلين باذلة أقصى جهدها في منع المهاجرة إلى انجلترا وتوجيهها بجملتها إلى أمريكا وفلسطين »(١) .

ومن دراسة الموقف البريطاني من الهجرة اليهودية إلى انجلترا نستطيع أن نتبين بأن رفضها إبقاء المهاجرين اليهود في أراضيها وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين إنما يعود إلى سبب اقتصادي نتيجة لتخوف انجلترا من أن يشكل هؤلاء المهاجرون عبئاً اقتصادياً على البلاد وعاملاً منافساً للعمال البريطانيين ، كما أن توجه اليهود نحو فلسطين من الممكن أن يفيد تطلعات انجلترا الإستعمارية في المنطقة . وقد اتخذ بعض نواب المجر من موقف انجلترا ذريعة بعدم قبول اليهود في البلاد وقال أحدهم : « أيجوز بعد هذا أن تؤاخذ الروسيا فيما لها من الحق الأدبي بتحديد إقامة اليهود في مقاطعات تبلغ مساحتها نحو نصف بلادها مخافة أن ينشروا في أنحاء هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها أمراً لا نسميه المزاحمة في العمل بل ندعوه عن صواب بالخراب والويل »(٢) .

ونظراً لأوضاع اليهود في أوروبا الشرقية توالت الهجرات اليهودية إلى فلسطين بهدف الخلاص تشجعهم حركة « دعاة التحرر واللااندماج » التي رأت أن حل المشكلة اليهودية لا يتم إلا في فلسطين ، وراح « موشيه ليلينبوم » (١٨٤٣ — ١٩٠٠) ينشر هذه الأفكار في كتاب له بعنوان : « بعث الشعب اليهودي في أرض أجداده المقدسة » .

---

(١) الأهرام ، ١٥ تموز (يوليه) ١٨٩١ ، العدد ١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه .

ومما يسترعي الإنتباه أنه خـــلال الفترة الأولى من الهجرة اليهودية (١٨٦٨ – ١٨٨١) لم تتخذ الدولة العثمانية موقفاً ثابتاً من اليهود القادمين إلى فلسطين باعتبار أن هجرتهم لم تكن بأعداد كبيرة ، ولم يكونوا بعد يشكلون أخطاراً ظاهرة للعيان ، إلا أنه في أواخر عام ١٨٨١ صدر أول قرار عثماني ضد اليهود الروس معلناً بدء اتخاذ المواقف السلبية من هـــذه الهجرة(١) ، بعد أن كانت الأراضي التي يملكها اليهود حتى عام ١٨٨١ قاربت ٦١٠٠ دونم(٢) .

ب – الهجرة اليهودية ١٨٨٢ – ١٨٩٦

تعتبر هجرة ١٨٨٢ « العالية الأولى » بداية الصهيونية الحديثة نظراً لفعاليتها وتنظيمها من قبل بعض الزعماء الصهيونيين أمثال : « لواونتن » ، « واينبرغ » الروسي ، « فرايمن » البولوني ، « هابسمن » الروسي و « هابغن » الألماني الذين سبق لهم أن أسسوا جمعية لتشجيع الهجرة كانت أولى نتائجها مجيء أول قافلة من مهاجري روسيا اليهود ، فأقام هؤلاء مستعمرة « ريشون لوزيون » في منطقة يهوذا(٣) وعرفت هذه الجمعية بإسم جمعية «أحباء صهيون» (Hovevei Zion)(٤) . وكان من بـين أهدافها العمل على تأسيس مستعمرات زراعية في فلسطين تكون فـيما بعد أداة لامتلاك البلاد برمتها(٥) . وبعد انتشار فروعها في روسيا ورومانيا وانجلترا حاولت صياغة أفكارها صياغة علمية واعطاءها صفة قومية ، ثم عملت على خلق جمعيات طلابية في روسيا عرفت بإسم « بيلو » (Bilu)(٦) « والحالوتس » (Halutz)(٧) . وقامت جمعية « أحباء

---

(١) N. Mandel; *op. cit.*, p. 80.
(٢) نشرة خاصة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية تحت الرقم : Aa 80
(٣) محمد رفيق ومحمد بهجت ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٤) كانت التسمية الروسية لها «حب فلسطين» (Palestine Philstvo) والشعار الذي رفعته « الى فلسطين » . ولكن سميت باسم « احباء صهيون » بعد المؤتمر الأول في « كاتو فيتز » عام ١٨٨٤ الذي يتبنى برنامجاً عرف باسم « مذكرة موسى» (Mazkeret Mosheh) ، وقد حصلت هذه الجمعية على الاعتراف الرسمي بهـا عام ١٨٩٠ تحت اسم آخر هو « جمعية مساعدة المزارعين والمهنيين اليهود في فلسطين وسوريا » .
(٥) يوسف الحاج : هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود ، ص ٨٦ .
(٦) « بيلو » هي الأحرف الأولى من اربـع كلمات عبرية في التوراة تعني : « آل يعقوب دعونا ننهض ونذهب » .
(٧) « حالوتس » تعبير في التوراة يعني : « طليعة القوة المسلحة لفتح الارض » .

صهيون » بإنشاء جمعية طلابية يهودية في النمسا وعرفت بإسم « كاديمة » (Kadimah) [١]. وقد كان لجمعية « أحباء صهيون » [٢] دورٌ بارزٌ في تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وبين عامي ١٨٨٢ و ١٨٨٤ تأسست مستوطنات زراعية عديدة ، كان لها الفضل الأول في تأسيسها [٣]. وقامت بنشاط ملحوظ لدى السلطات العثمانية ، ففي عام ١٨٨٢ تقدمت من القنصل العثماني في أوديسا للحصول على إذن بالهجرة إلى فلسطين والإستيطان فيها ، ولكن الحكومة التركية أوعزت إلى القنصل في نيسان (ابريل) عام ١٨٨٢ برفض هذا الطلب ، وإشعار جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى الدولة العثمانية بأنه لن يسمح لهم بالإستقرار في فلسطين ، على أنه لا يعني ذلك السماح لهم بالهجرة إلى المناطق العثمانية الأخرى والإستقرار فيها كيفما شاؤوا ، بل عليهم أن يصبحوا رعايا عثمانيين وأن يقبلوا تطبيق القوانين المعمول بها في الأمبراطورية [٤].

وبالرغم من اعلان الموقف العثماني وإصدار قوانين ١٨٨٢ الخاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية ، فقد استمر اليهود في محاولاتهم لاقناع السلطان عبدالحميد الثاني ، وتوجه كثير منهم إلى القسطنطينية ليغيروا قانون الهجرة ، وكان في مقدمة من ذهب لهذه الغاية « لورنس أوليفانت » (L. Oliphant) الذي طلب وساطة السفير الأمريكي . ولكن هذه الجهود لم تثن السلطات

(١) « كاديمة » تعبير له معنيان في وقت واحد ، « الى الامـــام » (Vorwärts) والى « الشرق » (Ost - warts) وقد استطاعت هذه الجمعية ابتداء من عـــام ١٨٨٨ ان تتحول الى جمعية عسكرية للدفاع عن اليهود ومصالحهم، وقد عملت على تجنيد جماعات منهم ضمت حوالي الفين من المدربين عسكرياً لتحقيق مشروع انزال على شواطىء يافا ، ولكن هـذا المشروع فشل منذ بدايته .

(٢) للمزيد من التفصيلات عن جمعية أحباء صهيون انظر :
A. Cohen *; Israel and the Arab World,* pp. 32 - 38, *Esco Foundation for Palestine*, vol. I, p. 51 ; I. Cohen; *A Short History of Zionism*, p. 33.
انظر ايضاً : خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي ، ص ١٧ ، آلان تايلور : مدخل الى اسرائيل ، ص ١٤ ، انجلينا الحلو : عوامـل تكوين اسرائيل ص ٥٨ ، اسعد رزوق: اسرائيل الكبرى، ص ٧٤، حسن صبري الخولي: فلسطين بين مؤامرات الصهيونية والاستعمار ، ص ٨ .

(٣) من هذه المستوطنات اليهودية: «ريشون لوزيون» (Richon-Le-Zion) وتعني «الأولون الى صهيون » ، ومستعمرة « نس زيونا » (Ness Ziona) أي « صهيون الجديدة »، و« زخرون يعقوب » (Zichron Jacob) وتعرف باسم « زمارين » ، ومستعمرة « جدايرة » (Jediera) أي « قطرة » .

(٤) N. Mandel ; *op, cit.*, p. 80.

العثمانية عن التمسك بقانون منع اليهود من الإقامة بفلسطين (١). ونتيجة لازدياد شكوك السلطان بالتحرك الصهيوني أفهم المبعوث اليهودي «أوليفانت»، بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من المملكة إلا في فلسطين، وان الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين ولكنها لا ترحب باقامة مملكة لليهود في فلسطين يكون أساسها الدين (٢). والحقيقة أن «أوليفانت» صدم من موقف السلطان العثماني وراح ينشر الدعايات ضده، فما كان من السلطان إلا أن طرده من استانبول ومنعه من دخولها، فاخذ المبعوث الصهيوني يكرر محاولته ثانية ووسط «استراوس» — وزير أمريكا المفوض في استانبول — الذي اجتمع بالسلطان لاقناعه بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ولكن السلطان أفهمه صراحة أن لا أمل ببقاء اليهود في فلسطين.

والجدير بالذكر أنه خلافاً للموقف العثماني الرسمي الممثل بالسلطان وحكومته، فإن الإدارة العثمانية المحلية في فلسطين كانت تتحايل على القانون وتتعاون مع القناصل الأجانب والمهاجرين اليهود لتسهيل دخولهم إلى فلسطين دون تسجيل أسمائهم على اللائحة الخاصة بالزوار. وهكذا استمرت الهجرة اليهودية عن طريق رشوة الموظفين العثمانيين ومعونة قناصل الدول الأجنبية، لاسيما القناصل الروس والألمان والانجليز والأمريكيين، خاصة وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد حددت هجرة اليهود إليها أيضاً عام ١٨٨٢ (٣). وقد إتبع اليهود أسلوب الرشوة لدخولهم إلى فلسطين لقناعتهم بأن الحكم التركي كان شبيهاً بالحكم القيصري في روسيا، أي أنه كان قائماً على الفساد والرشوة، وان باستطاعة الرواد اليهود أن يأتوا إلى فلسطين وأن يشتروا الأراضي وأن يبنوا المستعمرات وأن يمهدوا بذلك لتحقيق الوطن القومي فيما بعد (٤). على أن هؤلاء في حال تسجيل أسمائهم أثناء زيارتهم لفلسطين كان يعلم كل واحد منهم أنه يقيد في سجل غير المرغوب فيهم، ويجوز إخراجه من البلاد في أي وقت تشاء السلطات العثمانية. كما أن

(١) N. Mandel; *op. cit.*, p. 80.

(٢) فرانك مانويل: بين أمريكا وفلسطين، ص ٢٥.

(٣) حول هذا الموضوع أنظر: محمود منسى: تصريح بالفور، ص ٢٠، الياس سعد: الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، ص ١٥، فرانك مانويل، المرجع السابق، ص ٢٧، صالح بويصير: جهاد شعب فلسطين، ص ٣١.

(٤) حاييم وايزمن: التجربة والخطأ، ص ٨.

الحكم العثماني كان يمنع بيع الأراضي لليهود ويمنع بناء مستعمرات لهم[١]. وكانت تنتظر اليهود – بالإضافة إلى القوانين العثمانية – قوة رادعة تمثل الفلاحين في فلسطين وتسيطر على غالبية الأراضي الزراعيـة ، وان كانت أساليبهم الزراعية بدائيـة ومستوى معيشتهم متدنياً ، فهم ينتشرون في كافة أنحاء البلاد ويملكون معظم الأراضي فيها[٢]. وقد وردت في مذكرات « أليعازر بن يهوذا » – صاحب إحياء اللغة العبرية في فلسطين – ما يؤكد ردود الفعل العربية والتركية على السواء من جراء الهجرة اليهودية فيقول : « كان ألوف المهاجرين الروس الذين تدفقوا على فلسطين بسبب الاضطهادات الروسية الأخيرة يملأون شوارع يافا ، مما أثار شكوك العرب ، ثم سرت الإشاعات وتواترت عن قرب صدور أوامر تقضي بإبعاد المهاجرين عن فلسطين » .

وفي تلك الفترة أيضاً جاء إلى فلسطين « رؤوف باشا » (١٨٧٦ – ١٨٨٨) وهو رجل مستقيم نظيف اليد ، عينته الدولة متصرفاً على القدس ، فأخذ يرسل بين الحين والآخر القوات العثمانية للبحث عن اليهود المقيمين بطريقة غـــير قانونية ، ولكن هذه القوات كانت في كثير من الأحيان تخضع لشهوة المال الذي كان اليهود يمنحه بسخاء لقاء الصمت وغض النظر عن إقامتهم . وكان « رؤوف باشا » في صراع مع اليهود منذ عام ١٨٧٨ ومن المعارضين للهجرة اليهودية لأنه كان يعي تماماً أنه انتشرت بين اليهود أحلام العودة إلى فلسطين ، وأن ما يفعله ضد المستعمرات اليهودية إنما لازالة الحلم ، وكثيراً ما تنازع مع القنصلين الروسي والألماني بسبب احتجاجاتهما المتكررة ضده بسبب ملاحقاته للمهاجرين اليهود . والواقع أنه كان لردود الفعل العربية أثر واضح في سياسة « رؤوف باشا » حين اجتمع أكثر من مرة مع المتنورين من العرب الذين أبدوا معارضتهم للهجرة اليهودية سواء بتقديم العرائض أو بالهجمات على المستوطنات اليهودية[٣] .

وفي ٢٩ حزيران (يونيه) عام ١٨٨٢ أرسل الباب العالي إلى متصرف القدس رسالة يطلب فيها أن يمنع اليهود الذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من الدخول إلى القدس . كما أبلغت الدولة العثمانية

---

(١) حايم وايزمن : التجربة والخطأ ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) A. Cohen; *Israel and the Arab world*, p. 46.

(٣) انظر : E. Golomb; *The History of Jewish Self-Defence in Palestine 1878-1921*, pp. 11,13.

البعثات الدبلوماسية لدى الباب العالي رسمياً قرار مجلس الوكلاء العثماني القاضي بمنع اليهود الروس من استيطان فلسطين[١]. وكانت السلطات العثمانية تنظر إلى المهاجرين اليهود نظرة مشوبة بالشك والريبة لكونهم أوروبيين ذلك أن العثمانيين كانوا قد فقدوا ثقتهم باوروبا نتيجة لسياستها تجاه الدولة العثمانية ، فعملت السلطات على مضايقة المهاجرين اليهود الذين جاؤوا ليؤسسوا وطناً لهم داخل أمبراطورية السلطان[٢]. وكانت قوانين ١٨٨٢ لا تسمح لليهودي بالدخول إلى فلسطين إلا في حالة واحـدة هي : الحج والزيارة المقدسة ولمدة ثلاثـة اشهر ، على أن يحجز جواز سفر الزائر ويودع في مركز البوليس التركي حيث يستبدله مؤقتاً « بالجواز الأحمر » ولكن ظلت تلك الأوامر نافذة في الخيال فقط ، واستطاع اليهود خرقها بفضل البخشيش[٣].

ويذكر المؤرخ اليهودي « بولاك » : « من أن هؤلاء اليهود تمكنوا من البقاء في البلاد بفضل الرشوة ، كما تمكن كثيرون من الإفلات من قبضة الحـكم بسبب كونهم رعايا أجانب ، خاصة وقد حظّـر على السلطات التركية في حينه التدخل في شؤون رعـايا الدول الأخرى أو اعتقالهم أو محاكمتهم دون تدخل القناصل »[٤]. ويذكر « سيلا ميرل »[٥] – أحد المعاصرين للهجرة اليهودية – « ان جميـع القيود التي وضعهـا الأتراك على الهجرة اليهودية لم تثمر ولم تصد التيار الجارف ، وبلغ عدد المهاجرين اليهود الذين كانوا يستقرون في البلاد كل عام نحو سبعة آلاف ، وهذا العدد هو العدد الصحيح الذي توصلت إليه من تحرياتي مع الدوائر اليهودية . أما الحكومة التركية فتقدر العدد بأربعة آلاف فقط لأنها تبني تقديراتها على عدد المهاجرين الذين يأتون عن طريق يافا فقط ، مع أن اليهود الآن تعلموا اساليب التهريب ، فهم يتسللون من بيروت ومن غيرها حتى يتفادوا مراقبة السلطات[٦] . ولعبت

(١) N. Mandel; *op. cit.*, p. 80.
(٢) أ. بولاك : اسرائيل أمة وتاريخها ، ص ١٥٠ .
(٣) فرانك مانويل ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٤) بولاك ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
(٥) أرسل الأب « سيلا ميرل » عام ١٨٨٢ إلى القنصلية الأمريكية في القدس ، وتولى – إلى جانب منصبه الديني – وظيفة مراقب وخبير في شؤون المنطقة . وقد عمل ما يقارب ثلاثين عاماً في القنصلية الأمريكية في القدس ، وتعرف عن كثب على أهداف الهجرة اليهودية والحركة الصهيونية . ونظراً لخبرته وكفاءته في الميدان السياسي أصبح عام ١٨٩١ قنصلاً في القدس مكان القنصل السابق « هيلمن » .
(٦) فرانك مانويل ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

السياسة البريطانية والأمريكية دوراً فعالاً في إنجاح عملية التهريب وشراء الأراضي بأساليب ملتوية. وكان « استراوس » وزير أمريكا المفوض في استانبول منذ عام ١٨٨١ – وهو يهودي ومن بعده الوزير المفوض سلمون هيرش وهو يهودي أيضاً – قد توسط لدى « سعيد باشا » أحد اكابر المسؤولين في الحكومة العثمانية، بالسماح لليهود بتمديد زيارتهم للأراضي المقدسة من شهر إلى ثلاثة اشهر، وهو الذي اتجه إلى يافا للتدخل لدى السلطات العثمانية المحلية لإطلاق سراح أربعمائة مهاجر يهودي كانوا في السجن بعد اتهامهم بالدخول خلسة إلى فلسطين بطريقة غير قانونية.

وفي عام ١٨٨٣ تزايدت محاولات شراء الأراضي في فلسطين وتشجيع الهجرة إليها بواسطة بعض الجمعيات اليهودية الجديدة وفي مقدمتها جمعية « زريبابل » (Zerubbabel) التي أسسها «ليوبنسكر» و«ليلينبوم» في أوديسا. بالإضافة إلى أن جمعية « أحباء صهيون » أخذت على عاتقها تهجير ما بين ٢٠ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً من اليهود إلى فلسطين، وأصبحت لجنة أوديسا اللجنة التنفيذية لحركة « أحباء صهيون » في بداية التسعينات من القرن التاسع عشر، وكانت اهتمامات هذه الحركة تتركز حول مسألة الإستيطان في فلسطين كمسألة ضرورية وعملية، بالإضافة إلى تشجيعها على تعلّم اللغة العبرية كلغة حية[١]، مع بذل الجهود لتعليم اللغتين العربية والتركية لأن ذلك سيفيد اليهود في المستقبل[٢]. ومن أجل ذلك تمّ إنشاء المدارس اليهودية وكانت جميع المدارس والمؤسسات اليهودية تتلقى مساعدات متنوعة من أوروبا من الإعانات والجبايات[٣].

ويلاحظ من دراسة النمط المعيشي للمهاجرين اليهود، أنه كان نمطاً يعتمد بالدرجة الأولى على الارتباط بالأرض، فعملوا بالزراعة والفلاحة ولكنهم فشلوا في هذا الميدان، مما ساهم في تعقيد أحوالهم الإقتصادية وفشل عملهم الإستيطاني حين أصيب عدد كبير منهم بالفاقة والعوز، فتفشت بينهم الأمراض السارية فصدموا بهذا الواقع، واضطروا الى طلب المعونة من أهل البلاد حتى أن الحكومة العثمانية اضطرت إلى إعادة عدة قوافل

(١) I. Cohen ; A *Short History of Zionism*, p. 28.
(٢) Noel Temple Morre to A. H. Layard, 11 June 1879, No. 8, in F.O. 195/1263.
(٣) N. T. Morre to W. A. White, 4 Dec. 1895, No ?, in F. O. 195/1514.

منهم إلى البلاد التي جاؤوا منها[١]. ومن بقي منهم في فلسطين فانما بفضل أثرياء اليهود وفي مقدمتهم « ادموند روتشيلد » الذي موّل عمليات الإستيطان وساعد اليهود منذ عام ١٨٧٧ بواسطة الزعيم الروسي « واينبرغ » . وكان البارون « أدموند روتشيلد » أكثر أثرياء اليهود كرماً ، فهو الذي قدّم مبالغ ضخمة من المـال لتأسيس المستعمرات الزراعية اليهودية في فلسطين[٢] . وهو الذي ساعد في بناء المستعمرات الخمس الأولى ومدّهـا بالأموال عام ١٨٨٣ [٣] .

ولم يرسل « روتشيلد » إلى المستوطنات اليهودية المال فحسب ، وإنما أرسل ايضاً الخبراء والفنيين الفرنسيين لدراسة أوضاع اليهود الزراعية والإقتصادية والأجتماعية ، ووضع دراسة مفصلة تبين المقترحات والحلول العملية لأنجاح عمليات الإستيطان ، وقام « روتشيلد » بشراء أراضٍ جديدة أسس عليها مستوطنات زراعية ما بين عامي ١٨٨٤ – ١٨٩٠ ، حيث بـدأ الخبراء الفرنسيون بتدريب اليهود أصول الزراعـة وإرشادهم إلى الأمور المهنية والتعليمية والصحية . ولما وجد « روتشيلد » أن الملل واليأس اخذا يسيطران على المستوطنين اليهود أغراهم بالبقاء بمنحهم راتباً شهرياً ثابتاً ، وأسس لهم « مستشفى روتشيلد » في القدس حيث تعاون مع الدكتور « إسحق دأربيلا » (١٨٤٧ – ١٩١٠) للعناية باليهود ، ومع ذلك فإن المحاولة لم تكن ناجحة تماماً ، فاليهودي لم يكن ناجحاً في العمـل الزراعي ، ولم تكن الإدارة الفرنسية التي كلفهـا البارون ذات فائدة للمستوطنين الذين استكانوا إلى الفقر والكسل وفكـّر كثير منهم في العودة[٤] . كما أنه لم يقبل على الزراعـة سوى ألف أسرة ، كلفت ما يزيد على مليونين من الجنيهات الاسترلينية[٥] . وحتى عام ١٩٠٠ كانت مستعمرة « زخرون يعقوب » قد كلفت « روتشيلد » أكثر من عشرة ملايين من الفرنكات دون أن تحقق أي ربح ، كما كلفت المستعمرات اليهودية التي أقامتها الموجة الأولى أكـثر من ٩٠ مليون فرنك .

---

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٢) Blesh to O'Conor, Nov, 1907, No. 62, in F. O. 195 / 2255.

(٣) J. Soustelle; *la Longue Marche d'Israël*, p. 25.

(٤) F. O. 882/14, *Arab Bureau papers.* نقلاً عن : خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي ، ص ١٩ .

(٥) وليم فهمي : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، ص ٥٣ .

والواقع أن الدولة العثمانية لم تكن بمنأى عن هذا النشاط الصهيوني في فلسطين ، فمنذ عام ١٨٥٥ أصدرت قانوناً يمنع الأجانب من الاحتفاظ أو شراء الأراضي في فلسطين ، كما ومنعت إنشاء مستعمرات يهودية جديدة[١]. ففي شباط (فبراير) عـــام ١٨٨٧ صدرت أوامر جديدة بشأن الهجرة اليهودية وجهت إلى متصرفي القدس ويافا تعلمهم بأنه يسمح لليهود الدخول إلى البلاد كحجاج أو زوار فحسب ، وعلى كل يهودي يصل إلى يافا أن يدفع ٥٠ ليرة تركية لقاء تعهد بمغادرة فلسطين خلال ٣١ يوماً[٢] . وجاء ذلك القرار منسجماً مع قرار الباب العالي الذي استهدف وضع حد لتيار الهجرة اليهودية الذي أخذ يتدفق على فلسطين ، لا سيما بعد أن تحقق الباب العالي من الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود بأعداد كبيرة في فلسطين[٣]. وما يترتب على تلك الهجرة من حقوق وامتيازات يتمتع بهـــا اليهود كرعايا أجانب[٤] .

ويلاحظ أن الحكومة العثمانية بررت إصدارها لهذه القوانين والأوامر بانها تفادياً لتدهور الأوضاع الصحية وحالة الأمن في فلسطين ، بينما أكد « ديكسون » (Dickson) — القنصل البريطاني في القدس — في تقريره « أن مثل هذه الحقائق التي تذرعت بها السلطات العثمانية لا يمكن إنكارها ، لكن إلى جانب الاعتبارات السابقة فإن شعوراً لا يستهان به من عدم الاطمئنان ينبغي أن يكون قد دخل تفكير السلطان بسبب هجرة اليهود الواسعة إلى فلسطين قبل قرارات منع الهجرة اليهودية »[٥] . وعندما رأت الدولة العثمانية أن بعض الدول الأجنبية تساعد على إنجاح الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتعمل في نفس الوقت على عرقلة تنفيذ القرارات الحكومية طلب الباب العالي من متصرف القدس إجراء اتصالات مع قناصل الدول الأجنبية في آب (اغسطس) عام ١٨٨٧ لإبلاغهم استياء السلطان والسلطات العثمانية لعدم قيـــام القنصليات الأجنبية في القدس وفروعها في يافا

---

(١) A. Chouraqui; *Théodor Herzl Inventeur de L'État d'Israël*, p. 374.

(٢) من رسالة ديكسون (القدس) الى اوكونر (الآستانة) انظر : A. Hyamson; *The British Consulate in Jerusalem in Relation to the Jews in Palestine*, p. 558.

(٣) Blesh to O'Conor, 16 Nov. 1907, No. 40321/62, in F. O. 371/356.

(٤) N. T. Moore to W. A. White, 5 March 1887, No. 9. in F. O. 195/1581.

(٥) Ibid.

بخطوات من جانبها لتسهيل مهمة إخراج اليهود الأجانب الذين انتهت مدة إقامتهم إمتثالاً للأوامر التي وردت من الباب العالي ، وبناءً على إرادة السلطان بمنع اليهود من الإقامة في فلسطين[1] . وكان رد القناصل على المتصرف في ٢٣ أيلول (سبتمبر) من نفس العام ، أنهم لم يقبلوا تنفيذ الأمر حتى يتلقوا تعليمات من سفاراتهم في استانبول[2] .

وفي عام ١٨٨٨ أصدر الباب العالي قوانين جديدة نصت على ضرورة حمل اليهود الأجانب جوازات سفر توّضح عقيدتهم اليهودية كي تمنحهم سلطات الميناء تصريحاً لزيارة المتصرفية لمدة ثلاثة شهور ، كما رفضت السلطات العثمانية في ميناء يافا السماح بدخول اليهود الذين لم يحصلوا على سمات دخول من القناصل العثمانيين في بلادهم[3] . وكان هذا القرار رداً صريحاً على موقف القناصل الأجانب من محاولاتهم المستمرة لتعطيل فعالية القوانين العثمانية الخاصة باليهود ، وتكريساً للموقف العثماني من الهجرة اليهودية المتدفقة ، فكان أن أوعزت الحكومة العثمانية إلى قناصلها في مختلف البلاد عدم التأشير على جوازات سفر اليهود إلّا بداعي الزيارة الدينية ولمدة محدودة . ومن أجل ذلك احتجت بريطانيا على قوانين عام ١٨٨٨ ، فأوضحت الحكومة العثمانية لسفارتها في استانبول في تشرين الأول (اكتوبر) من نفس العام أن إجراءات المنع لن تطبق إلا بحق اليهود الإنجليز الذين يأتون إلى فلسطين بأعداد كبيرة وليس بحق الذين يأتون فرادى[4] .

ونظراً لموقف الدولة العثمانية من المهاجرين اليهود ، بدأت الصهيونية تنشط للحصول على تأييد أوروبي شامل ، ثم قامت بالإتصال مع كبار الشخصيات اليهودية للتباحث في موقف السلطان العثماني ، وكان ان عقد مؤتمر « فيلنا » (Philna) عام ١٨٨٩ وترأسه « أحدهاعام » زعيم الصهيونية الثقافية ، وبحث فيه أوضاع المهاجرين اليهود في فلسطين . ولمضاعفة النشاط الصهيوني تقرر تأسيس جمعية « بني موسى » التي وحدت جهودها مع جمعية « أحباء صهيون » من أجل قضية اليهود في العالم والعمل على فتح الباب أمام

---

(١) N. T. Morre to W. A. White, 5 Mar. 1887, No. 9, in F. O. 195/1581.

(٢) N. T, Morre to W. A. White, 23 sept. 1887, No. 20, in F. O. 195/1581.

(٣) N. T. Morrė to W. A. White, 29 May 1888, No. 15, in F. O. 195/1612.

(٤) Dickson to A. Nicolson, 25 Aug. 1893, No. 46, in F. O. 195/1806.

هجرة الشباب اليهود إلى فلسطين ، وجعل إنشاء المنظمة الصهيونية ممكناً [١].
وبالفعل فقد وفقت الحركة الصهيونية بأحد المتمولين اليهود البارون النمساوي « موريس دي هيرش » [٢] الذي أسس عام ١٨٩١ جمعية « الإستيطان اليهودي » برأسمال قدره ١٠ ملايين جنيه لتسهيل الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية [٣].

وفي عام ١٨٩١ أرسل « سيلاميرل » ــ القنصل الأمريكي في القدس ــ تقارير إلى حكومته يشرح فيها الوضع السياسي وموقف الحكومة العثمانية من المهاجرين اليهود فقال : « بأن تركيا المسلمة لن ترضى بإقامة مملكة لليهود في فلسطين ، وأن فلسطين بلد فقير ، وإذا ظلت الهجرة اليهودية في تدفقها الحاضر ، فان النتيجة ستكون وبالاً على اليهود وعلى سكان البلاد الأصليين معاً » [٤] . وحذر « سيلاميرل » حكومته من التورط في مساعدة المهاجرين اليهود « لأن المسلمين لن يسمحوا لليهود بإنشاء دولة في فلسطين » [٥] وكانت صحيفة « نيويورك ديلي تريبون » قد نشرت مقالاً بتاريخ ٣١ ايار (مايو) عام ١٨٩١ عنوانه « الاستعمار الزراعي اليهودي في فلسطين يبشر بأحسن النتائج » ، وحث المقال الحكومة الأمريكية على التدخل في اقتطاع فلسطين وطناً لليهود وإسكان المهاجرين الروس فيها . ولعبت المنظمات الصهيونية الأمريكية دوراً بارزاً في التأثير على السياسة الأمريكية ويأتي في مقدمة هذه المنظمات منظمة (Hebrew Immigrant Aid Society) [٦] التي تأسست

(١) أنجلينا الحلو : عوامل تكوين اسرائيل ، ص ٥٩ .
(٢) البارون « هيرش » من كبار أثرياء اليهود ، تمرس في العمل الصيرفي منذ الثامنة من عمره عندما دخل بنك « بيشو فسهيم » و « غولد شميث » وهما من أكبر صيارفة بروكسل ... وبدأ نفوذه يظهر في أوساط الدولة العثمانية عندما أفلس المسيو « ديمنسو » المالي البلجيكي عام ١٨٦٩ ، فابتاع البارون « هيرش » منه سندات سكة الحديد التركية . وقدرت ثروته بحوالي ثلاثين مليون جنيه ، وكانت هذه الثروة الطائلة وسيلة لاغاثة الفقراء اليهود . ولما طرد اليهود من روسيا أرسل « هيرش » مساعده « أرنولد ويت » وعرض على حكومة روسيا مليوني جنيه لتنفقها على التعليم ، فرفضت الحكومة الروسية هذه المساعدة بعد ان علمت من « ويت » أن الهدف الحقيقي من هذه المساعدة هو إنشاء مستعمرات اسرائيلية يقيم فيها اليهود الروس. حول هذه المعلومات أنظر : الأهرام ، ١٥ تموز (يوليه) ١٨٩١ ، العدد ١٣٦ ، تحت عنوان : « اسرائيليو روسيا » ، أنظر أيضاً : المنهل ، ١٥ تموز (يوليه) ١٩٠٤ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، العدد ٧ .
(٣) أنظر : هاني الهندي ، حول الصهيونية واسرائيل ، ص ٣٨ .
(٤) فرانك مانويل : بين أمريكا وفلسطين ، ص ٣٠ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ٣١ .
(٦) وتعرف هذه المنظمة اختصاراً بـ HIAS

عام ١٨٨٧ . وقد جعلت هذه المنظمة هدفها خدمة يهود أوروبا الشرقية وتشجيع الهجرة إلى الأراضي المقدسة [١].

والواقع أن قوانين عام ١٨٩١ العثمانية لم تؤد أيضاً ، وبصورة قاطعة ، إلى وقف الهجرة اليهودية . وتذكر « الموسوعة اليهودية » بأن قانون عام ١٨٩١ – الذي منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين – كان من الناحية العملية قانوناً على الورق ، إذ لم تكن له قوة دائمة . وكانت السلطات التركية تتغاضى عن هذا القانون ، إلا أن السلطان العثماني كان حذراً ومرتاباً من الأهداف الصهيونية وأنه لم يكن مساعداً لها على الأطلاق [٢].

وفي منتصف عام ١٨٩١ أورد مراسل جريدة « الأهرام » تقريراً عن الهجرة اليهودية من يافا إلى القاهرة ذكر فيه « أنه بالنظر لكثرة ورود الإسرائيليين إليها فقد ارتفعت أجور منازلها ، وأثمان بضائعها ومآكلها إرتفاعاً أضر بسكانها ، وقد بلغ ذلك مقر الصدارة العظمى فأرسلت أمرها بأن لا تزيد مدة الأقامة عن المخصص للزيارة ، وأن الذين يرغبون السكنى ينبغي أن يبينوا محلات إقامتهم ويخابروا بها الباب العالي وهو أمر عادل نود الإلتفات إلى انفاذه منعاً للتضييق بين الناس » [٣]. ويوضح هذا التقرير الأمور التالية :

أولاً – إستمرار التسرب اليهودي إلى فلسطين نتيجة لتساهل السلطات المحلية التركية المرتشية التي كانت تتغاضى عن تسجيل القادمين اليهود في سجلاتها . كما أنها لم تكن تسجل مكان إقامتهم في الوقت الذي كان فيه اليهود يتنقلون بين منطقة وأخرى هرباً من حصر تواجدهم .

ثانياً – تأكيد السلطان عبد الحميد الثاني بضرورة التقيد بالقوانين العثمانية التي تقضي بالبقاء فترة محددة في الأراضي المقدسة . كما يؤكد التقرير بأن السلطان لم يكن راضياً عن هذه الهجرة ولا مطلعاً مع الصدارة العظمى على استمرارها بهذا الشكل .

---

(١) انظر : M. Catane ; *Les Juifs dans le Monde*, p. 152

(٢) الموسوعة اليهودية (باللغة الروسية) ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٣) الأهرام ، ١٥ تموز (يوليه) ١٨٩١ ، العدد ١٣٦ .

ثالثاً – يؤكد تقرير مراسل الأهرام – خلافاً للتقارير الصهيونية – من أن الهجرة اليهودية أضرت بسكان فلسطين إقتصادياً واجتماعياً ومعيشياً، كما أظهر الناس ضيقاً بالهجرة بعد شعورهم بأخطارها المتعددة الجوانب.

ويؤكد تقرير « ديكسون » (Dickson) – القنصل البريطاني في القدس – موقف الدولة العثمانية من المهاجرين اليهود في عام ١٨٩٢ حينما أبلغتهم « بأن التعليمات الصادرة من الباب العالي تفيد بأن هجرة اليهود بقصد الإستقرار في فلسطين غير مسموح بها. أما الذين يرغبون في زيارة البلاد كحجاج فسوف يسمح لهم بالإقامة لمدة تتراوح بين شهر أو شهرين ينبغي عليهم بعدها مغادرة البلاد »(١). وبالرغم من اعلان الموقف العثماني من الهجرة إلا أن النشاط الصهيوني استمر في بذل مساعيه لإنجاح حركة الإستيطان في فلسطين، ففي عام ١٨٩٣ قدم « صموئيل مونتاغو » طلباً يهودياً بأسلوب قانوني إلى السلطان عبدالحميد الثاني بواسطة « ايرل روزبري » يحمل تواقيع المسؤولين في اللجنة التنفيذية وأمناء السر في كل خيمة (Tent) من خيام « أحباء صهيون »، إلا أن هذا الطلب رفض(٢).

ومن الأهمية بمكان القول أن النشاط الصهيوني كان يواجهه تحرك عثماني مضاد فقد جددت السلطات العثمانية إصدار قوانين المنع ضد اليهود، وأرسلت إلى متصرف القدس في آب (اغسطس) عام ١٨٩٣ أوامر جديدة مشددة تقضي بعدم السماح لليهود الأجانب بالبقاء في القدس بعد انتهاء المدة المقررة للزيارة، وباشرت سلطات ميناء يافا بوضع صعوبات أمام اليهود المهاجرين من جميع الجنسيات بما فيهم اليهود الإنجليز(٣). ولكن بريطانيا كانت تعرقل قوانين الحكومة العثمانية الخاصة بالهجرة، حين بلغ عدد العائلات اليهودية التي منحت الحماية البريطانية أكثر من مئتي عائلة(٤). وكانت بريطانيا قد منحت حمايتها لكل يهودي نزعت عنه الحكومة الروسية الجنسية، وذلك بموجب تنظيم قامت به بريطانيا في عام ١٨٤٨ لبسط حمايتها على اليهود من أصل روسي(٥). ولم تقتصر مواجهة هذه القوانين

---

(١) Dickson to E. Fane, 14 Feb. 1892, No. 6, in F. O. 195/1765.

(٢) أسعد رزوق: اسرائيل الكبرى، ص ٣٤.

(٣) Dickson to Nicolson, 25 Aug. 1893, No. 46, in F. O. 195/1806.

(٤) Dickson to Nicolson, 11 July. 1893, No. 38, in F. O. 195/1806.

(٥) N. T. Morre to Chargé d'Affaires Constantinople, 7 Feb. 1874, No. 2, in F.O. 195/1047.

العثمانية من قبل بريطانيا فحسب ، بل إن أمريكا أيضاً احتجت عليها وواجهتها بحجة أن اليهودي الأمريكي هو أمريكي أولاً وقبل كل شيء ، وأنه لا يحق للدولة العثمانية منعه من شراء الأراضي والإستيطان في فلسطين ، على أن هذا التدخل الأمريكي ما كان ليعجب القنصل « سيلا ميرل » فكتب إلى حكومته محتجاً على « تدخلها فيما لا يعنيها » وأضاف أن الدولة العثمانية تريد حرمان عناصر فاسدة من اليهود الروس من حق شراء الأراضي فما شأن أمريكا بتدخلها هذا »[١] .

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة الأمريكية تؤيد الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت بريطانيا أشد حرصاً في تأييدها حيث تبنت مشاريع إستيطان جديدة . ففي عام ١٨٩٣ ظهر مشروع من قبل اليهودي الألماني « بول فريدمان » (Paul Friedmann) لاستيطان يهودي في المنطقة الغربية لشبه الجزيرة العربية المعروفة باسم « مدين » (Midian)[٢] بدلاً من منطقة «جلعاد»، وعرف مشروعه وقتذاك باسم «مشروع مدين» (Midian Project) وقد وافقت الحكومة البريطانية على هـذا المشروع وجهزت له العناصر الكفيلة بإنجاحه بالاتفاق مع جمعية « أحباء صهيون » ، ووضعت عدة سفن ومجموعة من المسلحين ليمهدوا للنزول إلى المنطقة التي اختاروها[٣] . وبالفعل فقد أبحر « فريدمان » لإنجاز مشروعه ، غير أن الدولة العثمانية — وإن لم تكن « مدين » تابعة لها — لم ترض بتحقيق هذا المشروع فقاومته لتضع حداً نهائياً لهـذه المغامرة الإستعمارية إذ أن المسؤولين العثمانيين في الآستانة كانوا قد تنبهوا لنشاطات « فريدمان » وأدركوا مراميه في إقامته الدولة اليهودية التي قد تجلب في أثرها التدخل الأجنبي وتؤدي إلى عرقلة طريق مكة والمدينة . ولم يغب عن ذهن الأتراك أن إحـدى الدول الكبرى تقف وراء « فريدمان » ومشروعه[٤] . ولما وصل « فريدمان » إلى المنطقة

---

(١) فرانك مانويل ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) اختار « فريدمان » منطقة « مدين » بسبب الأهـداف الاستعمارية وبسبب موقف الدولة العثمانية وقوانينها من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، في الوقت الذي كانت فيه منطقة « مدين » غير خاضعة للنفوذ التركي . وهناك سبب آخر هو اجتذاب اليهود إلى هذه المنطقة نظراً لأن النبي « موسى » أقام فيها فترة من الزمن ، وقـد خاطبه الله تعالى بقوله : « فلبثت في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى » . سورة طه الآية ٣٨ .

(٣) أنظر : أسعد رزوق ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧١ .

المحددة ، حاول إستمالة البدو وإثارتهم ضد الحامية التركية التي جاءت لطرده ، ولكن البدو رفضوا الإنصياع لأهدافه ، ووقفوا إلى جانب الأتراك .

وفي هذه الفتره حاول « كرومر » (Cromer) – المعتمد البريطاني في مصر – التوسط لدى الحكومة العثمانية بالسماح للحملة بالاستقرار في « مدين » والعمل على إنسحاب الحامية التركية منها ، ولكن الموقف التركي كان صريحاً ، هو أن الأتراك وحدهم لهم الحق في السيطرة على المنطقة . ومن أجل ذلك طُلب إلى « فريدمان » تعليق مشروعه الإستعماري ومغادرة البلاد بعد أن كلفته العملية ما يقارب (١٧٠) ألف مارك ألماني .

والواقع أن جمعية « أحباء صهيون » كانت أكثر نشاطاً ودقة في العمل الإستيطاني في فلسطين ، ففي عام ١٨٩١ استطاعت تملّك ضيعة « كفرعنا » ، وبادرت إلى شراء مناطق واسعة بين حيفا وعكا ، ولما كان الأمر على وشك الحدوث علمت الحكومة العثمانية بهذا الأمر وأمرت بفسخ عقد البيع بإرادة سنية كي لا تقع كل سهول عكا الخصبة بأيدي اليهود[١] . فقام اللورد البريطاني – اليهودي « غوشن » يعرض على الحكومة العثمانية بأن تجعل بلاد « جلعاد » و « مؤاب » عبر الأردن مستعمرة لليهود ويمتلك أراضيها البالغة ٦٠٠،٠٠٠ هكتار تحت إشراف الباب العالي على أن تكون مستقلة وحرية إدارتها تعود لليهود فحسب ، مقابل مبلغ كبير من المال لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات تدفع للسلطان . غير أن الدولة لم تلبِ طلب اللورد « غوشن » وأغنياء اليهود ، فذهبت آمالهم أدراج الرياح . ويرى الأب « لامنس » بأن غايتهم من ذلك كان التمهيد لأبناء بلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة في الأراضي المقدسة ، ويضيف أنه بالرغم من الموقف العثماني إلا أن اليهود لا يزالون يطمحون ببصرهم نحو مناطق عبر الأردن[٢] . وإنهم يعتقدون أن القدس ستعود إليهم وتصبح مرة اخرى عاصمة مملكتهم[٣] . ويرى « شاهين مكاريوس » : « بأن اليهود طائفة قوية في متصرفية القدس الشريف ... وهم يزيدون عدداً يوماً بعد يوم لكثرة الذين يهاجرون إلى هذه البلاد منهم ، ولاعتقادهم أن هذه البلاد ستعود إليهم بعد حين . ويساعدهم

(١) المشرق ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩٤ .
(٣) شاهين مكاريوس : حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ١٩ ، (مصر ١٨٩٥) .

أكابرهم على شراء الأراضي وتعمير القرى والمدن وقد صارت القدس ونواحي جبل الكرمل والناصرة جلّها من أملاكهم، وصاروا هم أصحاب النفوذ فيها وأكثرهم غرباء نزحوا إلى بلاد الشام في هذه السنوات الأخيرة وينتظر أن يزيد عددهم زيادة كبرى في الأعوام القادمة »[١].

وكان أكثر طوائف اليهود عدداً في فلسطين «الأشكنازيم» و«السفارديم»، وكانت هناك طائفة يهودية ثالثة تعرف باسم «السمرة»، وهم أقل طوائف الشام عدداً ويقطنون في ضواحي نابلس وفي متصرفية القدس وأصلهم من أهل أشور، ويدينون باليهودية ولكنهم يعتقدون غير كتب موسى الخمسة، ولهم تاريخ غريب ولا يزيد عدد نفوس هذه الطائفة عن ستين شخصاً ولعلها أصغر طوائف الأرض[٢]. ولعل هؤلاء من بين الجماعات اليهودية التي كانت تبكي أمام بقايا جدرانها الدينية رجالاً ونساءً وكهنة[٣]. بالإضافة إلى أن مختلف الطوائف اليهودية المهاجرة إلى فلسطين كانت تهتم بالأمور الدينية وتعيش على الصدقات أو بعض المهن البسيطة، غير أنه بدأ بالظهور يهود من نوع جديد خرقوا مناطق الإستيطان القديم والطريقة التقليدية في الحياة[٤].

وبالرغم من تزايد الهجرة اليهودية من روسيا وأوروبا الشرقية إلى فلسطين فإن نسبتها لا شيء بالنسبة إلى الملايين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وأقطار أمريكا اللاتينية ويبين الجدول الإحصائي مقارنة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وبقية دول العالم بين ١٨٤٠ – ١٩١٤[٥].

وعلى هذا تعتبر الهجرة اليهودية إلى فلسطين شكلاً من أشكال الهجرة اليهودية إلى بقية دول العالم ولا تمثل إلا نسبة ضئيلة إذا ما قيست بنسبة الهجرة إلى المناطق الأخرى. ومع هذا فيجب ألّا نسلّم بالإحصائيات العثمانية أو الصهيونية ولا إلى تقارير القناصل الأجانب في الدولة العثمانية عن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين وذلك للأسباب التالية:

---

(١) شاهين مكاريوس: المصدر السابق، ص ٦، ٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦، ٨.

(٣) G. Flaubert; *Voyage en Orient 1849-1851* — 1851, pp. 149-150.

(٤) Y. Porath; *The Political Awakening of the Palestinian* Arabs *and Their Leadership Towards the End of the Ottoman Period*, p. 24.

(٥) أنظر: وليم فهمي: الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، ص ٤٤، ٤٥.

مقارنة بين الهجرة اليهودية من روسيا واوروبا الشرقية
الى فلسطين ومختلف بلاد العالم ١٨٤٠ – ١٩١٤

الفترة	١٨٤٠/١٨٨٠	١٨٨١/١٩٠٠	١٩٠١/١٩١٤
المجموع	٢٢١،٠٠٠	٧٦٤،٥٠٠	١،٦٠٢،٤٤١
الولايات المتحدة	٢٠٠،٠٠٠	٦٧٥،٠٠٠	١،٣٤٦،٠٠٠
كندا	١،٦٠٠	١٠،٥٠٠	٩٥،٣٠٠
الارجنتين	٢،٠٠٠	٢٥،٠٠٠	٨٧،٦١٤
البرازيل	٥٠٠	١،٠٠٠	٨،٧٥٠
بلاد امريكية اخرى	١،٠٠٠	١،٠٠٠	٣،٠٠٠
جنوب افريقيا	٤،٠٠٠	٢٣،٠٠٠	٢١،٣٧٧
بلاد أخرى غير فلسطين	٢،٠٠٠	٤،٠٠٠	١٠،٠٠٠
فلسطين	١٠،٠٠٠	٢٥،٠٠٠	٣٠،٠٠٠
النسبة المئوية للمهاجرين الى فلسطين من اصل الهجرة اليهودية العالمية	٤،٥٪	٣،٣٪	١،٩٪

أولاً – بعد إصدار القوانين العثمانية المتلاحقة والخاصة بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها وتحديد مدة الزيارة الدينية، عمد اليهود إلى التحايل على القانون عن طريق الرشوة أو الهرب عبر الأراضي اللبنانية إلى فلسطين . لذا فقد كانت الجماعات اليهودية المهاجرة بواسطة هذه الأساليب غير مسجلة في الدوائر العثمانية لصعوبة حصرها أو التغاضي عنها ، وعلى هذا فان الاحصائيات الصادرة عن « الدولة العلية » لم تكن صحيحة مئة بالمئة . وعلى سبيل المثال فانه لم يسجل من نفوس اليهود عند احصاء عام ١٣٢٧ هـ – ١٩٠٩ م لسكان نابلس سوى ١٩ يهودياً (١٣ ذكور و ٦ أناث) ويهود حيفا سوى ٩١٤ يهودياً فقط . ولم يسجل لاحصاء ١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م لنفوس اليهود في عكا سوى ١٣٠ يهودياً بينما كان عددهم أكثر من ذلك سواء في المدن المقدسة أو في بقية مستعمراتهم الأخرى .

والظاهر أن هذه الإحصائيات لم تظهر سوى اعداد اليهود الذين دخلوا

بصفة رسمية بحجة الزيارة الدينية ، أو أعداد اليهود المتواجدين في فلسطين قبل بدئ الهجرة الحديثة المنظمـة وهم يهود الدولة العثمانية . ويلاحظ من دراسة إحصاء عكا لعام ١٣٢٥ هـ تناقص عدد اليهود في القضاء بحيث أصبح ١٣٠ يهودياً ثم تدنى إلى ١٠٥ ، بالرغم من أن عددهم كان أكثر من ذلك ، ففي عام ١٨٦١ م كانوا من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ إسرائيلي[١]. وربما هذا التدني في عددهم يعود إلى الصعوبات التي واجهتهم في هذه المنطقة وإلى الإصطدامات الأولية مع العرب ففضلوا الإنتقال إلى مستوطنات يهودية تستطيع حمايتهم وتتخذ طابع الثكنات العسكرية .

ويلاحظ الدارس لإحصاء سكان حيفا بين عامي ١٣٢٧ – ١٣٣٢ هـ ، ١٩٠٩ – ١٩١٤ م زيادة العدد الإجمالي للسكان في القضاء بما يقارب ٧٤٣٧ نسمة في خلال خمس سنوات وهو أمر جـدير بالذكر بالنسبة لسائر الأقضية . ويظهر أنه ما بين عام ١٣٢٧ هـ – ١٩٠٩ م – وهو العام الذي انتهى فيه حكم السلطان عبد الحميد الثاني – وعام ١٣٣٢ هـ – ١٩١٤ م قد تزايد عـدد اليهود في قضاء حيفا ، ولكن هذا التزايـد المسجل يخضع لاحصاء رسمي بينما كان العدد الحقيقي أكثر من المسجل بحوالي ثلاثـة آلاف شخص . والدليل القاطع على عدم صحة الإحصاء العثماني بأن مدينة كالناصرة كانت تعتبر مقدسة ومرغوبة بالنسبة لليهود ، ومع هـذا فلم يأت الإحصاء على ذكر يهودي واحد فيها حتى في إحصاء المواليد والوفيات[٢].

ثانياً – لا يمكن الإعتماد على جميع المصادر الصهيونية حول عدد اليهود في فلسطين ، لأنها كانت تبالغ في اعداد المهاجرين إلى فلسطين للإيحاء بأن يهود العالم يرغبون في استعادة أرضهم ! والإستيطان في الأراضي المقدسة في الوقت الذي كانت فيه الهجرة إلى العالم الجديد أكثر بكثير منها إلى فلسطين .

ثالثاً – لم يكن باستطاعة القناصل الأجانب تحديد أعـداد المهاجرين اليهود إلا عن طريق المعلومات التي كانوا يستقونها من الدوائر العثمانية أو

---

(١) أنظر : المحررات السياسية ، م ٣٠ ص ٢٩٣ .

(٢) حول احصائيات أقضية فلسطين أنظر : محمـد رفيق ومحمـد بهجت : ولاية بيروت – القسم الجنوبي ، جـ ١ ، ص ٨ ، ١١٤ ، ٢٣١ ، ٢٧٤ ، ٤٠٠ وغيرها . وقد ذكر المؤلفان في المقدمة ما نصه : « نذكر هنا عـدد النفوس حسبما أخذناه من دوائر النفوس الرسمية » . أنظر أيضاً : مخطوط : في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، جـ ٢ ، بعنوان أورشليم أو القدس الشريف ، ص ٦٩ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ١٠٩ .

من الجمعيات الصهيونية أو من خلال مشاهداتهم الخاصة. ويمكن اعتبار هذه المصادر غير دقيقة وغير صحيحة إلى حدٍ بعيد، ولكن ليس يعني هذا عدم الأخذ بها مطلقاً. ولعل في المثالين التاليين خير دليل على ما كان يشاع وينشر عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين والتي تؤكد مدى المبالغة في أعداد المهاجرين على الرغم من ثبات بطلانها باعتراف مصادر صهيونية، ففي المثال الأول ذكر الأسقف «بليث» – مطران الكنائس الإنجيلية في القدس والمشرق – أن عدد الذين هاجروا في السنين الأخيرة من اليهود إلى بيت المقدس وغيرها من بلاد فلسطين يبلغ مئة ألف نسمة [١]. وفي المثال الثاني يذكر «محمد رفيق» و«محمد بهجت» بأنه يظهر من الإحصاء الذي أجري عام ١٨٤٠ أن مئة ألف روسي من روسيا اعتقدوا بقرب الموت العام فركبوا سفناً وأخذوا يهاجرون إلى فلسطين[٢]. والواقع أنه من خلال دراسة هذه الأساليب – الهادفة الى تضخيم أعداد المهاجرين اليهود – يتضح مدى النشاط الصهيوني في فلسطين لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية لاستيطان الأراضي المقدسة والسيطرة عليها.

٣ – النشاط الصهيوني قبل عام ١٨٩٧ وموقف الدولة العثمانية منه

في نهاية القرن التاسع عشر وفقت الصهيونية بشخصية استطاعت أن تسير بها إلى تحقيق أهدافها بالتعاون مع شخصيات صهيونية أخرى. وكانت هذه الشخصية «بنجامين زئيف هرتزل» (B. Z. Herzl) (١٨٦٠ – ١٩٠٤)[٣]، الذي استطاع بنشاطه توجيه أنظار العالم إلى اليهود وإلى الحركة الصهيونية، وقد أبدى كثيرون من اليهود إعجابهم به وفي مقدمتهم «ناحوم سوكولوف» و«داڤيد بن غوريون» و«ايلي ليڤي أبوعسل» وآخرون، وقد شبهه أحدهم بالمسيح المنتظر[٤]. وقد استطاع «هرتزل» أن يعي المشكلة اليهودية في أوروبا لا سيما

---

(١) الهلال، ١ ايار (مايو) ١٨٩١، ج ١٧، ص ٥٤٠.

(٢) محمد رفيق ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٣) ولد «هرتزل» في بودابست وانتقل مع اسرته إلى النمسا عام ١٨٧٨ بعد حدوث الأزمة الإقتصادية في أوروبا عام ١٨٧٣ وهي السنة التي بلغ فيها سن «التكليف الديني» (Bar Mitzvah) في عام ١٨٨٤ تخرج من الجامعة ونال شهادة دكتوراه في الحقوق، وفي عام ١٨٨٩ تزوج من «جولي ناشادر» إبنة رجل أعمال صهيوني...

(٤) انظر: N. Sokolow; *Zionism, Problems and Views*, p. 17. D. Ben Gurion; *Memoirs*, pp. 34-35. ايلي ليڤي ابو عسل: يقظة العالم اليهودي، ص ٢٨.

بعد « فضيحة بناما » التي كانت سبباً في مهاجمة اليهود ، وبالأخص في كتاب (E. Drumont) الذي جاء فيه « ليسقط اليهود ، فرنسا للفرنسيين ، ليسقط اليهود الألمان ... »[١] .

وفي عام ١٨٩٤ أصبحت المشكلة اليهودية الشغل الشاغل لاهتمامات «هرتزل» ونشاطاته وذلك بسبب قضية « دريفوس »[٢] وما نجم عنها من ظروف عدائية لليهود من الإضطهاد ، بالرغم من ان هذه القضية قضية عسكرية سياسية بحتة لا تمت إلى اللاسامية بصلة ، ولكن كون المتهم يهودياً فقد هُوجم اليهود من خلال هذه القضية نتيجة لخلفيات سابقة أيضاً سببها اليهود كفضيحة قناة بناما وغيرها من الفضائح الإقتصادية والسياسية والعسكرية .

وفي هذه الفترة فكر « هرتزل » في ايجاد بلد لليهود لحل ما أسماه « المشكلة اليهودية » بواسطة اتباع الدبلوماسية الهادئة وتشجيع أهل البلد المزمع السيطرة عليه على بيع أراضيهم وترك بلادهم والتوجه إلى المناطق المجاورة والحيلولة دون اعطائهم أي عمل في « بلدنا » . ولتحقيق ذلك لا بد من التحالف مع دولة استعمارية تؤيد أهداف الصهيونية ، كما وأنه لا بد من التحالف مع الإقطاعيين في الداخل ، وقد أكد ذلك في ١٢ حزيران (يونيه) عام ١٨٩٥ بقوله : « عندما نحتل البلاد سنعمل سريعاً على إفادة الدولة التي تأخذنا ، ويجب أن نستخلص ملكية الأرض التي ستعطى لنا ، ولكن باللطف والتدريج . سنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح إلى البلدان المجاورة

---

(١) يذكر « دريمون » بأن الماسونية الفرنسية لعبت دوراً مهماً في أحداث قضية بناما ، وأن اليهود الماسونيين لعبوا دور القيادة في هذا الموضوع .
E. Drumont ; *La France Juive*, pp. 322-323.

(٢) « دريفوس » ضابط يهودي في الجيش الفرنسي ، أتهم عام ١٨٩٤ بتسليم أوراق سرية من أوراق الحربية الفرنسية إلى دولة معادية هي ألمانيا ، وحكم عليه وقتذاك بالسجن والنفي إلى جزيرة الشيطان الفرنسية ، وفي أثناء ذلك قام الفرنسيون بمظاهرات ضد اليهود عمت مختلف المدن الفرنسية مثل باريس وتانسي وبوردو وكليرمون وليون ونانت ومرسيليا . للمزيد من التفصيلات الوافية حول هذا الموضوع أنظر : الهلال ، ١٥ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، ج ١٢ ، ص ٤٦٩ ، ثمرات الفنون ، ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١١٦ ، ص ٤ ، ثمرات الفنون ، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ ، العدد ١١٦٥ ، ص ١ ، ثمرات الفنون ، ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ ، العدد ١١٦٦ ، ص ١ ، ثمرات الفنون ، ٧ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، العدد ١١٦٧ ، ص ٤ ، ثمرات الفنون ، ٢٨ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، العدد ١١٧٠ ، ص ١ .

وذلك بتأمين أشغال لهم هناك ورفض اعطائهم أي عمل في بلدنا ، أما أصحاب الأملاك فسيكونون بجانبنا ، على اننا يجب أن نقوم بكلا العمليتين ، إستخلاص الأرض وإبعاد الفقراء بتعقل وحذر ... »[1] وإذا ما اضطرت الصهيونية ورأت أن من مصلحتها تشغيل الأيدي العاملة المحلية في أعمال مهنية وقاسية فلا ترى مانعاً في ذلك – ولو مؤقتاً – « فاذا رحلنا إلى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعودين عليه مثل الأفاعي الكبيرة وغيرها ، سأستخدم أهل البلاد – قبل أن أعطيهم أعمالاً في البلاد المجاورة – ليقضوا على مثل هذه الحيوانات . جوائز كبيرة لمن يأتي بجلود الأفاعي وبيضها »[2] .

ومن أجل الخلاص وإنشاء الدولة اليهودية التي تصورها ، قرر التفاوض مع كبار حكام أوروبا وفي مقدمتهم قيصري روسيا وألمانيا ، وقرر التفاوض أولاً مع القيصر الروسي « الذي سيقدمني إليه نصيرنا أمير « ويلز » بخصوص السماح لليهود الروس بترك البلاد . سيعطيني إرادة سنية لأنشرها في الجريدة الرسمية ، وهو يظن أني أستطيع أن أخرج بضع مئات فقط ، ثم أتفاوض مع قيصر ألمانيا ثم مع النمسا ثم مع فرنسا بخصوص يهود الجزائر ثم حسب ما يقتضي الحال ... »[3] .

كان هرتزل لا يصرح بإنشاء دولة يهودية في فلسطين ولكنه كان يفضل أن تقام هناك لأنه أدرك إمكانية تحقيق ذلك بسبب ميل الدول الأوروبية إلى تقسيم الدولة العثمانية . وكانت محادثات «سالزبوري» مع الكونت «هاتسفيلد» (Hatzfeldt) – السفير الألماني في لندن – في عام ١٨٩٥ تؤكد ما فكر فيه هرتزل عندما أعلن سالزبوري من أن تركيا كامبراطورية لا بد وأن تتجزأ في وقت قصير . ثم تأكدت خطة انجلترا عندما أرسل السفير الألماني إلى وزارة خارجيته تقريراً يقول فيه : « أن اللورد سالزبوري يحاول الآن إيجاد خطة للتقسيم في الشرق من شأنها أن ترضى كل امرئ بصورة ما » .

وكانت الدول الأوروبية يهمها إضعاف الدولة العثمانية بإيجاد دويلات للأقليات ومنهم اليهود بالطبع . ويؤيد هـــذا الرأي ما ذكره اللورد

---

(١) يوميات هرتزل ، ١٢ حزيران (يونيه) ١٨٩٥ ، ص ٨٨ ، ٨٩ . (الترجمة العربية ص ٧٦) ، ترجمة هيلدا صايغ ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٨ . (ت . ع . ص ٧٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢ . (ت . ع . ص ٢٠) .

« سزباليري »[1] (Sesbaliry) في مجلس اللوردات في ١٥ آب (أغسطس) عام ١٨٩٥ من أنه عوضاً من أن تحافظ الدول الأوروبية على سلامة الامبراطورية العثمانية ، فانها سعت لوضع نظام لا يعمل على توفير سعادة الناس وتقدمهم ، بل سعت لوضع نظام يشجع على قيام مزيد من التعصب الديني والعرقي الذي كان لقرون خلت لعنة على ولايات الأمبراطورية العثمانية[2].

والواقع أن الصهيونية ويهود أمريكا وأوروبا استغلوا هذه الإتجاهات وبدأوا ينشرون دعوى مفادها ضرورة تنفيذ تطلعاتهم الرامية إلى السيطرة على فلسطين بالذات ، فقد ارتأى الدكتور « مندس » – في جريدة أمريكا الشمالية – أن السبيل الوحيد لإبطال الحروب والخصومات بين ممالك الأرض وربط الأمم كلها برباط المحبة والإخاء هو أن ترد فلسطين إلى اليهود . وقال أن لذلك خمس فوائد هامة هي :

أولاً – حل المسألة الشرقية ، لأن الدول الأوروبية التي تتنافس على الشرق غرضها الأول السيطرة على فلسطين .

ثانياً – إبطال المناظرة والمنافسة بين أصحاب المذاهب المسيحية الثلاثة : الروم والكاثوليك والبروتستانت ، لأن كلاً منهم يطلب بأن يكون صاحب النفوذ في القدس الشريف فاذا أعطيت القدس لليهود بطلت مناظرتهم ومنافستهم .

ثالثاً – توسيع نطاق التجارة بين المشرق والمغرب بواسطة اليهود ، فأنهم أمهر الناس ومدن بلادهم عكا وحيفا وصور وصيدا وبيروت من أصلح مدن الأرض للتجارة ، فتصبح مثل لندن ومرسيليا ونيويورك وهمبورغ .

رابعاً – حل المسألة الإسرائيلية في روسيا وألمانيا وفرنسا .

خامساً – إتمام نبوءتين عظيمتين من نبوءات التوراة ، الأولى نبوءة اشعيا... والثانية نبوءة اشعيا وميخا[3].

وقد استطاع الدكتور « مندس » بعرضه للفوائد الخمس هذه ، أن يجمع كافة النواحي ، ويعمل على إرضاء كافة الأطراف الدولية على الأصعدة السياسية

---

(١) وهو غير اللورد سالزبوري .

(٢) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٣) المقتطف ، ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٥ ، م ١٩ ، ج ١٠ ، ص ٧٩٥ .

والإقتصادية والدينية . ويلاحظ من دراسة آرائه أيضاً أنه لا يكتفي بنسب المدن الفلسطينية – عكا وحيفا – إلى أنها مدن يهودية ، بل يضيف إليها صور وصيدا وبيروت . ويعلّق أخيراً محرر صحيفة « المقتطف » على دعوى مندس بقوله : « لعله لو استشار اليهود في رجوعهم إلى أورشليم لوجد كثيرين منهم لا يريدون ذلك » والظاهر أن هذه الصحيفة لم تكن في هذه الفترة قد خضعت بعد للنفوذ الصهيوني ، وهو ما سيحدث بعد ذلك بواسطة أحد أصحابها « شاهين مكاريوس » المؤيد للحركة الصهيونية وزعيمها هرتزل .

ويمكن القول بأن هرتزل استطاع استغلال هذه الآراء لا سيما بعد توليه رئاسة صحيفة (Neue Freie Presse) عام ١٨٩٦ في النمسا ، وقد أعطته هذه الفرصة أسلوباً جديداً للتعبير عن آرائه بمستقبل اليهود بعد أن سجّل آراء المجتمع الأوروبي ونظرته إلى اليهود وقال : « في النمسا أو ألمانيا كنت دائماً أخاف أن يصرخ واحد في أعقابي (Hep, Hep) ولكن في فرنسا لا أحد يهتم بذلك . وقد سمعت هذه الكلمة مرتين في حياتي ، الأولى في (Mainz) عندما كنت خارجاً من إحدى الحانات ، والثانية عندما كنت مسافراً في عربة وتوقفت العربة في بادن قرب فيينا ، وقد صرخ واحد في أعقابي (Hep Sajud) [١] وتعني اليهودي الخنزير .

ويذكر هرتزل بأن بعض الكتب الأوروبية المناهضة لليهود قد أثرت في تفكيره ، ومن هذه الكتب كتاب « المشكلة اليهودية » الصادر عام ١٨٨١ لمؤلفه (Eugen Dühring) الذي يقول : بأن المشكلة اليهودية هي مشكلة جنس وأخلاق وثقافة ، وأن اليهود أدنى وأحط من الأوروبيين بدرجات وأنه من الخطأ مساواتهم بالألمان . ويقول هرتزل في هذا الصدد : إن كتاب (Dühring) هو الذي جعله يبدأ الاهتمام بالقضية اليهودية لمهاجمته الصريحة لليهود . وأضاف : أنا « ونوردو » اتفقنا على أن اللاسامية هي التي جعلت منا يهوداً [٢] . بالرغم من أن هرتزل يدّعي أنه كان يدعو إلى الإندماج ومستعداً بالتالي التخلي عن يهوديته [٣] .

---

(١) تهاني هلسه : أوراق في القضية الفلسطينية ، ص ٢٥ . أنظر أيضاً :
A. Chouraqui; *Théodor Herzl Inventeur de l'État d'Israël*, pp. 88-89.
(٢) تهاني هلسه ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .
(٣) فرانتس شايدل : اسرائيل أمة مفتعلة ، ص ٤٠ .

وفي عام ١٨٩٦ صدرت الطبعة الأولى من كراس « الدولة اليهودية » (Der Judenstaat) باللغة الألمانية ثم تُرجم إلى عدة لغـات كالفرنسية والانجليزية . وقد أوضح هرتزل في هذا الكراس أسباب اللاسامية وقضية الإندمـاج مع الشعوب الأوروبية ، ورأى أن الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لا يمكن أن تحل المشكلة اليهودية ، ولذلك لا بدّ من حلٍّ قومي عنصري لهذه المشكلة بإنشاء دولة يهودية مستقلة ملائمة تنهي تجوّل اليهود على وجه الأرض ويكسبهم الاحترام الذاتي بانتمائهم إلى دولة يهودية[١] . ويذكر « حاييم وايزمن » – الزعيم الصهيوني – من أن هرتزل لم يذكر في كتاب الدولة اليهودية ضرورة الحصول على فلسطين واعتماد اللغة العبرية في الدولة المنشودة ، ولكن حاييم وايزمن نفسه ويهود الشرق الأوروبي هم الذين عملوا من أجل تحقيق ذلك . ويضيف قائلاً : « نحن الذين بشرنا بفلسطين وباللغة العبرية ولا شيء آخر غير فلسطين وغير لغة اليهود ودين اليهود وتقاليد اليهود »[٢] . وبالرغم مما يقوله وايزمن إلا أنـه من خلال دراسة كتاب « الدولة اليهودية » يتضح بأن هرتزل ذكر فلسطين وتمنى لو أنها تصبح مكاناً للدولة اليهودية وأن يقبل السلطان العثماني بذلك مقابل تنظيم اقتصاد تركيا ودفع الديون المترتبة عليها . وقد تساءل هرتزل أيهما أفضل فلسطين أو الأرجنتين ؟ ورأى أن ذلك يعود إلى قرار الرأي العام اليهودي . وشرح أهمية الأرجنتين بمساحاتها الشاسعة وعدد سكانها القليل إلا أنه رأى « أن فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكننا نسيانه . ومجرد الإسم هو صرخة جامعة عظيمة . لو يعطينا جلالة السلطان فلسطين لكنا نأخذ على عاتقنا إدارة مالية تركيا كاملة مقابل ذلك ، ونقيم هناك جزءاً من حائط لحماية أوروبا في آسيا يكون عبـارة عن حصن منيع للحضارة في وجه الهمجية »[٣] . ومن أجل ذلك حاولت الرأسمالية اليهودية وأنصار القومية اليهودية وجمعية أحباء صهيون تشجيع هرتزل في أن تكون فلسطين لا غيرها دولة لليهود . ولهذا السبب كانت زيارته الأولى عام ١٨٩٦

---

(١) A. Cohen; *Israel and the Arab World*, p. 38. أنظر أيضاً : حاييم وايزمن : التجربة والخطأ ، ص ١٠ ، يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، ص ٩٣ .

(٢) حاييم وايزمن ، المصدر السابق ص ١٠ .

(٣) أنيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون : الفكرة الصهيونية – النصوص الأساسية ص ١٢٠ ، فقرة من كتاب « الدولة اليهودية » .

للآستانة لمقابلة الصدر الأعظم وإقناعه بشراء فلسطين ، ورأى أيضاً أن مفتاح فلسطين يجب أن يجده في برلين[١]. وكان كل هم هرتزل هو أن يحقق لليهود مشروع الحصول على الأرض المقدسة من السلطان مقابل سداد الديون العثمانية ، في الوقت الذي كانت فيه القوى الأوروبية تنتظر نهاية الرجل المريض لتقسيمه فيما بينها[٢].

وفي ١٣ نيسان (ابريل) عام ١٨٩٦ بذل هرتزل مساعيه مع الدول الأوروبية لمساندته في الحصول على فلسطين ، فاجتمع مع دوق بادن الكبير تمهيداً لمقابلة القيصر الألماني فاهتم الدوق بهذا اللقاء ولكن الشيء الوحيد الذي كان يخشاه الدوق من مساندته للقضية اليهودية هو أن يساء فهم هذه المساندة وينظر اليها كعمل لا سامي ، فرد هرتزل عليه بالقول : « ان الذين سيذهبون من اليهود هم فقط الفئة التي تريد الذهاب ... وانه اذا ساعد قضيتنا لن يبدو ذلك معاديا لليهود أبداً ، وانه من واجبنا نحن زعماء اليهود ان نقنع الشعب ان تأسيس دولة يهودية هو في صالح اليهود وليس اضطهاداً لهم »[٣]. ثم سأل الدوق الكبير هرتزل ما اذا كان عمل شيئاً بخصوص السلطان عبد الحميد الثاني على اعتبار انه لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني إلا بعد موافقة السلطان . ولما كان موقف السلطان العثماني قد ظهر منذ فترة بعيدة متمثلاً بقوانين الهجرة اليهودية القاضية بمنع الاستيطان اليهودي في فلسطين ، راح هرتزل يؤكد للدوق ضرورة القضاء على الدولة العثمانية وتقسيمها لأن ذلك هو الحل الوحيد لقيام الدولة اليهودية وخدمة الأهداف الاستعمارية . واضاف انه اذا تم تقسيم تركيا في المستقبل القريب فسوف تقف الدولة التي تقام في فلسطين حاجزاً ، أما اذا قبل السلطان بالمطالب والعروض اليهودية فهذا مما يبدل سياسة الصهيونية نحوه « فنحن نستطيع ان نسند السلطان سنداً قوياً بالمال اذا هو تخلى لنا عن قطعة أرض لا قيمة كبيرة لها عنده »[٤]. بالرغم من ان فلسطين — وفيها القدس الشريف — كانت تعتبر من أهم المناطق العثمانية بالنسبة للسلطان والحكومة التركية لا لأعتبارات دينية فحسب وإنما لاعتبارات استراتيجية وسياسية واقتصادية ، فمن أجل

---

(١) M. Medzini; *Zionism*, p. 82.

(٢) A. Chouraqui; *L'Alliance Israélite Universelle*, p. 105.

(٣) يوميات هرتزل ، ١٣ نيسان (ابريل) ١٨٩٦ ، ص ٣٣٤ . (ت . ع . ص ٢٣) .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٨ (ت . ع . ص ٢٥) .

ذلك شعرت الحركة الصهيونية باحتمال مقاومة السلطات العثمانية التي لم يكن بامكانها ان تنظر بعين العطف الى مجتمع غريب يقام على جزء هـام من أراضي الدولة بقصد انشاء دولة يهودية مستقلة (١).

ونظراً لأقتناع دوق بادن بأهداف إقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، فقد بدأ بتأييد هرتزل في هذه القضية شرط ألا ينظر الى هذه المساعدة كعمل لا سامي ، وأخـذ الدوق يسعى لاجراء مقابلة تجمع هرتزل بالقيصر الألماني والتي ستتم أثناء رحلته الى القسطنطينية والأراضي المقدسة (٢).

ورأى هرتزل بأن الدولة اليهودية المزمع انشاؤها في فلسطين ستكون قاعدة ومحطة استعمارية ليست لدولة واحدة وإنما لجميع الدول « سنبني سكك حديد في آسيا ونشق الطريق للأمم المتحضرة . وهذه الطريق لن تكون في يد دولة كبيرة واحدة بل للجميع » . ومن ثم يجب أن لا تقتصر رقعة الدولة اليهودية على فلسطين فحسب إنما يجب أن تكون « اسرائيل الكبرى » (Greater Israel) . وقـد صرح هرتزل بأنه « يجب أن تكون الحدود الشمالية الجبال التي تقابل قبادوقيا ، أما الجنوبية فقنال السويس . وسيكون شعارنا فلسطين داوود وسليمان » (٣). وقد تمتد هذه الدولة شمالاً الى بيروت « وسوف نطالب بما نحتاج اليه ، فكلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا للارض » . مع الاصرار على تنصيب حاكم يهودي تكون علاقته بالسلطان شبيهة بالعلاقة بينه وبين والي مصر على أن تكون هذه العلاقة لفترة انتقالية ومؤقتة . ولم ينسَ هرتزل في مباحثاته التجربـة الاستعمارية التي أنشأت متصرفية جبل لبنان عام ١٨٦١ .

والواقع أن هرتزل حرص في نشاطه السياسي أن يتصل بقداسة البابا الذي يهمه كسب تأييده كممثل للمسيحيين ، فاجتمع أولا بالقاصد الرسولي الذي حاول هرتزل ايهامه بأن تكون القدس خارج حدود الدولة اليهودية كي يلقى تأييداً من البابوية ، ولكن القاصد الرسولي لم يكن متجاوباً مع هرتزل وأفهمه بأنه لا يؤمن بأن اقامة دولة لليهود هو الحل المناسب للمسألة اليهودية . ومحاولات هرتزل مع البابوية والحكام الأوروبيين إنما كانت تهدف

---

(١) فايز صايغ : الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، ص ١٢ .
(٢) J. Soustelle; La Longue Marche d'Israël, pp. 30 — 31.
(٣) يوميات هرتزل ، ٢٣ نيسان (ابريل) ١٨٩٦ ، ص ٣٤٢ (ت . ع . ص ٧٢) .

للحصول على ضمانة دولية وعلى ضغط اوروبي سياسي على السلطان العثماني لاقناعه بالمشروع الصهيوني مقابل القروض التي تقدر بمليوني جنيه تقدم الى السلطان شخصياً كرشوة لبيع فلسطين بخلاف الأموال الأخرى التي ستقدم لتحسين اوضاع الدولة العثمانية .

والجدير بالذكر أن المبدأ الذي آمن به زعيم الصهيونية هو مبدأ الرشوة ومنطق المال ، ويتمثل ذلك في كل اتصالاته . ففي عام ١٨٩٦ اتصل به « ديونيس روزنفيلد » ــ رئيس تحرير البريد العثماني ــ وعرض عليه خدماته بالتوسط لدى بعض الشخصيات التركية البارزة لأن « ديونيس » كان على علاقة طيبة مع « عزت بك » ــ الرجل المقرب من السلطان ــ فوعده « هرتزل » باغداق الأموال عليه في حال نجاحه بالوساطة « وسندفع لتركيا كثيراً وسنقدم عطايا كبيرة لمن يتوسط لنا إن نحن حصلنا على فلسطين » ولكن كدولة يهودية مستقلة عن الدولة العثمانية إذ « نحن لا نرضى بأقل من التنازل عنها كبلد مستقل » . ومقابل هذا فان اليهود مستعدون لتسوية أوضاع تركيا المالية « سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني ، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية وبين الممتلكات الخاصة »[1].

ولما علم « ديونس » بالأهداف الحقيقية « لهرتزل » أكد له بأن السلطان لن يتخلى عن الاراضي السلطانية الخاصة أو الاراضي العامة . فحاول « هرتزل » في هذه الفترة من عام ١٨٩٦ عمل شيء يرضي السلطان فأقحم نفسه في القضية الأرمنية[2] ليوهم عبد الحميد الثاني أن لليهود دوراً فعالاً في السياسات المحلية والدولية ، ثم رأى أنه لو وفق في اقناع زعماء الأرمن بالتوقف عن الثورة ضد السلطان لكان من الممكن البحث في الحصول على فرمان سلطاني بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين أو تسهيل مهمته على الأقل . وكان « نيولنسكي »[3] يقوم بمهمة سرية للسلطان في بروكسل وباريس ولندن

(١) يوميات هرتزل ، ٣ أيار (مايو) ١٨٩٦ ، ص ٣٤٤ (ت . ع . ص ٢٨) .

(٢) كانت القضية الأرمنية تتمحور في هذه الفترة حول اقامة دولة أرمنية مستقلة مرتبطة سياسياً بالنفوذ البريطاني .

(٣) فيليب مايكل نيولنسكي : (١٨٤١ – ١٨٩٩) صحفي وعميل سياسي نمساوي من أصل بولوني ، عمل مسؤولا في الادارة السياسية في السفارة النمساوية في القسطنطينية وأصبح صديقاً للسلطان فيما بعد . ترك العمل الدبلوماسي عام ١٨٧٩ وأقام في باريس كصحفي . وفي عام ١٨٨٧ أسس وكالة أنباء في فيينا وأصدر نشرة «بريد الشرق» اليومية. انتدبه =

للاتصال باللجان الأرمنية لاقناعهم بالاذعان للحكومة العثمانية ، لأن السلطان على وشك تنفيذ مطالبهم من الاصلاحات والحريات الخاصة بهم . وفي غضون ذلك قدم «نيولنسكي» للصهيونية خدمة بأن طلب من هرتزل انتهاز هذه الفرصة والاشتراك في المسألة الأرمنية ، وأن يعرض على السلطان مساندة اليهود له في هـذه المسألة حتى ينقل نيولنسكي للسلطان هذا الخبر الذي سيرضيه ويحرز تقديره[1]. ولكن هرتزل أشار الى « أننا لن نعطي هذه المساعدة مجاناً. سنعطيها فقط بدلاً عن خدمات مؤكدة لقضية اليهود » .

وفي أوائل تموز (يوليه) عام ١٨٩٦ كان الأرمن ينوون القيام بمظاهرات واضرابات لممارسة ضغوط سياسية على السلطان ، فنشطت الاجهزة الصهيونية لاقناع الأرمن بالتخلي عن تحركاتهم . واتصل هرتزل بالمسؤولين الانجليز وعلى رأسهم «سالزبوري» وذلك للحصول على مساعدتهم في الضغط على الأرمن ، في الوقت الذي استنفر فيه البارزين من اليهـود في باريس ولندن لنفس الغاية والعمل للاتصال برئيس حركة الأرمن في لندن « أفتيس نزار بك »[2]. على أن هرتزل لم يلق تشجيعاً من الحكومة البريطانية لأن تأييد السلطان ضد الأرمن كان معناه إثارة الرأي العام ضد الحكومة التي رأت أنه ليس من مصلحتها اعـلان مساندتها للسلطان ، وليس من مصلحتها توقف الفتن والقلاقل في ارجاء الدولة العثمانية .

ونظراً لفشل هرتزل في المسألة الأرمنية ، أخذ نيولنسكي يوصي السلطان أنه لا يمكن خلاص تركيا وسلطانها إلا بالاتفـاق مع تركيا الفتاة التي اشترك في تأسيسها وقيادتها جماعة من اليهود الماسون ويهود الدونمة . ويذكر بأنه قدم تقريراً للسلطان تضمن هذه النصيحة[3]. وكان هرتزل قد أشار على نيولنسكي أن يضيف في تقريره حقيقة « وهي ان يساعد السلطان اليهـود . يعطيهم قطعة الارض التي يريدون وهم بدورهم يصلحون أمره

= السلطان عدة مرات لحـل بعض المشاكل السياسية كالقضية الأرمنية ، وكان صديقاً لهرتزل لذا فقد لعب دوراً مهماً في الاتصالات الدائرة بين الصهيونية والدولة العثمانية .

(١) يوميات هرتزل ٧ ، أيار (مايو) ١٨٩٦ ، ص ٣٤٥ (ت . ع . ص ٢٩) .

(٢) أفتيس نزار بك : أرمني أسس عام ١٨٨٦ حزب الهنشاق – الحزب الأرمني الثوري – وعاش عدة سنوات في منفاه في لندن حيث أصدر عـدة صحف وكُتب بحثت في القضية الأرمنية . وقد دعا الى تأسيس ولاية أرمنية مستقلة عن تركيا تحت حكم مسيحي .

(٣) يوميات هرتزل ، ٩ حزيران (يونيه) ١٨٩٦ ، ص ٣٦٢ (ت . ع . ص ٣٣).

في البلاد ويثبتون ماليته ويؤثرون على الرأي العام العالمي ليقف الى جانبه ». وطلب هرتزل من نيولنسكي تقديم عرض مغر للسلطان يتضمن دفع مبلغ عشرين مليون ليرة تركية على أن « ندفع من هذا المبلغ مليونين بدل فلسطين... وبالثمانية عشر مليوناً تحرر تركيا من بعثة الحماية الأوروبية »[١].

والواقع أن هرتزل رأى أخيراً عقم الأساليب المتبعة في المشاورات القائمة، وفضل السفر بنفسه الى الاستانة — في أول زيارة له — فاجتمع مع ابن الصدر الأعظم « جاويد بك »[٢] في ١٨ حزيران (يونيه) عام ١٨٩٦، وعرض عليه المشروع الصهيوني فأبدى المسؤول التركي معارضته لسيطرة اليهود على القدس، لأن أي تغيير في ادارتها إنما يسيء الى الدولة العثمانية ذاتها والى مشاعر الناس الدينية. ثم استفسر جاويد بك عن نوع الدولة اليهودية فقال هرتزل: « جمهورية ارستقراطية ». فدهش جاويد بك من هذا الجواب وقال: « اياك ان تذكر كلمة جمهورية للسلطان. ان الناس هنا يخافون منها خوفهم من الموت. انهم يخافون أن تنقل عدوى هذا النوع من الحكم الثوري الى كل مقاطعة »[٣]. وانتهى الاجتماع بين الشخصين بنتائج غير مشجعة يقيناً من جاويد بك بأن السلطان لن يقبل بالمشروع الصهيوني. وحاول هرتزل مراراً الاجتماع بالسلطان إلا أنه لم يجد من يسمع له فالسلطان يدعي المرض. وكان على هرتزل أن يتبع الأساليب الملتوية لكي ينشر فكرته في البلاط[٤]. وقد اتصل بأشخاص في مراكز قوى استطاعوا أن يحققوا له بعض الأمور مستغلين اسم السلطان[٥]. على أنه تأكد بنفسه من موقف السلطان العثماني بعد أن نقله اليه صديقه نيولنسكي. ويعتبر هذا

---

(١) يوميات هرتزل، ١٥ حزيران (يونيه) ١٨٩٦، ص ٣٦٥ (ت. ع. ص ٣٣).

(٢) ابراهيم جاويد بك (١٨٦٦ - ١٨٩٩): والده خليل رفعت باشا الصدر الأعظم، وكان والده والياً في أزمير. تولى جاويد مناصب كثيرة من جملتها عضوية جمعية الرسومات ثم عضوية شورى الدولة في دائرة التنظيمات. مات مقتولاً رمياً بالرصاص على يد ألباني من أهل قضاء «أقجة حصار» التابعة لولاية «اشقودرا» واسم القاتل الحاج ابن مصطفى، انظر: الهلال ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩، ج ٣، ص ٩٠ - ٩١. ويظن بأن جاويد بك كان من أصل يهودي (الدونمة) نظراً لمواقفه ونظراً لأن اسمه كان يتسمى به الدونمة ويعني في الأساس داڤيد (David).

(٣) يوميات هرتزل، ١٨ حزيران (يونيه) ١٨٩٦، ص ٣٧١ (ت. ع. ص ٣٤) انظر أيضاً:
A. Chouraqui; *Théodor Herzl Inventeur de l'Etat d'Israël*, P. 148.

(٤) A. Chouraqui; *op. cit.*, p. 148.

(٥) M. Medzini; *Zionism*, p. 82.

الموقف ذروة المعارضة العثمانية للاستيطان اليهودي في فلسطين ، وقد دوّنه هرتزل نفسه في مذكراته حينما قال السلطان عبد الحميد الثاني : « لا أقدر أن ابيع ولو قدماً واحداً من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة دمائهم ، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا وفي فلسطين وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في « بلفنه »[١] لأن أحداً منهم لن يرضى بالتسليم ، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال . الامبراطورية التركية ليست لي وانما للشعب التركي ، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها . ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل ، انما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان »[٢] .

ومن الأهمية بمكان القول ان هـذا القرار السلطاني كان قراراً صاعقاً تلقاه هرتزل بكل غضب وانزعاج ، الأمر الذي جعله يغادر استانبول في ٢٨ حزيران (يونيه) عام ١٨٩٦ بعد أن بقي فيها عشرة أيام . وعلى أثر ذلك وجه نشاطه الى السياسة البريطانية ، وكان قـد أولى اهتماماً كبيراً بضرورة الحصول على تأييد بريطاني لاقامة دولة يهودية حينما قال : « لكي يكون لي اعتبار في البلاطات الأوروبية يجب أن أحصل على أعلى الأوسمة ؛ الانجليز أولاً » . وفي أوائل تموز (يوليه) عام ١٨٩٦ اتصل هرتزل باليهودي الفرد كوهين والبارون روتشيلد ، للتوسط له لمقابلة سالزبوري. وكان يهدف من هذه المقابلة اقناع بريطانيا بممارسة ضغوطها على الأرمن لايقاف ثورتهم وحملاتهم على السلطان ، لأنها هي التي كانت تمد الثوار بالمال والسلاح ، ولأنه في حال نجاح مهمته سيكسب ود السلطان الذي قد يغير موقفه من المشروع الصهيوني ومن سياسته تجاه بريطانيا ، واذا مـا تمت المصالحة الأرمنية ـ العثمانية « فإني أعيد السلطة الانجليزية الضائعة الى القسطنطينية »[٣] . وكانت بريطانيا تسير باتجاهين متناقضين بالنسبة للنشاط اليهودي وان كانا يؤديان

(١) بلفنه : هي مدينة هامة استراتيجية تقع على ملتقى الطرق الرئيسية بين مضائق جبال البلقان وبلغاريا الغربية والطونة . وقعت فيهـا موقعة عسكرية بين العثمانيين والروس في آب (اغسطس) ١٨٧٧م – رجب ١٢٩٤هـ ، وقد أبلى العثمانيون فيها بلاء حسناً .

(٢) يوميات هرتزل ، ١٩ حزيران (يونيه) ١٨٩٦ ، ص ٣٧٨ (ت . ع . ص ٣٥) .

(٣) يوميات هرتزل ، ٩ تموز (يوليه) ١٨٩٦ ، ص ٤١٣ (ت . ع . ص ٣٩).

إلى هدف واحـد . فالإتجاه الأول يقضي اضعاف الدولة العثمانية بتشجيع الحركات الإنفصالية والثورة الأرمنية ، والإتجـاه الثاني يهدف إلى تأييد المشروع الصهيوني وتشجيع الميول اليهودية باستيطان فلسطين .

وبعد مضي حوالي شهرين من رحلة هرتزل ، حاول من جديد الاتصال بالأوساط التركية لعرض مشروع جديد يتضمن مغريات مالية مضاعفة. فعرض إقراض تركيا عشرين مليون جنيه استرليني لا تعيدها مطلقاً ، إنما تحسمها من رسم الضرائب التي تفرض على المهاجرين اليهود إلى فلسطين بمعدل مئة ألف جنيه استرليني في السنة الأولى ، ثم تزداد إلى مليون جنيه استرليني سنوياً وتتصاعد الضرائب كلما تضاعفت الهجرة ومقابل هذا القرض يسمح جلالته بالإمتيازات التالية : « الهجرة اليهودية إلى فلسطين التي لا تكون فقط غـير محدودة ، بل أيضاً تشجعها الحكومة السلطانية بكل وسيلة ممكنة ، ويُعطى المهاجرون اليهود الإستقلال الذاتي المضمون في القانون الدولي ، في الدستور والحكومة وإدارة العدل في الأرض التي تقرر لهم . فلسطين كدولة شبه مستقلة »[١] .

ومن ناحية أخرى فقـد قدم هرتزل اقتراحاً بضرورة الاجتماع الى السلطان شخصياً للاتفاق على هذا المشروع « الذي ستمارس به حماية السلطان في فلسطين اليهودية ... وكيف سيحفظ اليهود أنفسهم النظام والقانون بواسطة قوات الأمن الخاصـة بهم » . ورأى هرتزل بأن الصيغة السلطانية المبررة لاعادة اليهود الى فلسطين تتضمن بأن « يصدر جلالته دعوة كريمة الى اليهود للعودة الى أرض آبائهم . سيكون لهذه الدعوة قوة القانون وتبلغ بها الدول مسبقاً » . ولكن هرتزل لم يتلق رسالة جوابية من السلطان على عرضه ، وهذا مما أثار غضبه لا سيما بأن الدولة العثمانية لم تذعن لاغراءات العروض المالية الصهيونية بل رفضتها وبذلت جهودها للاستدانة من الدول الأوروبية . ففي أوائل عام ١٨٩٧ علم هرتزل بأن الدول الأوروبية أقرضت الحكومة التركية بعض المال ، فتضايق من هذا الخبر وقال : « تلقت الجريدة الحرة الجديدة (Neue Freie Presse) هذا الصباح خبر إتمام التدابير المالية مع تركيا ـ تحت ضمانة الدول كلها ـ لم أصدق الخبر في البدء ، واتصلت هاتفياً

(١) يوميات هرتزل ، ٢٥ آب (اغسطس) ١٨٩٦ ، ص ٤٥٧ (ت . ع . ص ٤٥) .

بنيولنسكي الذي اكتفى بالتأكيد : أنه أمر سيء لنا »[١] . وقد كانت الصهيونية ترى ضرورة بقاء الدولة العثمانية في حاجة ملحة الى المال ، والى ضرورة استمرار الاضطراب المالي والاقتصادي للدولة ، لأن عودة النشاط المالي لها يعني ابتعادها عن التمويل الصهيوني الذي اتخذه اليهود أداة لممارسة ضغوطهم على السلطان .

وبالرغم من فشل الزعيم الصهيوني في اقناع السلطان العثماني بمشروع الدولة اليهودية في فلسطين فقد كانت «جمعية الاستعمار اليهودي» تواصل نشاطها في فلسطين بالأساليب غير القانونية معتمدة على شراء الأراضي من الأقطاع اللبناني ومنتهجة اسلوب الرشوة مع الادارة التركية الفاسدة كي تتغاضى عن عمليات الشراء . وكانت اسرة « سرسق »[٢] تملك وحدها مساحات شاسعة في فلسطين تتاجر بها وتستثمرها ، ويعترف هرتزل بهذه الحقيقة عندما يقول : « جمعية الاستعمار اليهودي تتفاوض مع عائلة رومية اسمها سرسق — على ما أظن — من أجل شراء سبعة وتسعين قرية في فلسطين . يعيش هؤلاء الروم في باريس وقد خسروا أموالهم في القمار ، وهم يريدون بيع ممتلكاتهم — وهي ٣٪ من مساحة فلسطين حسب قول بامبس — بسبعة ملايين فرنك . لقد تحولت جمعية الاستعمار اليهودية عن الأرجنتين ولم تعد تستثمر أموالها إلا في فلسطين »[٣].

ونظراً لقناعة هرتزل بأهمية الإعلام وتأثيره على الرأي العام وتكريسه مع الدول أو ضدها تبعاً لمواقفها من الصهيونية قرر اصدار صحيفة عام ١٨٩٧ لخدمة الصهيونية والدول المؤيدة لمشروعه . فبدأ خطواته الأولى في استغلال قرار إصدار الصحيفة بمحاولة منه لإقناع رئيس الحكومة النمساوية « باديني » تأييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين والسعي لدى الدولة العثمانية بالموافقة على

---

(١) يوميات هرتزل ، ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٧ ، ص ٥٠٩ (ت . ع . ص ٤٧).
(٢) آل سرسق : اسرة لبنانية ارثوذكسية سافر أفراد منها الى فلسطين ، وحصلوا عام ١٨٧٢ على مساحات واسعة من أراضي فلسطين بسعر زهيد من السلطات العثمانية والفلاحين العرب بواسطة المزاد العلني ونتيجة لفقر الفلاح الفلسطيني بسبب النظام الضرائبي . بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الاتصالات بين أفراد هذه الاسرة والصهيونية وسماسرة الاراضي لبيع ممتلكاتها التي بلغت حوالي ربع مليون دونم في مرج ابن عامر لوحده وقد جرى بيع قسم منها في عهد الدولة العثمانية والآخر في عهد الانتداب البريطاني .
(٣) يوميات هرتزل ، ١٠ آذار (مارس) ١٨٩٧ ، ص ٥١٩ (ت . ع . ص ٧٥) .

ذلك لأن الحالة السياسية الداخلية تجعل من إصدار هذه الجريدة أمراً في مصلحة «باديني» أيضاً على حد قول هرتزل. على أن أمبراطورية النمسا ـ المجر الثنائية كانت مهتمة بمشاكلها الداخلية ، لذلك كانت تحرص على تجنب الوضع في الشرق الأدنى، وقد عقدت لهذا الغرض اتفاقية مع تركيا في عام ١٨٩٧ جعلت كلاً من هاتين الدولتين حرة في توجيه اهتمامها إلى ميادين أخرى ، واتفقتا على أن تُبقيا على الوضع القائم في الشرق الأدنى أطول مدة ممكنة [١].

(١) أرنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥٥ .

الفصل الثالث

موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني - الدولي ١٨٩٧ - ١٩٠٤

١ - المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ وموقف اليهود من مقرراته .

٢ - الموقف العثماني من النشاط الصهيوني - الدولي ١٨٩٧ - ١٩٠٤ .

أ - النشاط الصهيوني عام ١٨٩٨ .

ب - النشاط الصهيوني عام ١٨٩٩ .

جـ - النشاط الصهيوني عام ١٩٠٠ .

د - النشاط الصهيوني عامي ١٩٠١ - ١٩٠٢ .

هـ - النشاط الصهيوني عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤ .

الفصل الثالث

موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني الدولي ١٨٩٧ - ١٩٠٤

تمهيد

تعتبر الصهيونية [١] حركة عنصرية استعمارية نادت بحلول انعزالية لما أسمته « المشكلة اليهودية » لأنها عارضت اندماج اليهود في أوطانهم الأصلية ، ودفعتهم للهجرة إلى فلسطين زاعمة أن لهم فيها حقوقاً تاريخية وسياسية ودينية. وفي أواخر القرن التاسع عشر التقت الأهداف الصهيونية بأهداف التوسع الاستعماري الأوروبي، وفي عصر سيطرة الرأسمالية الأوروبية في وسط وغربي وشرقي أوروبا ، فوجدت الصهيونية في هذا الاستعمار وسيلة للوصول إلى تحقيق غاياتها ، بينما وجد الاستعمار في الصهيونية جسراً لتدعيم نفوذه في المناطق العربية من أراضي الدولة العثمانية . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية في أوروبا بتنظيمها العملي في أواخر القرن التاسع عشر وأن تصوغ ايديولوجيتها على الوجه الذي صاغته فيه فالأوضاع الإقتصادية والسياسية هي التي خلقت التربة لظهور اللاسامية والصهيونية التي زعم أصحابها أنها الرد الوحيد على اللاسامية [٢] .

ونظراً للتطورات الإقتصادية والسياسية والعسكرية التي نشأت في أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، انتقلت أوروبا من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الأمبريالية ، ورأت ضرورة توطيد نفوذها بواسطة التوسع العسكري والاستيطان الإستعماري ، وكان يعني ذلك ازدياد الصراع الطبقي والإجتماعي في القارة الأوروبية وازدياد الوعي القومي فيها « مما أدى إلى خلق ظروف جديدة أسفرت عن قيام طبقات عاملة « بروليتاريا »

---

(١) الصهيونية نسبة إلى « صهيون » (ציון) ، وهو إسم جبل قام عليه بيت المقدس .

(٢) إميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، ص ٣٥ .

(Prolétaire) حرصت على نفض غبار السيطرة الرأسمالية عنها ، ولمواجهة هذا التحرك لجأت الحكومات الإستعمارية إلى أساليب عديدة منها :

١ — استخدمت القمع والعنف للقضاء على التحركات الاجتماعية .

٢ — شجعت اللاسامية واستخدمتها حين دعتها الضرورة إلى تحويل الصراع الاجتماعي عن أهدافه الحقيقية .

وعلى أساس هذا الواقع استطاعت الصهيونية التعامل مع الدول الإستعمارية نظراً لوحدة أهدافها ، فأوحت الحركة الصهيونية للجماعات اليهودية المتدينة أن الإندماج بين شعوب أوروبا ضربٌ من الردة عن الدين ، وكان اليهود قد تمتعوا « بالتحرر المدني » (Civil Emancipation) ، و « التحرر السياسي » (Political Emancipation) ، ولكن الدوائر الأوروبية والصهيونية أكدت لليهود ضرورة السعي إلى السيطرة على مكان يُعترف بأنه لهم ويشعرون فيه بالإرتياح ويحيون فيه حياة طبيعية مثل سائر الأمم .

والواقع أن تلك الدوائر جعلت اليهود يبدون مقاومة ظاهرة ضد ابتداع يعني بالنتيجة القضاء على مميزاتهم جملة [١] . وقد حدث أن سأل الدكتور « بارنيس » — وهو يهودي — حاييم وايزمن عن جنسيته فأجابه : « أنا يهودي روسي » . ويذكر وايزمن « أن الرجل دهش لجوابي ، وحاول أن يقنعني بأن اليهودية دين وليست جنسية . فأفهمته أن اليهودية جنسية وقومية ، وأن كل يهودي حيث كان هو يهودي أولاً ، وروسياً أو ألمانياً أو غير ذلك من بعد » [٢]. هذا ، ويؤكد زعماء الصهيونية استغلال أوروبا للاسامية ولليهود ، وهم كالحرب الأجنبية ينفعون في تحويل الإهتمام عن المشاكل الداخلية [٣].

ونظراً لهذه الظروف دعت الصهيونية اليهود إلى الإندماج في مخططات الدول الإستعمارية بشقيها الاستعماري الإستيطاني والسياسي الإستراتيجي ، والعمل لخلق أساليب حديثة للاستعمار تخالف الأسلوب العسكري التقليدي لأنه أصبح شكلاً غير مرغوب فيه . ومن أجل هذا فان الصهيونية نشأت

---

(١) آلان تايلور : مدخل إلى اسرائيل ، ص ١٣ . أنظر أيضاً : مشكلة فلسطين ، النشرة الثانية ، ص ٣١ .

(٢) حاييم وايزمن : المصدر السابق ، ص ٩ .

(٣) I. Zangwill ; *The Return to Palestine*, p. 625.

كمحاولة متمثلة في « التروست الإستعماري اليهودي » و « المنظمة الصهيونية العالمية » التي قامت بها البورجوازية اليهودية الموالية للأمبريالية من أجل استرداد الرقابة التي فقدتها الطبقات العليا اليهودية على جماهير السكان اليهود[1]. وقد عملت الصهيونية على تكييف مطالبها وفقاً للمصالح الإستعمارية وانسجاماً مع طبيعة المناطق التي يمتد إليهـــا النفوذ الإستعماري ومبادئ السياسة التي تعتمدها الدول الكبرى في توجيه تحركاتها وتسيير شؤونها. وكان الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل معجباً بالنظام الرأسمالي بـــكافة وجوهه فطالب اليهود أن يتأثروا بنظام الغرب الإقتصادي والسياسي ولإجتماعي. وقد شرح في روايته « أرضنا » التي نشرها عام ١٩٠٢ حياة اليهود المقبلة في فلسطين بنفس الصورة التي عرفها للحياة الليبرالية في أوروبا الوسطى[2].

وفي عام ١٨٩٧ تقرر عقد المؤتمر الصهيوني لمناقشة مشروع هرتزل باقامة « الدولة اليهودية » ولكن قبل عقد المؤتمر حرص الزعيم الصهيوني على اعداد الأجواء الملائمة لنجاح هذا المشروع في الأوساط الصهيونية والعثمانية والدولية. كما حرص هرتزل في آذار (مارس) عام ١٨٩٧ على الاجتماع « بمحمود نديم » السفير العثماني في ڤيينا – ليؤكد له من جديد استعداد اليهود التبرع للدولة العثمانية بمبالغ تســاعد السلطان والادارة على تجاوز المحنة الاقتصادية التي تعاني منها الدولة العثمانية مستغلاً ظروف الحرب التركية – اليونانية التي جرت في شباط (فبراير) عام ١٨٩٧، وبالفعل فقد تقدم ببعض الأموال تبين انها تبرعات وهمية لم تتعد ألف فرنك لجرحى الحرب[3].

أما على الصعيد الاعلامي، فقد رأى هرتزل أن الوقت حان لاصدار صحيفة صهيونية تعبر عن أهداف الحركة الصهيونية، فقرر اصدار صحيفة « العالم » (Die Welt) في ٤ حزيران (يونيه) عام ١٨٩٧ خدمة لحركته « ولسد حاجات القضية » على حد قوله. وكانت أبحاث هذه المجلة وأفكار كراس « الدولة اليهودية » الأساس الذي اعتمده هرتزل في دعوته الى المؤتمر

(١) يوري إيفانوف : حذار من الصهيونية، ص ٤٥ .
(٢) خيري حماد : الصهيونية جذورها ...، ص٣١، أنظر أيضاً : أسعد رزوق : اسرائيل الكبرى ص ١٧ .
(٣) أنظر : يوميات هرتزل، ص ٥٥٥ (ت. ع. ص ٥٧).

الصهيوني الأول . وكان هرتزل قد أصدر هذه الصحيفة بأمواله الخاصة لنشر مبادئه ومقترحاته [١] .

وفي هذه الفترة رأى هرتزل ضرورة استغلال صحيفته لاستمالة السلطان العثماني فأرسل الى صديقه « سيدني ويتمان » [٢] في استانبول رسالة يطلب فيها ابلاغ « احمد مدحت أفندي » [٣] المقرب من السلطان « اننا سننشر فيها بسرور وبحياد أكيد المراسلات والأنباء التي قد تكون في صالح حكومة السلطان . وهذا الحل هو خطوة نحو تكريس الصحافة اليهودية لمصلحة تركيا . إننا سوف نتبعها بخطوات أخرى ان شجعتم جهودنا بمشاعركم نحو القضية اليهودية » [٤] .

وما أن بدأ التحضير لعقد مؤتمر بال في آب (أغسطس) عام ١٨٩٧ حتى بدأت بعض الشخصيات اليهودية البارزة تؤيده وتدعو اليه وتطلب من اليهود احداث تغييرات جذرية وعملية في حياتهم واتجاهاتهم فقد انتقد « ناحوم سوكولوف » الحماية الأجنبية لليهود والانسانية والحركات التبشيرية اليهودية وانتقص من دور المبشرين اليهود الذين لم يكن لهم تأثير في نشر مبادئهم لا سيما في المانيا . ومن ثم ابدى اعجابه بهرتزل وبفعالية الصهيونية حيث قال : « لم نعش بقوة وبمبدأ كما نعيش حياتنا اليوم . نحن لم نكن قوة صارمة للمستقبل كما نحن الآن . وعندما ركع العالم أمامنا من قبل ماذا كان على هرتزل ان يقوم به اليوم سوى الاعتماد على الفكرة القومية » [٥] .

---

(١) N. Sokolow ; *History of Zionism (1600 — 1918) , vol. I,* p. 268.
أنظر ايضاً H. M. Kallen ; *Zionism and the World Politics,* p. 82.
أنظر أيضاً : أنيس صايغ ، لطفي العابد وآخرون : الفكرة الصهيونية الأساسية ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(٢) سيدني ويتمان (١٨٤٨ - ١٩٢٥) كان صحافيا يكتب في « نيويورك هرالد » اللندنية ، سافر الى الدولة العثمانية وخاصة الى اناضوليا بين ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، ثم تعرف على السلطان وصادقه وكتب عنه وعن الدولة العثمانية .

(٣) احمد مدحت (١٨٤٤ - ١٩١٩) كان مفكراً تركيا ومديراً للجريدة الرسمية والمطبعة الحكومية العثمانية ، أصدر صحيفة لمدح السلطان وألف عدة كتب ، انصرف الى التدريس في الجامعة بعد سقوط السلطان ١٩٠٩ .

(٤) يوميات هرتزل ، حزيران (يونيه) ١٨٩٧ ، ص ٥٤٩ (الترجمة العربية ص ٥٤ ، ٥٥) .

(٥) N. Sokolow; *Zionism, Problems and Views,* pp. 34 , 35.

المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ وموقف اليهود من مقرراته

قبل انعقاد هذا المؤتمر بيومين مهد له قادة الصهيونية باجتماعات تمهيدية اتخذت فيها مقررات حول طريقة العمل وجدول اعمال المؤتمر وتأليف لجنة خاصة لصياغة البرنامج الصهيوني المقبل . وفي الفترة الممتدة من ٢٩ آب (اغسطس) الى اول ايلول (سبتمبر) عام ١٨٩٧ عقدت « المنظمة الصهيونية العالمية » (World Zionist Organization) اول مؤتمر صهيوني في مدينة « بال » بسويسرا لاعادة « الشعب المختار » الى أرضه ، ولتصبح فلسطين مرة أخرى مركز حياتهم في العالم (١) . وقد دعا الى عقد هذا المؤتمر د. « تيودور هرتزل » ود. « ماكس نوردو » (٢) (Dr. Max Nordeau) ، وقد ضم أكثر من مائتي مندوب من فلسطين وامريكا وروسيا للبحث بالوسائل المثمرة التي يجب ان تتخذ للنهوض بالصهيونية ، وانشاء قرى ومستعمرات خاصة باليهود تكون حائزة للحقوق العمومية في أرض فلسطين. وقد ألقى هرتزل خطاباً في المؤتمر تحدث فيه عن الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ورأى انه لو تم ارسال عشرة آلاف يهودي سنوياً اليها ، فان ذلك لا يمكن ان يؤدي الى تأسيس دولة يهودية فيها نظراً لوجود تسعة ملايين يهودي في العالم او اكثر ، وان عمليات التسرب والهجرة على هذا النحو ستبقى مئات السنين « دون ان نحصل على هدفنا » ورأى هرتزل انه لا بد من الحصول على « ميثاق دولي » من اجل انشاء « الدولة اليهودية » ، كما انه لا بد من موافقة الدولة العثمانية التي تحارب الهجرة اليهودية « فمما لا شك فيه ان الحكومة التركية ستعيد فرض قوانين منع الهجرة رأساً ، ولا نستطيع ان نعارض هذه الخطوة أبداً . فمن يعتقد انه باستطاعة اليهود التسلل الى أرض اجدادهم فهو يخدع نفسه ، كما انه يخدع الآخرين . إذ ليس هناك أي مكان يلاحظ به مجيء اليهود رأساً إلا في وطنهم التاريخي لأنه وطنهم . كما انه ليست من مصلحتنا ان نذهب الى هناك قبل نضوج الفكرة ». ورأى هرتزل ان الهجرة اليهودية الى فلسطين « ستعطي قوة لتلك الارض الفقيرة جداً » . وستبعث القوة في الامبراطورية العثمانية ، لأن صاحب

---

(١) A. Bein; *Theodor Herzl - A Biography*, p. 228.
انظر ايضا : مشكلة فلسطين ، ص ٣٠ .

(٢) عن سيرة حياة « ماكس نوردو » انظر : الفصل الأول ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

الجلالة يعلم مقدرة اليهود فهو يملك خبرة ممتازة مع رعاياه اليهود وأضاف هرتزل : بأن حـل مسألة الشرق الأوسط والمسألة اليهودية في آن واحد سيكون له تأثير على العالم المتحضر بأسره . ولم يكتف هرتزل بعرض هذه الأمور بل أراد استمالة الدول الأوروبية في تنفيذ الفكرة الصهيونية لأن « تحسن وضع اليهود سيساعد على تحسين وضع مسيحيي الشرق »(١) .

وبعد مناقشات وخطب عديدة قرر المؤتمر اتخاذ التدابير التالية المعروفة « بالبرنامج الصهيوني » (Zionist Program) :

١ — المثابرة على استعمار فلسطين بواسطة الزراع وأرباب الصنائع الاخصائيين.

٢ — إيجاد وحدة ملّية ضمن القوانين المحلية بين اليهود المنتشرين في أنحاء الدنيا الأربعة .

٣ — إرشاد الموسويين الذين ينظرون إلى اليهودية — التي تفهّم أبناءها سمو الفكرة الصهيونية — بنظر الاستهجان والانحطاط ، وإفهامهم أن مبدأ العنصرية أمر مقدس ومحترم .

٤ — إتخاذ الوسائط المقتضية لإفهام كافـة الحكومات غاية الصهيونية وأساساتها العامة(٢) .

٥ — تصديق الباب العالي والدول التي نحن ساكنون في بلادها لهـذا المشروع(٣) .

والواقع أن الصهيونيين عندما انتهوا من عقـد مؤتمرهم ، كانوا متفقين جميعاً على أنهم سيلقون المساعدات من الدول الأوروبية وفي مقدمتها الدول التي لها أطماع في الأراضي العربية من الدولة العثمانية ، ولكنهم رأوا بأن العقبة الأساسية التي ستواجههم هي الدولة العثمانية وسلطانها الذي سبق له وأصدر قرارات عديدة بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ويذكر بأن من المقررات الضمنية لمؤتمر «بال» ، هو أنه في حال استمرار رفض السلطان

---

(١) فقرات من خطاب هرتزل ١٨٩٧ ، انظر : انيس صايغ ولطفي العابد وآخرون : الفكرة الصهيونية ، ص ١٢٦ .

(٢) النشرة الاسبوعية ، ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١٦٦٣ . أنظر أيضاً : N. Sokolow; *History of Zionism*, p. 269. I. Cohen; *A Short History of Zionism*, p. 45.

(٣) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت — القسم الجنوبي ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

للمطالب الصهيونية فان تحطيم الأمبراطورية التركية شرط أساسي لإقامة حكومة صهيونية في فلسطين (١).

وفي هذه المقررات أعلن المؤتمر الصهيوني الأول بان اليهود يشكلون وحدة دينية عنصرية « وان مبدأ العنصرية أمر مقدس ومحترم ». وهو عكس ما كان يصرح به هرتزل « من ان المسألة اليهودية ليست قومية ولا دينية وانما هي مسألة اجتماعية » (٢).

أما المقررات السرية لمؤتمر بال ١٨٩٧، فهي التي سميت بـ « مقررات حكماء صهيون » (Protocols of Elders of Zion) ويقال انها كانت معدّة قبل عقد المؤتمر من قبل « تيودور هرتزل » و « آحاد هاعام »، وأن هذه المقررات لم تبق سرية بعد تسرب نسخة منها الى مراسل صحيفة « مورننغ بوست » (Morning Post) اللندنية في روسيا في أوائل القرن العشرين حيث قام بترجمتها الى اللغة الانجليزية (٣). وقد اعترف المحامي اليهودي « هنري كلين » بحقيقة هذه المقررات السرية وخطورتها على العالم، ولقد طرده اليهود من صفوفهم لأنه لم يوافق على هذه المقررات (٤).

وإذا طالعنا البروتوكولات وقارناها بالأحداث التي جرت فيما بعد على

---

(١) جواد رفعت اتلخان : الإسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥٢ .

(٢) A. Chouraqui; *Théodor Herzl Inventeur de l'État d'Israël,* p. 91. (Le Problème Juif n'est ni national, ni religieux, mais social).

(٣) تم كشف البروتوكولات بواسطة سيدة فرنسية استطاعت الحصول عليها بعد نهاية اجتماع سري بأحد زعماء الماسونية في فرنسا حيث مكان « المؤامرة الماسونية اليهودية » (Jewish Masonic Conspiracy) وقد انتقلت هذه الوثائق السرية من السيدة الفرنسية الى « اليكس نقولا نيفتش » (A. N. Nivitch) كبير أعيان روسيا ومنه الى صديقه « سرجي نيلوس » (S. Nilos) وذلك في عام ١٩٠١ ، وقضى « نيلوس » - باعتباره من ثقات العلماء الروس - خمس سنوات في دراسة نصوص البروتوكولات حتى استطاع ان يعد منها الطبعة الأولى بالروسية في اوائل عام ١٩٠٥ . ثم أصدر طبعة ثانية عام ١٩٠٥ ايضاً ، ومن هذه الطبعة وصلت نسخة الى مكتبة المتحف البريطاني ، ومن ثم الى مراسل صحيفة « مورننغ بوست » « مارسدن »، الذي نشرها. وكان الرد الأول على كشف هذه البروتوكولات ونشرها، هو ما زعمه تيودور هرتزل عام ١٩٠٢ بأن هذه المقررات ليست من نتائج مؤتمر بال ، وليست من مبادىء الصهيونية ، وزعم أنها ألصقت بالحركة الصهيونية للنيل منها . حول هذا الموضوع انظر : محمد خليفة التونسي ، المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ . انظر ايضا : عجاج نويهض المرجع السابق ، م ١ ، ج ١ ، صفحة غير مرقمة بعد ص ١٦ .

(٤) انظر: عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

يد الصهيونية فتثبت صحتها ونسبتها الى زعماء المنظمة الصهيونية ، واذا ما قارنا تعاليم البروتوكولات وبين يوميات هرتزل أو ممارساته أو مؤلفاته نرى تشابهاً يكاد يكون تاماً بحيث يسارع المرء على الاعتقاد بأن المصدر واحد. فقد كانت ممارسات هرتزل في عِلاقته مع الدولة العثمانية وغيرها من الدول قد قامت على أسلوب التحايل والرشوة ومن هنا يبرز منطق البروتوكول القائل « ... ينبغي لنا ألّا نتردد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة متى لاح لنا أن بهذا نحقق الغاية »[1].

والواقع أنه بعد نشر المقررات السرية لمؤتمـــر بال ١٨٩٧ ، حاولت الحركة الصهيونية إقناع أوروبا بأن نشر هذه البروتوكولات ولصقها بالصهيونية، ليست إلا نزعة جديدة من « اللاسامية » غير أن الوقائع التاريخية والسياسية والعسكرية أثبتت صحتها وتقيد الصهيونية بها . ويحلل الدكتور حسن صبري الخولي الملابسات المحيطة بهذه البروتوكولات فيقول : « أياً كان الرأي بالنسبة لمصدر هـذه المواثيق فان صحتها وحقيقة وجودها أمر لا مراء فيه ، فقد أثبته المؤرخون وأيدته الحوادث . وقد حـــاول شيوخ الصهيونية إبقاءها سراً خاصاً بهم ، لكنهم لم يستطيعوا ذلك بعد أن استطاع العالم كشفها »[2].

أما عن العلاقة بين الصهيونية والماسونية فيذكر « يوسف الحاج »[3] : أنه كان هناك ماسونيون أيدوا هذه البروتوكولات ، « وقد وقع على تلك الارشادات الممثلون الصهيونيون من درجة ٣٣ وهي أعلى درجات المطلعين. فما رأي الأحرار ؟ »[4].

وعن أهمية المؤتمر الصهيوني الأول فقد كان لتأثيره على الحركة الصهيونية مشابهاً لتأثير المؤتمر الدستوري على الولايات المتحدة الأمريكية عند ولادتها واعتبرته الصهيونية أنه أول مؤتمـر يضم اليهود دون اعتبار للفوارق أو

---

(١) انظر : عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، م ١، ج ٢ ، ص ١٨٢ – ١٨٦ . البروتوكول الأول . انظر ايضاً : محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي – بروتوكولات حكماء صهيون ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٣) يوسف الحاج : حائز على درجة استاذية في الماسونية . هـــذا وقد أفردنا دراسة خاصة عن الماسونية وعلاقتها بالصهيونية في الفصل الخامس من البحث .

(٤) يوسف الحاج : هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود ، ص ٩٧ .

العضوية أو العمر بين المشتركين فيه ... ولكن بعد ذلك وضعت قوانين تقضي على أن لا يقل عمر العضو عن ثمانية عشر سنة وأن يدفع « الشكل » (Shekel) أي الضريبة وهي خمس وعشرون سنتاً [١]. كما واعتبرته مؤتمراً تاريخياً ربط شرق وغرب أوروبا ... فوحد المشاريع والبرامج . واعتبرت صهيونية شرقي أوروبا أنها قد شاركت في إنشاء فلسطين [٢].

ورأى هرتزل من خلال العلاقات العثمانية ــ الألمانية أن إنشاء وطن للشعب اليهودي يعتمد بالدرجة الأولى على علاقة ألمانيا مع الدولة العثمانية [٣]. لذلك وافق على أن يكون العمل جماعياً ، وكان أهم شيء بالنسبة إليه أنه أوجد فكرة : انتقال شعب بدون أرض إلى أرض بدون شعب [٤].

وكان السلطان عبد الحميد الثاني متتبعاً المؤتمر الصهيوني الأول والمقررات التي تمخضت عنه ، فحرص على تتبع النشاط الصهيوني والمحافل الماسونية في الدولة ، فكان قراره الأخير ضرورة منع إسكان اليهود في فلسطين [٥].

وانطلقت الحركة الصهيونية متمسكة ببرنامج بال بزعامة تيودور هرتزل لتعزيز نشاطاتها في السبل الثلاثة : التنظيم والاستعمار والدبلوماسية وللدلالة على أهمية هذا المؤتمر في حياة الشعب اليهودي نسوق العبارة التي دوّنها زعيم الصهيونية في يومياته حيث قال : « لو طلب تلخيص مؤتمر بال في كلمة واحدة ــ وعليّ أن أحرص على عدم تلفظها بصوت عالٍ ــ لكانت هي : في بال أسست الدولة اليهودية ، ولو قلت بصوت عالٍ لضحك الجميع مني . ولكن ربما في خمس سنوات على وجه الإحتمال ، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد ، سيعلم كل واحد بالأمر » [٦]. وذكر هرتزل في إحدى جلسات المؤتمر بأن الحجر الأساسي للوطن قد وضع في هذا المؤتمر ، وبه سيُبنى بيت وضمان سلامة اليهود في المستقبل ... وبأن هذا اليوم سيكون مهماً لاسرائيل . وأن النصر سيكون هذه المرة للأبد ، ليس للتخلص من الشقاء القديم فحسب ، بل لشيء أكثر أهمية ... [٧]

---

(١) H. M. Kallen ; *op. cit.*, p 79. : أنظر أيضاً A. Bein; *op. cit.*, p. 240.
(٢) G. Kressel, *Zionism*, p. 237.
(٣) J. Soustelle ; *op. cit.*, p. 35. (٤) R. Hertzberg; *Zionism*, p. 27.
(٥) جواد رفعت اتلخان : الإسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .
(٦) يوميات هرتزل ، ١ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٧ ، ص ٥٨١ (ت . ع . ص ٨٩) .
(٧) J. Frankel, *Theodor Herzl - A Biography*, pp. 67,70.

والواقع أن هناك شخصية يهودية – قبل هرتزل – وهي « دسور »[1] تنبأ بقيام دولة اسرائيل في فلسطين في مدى خمسين سنة ، ويعود تنبؤه إلى ٦ شباط (فبراير) عام ١٨٩٦ ، وقد أكد هرتزل في يومياته تنبؤات هذا الرجل: « يعتقد « دسور » أن من المعقول أن تولد الدولة اليهودية في حياتنا . ولكن لن تترسخ إلا بعد عقود من موتنا ، وهو يعتقد انها ستقوم في مدى خمسين سنة » .

ومن الملاحظ ان اتجاهات الحركة الصهيونية كانت تسير في تيارات متناقضة وصراعات قوية داخل المؤتمر وقد تمثل ذلك في اتجاهين : تمثل الأول في جماعة « أحباء صهيون » الذين أصروا على ان تكون فلسطين مركزا روحياً لليهود ويمثلهم « آحاد هاعام » زعيم مدرسة الصهيونية الروحية ، والثاني تمثل في انصار « الدولة اليهودية » وهم من يهود اوروبا الغربية ، وتدعمهم الرأسمالية اليهودية ، وكانوا يريدون دولة مدنية عصرية ملائمة دون تحديد موقعها . ولكن الاتجاه الأول لقي تأييداً كبيراً داخل المؤتمر لأنه اعتبر ان فلسطين افضل مكان لتجمّع اليهود على ان يتم ذلك بأساليب عملية محددة للحصول على فلسطين بشكل دولة يهودية بطابع صهيوني عن طريق وثيقة من السلطان العثماني تكون مضمونة دولياً ، واعتبر لبنان مثالاً لذلك[2] ، على ان تُعامل الحركة الصهيونية واليهود من قبل الدولة العثمانية والدول الأوروبية بمثل ما عومل به مسيحيُّو لبنان عام ١٨٦١ من اعطائهم الحكم الذاتي بمساعدة انجلترا وفرنسا ، وذلك لكي تضمن الحركة الصهيونية هجرة يهودية وتوطيناً مستقراً في الأراضي المقدسة .

وكما حدث صراع داخلي بين الصهيونيين أعضاء المؤتمر ، قامت حركة معارضة خارجية لمقررات مؤتمر بال تؤكد ان كثيراً من يهود العالم كانوا ضد الفكرة الصهيونية . وقد تمثلت هذه المعارضة في الاتجاهات التالية :

١ – المتدينون اليهود : وكانوا يعتقدون انه حتى الآن لم يأت المسيح وانه عند مجيئه يبني الهيكل وتتجدد مملكة اسرائيل الزمنية ، ويكون المسيح ملكاً أرضياً في اورشليم ... وبالاجمال يتجدد في اسرائيل .

---

(١) أدولف دسّور : (١٨٤٩–١٩١٦) كان يعمل في الشؤون المصرفية وهو يهودي نمساوي ، عُيِّن منذ عام ١٨٩٢ مديراً لبنك الإستيداع الألماني في ڤينا .

(٢) انظر : مكسيم رودنسن : اسرائيل واقع استعماري ، ص ٢٩ .

٢ – العلمانيون : وكانوا يرفضون هذا الرأي ، ويرفضون أيضاً الفكرة الصهيونية القائلة بعودة اليهود الى فلسطين ، وحجتهم في ذلك ان اليهود صاروا ألمانيين [ألماناً] في ألمانيا وانجليزاً في انجلترا وعثمانيين في تركيا وأمريكيين في أمريكا ومستقبلهم كمستقبل تلك الشعوب ، وان الرجوع الى فلسطين غير ثابت من أقوال الأنبياء [١] .

وبالرغم من مضي عدة أشهر على النشاط الصهيوني بعد انعقاد مؤتمر بال ١٨٩٧ ، فقد ظل اليهود يشكون في تنفيذ مقرراته ويعارضونها مصورين أن « صهيونية هرتزل » (Herzlian Zionism) تهدف الى القضاء على اليهود بتشجيعهم على ترك بلادهم الأوروبية والاتجاه إلى فلسطين. وكان الدكتور « كرونهوت » – رئيس مدرسة الصنائع في أورشليم – في بودابست بالنمسا حين قابله أحد أصحاب الصحف هناك وسأله عن رأيه في المؤتمر الصهيوني فقال : « ليس لي ثقة ولا أمل في نجاح الدكتور هرتزل ، لأن اليهود الأغنياء لا يقبلوا أن يعيشوا في فلسطين وعندنا عدد كاف من الفقراء والصعاليك المتسولين الآن . إن اليهود في القدس الآن ثلاثون ألفاً – وعدد كل السكان خمسون ألفاً – لا يعيش بعرق الجبين سوى سبع مئة منهم والباقون وهم نحو سبعة وعشرين ألفاً عائشون [يعيشون] بمال الإحسان » . وأضاف الدكتور « كرونهوت » أن المهاجرين اليهود في فلسطين من الألمان والروس يشكون في تحقيق الهدف الصهيوني « ولا يسلم أحد منهم بتأسيس مملكة اسرائيلية في فلسطين. إن يهود ڤيينا قد حصلوا الآن على التمتع بجميع حقوقهم المدنية ولا يقبلون المهاجرة إلى بلاد غريبة » [٢] . بالاضافة الى ان العمل الصهيوني في فلسطين كان صعباً ويخضع لقيود وشروط ... [٣] وأضاف مراسل إحدى الصحف في لندن أنه قابل عدداً غفيراً من الصيارفة والتجار والأطباء والفقهاء من اليهود في ڤيينا فقالوا بالاجماع ان رأي الصهيونيين باطل ، وقال بعضهم : « لماذا نهجر بلادنا هذه انجازاً لمراد أعدائنا الذين يرغبون في طردنا من كل ممالك أوروبا ؟ أليس

(١) النشرة الأسبوعية ، ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١٦٦٣. انظر ايضاً حول هذا الموضوع: يوسف هيكل: فلسطين قبل وبعد ، ص ٩٥ ، عبد الوهاب الكيالي: المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) النشرة الأسبوعية ، ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١٦٦٣ .

(٣) H. M. Kallen; *op. cit.*, P. 82.

لنا حق ان نبقى في بلادنا هذه ، وإن ذهبنا الى فلسطين فماذا نفعل هناك ؟ اننا اوروبيون بالذوق والتربية والعوائد كسائر الألمانيين . ثم قال : انه على فرض ان شعبنا رجع الى تلك البلاد فماذا تكون لغتنا هناك ؟ ان اليهود لا يعرفون العبراني إلا قليلا . وهل يسلم يهود روسيا المتكلمين بالمسكوبية ان تكون لغة فلسطين المانية او انجليزية او فرنسية ؟ وهل نسلم نحن كلنا ان نترك لغتنا ونتكلم المسكوبية او العبرانية او لغة أخرى »[١] .

هذا وذكرت صحيفة « سبرنفيلد » (Springfield) في امريكا بعض الآراء في الحركة الصهيونية معتمدة على رأي رئيس الطائفة اليهودية في فرنسا ، فقالت : « قال صادوق خان[٢] رئيس الربانيين في فرنسا ، ان مبدأ هرتزل مستحيل لأن رجوع يهود القرن التاسع عشر الى النظام الموسوي ... محال ... ان يهود اوروبا اليوم متجنسون بأجناس شعوب اوروبا فمنهم انجليز وفرنسيون والمانيون [المان] الخ ، ومع كونهم يعتقدون عقلياً ان رجوع اورشليم الى ما كانت عليه من العقائد الدينية ومواضيع الايمان ممكن ، لا يخطر على بالهم ان يسعوا في الرجوع الى هناك ، والذين يحترمون ناموس موسى والتلمود لا يرغبون في ان يعيشوا تحت سلطة الربانيين . فاذا نحسب المشروع الصهيوني أمراً وهياكل وما ينشأ عنه انه يحرك العواطف قليلاً مؤقتاً ، فهو ليس ما يستحق الاعتبار »[٣] .

ويعود سبب معارضة اليهود — أو فئة منهم — لفكرة الحركة الصهيونية أنهم اعتبروا أنفسهم كغيرهم من المواطنين في البلاد التي عاشوا فيها يتمتعون دون تمييز مجحف بهم بجميع الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية التي يتمتع بها اخوانهم المواطنون الآخرون ، حتى ان كثيرين منهم تولوا في البلاد التي استقروا فيها رئاسة الوزارة[٤] .

---

(١) النشرة الأسبوعية ، المصدر السابق .
(٢) «صادوق خان» (١٨٣٩ — ١٩٠٥) كبير حاخامي فرنسا منذ ١٨٨٩ ، عارض الهجرة اليهودية إلى فلسطين ثم أيدها بعد ذلك ، عضو « الاليانس الإسرائيلي العالمي » منذ ١٨٧٢ ورئيسها الفخري منذ ١٨٩٠ ، وهو الذي خدم جهود كل من « هيرش » و « روتشيلد » الاستعمارية ، وأجرى إتصالات بشأن فلسطين مع « يوسف ضيا الخالدي » و «هرتزل» ليقرب بين وجهات نظرهما . انظر : الفصل الرابع .
(٣) النشرة الاسبوعية ، ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٧ العدد ١٦٦٣ .
(٤) جفري بطرس غالي : فلسطين ، ص ١ ، ٢ .

ويذكر « حاييم وايزمن » انه في هذه الفترة تعرف في سويسرا على لينين وبلكتوف وتروتسكي – وكان كل هؤلاء يهودا – « إلا انهم كانوا كلهم يحتقروننا نحن دعاة الصهيونية. وكانوا يقولون : ان اليهودي الروسي يجب ان يصلح روسيا وطنه لا أن يهرب منهـا ويدعو نفسه يهودياً. وكنت أنا أبادلهم احتقاراً باحتقار وكرهاً بكره »[١].

وصرّح المسيو « قالوا ريسكي »[٢] (K. Riski) أنه « ربما كانت مسألة الحكومة اليهودية التي تـدور في جميع الأفواه غير بعيدة عن مخيلتنا، ولكن إخراج ذلك من حيز القول إلى حيز الفعل أمرٌ عسير وياللأسف لأن عدد نفوسنا لا يساعد على تأسيس هذه الحكومة. أما الغاية الوحيدة في الوقت الحاضر من مستعمراتنا في فلسطين فهي تأليف أمـة يهودية زراعية وجمع السالكين الدين اليهودي والمتكلمين بلسانه والمتبعين لموروثاته التاريخية في محل واحد من الأرض الموعودة. وإن أقدس سعي يجب على الصهيونيين القيام به، هو إحياء الماديات اليهودية وتجديد الأمـة اليهودية وأدبياتها وعنعناتها »[٣].

وفي هذه الفترة من التاريخ الصهيوني ظهرت معارضة لمقررات مؤتمر بال هي من نوع آخر عُرفت باسم « الاتجاه اليهودي الثقافي » وتهدف إلى الاهتمام بالثقافة اليهودية قبل خلق « الدولة اليهودية » وكان يتزعم هذا الإتجاه « أحد هاعام » الذي كتب عام ١٨٩٧ رأيه في الموضوع موضحاً أنه إذا لم يهتم اليهود أولاً بالثقافة اليهودية فإن دولتهم لن يُكتب لها النجاح و « إن هذه الدولة الهزيلة ستتأرجح كالكرة بين جيرانها الأقوياء وسيمكنها من الاحتفاظ بوجودها عن طريق التقلب الدبلوماسي والخنوع. ومن ثم لن يمكنها أن تهبنا شعوراً بالفخار القومي، عندئذ سنكون أمة هزيلة لا وزن لها »[٤].

ويلاحظ من دراسة النصوص السابقة وآراء اليهود في المشروع الصهيوني،

---

(١) حاييم وايزمن، المصدو السابق، ص ١١.
(٢) « قالوا ريسكي » : هو الوكيل العمومي « لجمعية الاستعمار اليهودية » (A. J. K) في الجاعونة في فلسطين.
(٣) محمد رفيق ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٣٤٥.
(٤) مقال لأحد هاعام (١٨٥٦–١٩٢٧) انظر : ملف وثائق فلسطين، جـ ١، ص ١١٧.

أن فئـــات كثيرة منهم لم ترغب في العودة إلى فلسطين . ويؤكد هذا الإرتباط الوثيق بين قادة المنظمة الصهيونية وبين الدول الاستعمارية ، وذلك لدفع اليهود دفعاً إلى فلسطين مما يعزز مصالح الجانبين في المنطقة . ومع أن الحركة الصهيونية كانت تقف على أرضية البورجوازية الصغيرة والتائهة التي كانت تبحث عن مخرج للاضطهادات ، إلا أنها كانت تعتمد بشكـل أساسي وفعال على الطبقة الرأسمالية اليهودية أمثـال « آل روتشيلد » ، وتنتمي الحركة سياسياً إلى الفكر السياسي التوسعي في اوروبا بكافة تطلعاته الاستعمارية . ومن اجل ذلك لم يهـتم « تيودور هرتزل » كثيراً بحركة المعارضة ، بل ركز جهوده وجهود المنظمة الصهيونية على تحقيق برنامج بال عن طريق المؤسسات التابعة للمنظمة الصهيونية(١) . وكان الهدف من إنشاء تلك المؤسسات هو تمويل عملية إستعمار فلسطين وتنظيمها وربطها بالجهود الصهيونية الشاملة لتنفيذ أهداف مؤتمر بال(٢) . وقد أبدى « هرتزل » منذ البداية ضرورة إقامة « بنك صهيوني » . فبدأت جهوده لتحقيق هـــذا الغرض منـذ منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٧ . وأوضح أنه بدون هذا البنك يغدو الأمل الصهيوني في الحصول على « وثيقة » للهجرة والإستيطان في فلسطين أملاً صعب التحقيق ، وتعبيراً عن اهتمامه بإنشاء البنك عيّن « هرتزل » « داڤيد ولفسون » (D. Wolffsohn) — المتمـــوّل اليهودي والزعيم الصهيوني — رئيساً للجنة خاصة سُميت بـ « لجنة البنك »(٣)

---

(١) من هذه المؤسسات :

أ — (Jewish Colonial Trust) وهي المؤسسة المالية للمنظمة، تأسست ١٨٩٩ في لندن.

ب — (Anglo-Palestine Co.) وهي متفرعة من المؤسسة الأولى وهدفهـا تمويل المستوطنين اليهود والمشاريع الصهيونية ، تأسست في لندن وكان مركزها الرئيسي في يافا والقدس ومدن فلسطينية أخرى .

جـ — (Anglo-Levantine Banking Co.) وهي أيضاً متفرعة عن المؤسسة الأولى، تأسست عام ١٩٠٨ في لندن ، ومركزها الأساسي في الآستانة وتهدف إلى التحكم في التجارة القائمة مع الشرق الأدنى .

د — (Jewish National Fund) أو (Keren Kayemeth) وتأسست عـام ١٩٠٢ في لندن ، وتهدف إلى الحصول على أراض في فلسطين تكون ملكاً لليهود .

هـ — (Palestine Land Development Co.) وتأسست عام ١٩٠٨ بعد إنشاء مكتب فلسطين بإدارة « أرثر روبين » .

(٢) عبد الوهاب الكيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، ص ٢٤ .

(٣) A. Bein ; *op. cit., p.* 267 .

(Bank Commission) وبدأت هذه اللجنة بالحصول على التمويل من كبار أثرياء اليهود. ومن ناحية أخرى حثّ «هرتزل» زعماء الصهيونية على إقامة «صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار» على أن يكون عمله في الشرق وبالذات في فلسطين وسوريا، وابتدأ الاكتتاب المالي من أجل تحقيق غايته. وكان من بين الاقتراحات التي قُدمت تأسيس مدرسة عليا للدراسات الثقافية العبرية في يافا أو في القدس، تهتم بدراسة الآداب العبرية والتاريخ العبري.

١ – الموقف العثماني من النشاط الصهيوني – الدولي ١٨٩٧ – ١٩٠٤

يتميز الاستيطان الصهيوني عن الإستعمار الأوروبي بعدة مظاهر كإقامة دولة يهودية مستقلة في منطقة الغير، ونفي فكرة التعايش مع السكان الأصليين وغيرها من المظاهر[١]. وبالرغم من وجود هذا التمايز بين الاستعمارين إلا أن مشروع «هرتزل» لخلق وطن قومي لليهود لا يخرج بحال من الأحوال عن مشروعات الإستعمار الاستيطاني، وهو يجعل مثله الأعلى «سيسل رودس» رائد الاستيطان الأوروبي في افريقيا.

والواقع أن مشروع الصهيونية في تهجير جماهير اليهود يسير بموازاة الهجرات الأوروبية إلى البلدان المتخلفة ذات المناخ المعتدل، وليس هذا هو الطابع المشترك الوحيد، بل أن اسلوبهما في تأسيس الشركات الإستثمارية والمصرفية مماثل أيضاً. وكانت المؤسسات الصهيونية هذه جزءاً بل امتداداً عضوياً للمؤسسات المالية الكبرى في بريطانيا وألمانيا وفرنسا التي أصبحت أداة التوسع والإستغلال للشعوب المتخلفة[٢]. وقد كانت هذه المؤسسات والشركات الصهيونية تترسم خطى شركة الهند الشرقية وشركات الأراضي الأوروبية. ومن أجل تحقيق غرضها تأسس عام ١٩٠١ الصندوق القومي اليهودي بقصد ابتياع الأراضي في فلسطين. وكان «هرتزل» قد فكر منذ عام ١٨٩٧ في تأسيس الشركة اليهودية المسماة أصلاً بـ «البنك اليهودي للإستعمار» كخطوة نحو «الدولة اليهودية»[٣].

---

(١) حول هذا الموضوع أنظر: فايز صايغ: الإستعمار الصهيوني في فلسطين، ص ١٠ – ١٢.
(٢) هاني الهندي: حول الصهيونية واسرائيل، ص ٥٣.
(٣) أنظر: يوميات هرتزل، ٢٩ آب (أغسطس) ١٨٩٧، ص ٥٩٣ (ت. ع. ص ٩٠).

وفي هذه الفترة من عام ١٨٩٧ بدأ النشاط الصهيوني – الدولي لبذل المساعي من أجل إنجاح عمليات التمويل الصهيوني لامتلاك فلسطين ، فسعى « تيودور هرتزل » إلى الاتصال بكبار المولين الأوروبيين ومنهم اليهود بالتأكيد أمثال : « ج. ك. بوزنانسكي » وهو « أغنى رجل في بولونيا ومتحمس جداً للقضية الصهيونية » . وكان يعني اشتراكه في تأسيس « البنك اليهودي الإستعماري » استمالة أصحاب الملايين الآخرين سواء في روسيا أو في كل مناطق أوروبا الشرقية . وحرص « هرتزل » على الاتصال بأثرياء اليهود في انجلترا أمثال : « سليجمان » وهو من أكبر أثريائها « وصاحب أكبر بنك فيها » واتصل أيضاً باللورد « روتشيلد » – حيث ظن « هرتزل » في البدء بأنه لن يساعد اليهود – وحاول إغراءه بأنه « إذا تمشيت معنا سنغنيك مرة أخرى ... وسنأخذ أول حاكم منتخب لنا من بيتكم »[1] .

ويظهر من خلال الإتصالات التي أجراها « هرتزل » مع كبار الرأسماليين ، بأن الحركة الصهيونية ليست حركة جماهيرية تنبع من إرادة الجماهير اليهودية ، ولكن يمكن اعتبارها حركة رأسمالية استعمارية لأن مرتكزاتها كانت تنطلق وتعتمد على تلك الأسس الاستعمارية . ونظراً للأهمية الكبرى التي أعطاها « هرتزل » للرأسمال ولإقامة « البنك اليهودي الإستعماري » فقد ذكر في ٢٢ شباط (فبراير) عام ١٨٩٨ « ان إقامة البنك هو الأمر الذي سيبرزنا إلى الوجود . يجب أن نخلقه إما بمساعدة أصحاب الرؤوس الكبيرة أو بالرغم عنهم[2]» . وليس التخلي عنهم، وانما بممارسة سياسة صهيونية ودولية ترغمهم على التعامل مع الحركة الصهيونية باعتبارها حامية للمصالح الرأسمالية وأداة من أدوات الدول الأوروبية .

وكان على « هرتزل » أن تتجه جهوده الدبلوماسية نحو السلطان العثماني والحكومة التركية ، وكان عليه الإتصال أيضاً بأباطرة وقياصرة النمسا وألمانيا والمجر وروسيا ورئيس وزراء بريطانيا . وقد نجح في الاتصال ببعضهم لعرض مشروعه الصهيوني طلباً للموافقة الدولية عليه مقابل خدمات يهودية صهيونية يقدمها لتحقيق أغراضهم السياسية والإقتصادية ، والعمل لمواجهة الحركات الثورية ، وثني اليهود عن الاشتراك فيها . وقد استطاع

(١) جانسن : الصهيونية واسرائيل وآسيا ، ص ٧٦ .
(٢) يوميات هرتزل ، ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، ص ٦١٣ (ت. ع. ص ٩٠) .

« هرتزل » أن يلعب على التناقضات بين هـذه الأمبراطوريات التي كانت تجمعها وتفرقها الأهداف التوسعية وضرب الحركات الثورية . وقد عبرت الحركة الصهيونية عن موقفها الثابت والمبـدئي الصريح ضد القوى الثورية والأحزاب التحررية في أوروبا وفي الأراضي العربية من الدولة العثمانية .

ومواصلة لجهوده السابقة مـــع البابوية ، حاول « هرتزل » الإتصال بالأوساط الدينية في روما ، ولكنه لاحظ أن هناك معارضة لمشروعه إذ « تقول الصحف الايطالية والفرنسية أن الفاتيكان أصدر رسالة دورية يحتج فيها – باسم المسيحية – على مشروع احتلال اليهود للأماكن المقدسة ... » [١] وتقول « الديلي نيوز » (Daily News) من روما : أن المونسنيور « بونتي » – القاصد الرسولي في القسطنطينية – نقل إلى البابا رسالة خطية من السلطان يعبر فيها عن آرائه في الأوضاع الدولية السياسية السائدة آنذاك « ويقال أن البابا استدعى المونسنيور إلى روما ليتشاور معه في التدابير الواجب اتخاذها ضد الحركة الصهيونية . ويقال أن البابا اتجه نحو فرنسا للموضوع نفسه ، إذ هي حامية المسيحيين في الشرق . بـــل من قبل ذلك كانت الصحف الايطالية قد نقلت عن « الاوبزرفاتور رومانو » أخبار عزم الفاتيكان على الاحتجاج على احتلال اليهود لفلسطين » [٢] .

وفي ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٩٧ أرسل « هرتزل » رسالة إلى قيصر ألمانيا يطلب مساعدته بإقامة شركة يهودية تحت الحماية الألمانية تهتم بأمور الهجرة اليهودية ، ويطلب منه بذل جهوده مع السلطان لإقناعه باستيطان يهودي في فلسطين ليكون ذلك موضوعاً من الموضوعات الهامة التي سيثيرها القيصر مع السلطان العثماني عند سفره إلى الآستانة [٣] .

ويلاحظ من مفاوضات « هرتزل » الرسمية بعد مؤتمر بال ١٨٩٧ أنـه كان يحجم عن ذكـر « الدولة اليهودية » ويكتفي باستخدام لفظ غامض بالنسبة إلى غير الصهيونيين حتى أن « ماكس نوردو » استطاع المساهمة في هذا الموضوع حين اقـترح على واضعي الصيغة النهائية للمقررات اعتماد عبارة « وطن في فلسطين » (Heimstätte) التي لا تفيد الدولة ولا تلزم

---

(١) يوميات هرتزل ، ٤ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٧ ، ص ٥٨٧ (ت . ع . ص ٦١) .
(٢) يوميات هرتزل ، ٤ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٧ ، ص ٥٨٩ (ت . ع . ص ٦١) .
(٣) A. Bein; *op. cit.*, p. 280.

بمسألة الحدود. ولكن على أن يكون هذا الوطن لليهود دون غيرهم، ويعني ذلك القضاء على وجود العناصر الأجنبية بنظر اليهود. وكان معنى ذلك بالفعل ليس ايجاد وطن أو دولة، إنما ايجاد «جيتو» (Ghetto) جديد لا يقبل بين العناصر اليهودية عنصراً ليس يهودياً[1].

ويذكر في هذا الصدد «فرانتس شايدل» قوله: «إنني لا أستطيع أن أفهم كيف أمكن أن يقع اليهود المحنكون الحكماء في شرك للانسان هو في الحقيقة بالغ السوء ... إن الصهيونية القومية لا تنتهي باليهودية إلى الحرية، بل تسوقهم إلى حي يهودي «جيتو» قاسٍ لا سبيل إلى تجاوزه كذلك الحي الذي كان اليهود يعيشون فيه فيما مضى»[2]. إشارة إلى أن تأسيس دولة يهودية في فلسطين تكون مقتصرة على العنصر اليهودي فحسب سيجعلها ضمن محيط عربي واسع مما يخلق ظروفاً في المنطقة تكون مماثلة لظروف اليهود في أوروبا.

وفي الوقت الذي كانت الجهود الصهيونية تبذل مع الدول الأوروبية الكبرى لإنجاح إستيطان يهودي في فلسطين يضمنه القانون العام، كانت لا تزال موجات من الهجرة اليهودية تصل إلى الأراضي المقدسة وتعمل على شراء الأراضي في بعض المناطق الفلسطينية والأردنية – جلعاد ومؤآب – ففي عام ١٨٩٧ «أخبرنا مختار «مكتيس» أن للبارون «دي روتشيلد» عمالاً في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليمتلكوا لسيدهم أراضي يجعل فيها اليهود ليفلحلوا ويستغلوا غلاتها ...»[3].

والواقع أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين أدت إلى خلل وتقهقر في الميدانين الزراعي والاجتماعي بسبب جهل المهاجرين للأمور الزراعية وفقرهم

---

(١) انجلينا الحلو: عوامل تكوين اسرائيل، ص ٥٠.
(٢) فرانتس شايدل: إسرائيل أمة مفتعلة، ص ٤٢ وما يليها. وحول هذا الموضوع يؤكد «ماكس ماندلشتام» اليهودي في تقرير نشرته صحيفة «الطان» (Le Temps). في ٢ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٩٨ «أننا نحن اليهود لسنا جماعة دينية فحسب، بل أمة مغلقة. إن اليهود يرفضون بكل طاقتهم أن يذوبوا في القوميات الأخرى، نحن معشر اليهود لا نستطيع أبداً بحكم عرقنا وأصلنا، وبحكم تلك الهوة السحيقة السكانية والفكرية والثقافية التي تفصلنا عن كل الشعوب الأخرى أن ننتمي إلى قومية أخرى فقد أصبحنا شعباً نتيجة لانغلاق عرقنا اليهودي ونوعيته الخاصة ونزعته الإستئثارية، وسنظل كذلك ...»
(٣) المشرق، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩، العدد ٢٣، ص ١٠٩٤.

وتدني مستواهم الاجتماعي ، وبالرغم من أنهم أعطوا الأرض مجاناً والبيوت وأثاثها وأدوات الفلاحة وراتباً أسبوعياً من الدراهم ترغيباً لهم ، إلا أنهم لم ينجحوا في حياتهم الجديدة . وقد روى شهود عيان أوضاع المهاجرين من أنهم « إذا أخذوا من وكيل « روتشيلد » الراتب الأسبوعي أنفقوا نصفه على أهل بيوتهم وأعطوا النصف الثاني العرب أجرة على فلاحة الأرض وسائر ما يتعلق بذلك من الأعمال الزراعية »(١) .

وتؤكد « النشرة الأسبوعية » فشل اليهود في الأعمال الزراعية مقارنة فشلهم بنجاح العرب اذ « ان الجركس الساكنين في الجولان وحوران صاروا مثالاً حسناً في اجتهادهم في عمران البلاد وتحسين الزراعة وتمهيد الطرق ، ولو كان اليهود في المزارع التي سكنوها في مرج عيون وجنوبي حيفا وجهات يافا يعملون بأيديهم . كما قد بلغنا ان بعضهم أتى ذلك لعظم أمل نجاحهم »(٢) .

ويسجل الأب « لامنس » (Lammens) مشاهداته عن أحوال اليهود عندما كان في زيارة لفلسطين عام ١٨٩٧ ، فيصف مستعمرة « محطة عاقر » (عكرون) بقوله : « انه لم يشاهد شيئاً من الحبوب كالقمح والذرة بالرغم من احتياج الفلاحين إلى هذه الغلات ، والسبب أن اليهود لا يجدون في الحبوب الأرباح التي يقصدونها فيهملون زراعتها ... وبيوت هذه المستعمرة إذا شاهدها المسافر من بعيد ، حسنة المنظر مسقفة بالآجر الأحمر وجدرانها مبيضة بالملاط . ولما اقتربنا منها وجدناها قذرة متداعية البنيان مع انها حديثة البناء »(٣) .

وفي مدينة صفد لعب اليهود دوراً بارزاً في تأخر الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية ، ليس في صفد فحسب وإنما في جميع أنحاء فلسطين « فتراهم يشكلون أقذر الطبقات وأحطها في هذه المدينة ، شعورهم طويلة ، وجوههم لا تعرف النظافة والماء ، ثيابهم قذرة ، قباتهم قد اسودت من الدهن ... لا يغسلون أيديهم ولا ينظفون دورهم ولا يتركون أحداً ينظفها ، لا يعبأون بالأقذار والعفونات ، وأن الانسان ليحتاج لقوة فوق طاقة

(١) النشرة الأسبوعية ، ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١٦٦٤ .
(٢) النشرة الاسبوعية ، ١٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٧ ، العدد ١٦٦٤ .
(٣) المشرق ، كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٩٠ .

البشر حين يقدر على احتمال شم الروائح حين مروره في محلة اليهود ... ولا ريب أنهم يعتقدون بأن هذا الانحطاط هو علامة الزهد والتقوى »[١]. أما عن « الدور التي يسكنها اليهود فهي أشبه بالزرائب »[٢]. وكان عدد اليهود في مدينة صفد قد وصل – حسبما ورد في سجلات النفوس العثمانية – إلى ٦٠٧٩ يهودياً .

وليس الهدف من ذكر هذه النصوص اظهار عادات اليهود وتقاليدهم فحسب ، وإنما التأكيد بأن الهجرة اليهودية الى فلسطين أدت الى تدهور الأحوال الزراعية والاقتصادية والاجتماعية والصحية أيضاً . وكان مجرد وجودهم في فلسطين يعني استنفاذ الكثير من الانتاج الاقتصادي الوطني ، في الوقت الذي لم يقابل هذا الاستنفاذ بأي جهد يذكر من مهاجريهم في تطوير الاقتصاد الفلسطيني ، وهو عكس ما تدعيه المصادر الصهيونية ، الأمر الذي أفرز عدداً من المشاكل للدولة العثمانية ومن بينها المطالب والاحتياجات من قبل الهيئات الادارية في القدس وبيروت ، مع الأخذ بعين الاعتبار الصعوبات التي نجمت نتيجة للهجرة اليهودية[٣] . بل لقد بلغ الأمر بالقنصل البريطاني في القدس أن أظهر امتعاضه من الممارسات التي قام بها اليهود في الأراضي المقدسة لا سيا تظاهراتهم ضد المؤسسات البريطانية ، ففي ٢٥ حزيران (يونيه) ١٨٩٧ أرسل تقريراً من القدس يذكر فيه « أنه خلال شهر نيسان (ابريل) قام اليهود في القدس بعدة مظاهرات عدائية ضد نشاط « جمعية يهود لندن » (The London Jews Society) قرب المستشفى [بعد وفاة أحد مرضاهم] حيث تجمع حوالي ثلاثماية أو أربعماية يهودي هناك »[٤] . الأمر الذي دعا السفير البريطاني في الآستانة « الى معالجة هذه الحوادث حتى أقصى حد بواسطة السلطات المحلية التركية ... ثم عرض القضية على الاتحاد الأنجلو – يهودي مع الطلب اليه السعي لمنع تكرار حدوث مثل هذه الاضطرابات ... »[٥] . وكانت هذه المظاهر في عداد

---

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت – القسم الجنوبي ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .

(٣) N. Mandel; *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine,* pp. 87, 88.

(٤) Dickson to Currie, 25 June 1897, No. 36 in F.O. 195/1984.

(٥) Currie to Dickson, 10 November 1897, No.? in F.O. 195/1986.

انظر ايضاً : Dickson to Currie, 1 January 1897, No. 1 in F.O. 195/2028.

المشاكل التي واجهتها الدولة العثمانية والشعب الفلسطيني ، إذ كان الشعور السائد بأن اليهود يحاولون أن يشكلوا قوة ضاغطة على المؤسسات الأجنبية في فلسطين ، ومن أجل ذلك أظهر الشعب الفلسطيني معارضته ومطالبته بوقف الهجرة اليهودية [١] ، لا سيا وأن اليهود في فلسطين يتقوون الآن بعناصر جديدة من المهاجرين الذين لا يتأثرون بالتلمود [٢] . وهم الصهيونيون السياسيون . كما ان « لليهود في فلسطين نحو خمسين ألف هكتار أما عددهم فقريب من ٨٠٫٠٠٠ نفس ، وهم في ازدياد متداوم ، لأن مهاجرة اليهود الى الأراضي المقدسة متواصلة يتقاطرون اليها من كل انحاء العالم » [٣] .

ونظراً لهذا الواقع الجديد ، فقد زادت شكوك السلطان « عبد الحميد الثاني » في أهداف الحركة الصهيونية ، فاتخذ وسائل للحد من الأطماع اليهودية في فلسطين فأرسل بعض أعضاء أمانة السر الخاصة به في قصر « يلدز » لتولي حكم متصرفية القدس بدلاً من الموظفين الذين تدرجوا في سلك وظائف الادارة العثمانية [٤] . وكان أول من وصل الى القدس « توفيق بك » الذي كان أميناً وصارماً في تطبيق نصوص القانون ، وبسبب ذلك فان المهاجرين اليهود والمنظمات الصهيونية المختصة بإنشاء المستعمرات التفتوا إلى الأراضي الواقعة في شمال البلاد « لأن المسؤولين الرسميين كانوا أقل صلابة من هؤلاء الموجودين في المتصرفية ، والذين كانوا على استعداد لارضاء رئيسهم والي بيروت » [٥] . وقد لعب المال الصهيوني والنظام الاداري والضرائبي العثماني دوراً مؤثراً في موقف الحكام المحليين وفي بيع بعض الأملاك العربية حيث اعتمد اليهود على أساليب ملتوية شكلت ضغطاً على الفلاحين العرب ، فمن جهة كان العرب يعانون من وطأة الضرائب العثمانية على الممتلكات والأراضي الزراعية ، ومن جهة ثانية استغل المتمولون الصهيونيون هذه الأوضاع فبدأوا باقراض الفلاح الفلسطيني المال لقاء فائدة باهظة لم يتعودوا عليها من قبل ، ولقاء رهن ممتلكاتهم حتى يتم استيفاء الديون . ولما كان الفلاحون العرب

---

(١) عن ردود الفعل العربية أفردنا دراسة خاصة في الفصل الرابع من البحث .

(٢) فرانك مانويل : بين امريكا وفلسطين ، ص ٣٢ . من تقرير « رافندل » القنصل الأمريكي ببيروت في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٨ .

(٣) المشرق ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٩٤ .

(٤) N. Mandel ; *op. cit.*, p. 90.

(٥) N. Mandel ; *op. cit.*, p. 90.

غير قادرين على سداد هذه الديون ، كانت الدولة تلجأ إلى طرح ممتلكاتهم للمزاد العلني ليتم استيفاء الديون الخاصة باليهود والدولة ، الأمر الذي سهل كثيراً مهمة الصهيونية للحصول على الأملاك العربية ، على أن هذه الأوضاع لم تكن قاصرة على الفلاحين فحسب وانمـــا تعدتها الى الملتزمين أيضاً والشواهد على ذلك كثيرة[١] . وقد كان اليهود في فلسطين « يتعاطون البيع والشراء ودين الفايض ، ويوجد بينهم أغنياء بالنسبة للسكان ...»[٢] .

وكان النشاط الصهيوني في فلسطين ، يقابله نشاط صهيوني في خارجها ، ففي ٤ شباط (فبراير) عام ١٨٩٨ ، اجتمع « هرتزل » بالسفير العثماني في المانيا « أحمد توفيق » لبذل وساطته من أجـل تحقيق المشروع الصهيوني مقابل القروض المالية اليهودية فأخبره السفير العثماني صعوبة امتلاك فلسطين ، وأشار عليه بامكانية توطين اليهود في مناطق أخرى من آسيا الصغرى ، شرط أن يكون اليهود كغيرهم من المواطنين العثمانيين غير مستقلين عن الدولة . وانتهى الاجتماع برفض « هرتزل » لهذا العرض . على أن عام ١٨٩٨ شهد تطوراً ملحوظاً في ميدان النشاط الصهيوني ، إذ قامت المنظمة الصهيونية بالتأثير على الرأي العام الأوروبي والأمريكي والعربي لما لها من نفوذ صحفي في العالم ، وقد أوردت صحيفة « المقتطف » بعض فقرات من آراء الصحافة الأجنبية في استعمار اليهود لفلسطين حيث قالت : « وقد أسهبت الجرائد الشهيرة كالتيمس والديلي كرونكل والديلي تلغراف ، وأشهر جرائد النمسا في استحسان هذا الرأي [استعمار فلسطين] وقالت أنه قريب المنال »[٣] . ورأت هذه الصحف الأجنبية « بأن الدولة العثمانية ترغب في عمار بلادها » موحية للرأي العام أن الدولة العثمانية موافقة على استيطان يهودي في أراضيها ، وانها ليست سوى منطقـة يمكن استعمارها على غرار المناطق الاستعمارية في افريقيا وآسيا . ورأت هـذه الصحف أيضاً أن اليهود على استعداد لتنميـة فلسطين وإعمارها والإستيطان بها حتى يتمكنوا من أن يلعبوا نفس الدور الذي لعبه « الرجل الأبيض » في المناطق الاستعمارية . وأكدت الصحف الأجنبية السابقة الذكر « ان الدول الأوروبية لا تمنع

(١) أنظر الملحق رقم (٢٠) .
(٢) انظر مخطوط : في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، جـ ١ .
(٣) المقتطف ، أول نيسان (ابريل) ١٨٩٨ ، م ٢٢ ، جـ ٤ ، ص ٣١٠ .

فقراء اليهود من ترك بلادهم والانتقال إلى البلدان الشرقية »[1].

والواقع ان مثل هذه الآراء الأوروبية في مسألة استيطان يهودي في فلسطين تعني ثلاثة أمور :

الأول — ان التأكيد على ان الدول الأوروبية لا تمنع فقراء اليهود من الهجرة ، انما لأن هـذه الجماعة اليهودية تشكل عبئاً اقتصادياً واجتماعياً على المجتمع اليهودي الرأسمالي والمجتمعات الأوروبية عامة.

الثاني — ان وجود اليهود الفقراء في حالة يائسة في أوروبا ، قد يؤدي بهم إلى الاشتراك في الأحزاب الثورية والحركات المناهضة للحكومات الأوروبية ، وهـذا ما لم ترده لا الصهيونية ولا الدوائر الرسمية الأوروبية .

الثالث — أن تجمع اليهود في فلسطين وتكوين نواة صهيونية متينـة ، من الأمور التي يمكن استغلالها والاستفادة منهـا في تحقيق الأطماع التوسعية الغربية في الشرق . وهذا ما سيتكرس استعمارياً في مؤتمر « كامبل بانرمان » عام ١٩٠٧ .

وبعد نشر تلك الآراء الصهيونية والأوروبية حول استعمار فلسطين ، أشارت « المقتطف » إلى معارضة الدولة العثمانية للهجرة اليهودية إلى فلسطين وأوضحت أن « نقل اليهود إلى فلسطين وابتياع الأرض من الحكومة ومن أصحابها أصعب من نقلهم إلى أرجنتين . ولذلك نستبعد نجاح الصهيونيين ، ونحسب أن السعي لدى حكومات روسيا ورومانيا والبلغـار في إصلاح شأن اليهود فيها أقرب منالاً ، لا سيا أن طلب كفالة الدول الأوروبية وحمايتهن [حمايتها] لليهود الذين يراد نقلهم إلى فلسطـين عقبة كبيرة في سبيل هـذا الغرض لأن الدولة العثمانية لا ترضى به ... »[2]. وتكرّس ذلك عملياً عندما أصدر السلطان « عبدالحميد الثاني » قوانين جديدة[3] في

---

(١) المقتطف، المصدر السابق.أنظر أيضاً: المنار، ٩ نيسان(ابريل)١٨٩٨، م١، ج٦، ص١٠٥.

(٢) المقتطف ، الأول من نيسان (ابريل) ١٨٩٨ ، م ٢٢ ، ج ٤ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .
أنظر أيضاً : المنار ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) جاء في بنود القوانين الجديدة : (أ) — لا يسمح لليهودي الأجنبي زيارة الأراضي المقـدسة إلا بداعي الزيارة الدينيـة . (ب) — يتوجب عليه دفع تـأمين مالي أثناء دخوله البلاد . (ج) — يتعهد بمغادرة البلاد خلال ثلاثين يوماً .

حزيران (يونيه) عام ١٨٩٨ منع فيها اليهود الأجانب من دخول القدس ، على أن هـــذه القوانين لقيت معارضة من القنصليات الأجنبية ، فأبرق متصرف القدس إلى الباب العالي « يطلب منه تعليمات دقيقة ومحددة حول القوانين الجديدة »[١] ، فجاء الرد بعد شهرين وبالذات في ٢٥ آب (اغسطس) عام ١٨٩٨ — أي قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني بثلاثة أيام — يطلب الصدر الأعظم تنفيذ قوانين الهجرة الخاصة باليهود . وقــد أكد القنصل البريطاني « ديكسون » (Dickson) هــذا الواقع فذكر في تقريره بأن متصرف القدس قـد بعث له برسالة مع سكرتيره يعلمه فيها « أنه تلقى تعليمات من الباب العالي لتطبيق الأنظمة المرعية لدخول اليهود الأجانب إلى القدس — كل اليهود الأجانب — دون تمييز في جنسياتهم ، وبالتالي أن تطبق هذه الأنظمة على اليهود البريطانيين ، وأن الأنظمة المذكورة تنص على أنه لا يسمح لأي يهودي أجنبي بدخول فلسطين إلا بعد تعهده بدفع التأمين وبمغادرة البلاد خلال ثلاثين يوماً »[٢]. وقد بلغ من تشدد السلطات العثمانية في تنفيذ هذه القوانين أنها منعت نائب القنصل البريطاني في أنطاكية من الدخول ما لم يقدم التعهد المطلوب باعتباره يهودياً[٣] .

وفي نفس الفترة وصل تقرير من السفارة البريطانية في القسطنطينية إلى « ديكسون » رداً على رسالته حول موقف الدولة العثمانية من مسألة تسجيل الأملاك التي طلب « الإتحاد الإنجليزي-اليهودي »(Anglo-Jewish Association) شراءها في القدس ، فأوضح السفير البريطاني أنــه لا بدّ من التهرب من القوانين العثمانية ومن أجل ذلك « فإنني أحيطكم علماً بأنني اقترحت على سكرتير صاحب الجلالة الأول للشؤون الخارجية ، العمل بنصيحة الاتحاد الأنجلو — يهودي بوضع اسم شخص أو أشخاص ليسوا يهوداً ممن لا تستطيع الحكومة العثمانية الاعتراض على أن يكونوا مشترين للأملاك »[٤] .

وفيما يختص بالهجرة اليهودية ، فإن تشدد السلطات العثمانية لم يكن مقتصراً على القدس الشريف فحسب ، بل حدث أن منع قائمقام يافا بعض

(١) Dickson (Report), 23 June 1898, No. 33. in F. O. 195/2028.
(٢) Dickson to Bunsen, 25 August 1898, No. 41. in F. O. 195/2028.
(٣) Dickson to Bunsen, 25 August 1898, No. 41. in F. O. 195/2028.
(٤) B. E. in Constantinople to Dickson, 25 August 1898, No.? in F.O. 195/2026.

اليهود الإنجليز من دخول البلاد وأعادهم إلى السفينة ، كما قام بطرد عائلتين يهوديتين لانتهاء زيارتهما[1] ، وكانت مثل هذه القوانين تطبق في مختلف أنحاء فلسطين إلا أن المرتشين من الحكام كثيراً ما كانوا يعطلون من فعاليتها .

والملاحظ من آراء « هرتزل » انه كان ضد اسلوب الهجرة بالتسلل ، لأن الدولة العثمانية ترفض المشروع الصهيوني وستعمل على طرد المهاجرين اليهود . وأمام هذا الواقع رأى انه لا بد من وجود حماية دولية واعتراف رسمي بالهجرة اليهودية إلى فلسطين أو حتى إلى مناطق أخرى بصورة مؤقتة حتى يتم القضاء على الدولة العثمانية وأنه « ربما استطعنا أن نطالب انجلترا بقبرص ونفكر في جنوب افريقيا وأمريكا حتى تنحل تركيا ... لقد عرفت منذ وقت عدم الثقة بالأتراك وتوقعتها ، لهذا كنت دائماً ضد التسلل . على كل حال ليس هذا قصر نظر مني ، استطيع أن اطالب بدولة يهودية في فلسطين بمحاربة استعمارية على نطاق صغير فقط ، ولكن هذا حمق ، لأن اللحظة الحرجة التي لاحظت فيها تركيا نية إقامة دولة عند المتسللين سنجد المستعمرين مهاجرين بدون حماية . أما حسب خطتي فالمفاوضات تقوم قبل اجتياز الحدود وهذه طريقة أفضل لنا بكثير ... »[2] .

أ - النشاط الصهيوني عام ١٨٩٨

في الفترة الممتدة من ٢٨ إلى ٣١ آب (اغسطس) عام ١٨٩٨ ، انعقد المؤتمر الصهيوني الثاني في بال بسويسرا . وكان أكثر عدداً وتنظيماً من المؤتمر الأول حيث بلغ عدد أعضائه أربعمائة عضوٍ تم اشتراكهم بواسطة الانتخابات وقد اشترك فيه بعض رجال الدين الذين كانوا من أكثر المعارضين للصهيونية السياسية ... واعتبروا أن اليهود يكونون مجتمعاً دينياً وليس سياسياً[3] . كما اشترك فيه مائة وخمسون عضواً من اليهود الأنجليز يمثلون عشرة آلاف عضو من الصهيونية وأحزاب أخرى . واعتبروا أن هذا المؤتمر هو أول ثورة لهم ، وكانت أولى واجباتهم أن يتّحدوا ليتيسر لهم إمكانية المقاومة والدفاع والأمان المشترك في فلسطين . وكانت حركة

(١) من رسالة توفيق بك الى ديكسون نقلا عن : A. Hyamson; *op. cit*, vol. II, p. 528.
(٢) يوميات هرتزل ، أول تموز (يوليه) ١٨٩٨ ، ص ٦٤٤ ، (ت . ع . ص ٦٦ ، ٦٧) .
(٣) S. A. Rappoport; *History of Palestine*, p. 328.

اليهود الانجليز هي الدعوة الحقيقية للصهيونية لأنها كانت تهدف إلى التداخل مع الصهيونية الأوروبية عامة ، وابراز وتشجيع الحركة الصهيونية العالمية خاصة[1] . وقد بلغ الاهتمام بالحركة الصهيونية أن تزايد عدد الجمعيات الصهيونية في الفترة ما بين المؤتمر الأول والثاني حوالي ثمانية أضعاف عددها ، وانتشرت في أنحاء العالم سواء في أوروبا أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية وفي النمسا ونيوزيلندا وروسيا القيصرية وبعض مناطق من الدولة العثمانية ، وقد أعلنت جميعها تأييدها للمنظمة الصهيونية[2] .

ويلاحظ ان اكثر الدول تقبلاً للحركة الصهيونية كانت روسيا نظراً لكثرة أعداد اليهود فيها وتعرضهم للاضطهاد منذ فترة بعيدة[3] . وكانت تليها النمسا والمجر ورومانيا وأمريكا[4] .

وكانت نيويورك وشيكاغو من المعاقل الرئيسية للحركة الصهيونية ، لا سيما بعد النشاط الاعلامي الذي قام به « هرتزل » لتجميع مناصري « القضية اليهودية » وكبار الرأسماليين اليهود في امريكا بهدف إنشاء « البنك اليهودي الاستعماري » . وقد أكد ذلك في يومياته عام ١٨٩٨ عندما قال : « سأنشر قريباً رسالة في امريكا بهذا الخصوص لأعرّف مناصرينا هناك بالأمر ... » ولم يقتصر نفوذ اليهود على مناطق معينة في أوروبا ، بل تعدتها إلى فرنسا التي اتصفت صلاتها مع اليهود بتوتر شديد « ولا يخفي ان اليهود قد دخلوا في الحكومة الفرنسوية [الفرنسية] مدخل الدم في العروق ، منهم العدد الوافر من القواد والضباط ... »[5] .

هذا ، وكان في مقدمة قرارات المؤتمر الصهيوني الثاني تكريس مقررات المؤتمر الأول والسعي لدى الدولة العثمانية لتحقيق المشروع الصهيوني ، كما اتخذ قراراً بانشاء « البنك اليهودي الاستعماري » (Jewish Colonial Trust) والاهتمام بتعميق المفاهيم اليهودية بتشجيع تعليم اللغة العبرية ليظهر اليهود أنهم أمة واحدة ذات لغة واحدة وقومية واحدة آخذين في الاعتبار آراء

---

(١) H. Bentwich; *Zionism, Problems and Views*, p. 89.

(٢) I. Cohen; *Theodor Herzl, Founder of Political Zionism*, p.p. 168, 169, 173.

(٣) للمزيد من التفصيلات حول اوضاع اليهود في روسيا انظر : الفصل الثاني من البحث .

(٤) حول عدد الجمعيات الصهيونية بين عامي ١٨٩٧ - ١٨٩٨ انظر : حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ص ٨١ .

(٥) ثمرات الفنون ، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ ، العدد ١١٦٥ ، ص ١ .

الصهيونية الثقافية ورائدها « آحد هاعام » . وكان من بين القرارات التي اتخذت اطلاق يـــد « هرتزل » في التفاوض مع الدول الاوروبية لخدمة « المسألة اليهودية » . وانطلاقاً من هذا القرار حرص « هرتزل » على مفاوضة الألمان باعتبار ان هناك مبررات منطقية لكسب المانيا لأنها على صداقة متينة مع الأتراك ، وهذا ما أكده له الدوق الكبير من « ان تأثير الألمان في « يلدز » لا حد له الآن ، ذلك أن تلك الخدمة تركت في الأتراك أحسن الأثر » . وكانت تلك الخدمة هي انسحاب الألمان من جزيرة كريت . ولكن الدوق عـــاد يؤكد للزعيم الصهيوني انه بالرغم من هذا النفوذ الالماني في الاوساط التركية ، فان السلطان عبد الحميد الثاني لن يقبل بانشاء « دولة يهودية » في فلسطين ، على انه من الممكن اجراء مفاوضات مع الدولة العثمانية في حال اعتبار المهاجرين اليهود رعايا عثمانيين يخضعون للدولة ولقوانينها لا باعتبارهم رعايا اوروبيين لأن هؤلاء ممنوعون من الاقامة في فلسطين بصورة دائمة ، وقد أثبت ذلك موقف السلطات المحلية العثمانية في فلسطين حيث كانت تطرد باستمرار المهاجرين اليهود ، بل أكدت التقارير الواردة من الاراضي المقدسة ان السلطات هناك عاملت اليهود بقسوة ، مما اضطر السفير البريطاني وقنصله في القدس الى تقديم الاحتجاجات على هذه المعاملة. ولكن متصرف القدس « توفيق بك » أكد في رده على القنصل من « ان سلطات حيفا قامت بالفعل بمنع العائلات اليهودية من النزول الى رصيف الميناء لأنها لم تستطع ان تقدم تعهداً وضمانة بالعودة بعد زيارة البلاد تبعاً للأنظمة المرعية ومن أجل ذلك أعيدوا الى الباخرة »(١).

وفي هذه الفترة من عام ١٨٩٨ استفسرت السفارة البريطانية في القسطنطينية عن السبب في اخراج اليهود البريطانيين من فلسطين ، وطلبت من ديكسون بحث هذا الموضوع وأن يقوم نائب القنصل السيد « امزالاك »(Amzalak) (٢) بمساعٍ لمنع الاخراج القهري للرعايا البريطانيين المزودين بجوازات سفر رسمية.

---

(١) من رسالة « توفيق بك » الى ديكسون في ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٨ نقلاً عن :
A. Hyamson; *op. cit.*, vol. II p. 528-529.

(٢) « امزالاك » نائب القنصل البريطاني في حيفا وهو يهودي بريطاني من مواليد جبل طارق ، إلا أن حاكم هذه المنطقة أفاد بأنه لم يعثر على أي قيد لتاريخ ميلاد « حاييم امزالاك » في سجلات الطائفة اليهودية انظر :
F. O. to Dickson. 8 July 1902. No ? . in F. O. 78 / 5208.

كما طلبت أن يقوم « امزالاك » باستخلاص أي دليل على هذه المعاملة غير اللائقة ، والتحقيق في هذه القضية واخطار وزارة الخارجية البريطانية[١] وكانت السلطات العثمانية قد طردت تسعة يهود بريطانيين وأعادتهم الى الباخرة . وقد أكد ذلك القنصل البريطاني ونائبه بأن هؤلاء قد أعيدوا قهراً الى الباخرة ، وانهم لم ينزلوا الى ميناء حيفا إلا بعد ان قدم صديق لهم ضماناً وتعهداً بالخروج في المدة المحددة ، إلا أن « ديكسون » صرح بأن « امزالاك » قد حصل على وثيقة خطية موقعة من شاهدي عيان يهود حول تلك المعاملة غير اللائقة . ويبدو أن اليهود البريطانيين قد عُذبوا وضُربوا بالأيدي لأرغامهم على العودة الى الباخرة[٢] . وبناء على هذه المعلومات قدم « أوكونر » (O'Conor) – السفير البريطاني في الآستانة – احتجاجاً على الموقف العثماني من اليهود البريطانيين وأرسل برقية عاجلة الى « ديكسون » يستفسر فيها عن موضوع المهاجرين اليهود التسعة الذين طردتهم السلطات العثمانية وقال : « هل اليهود التسعة هم حجاج أم مهاجرون ؟ أين هم الآن ؟ لقد احتججت بقوة على تصرفات السلطات العثمانية التي تعتبر خرقاً مباشراً لمعاهدة الامتيازات . إعلم المتصرف أن هذه مسألة خطرة »[٣]. واعتبرت وزارة الخارجية البريطانية أن منع اليهود من الدخول إلى فلسطين مخالف للاتفاقيات الدولية « وأن على الأمبراطورية العثمانية أن تعيد النظر في هذه الأنظمة المطروحة على البحث الآن ، لأنها تتعارض مع حقوق الانسان »[٤].

وكانت هذه الأوضاع التي يعاني منها المهاجرون اليهود ، تزيد إصرار قادة الحركة الصهيونية وفي مقدمتهم « هرتزل » على ضرورة تأمين التأييد الدولي للمشروع الصهيوني . ويمكن القول أنه إنطلاقاً من ذلك فقد اعتبر عام ١٨٩٨ العام الصهيوني – الألماني نظراً للمحاولات المكثفة التي قامت بها الحركة الصهيونية لإقناع القيصر الألماني – المتجه الى الأستانة – بالتوسط لدى السلطان العثماني في إقامة « الدولة اليهودية » . ففي خريف ١٨٩٨ قام القيصر « غليوم الثاني » بزيارة رسمية إلى تركيا بعد اتصالات دبلوماسية

---

(١) من « اوكونر » الى « ديكسون » في ٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٨ نقلا عن :
A. Hyamson; *op. cit.*, vol. II p. 525.

(٢) Dicskson to British Embassador in Constantinople, 7 oct. 1898. No. ?. in F.O. 195/2028.

(٣) O' Conor to Dickson, 9 oct. 1898, No. ?, in F. O. 195/2026.

(٤) F. O to O'Conor, 24 Dec. 1898, No. 276, in F. O. 78/5479 A.

دامت أربع سنوات بين برلين والآستانة تمهيداً لهذه الزيارة. وكان الهدف الأول منها حصول الأمبراطور الألماني على طريق برلين – بيزنطة – بغداد (B. B. B.) لتدعيم النفوذ الاقتصادي والسياسي الألماني في الدولة للعثمانية[1]. أما «هرتزل» فقد لحق بالقيصر الألماني إلى الآستانة، وهناك أراد الاجتماع به ليعطي نفسه صفة المفاوض الدولي، وليعطي الاجتماع طابعاً خاصاً بنظر الأوساط العثمانية، وقد وسّط أيضاً لهذه الغاية الملحق العسكري الألماني في النمسا.

وفي ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٩٨ نجح «هرتزل» في الاجتماع بـ«غليوم الثاني» وعرض مشروعه ومدى فائدته ليس لليهود فحسب وإنما لألمانيا التي ستكون لها اليد الطولى في الشرق من الناحية الاقتصادية والسياسية والعسكرية باعتبارها حامية «الدولة اليهودية». وقد لعب الوزير المفوض الأميركي «ستراوس» دوراً بارزاً في هذه المباحثات، وحاول إقناع القيصر بفعالية المشروع الصهيوني في فلسطين، على أنه لم يحصل منه على أي قرار نهائي.

وفي الآستانة حثّ «هرتزل» الوزير اليهودي الأمريكي على مواصلة جهوده مع الحكومة العثمانية للحصول على بعض الامتيازات الخاصة باليهود وبالفعل فقد حصل على بعض الامتيازات منها: حرية سفر المبشرين وتنقلاتهم في آسيا الصغرى، وعدم التمييز في المعاملة بين الأمريكيين المسيحيين والأمريكيين اليهود، أي السماح لليهود الأمريكيين بالسفر إلى سوريا وفلسطين. ويبدو أن الحكومة التركية لم تكن جادة في إعطاء هذه الامتيازات بدليل التسويف والمماطلة والملابسات التي أحاطت بهذا الموضوع. إذ أن هذا النصر الذي أحرزه «ستراوس» والامتيازات التي حصل عليها لم تلبث أن ذهبت هباء في الهواء، فلقد أبرق «فاروق بك» وزير تركيا المفوض في واشنطن إلى السلطان «عبد الحميد» يقول له: «لقد أتممت مباحثاتي مع وزارة الخارجية الأمريكية واتفقنا على عدم السماح للمبشرين واليهود بدخول سوريا وفلسطين»[2]. فما كان من السلطان إلا أن أعلم الوزير

(١) كان الهدف من إنشاء هذا الخط تحويل تجارة ألمانيا من وإلى الشرق بواسطة الخط الحديدي بدلاً من الاعتماد على قناة السويس. وبهذا تضرب ألمانيا المصالح البريطانية في المنطقة العربية.
انظرحول هذا الموضوع: J.P. Carnier; *La Fin de L'Empire Ottoman*, p.p. 71, 72.

(٢) فرانك مانويل: بين أمريكا وفلسطين، ص ٣٦.

الأمريكي بهـــذه الإتفاقية ، فاستفسر « ستراوس » من وزارة الخارجية الأمريكية عن مدى صحة برقية « فاروق بك » إلى السلطان ، فنفت وزارته هذا التقرير وهذا الزعم ، فاطلع السلطان على رد وزارة الخارجية الأمريكية وطلب منـــه عزل « فاروق بك » ، إلا أن السلطان عبد الحميد ابتسم « لستراوس » وقال له : « إن فاروقاً عزيز عليَّ كأحد أبنائي ويدين لي بتربيته ... وانصرف ستراوس يائساً وضاعت الامتيازات والانتصارات » . وكان هذا الموقف الذي اتخذه السلطان يعني موافقته على ما جاء في تقرير « فاروق بك » بغض النظر عن صحته ، ولعل السلطان هو الذي أوحى « لفاروق بك » إرسال ذلك التقرير كي تتملص حكومته من تلك الامتيازات ، مما أدى إلى توتر العلاقات الأمريكية ـ العثمانية ، ومغادرة « ستراوس » الآستانة في عام ١٨٩٩ .

وقد غادر القيصر الألماني الآستانة وتوجـــه إلى فلسطين ووصل إلى القدس في التاسع والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٩٨ ، وكان في استقباله دولتلو « ناظم باشا » وسعادتلو « توفيق بك » متصرف القدس ، وكل من حضرة قومندان العساكر الشاهانية و« ياسين أفندي الخالدي » رئيس البلدية . وقد خططت الحركة الصهيونية للتأثير على القيصر ـ ولو معنوياً ـ أثناء زيارته لفلسطين ، لا سيما وأن « هرتزل » قد سبقه إليها [1] ، فأعدت له ولزوجته الاستقبالات الضخمـــة . وكان الاستقبال الرسمي الكبير في القدس في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٨ « حيث نصب اليهود في منتصف الطريق قبة مزدانة بالرايات العثمانية والألمانية وبالآنية الفضية والذهبية ككأس القدوس والمبخرة وتيجان التوراة ، وبالأنسجة التي كتبت عليها وصايا وستارات الهياكل إلى غير ذلك من الرمـــوز التي تدل على

---

(١) تجول « هرتزل » في فلسطين قبل وصول القيصر الألماني وزار حيفا ، وريشون لوزيون ، ورحوفوت ، ومكفة اسرائيل . وكان يسخر من العرب في كل مكان يذهب إليه وينعتهم بالفقراء والبؤساء حتى أن القدس لم ترق له بوضعها الراهن بـل أرادها على غرار روما ، على أنه يعترف بفشل المستعمرات اليهودية في تحقيق غاياتها وبتردي أوضاع اليهود في فلسطين بشكل عام فقد « تكلمت مع طبيب المستعمرة الدكتور « ميزي » (Misy) . وقد أخبرني بالصعوبات رأساً ، قال : أن جميع المستعمرات تعاني من الحمى . . . ويضيف « هرتزل » : « ... زرنا مستشفى يهودياً اليوم . كله بؤس وقذارة » أنظر يوميات هرتزل ، ١٨٩٨ ، ص ٧٤٠ (ت . ع . ص ٤٥٢) .

اسباط بني اسرائيل الاثني عشر ومن تحتها إلى الجانبين حجرتان يغشاهما قماش من حرير مزركش بالقصب أعدتا لجلوس كبار هذه الطائفة عند مرور جلالتهما . وقد كتب بصدر القوس من إحدى الجهتين باللغة الألمانية « مبارك الآتي باسم الرب » ومن الجهة الثانية « فلتعش الملكة » [١] . وعلى أبواب مستعمرة « مكفة اسرائيل » ، كان « هرتزل » ينتظر القيصر مع مجموعة من أعيان اليهود وتلاميذ المدارس العبرية الذين أنشدوا له نشيداً ترحيبياً بالألمانية يقول : (Heil Dir in Siergerkrana) [٢] وكان استقبالاً صهيونياً حافلاً ولكنه سريع ولدقائق معدودات تحدث فيه « هرتزل » إلى القيصر عن امكانية إنعاش هذه « البلاد المريضة » .

والجدير بالذكر ، أنه أثناء زيارة القيصر وزوجته القبر المقدس اصطف المستقبلون وفي مقدمتهم اليهود أيضاً « ولما بلغ جلالتهما قبة اليهود احتفل كبار هذه الطائفة باستقبالهما وفي مقدمتهم حضرة الحاخامين « بخور الياشار » و « شمويل سالانت » استقبالاً عظيماً وهتفوا مع تلامذة مدارسهم بالدعاء باطالة بقائهما هتافاً كبيراً ، وخطب الحاخام [٣] خطاباً ترحيبياً ثم رفع إلى الأمبراطور كتاباً ضمن ظرف ، فوقف جلالتهما حينئذٍ وأبديا شكرهما وامتنانهما من حسن الاستقبال [٤] . ويتضمن ذلك الكتاب مطالب اليهود

---

(١) الرحلة الأمبراطورية في الممالك العثمانية ، نظم عقده ابراهيم الأسود صاحب جريدة لبنان ص ١١٤ ، ١١٥ (بعبدا ١٨٩٨) أنظر أيضاً : النشرة الاسبوعية ، ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٨ ، العدد ١٧١٢ . أنظر أيضاً عن تفاصيل الزيارة :

J. P. Carnier; *op. cit.*, pp. 70,71 ; J. Haslip ; *The Sultan : The Life of Abdul-Hamid* II, p. 234.

(٢) A. Chouraqui; *Théodor Herzl Inventeur de L'État d'Israël*, pp. 183, 184.
ويعني هذا الترحيب بالعربية : « تحية لك آيها المظفر الذي يكلل رأسه الأكليل » .

(٣) الحاخام هنا يقصد « تيودور هرتزل » ، وقد ظنه بعض الصحافيين حاخاماً نظراً لشكله ولحيته المتدلية وقد أعد خطابه في استانبول ، وهناك عرضه على القيصر الذي طلب منه حذف بعض المقاطع منه حرصاً على صداقة الدولة العثمانية لاسيا بعد أن تزايدت شكوك السلطان بنوايا الصهيونية .

هذا ويعترف هرتزل في يومياته أنه بالرغم من تأييد اليهود لنشاطه ، إلا أن بعض الحاخامين اليهود في فلسطين طلبوا منه عدم زيارتهم خوفاً من الحكومة العثمانية . وقد أكد له ذلك الحاخام « مير » حيث « شرح لي موقف الحاخامين الكبار في البلد . قال : انهم لا يريدون أن يسببوا أي اغضاب للحكومة التركية . قلت بشيء من الاستهزاء : سألغي زيارتي لهؤلاء السادة لكي لا أسبب لهم أي ارتباك » . أنظر اليوميات ، ص ٧٤٦ ، ٧٤٧ (ت. ع. ص ٤٥٢) .

(٤) الرحلة الأمبراطورية في الممالك العثمانية ، ص ١١٦ .

بإنشاء دولة لهم مشيراً إلى الفوائد التي ستجنيها كل من ألمانيا والدولة العثمانية والحركة الصهيونية وأهل البلاد. وكان رد القيصر مقتضباً من أن المسألة تحتاج إلى دراسة مطولة ورد على مطالب الحركة الصهيونية باسلوب مباشر من «أن مجيئي إلى القدس الشريف لم يكن مبنياً على غايات سياسية، بل لأنني كنت أميل إلى زيارة هذه المدينة المقدسة التي مات فيها السيد المسيح»(١). وبغض النظر عن حقيقة أهداف زيارة القيصر للدولة العثمانية، إلا أن تصريحه كشف الموقف الألماني من المشروع الصهيوني، ومع هذا فقد حرص «هرتزل» على الاجتماع بالقيصر ومعه أربعة من زملائه كممثلين عن الصهيونية(٢).

وتذكر المصادر الصهيونية أن القيصر كتب إلى الدوق الكبير يخبره أن الأفكار السياسية أعجبته ... وأنه تكلم مع السلطان «عبد الحميد» حول هذا الموضوع. والظاهر أن القيصر قَبلَ وجهة النظر الصهيونية(٣) على أن الوقائع التاريخية تثبت أن القيصر أدلى للوفد الصهيوني بتصريح جاء فيه، أنه لا يمكن أن يؤيد إقامة «دولة يهودية» في فلسطين بينما يؤيد الجهود التي يبذلها اليهود للنهوض بالزراعة في فلسطين من أجل إنعاش الدولة العثمانية وتقدمها شرط احترام السيادة العثمانية وقوانينها(٤). وهو تصريح دبلوسي ليس فيه أي كسب للقضية الصهيونية. فقد قصر الامبراطور كلامه على المجال الزراعي في فلسطين، يبذل فيه اليهود جهدهم وولاءهم للدولة العثمانية. ولم يعطِ غليوم الثاني وعداً بقيام دولة يهودية في فلسطين ولم يشر إلى جعل فلسطين إقليماً يهودياً يتمتع باستقلال ذاتي في نطاق الامبراطورية العثمانية. وبالإضافة إلى ذلك فإن «هرتزل» نفسه خرج من الاجتماع منزعجاً وغير مقتنع بنتائجه، لذا غادر فلسطين في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٨ متجهاً إلى الاسكندرية ومنها إلى نابولي. وقد قال معلّقاً على موقف القيصر الألماني: «لم يقل نعم ولا قال لا. يبدو أن أموراً كثيرة تحدث خلف الستار»(٥). واعتبر أن موقف القيصر ورده

(١) الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، ص ١٢٨.

(٢) وهم: د. شنيرر، د. ولفسوهن، د. بودنهايمر، والمهندس شيدنور رئيس الجمعيات الصهيونية في ألمانيا.

(٣) M. Medzini; *Zionism*, pp. 83, 84.

(٤) J. Soustelle; *La Longne Marche d'Israël*, p. 36.

(٥) يوميات هرتزل، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩، ص ٧٥٧ (ت. ع. ص ١٢٣).

كان متملصاً (Evasive reply)[١] . وقد صح ما توقعه « هرتزل » بما يحدث « خلف الستار » ذلك أن القيصر لم يستطع التدخل كثيراً في محاولة منه لإقناع السلطان العثماني بالمشروع الصهيوني لا سيما بعد أن لمس منه معارضة نتيجة تخوفه وتعاظم شكوكه من الحركة الصهيونية ، وهو على الأقل لم يكن مرتاحاً لها ، ولعل السلطان خشي أن تصبح فلسطين « لبنان آخر » وأن تقوم ألمانيا بنفس الدور الذي قامت به فرنسا في جبل لبنان.

وعلى الرغم من فشل الوفد الصهيوني في إقناع القيصر بالمطالب الصهيونية فقد استقبله يهود بيروت وممثلو جمعيات الإليانس الإسرائيلية في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٨ ، وأقاموا له ولزوجته الزينات والأقواس « وعند منتصف ساحة البرج ببيروت شاهد جلالتهما هنالك قبة نصبها حضرة الحاخام «يوسف بن سينور» وقد ازدانت بالرياحين والرايات العثمانية والألمانية وتيجان التوراة وستارات الهياكل »[٢] . وفي دمشق - كما في القدس وبيروت - اشترك اليهود في استقبال القيصر ورحبوا به ، ولكن القيصر ظهر في دمشق بمظهر الصديق المخلص للمسلمين وللسلطان العثماني ، وأكد ذلك في أثناء زيارته ضريح صلاح الدين الأيوبي حيث وضع أكليلاً من الأزهار تعبيراً عن تقديره واعجابه بالبطل المسلم . وقد تجلى حرصه على صداقة السلطان في الخطاب الذي ألقاه في دمشق حينما قال : « ... أراني مبتهجاً من صميم فؤادي عندما افتكر بأنني في مدينة عاش بها من كان أعظم ابطال الملوك الغابرة بأسرها الشهم ... السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبي منتهزاً هذه الفرصة لأن أبين قبل كل شيء بسرور لا مزيد عليه تشكراتي لحضرة ذي الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني الذي افتخر بخالص محبته وجميل مجاملته ، وليوفق حضرة صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلاث مئة مليون من المسلمين المرتبطين

---

(١) I. Cohen; *A Short History of Zionism*, p. 49.

(٢) إبراهيم الأسود : الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية ، ص ١٤٢ . وكان في استقبال القيصر في بيروت أصحاب السعادة أدهم أفندي دفتردار الولاية ، وأحمد كامل أفندي ناظر الرسومات ، وعصمت بك قومندان الموقع ، ومحمود جلال الدين أفندي مدير المعارف ، وميشال أفندي اده مدير الأمور الأجنبية ... وعبدالقادر أفندي قباني رئيس البلدية. ومن الأعيان أصحاب السعادة ، محيي الدين أفندي بيهم ، وموسى أفندي فريج ، وسعد الدين باشا قباني ، وحسن أفندي بيهم ، وجرجي أفندي موسى سرسق ، وحبيب بك السعد ، والمسيو شيرول ، ورشيد أفندي الدنا ، والكونت دي طرازي .

بمقام خلافته العظمى ارتباطاً قوياً والمنتشرين في جميع أنحاء الكرة الأرضية . ان امبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم الى الأبد ... »[١] .

وفي يوم السبت ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٨ غادر القيصر اراضي الدولة العثمانية متوجهاً إلى بلاده دون أن تحظى الحركة الصهيونية وممثلوها بتأييد ألماني . وكان تقدير القيصر للموقف انه إذا أيدت ألمانيا التطلعات الصهيونية باستعمار فلسطين فانها ستثير شكوك السلطان بالصداقة الألمانية – العثمانية ، وستنسف الجهود المبذولة منـذ أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر لايجاد موطيء قدم لها في أراضي الدولة العثمانية وغزوها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً أو ما يعرف باسم سياسة « الاتجاه نحو الشرق » (Drang nach Osten) . ورأى القيصر – بعين المصلحة – ان صداقة الدولة العثمانية أفضل من تأييد الحركة الصهيونية والتدخـل في شؤون الحكومة التركية ، لأنه قدّر ان هذا التدخل الذي يتعهده الألمان في الشؤون العثمانية قد يثير مخاوف انجلترا وفرنسا وروسيا[٢].

وكانت ألمانيا تتجنب باستمرار أي عمل قد يحرج السلطان ، فامتنعت مثلاً عن القيام بالمظاهرات البحرية التي كانت تقوم بها بعض الدول الأوروبية أحياناً لممارسة ضغوطها على السلطان العثماني . وكان السلطان يدرك ان الألمان يلعبون لعبة سياسية بارعة لمنفعتهم الخاصة غير انه اعتاد ان يقول عنهم : « ان الألمان يفعلون أقصى ما يمكن عمله من الخير ، بينما تقوم بقية أوروبا بايذائي بأقصى ما تستطيـع[٣] . ويصور السلطان عبد الحميد طبيعة علاقته مع الألمان بأنها مجرد علاقة دبلوماسية يهدف من ورائها ايجاد حليف ضد أعدائه ويقول : « كان هدفي أن لا أكون مع الألمان كصديق حقيقي ، ولكن أردت ان أظهر للعالم هكذا ، لأنني أردت ان ابيـع اتفاقياتي بأغلى ثمن للبلد الأقوى ... »[٤] وكان يتمنى دائماً لو أن الحرب تندلع بين انجلترا

---

(١) النشرة الاسبوعية ، ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٨ ، العدد ١٧١٥ ، انظر ايضاً : الرحلة الأمبراطورية ... ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) للمزيد من التفصيلات حول المصالح الألمانية في الدولة العثمانية وردود الفعل الدولية عليها أنظر : جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ وما يليهما . انظر ايضاً : توفيق علي برو : العرب والترك ص ٣٧ ، ٣٨ . آلان تايلور : مدخل إلى اسرائيل ، ص ١٨ .

(٣) ارنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥٤ . انظر ايضاً :
J. Soustelle; *op. cit.*, p. 36.

(٤) Sultan Abdül Hamit,in; *Hatira Defteri.*

وفرنسا من جهة وبين ألمانيا من جهة ثانية « وأنا بكبير الرغبة كنت انتظر هذا ، وكنت اعتقد بوجوب ذلك » .

وهكذا يتضح أن القيصر كان يحرص على صداقته للسلطان ، وأما المصالح التي نالتها ألمانيا على سياستها الدبلوماسية تجاه تركيا ، كان في طليعتها امتياز خط حديد بغداد[1] ، الذي حصلت عليه عام ١٩٠٢ ، وتزايد نفوذها في أوساط الجيش العثماني لا سيما بعد استخدام « ڤون درغولتز » مدرباً له ، الأمر الذي أدى إلى شراء الدولة العثمانية للأسلحة والمعدات الحربية الألمانية وكل ما يلزم الجيش العثماني ، كما أن برلين وكلياتها الحربية أصبحت كعبة الضباط العثمانيين يحجون إليها سنوياً ، وينشأوون فيها نشأة تتسم بحبهم لألمانيا[2] . إذن ، فالعامل الاقتصادي والنفوذ السياسي والعسكري لعب الدور المؤثر في موقف ألمانيا من المشروع الصهيوني ورسم لها سياستها تجاه الدولة العثمانية .

ولم تكن الدولة العثمانية تتصور أن الحركة الصهيونية يمكن أن تشكل خطراً مستقبلياً على مصير جزء من أراضيها . ولو تحققت من ذلك لكانت قد وضعت حداً لنشاط زعيم الحركة في قلب فلسطين حيث يعترف « هرتزل » نفسه بخطورة حركته لأن « خطتي غير مفهومة . ولهذا فإنها ما تزال مسموحاً بها لا يقف في وجهها أحد . لقد سمحت لي الحكومة التركية بأن أكمل رحلتي ... لو كان رجال الحكومة التركية على شيء من بُعد النظر السياسي لكانوا وضعوا نهاية لأعمالي ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا ذلك منذ وصولي إلى القسطنطينية . كل ما كان عليهم أن يفعلوه لوضع حدٍّ

(١) خط بغداد : يبدأ من حيدر باشا بالآستانة ويمتد إلى بغداد ومنها إلى الخليج العربي... وأهمية هذا الخط بالنسبة لألمانيا أنه يخرجها من عزلتها ليمتد نفوذها إلى المحيط الهندي ، ومن ثم يجعل بترول العراق والجزيرة العربية تحت سيطرتها في المستقبل .

(٢) انظر: محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، جـ٢، ص ١٤٥، ١٤٦. وتذكر بعض الصحف المعاصرة مدى الإفادة الإقتصادية التي جنتها ألمانيا من سياستها الودية حيال تركيا إذ « أن صادرات التجارة الألمانية إلى الدولة العلية بلغت في سنة ١٩٠١ خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات، وهي لم تكد تبلغ في سنة ١٨٩٠ ثلاثة ملايين فرنك، وكذلك زادت صادرات الدولة العلية إلى ألمانيا فإنها لم تتجاوز في سنة ١٨٩٠ ستة ملايين من الفرنكات وهي اليوم لا تقل عن سبعة وعشرين مليوناً... » أنظر: المشرق، ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٢، العدد ٢٣ ، ص ١١٠٣ .

لأعمالي هو أن يطردوني من البلاد ... »[١]، ولكن تؤكد بعض المصادر معرفة الحكومة العثمانية بخطورة النشاط الصهيوني واتصالات « هرتزل » بدليل أن « هرتزل » غادر فلسطين سراً وبسرعة بعد أن رأى القيصر هناك لأنه خاف من الاغتيال على يد السلطات العثمانية معتبراً أنها كانت تعرف أنه لم يكن صديقاً حقيقياً للامبراطورية[٢].

وكان رأي السلطان عبد الحميد الثاني، أنه لا يمكن تحقيق أهداف الحركة الصهيونية في فلسطين طالما أن امبراطوريته باقية وقوية. وكان لا يجد مبرراً قوياً للمقارنة بينها كأمبراطورية وبين الصهيونية كحركة لم يقدر لها النجاح بعد. ولكن مواقف الدول الأوروبية الكبرى غيرت هذه الفكرة عن الصهيونية، وجعلت نشاطها يدور في دوائر الحكومات الرسمية.

وفي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٨ تلقى دوق بادن رسالة من « هرتزل » يشكره فيها على جهوده من أجل المشروع الصهيوني، ولكن يعتب فيها على موقف القيصر من « الشعب اليهودي »، وعدم تجاوبه مع مطالب الحركة الصهيونية في الوقت الذي كان ينتظر منه تجاوباً تاماً أثناء اجتماعهما في القدس. وقد عرض « هرتزل » مخططه الجديد في رسالة جديدة إلى الدوق في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٨، طلب فيها الحماية الألمانية للحركة الصهيونية ورعايتها وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين والعمل على خلق « الشركة اليهودية للأراضي في سوريا وفلسطين » على أن يكون مركزها الرئيسي في ألمانيا، والسعي لدى الدولة العثمانية لإبطال « قوانين الهجرة ». ومن أجل تحقيق ذلك اجتمع هرتزل بالسفير الألماني في ڤينا في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٨ لبذل مساعيه لدى حكومته لتنفيذ هذه المطالب، ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة مثمرة، فقد استمرت السلطات العثمانية في منع دخول اليهود إلى فلسطين ولم تسمح لهم با لدخول إلا بداعي الزيارة الدينية والمحددة في ثلاثين يوماً، وبعد ذلك تضطر إلى إخراجهم. وقد أكد «أوكونر» (O'Conor) — السفير البريطاني في الآستانة — هذه الحقائق في تقريره إلى وزارة الخارجية البريطانية حيث صرح « بأن السلطات التركية تصنّف اليهود الذين يأتون الى فلسطين

(١) يوميات هرتزل، ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٨، ص ٧٦٠ (ت. ع. ص ١٢٣).
(٢) ج. جانسن : الصهيونية وإسرائيل وآسيا، ص ٧٧.

زواراً وتجبرهم على تقديم ضمانات بأنهم سيغادرون البلاد ثانية »[١]. وقد طلب السفير البريطاني من وزارة خارجيته التوجيهات اللازمة عما اذا كانت السلطات التركية مخولة التمييز في المعاملة بين البريطانيين والبريطانيين اليهود ، فجاءه الجواب « بأنه ليس من المعقول امكانية هذا التمييز » إلا أن الخارجية البريطانية استطردت قائلة « حقاً ، إن المادة الأولى من الامتيازات الأجنبية الموضوعة عام ١٨٠٩ لا تنص صراحة على كيفية اقامة الرعايا البريطانيين في الامبراطورية العثمانية ... »[٢].

ومن الأهمية بمكان القول ، بأن « ديكسون » (Dickson) — القنصل البريطاني في القدس — صرح بعد اجتماعه بالمتصرف انه جمع التنظيمات والقوانين الصادرة عن الباب العالي حول منع اليهود الأجانب من الدخول الى فلسطين بهدف الاستيطان ، واعترف بأن سبب اصدار هذه القوانين « انما هي رغبة لضبط طبيعة البلاد وحمايتها من الشرور الناتجة عن اتساع الهجرة . وانه لمن دواعي الشك ان ما يطلق عليه اسم « الحركة الصهيونية » لانشاء الوطن اليهودي في فلسطين ، انما جعلت الباب العالي يتشدد باصدار قيود صارمة ضد الهجرة اليهودية . وحاول المتصرف افهامي بأن هذه الأنظمة انما هي ضد اليهودي الغني كما هي ضد اليهودي الفقير . وانه متأكد من أن الباب العالي لن يصدر في المستقبل تعديلات مخففة لهذه القيود »[٣].

وفي هذه الفترة كادت بريطانيا ان تكون الدولة الوحيدة التي دافعت عن هجرة اليهود البريطانيين إلى فلسطين . ومن أجل ذلك ، وبعد أن علم « هرتزل » بفشل مساعيه مع الحكومة الالمانية ، اتجه نحو بريطانيا وبدأت مفاوضاته مع وزير المستعمرات البريطانية « جوزف تشمبرلن » (Joseph Chamberlin) لتحقيق مشروع اسكان اليهود في شبه جزيرة سيناء وإقامة دولة يهودية تحت الوصاية البريطانية ، لأن هـــذا المشروع فيما لو تحقق يؤدي إلى عزل مصر عن غرب آسيا ، وإلى زرع دولة غريبـة في قلب البلاد العربية ، وإلى اضعاف الدولة العثمانية مما يتيح لبريطانيا أن تملك

---

(١) O'Conor to F.O., 4 January 1899, No. 3, in F.O. 78/5479.

(٢) C.B.R. to O'Conor, 14 January 1899, No. ?, in F.O. 78/5479.

انظر ايضاً : Report to O'Conor, 31 January 1899, No, ?, in F.O. 78/5479 A.

(٣) Dickson to O'Conor, 9 February 1899, No. 7, in F.O. 78/5479 A.

موقعاً استراتيجياً وركيزة قوية تستند إليها في مواجهة النفوذ الألماني المتزايد والمتغلغل في الدولة العثمانية . ثم كانت هناك الميزة العسكرية لهذا المشروع وهي اطمئنان بريطانيا إلى حماية قناة السويس من الجانب الاسيوي [١] .

ب – النشاط الصهيوني عام ١٨٩٩

لم يقتصر نشاط « هرتزل » على بريطانيا ، بل حرص في عام ١٨٩٩ على مقابلة القيصر الروسي للحصول على تأييده ، وقد وسّط لهذه الغاية البارونة « برتافون ستنر » بعد إقناعها بأن الصهيونية مفيدة لروسيا لأنها تشكل حاجزاً في وجه القوى الثورية المناهضة للقيصر ، وهي ايديولوجياً ضد النظام الاشتراكي الذي يخشى القيصر تطبيقه في روسيا على يد الثوريين الروس « ولا ننسى اننا اليوم وفي كل مكان نحارب الثوريين ، واننا نعمل على إبعاد الطلاب والعمال اليهود عن الاشتراكية والفوضية ... » [٢] .

وحاول « هرتزل » طمأنة الحكومة الروسية حول مستقبل الأماكن المقدسة في فلسطين « وذلك بوضعها خارج نطاق الحكم باتفاق جميع القوى » موحياً أن وجودها تحت سيطرة الدولة العثمانية لا يخدم مشاعر المسيحيين ، لأن الأماكن المقدسة ستكون « في مأمن أفضل مما هي عليه الآن ، الأمر الذي سيكون أفضل لمشاعر العالم المسيحي » .

وفي تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٩٩ علم « هرتزل » بأن القيصر لا يستطيع الاجتماع به ، ولكنه ألحّ وأرسل إليه رسالة تتضمن مساعيه المبذولة ضد الاشتراكية [٣] « لقد أثنيت الكثيرين عن مبادئ الثورة الاشتراكية المزيفة وحولتهم إلى حملة مثل عليا » [٤]. إلا أن الزعيم الصهيوني لم يلق تجاوباً مع مطالبه .

واتجه « هرتزل » أيضاً نحو أمريكا محاولاً كسب تأييدها لأن الصهيونيين الأمريكيين يعطفون على مشروع استيطان اليهود في فلسطين ، وكان بعض

---

(١) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ٨٦ .

(٢) يوميات هرتزل ، ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٩ ، ٧٨٣ (ت. ع. ص ١٣٢) .

(٣) كان يوجد في روسيا بعض اليهود المؤمنين بتطبيق الاشتراكية ، التي رأى القيصر في تطبيقها خطراً على حكمه ، فجاء هرتزل ليطمئنه بأنه أقنع هؤلاء اليهود بالعدول عن الأفكار الاشتراكية .

(٤) يوميات هرتزل ، أواخر تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٩ ، ص ٨٨١ (ت. ع. ص ١٤٩) .

الأمريكيين اليهود ذوي المناصب الرسمية يؤيد المشروع الصهيوني إذ أن « السفير الأمريكي « ستراوس » يعطف على الصهيونية سراً ... »[1] ، وهو الذي تدخل كثيراً لدى الدولة العثمانية من أجل إنجاح المشروع الصهيوني ، وكانت الصحف الأمريكية قد بدأت حركة إعلامية نشطة تأييداً للحركة الصهيونية داعية بأسلوب إنساني إلى إنقاذ اليهود من البؤس والشقاء متأثرة بآراء « هرتزل » الذي قابل — وقتذاك — الصحافي اليهودي « بن يهوذا » وأخبره مدى بؤس فقراء اليهود في بعض الدول ، وأن الهدف من المشروع الصهيوني أن نقدم « لهؤلاء المنبوذين بلداً سيكون ملكهم الخاص » .

وفي أواخر عام ١٨٩٩ قابل « هرتزل » « ستراوس » — الوزير الأمريكي اليهودي المعتمد في استانبول — في العاصمة النمساوية وأخذ الرجلان يتبادلان الآراء في المساعي الصهيونية وضرورة تقديم العون « لشعبنا » . وكان من نتائج هذا اللقاء وعد من السفير الأمريكي بتقديم المساعدة والنصائح المفيدة باستمرار ، على أن يوقع السفير رسائله باسم مستعار هو « مسيو تامبكس » . وقد طلب هرتزل منه متابعة المساعي مع الأوساط العثمانية واقترح عليه توسيط « أرتين أفندي » الأرمني الموظف في الباب العالي ، ولكن « ستراوس » حذره من هذه الفكرة وقال له « لا أرتين ولا غيره يؤثر كثيراً أو قليلاً على السلطان . وأفهمه أن السلطان عبد الحميد رجل حاذق داهية ، وأنه هو الذي يحكم نفسه بنفسه وليس لإنسان عليه نفوذ »[2] .

وفي ٣ حزيران (يونيه) عام ١٨٩٩ اتجه « هرتزل » اتجاهاً جديداً في نشاطه الدبلوماسي ، فحاول استغلال المؤتمرات الدولية لصالح الحركة الصهيونية حيث سافر إلى « لاهـاي » لحضور « مؤتمر السلام » على أمل التوصل إلى تفاهم مع المؤتمرين لإقرار مشروع يقضي بمساعدة اليهود والضغط على الدولة العثمانية . وفي أول اجتماع له مع مستشار الدولة الروسية « بلوخ » شرح له أهداف الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، فأبدى « بلوخ » قبولاً للمشروع ولكنه قدم اعتراضات على بعض نواحيه .

وفي ١٧ حزيران (يونيه) من نفس العام ، اجتمع هرتزل في « لاهاي »

---

(١) يوميات هرتزل ، ٨ آذار (مارس) ١٨٩٩ ، ص ٨٠٣ (ت. ع. ص ٩٧) .
(٢) فرانك مانويل ، المرجع السابق ص ٣٩ .

بـ « نوري بك »[١] ممثل الدولة العثمانية في المؤتمر، وحاول رشوته لقاء التوسط لدى السلطان بقبول اليهود في فلسطين. وتناول الحديث مواضيع أخرى عن الحركة الصهيونية ومبادئها، فابتسم « نوري بك » لأقوال هرتزل الذي قال « لقد أوحت إليّ ابتسامة سعادته الخبيثة بأن هذا لن يكون أكثر من حلم »[٢]. وأشار « نوري بك » إلى موقفه من اليهود وهو على غرار الموقف التركي الرسمي وقال: « نقبل اليهود، تركيا واسعة ... وسوف يكون اليهود تحت حماية القانون التركي محميين من الاضطهاد ... ولكن الأماكن المقدسة لا يمكن تسليمها لهم. فحتى قوانين تركيا تمنع الجماعات اليهودية من التركز هناك، ولن ترضى الشعوب المسيحية أن ترى الأرض المقدسة حيث تقوم الجلجلة وجبل الزيتون تذهب إلى أيدي اليهود »[٣]. وكان هذا الموقف العثماني قد اتخذ منذ فترة بعيدة إذ كان متصرف القدس يمنع بيع الأراضي للمهاجرين اليهود، كما كان يرفض أن يقوموا ببناء منازل لهم[٤]. ويزعم « هرتزل » بأن « نوري بك » عرض عليه حلب أو ضواحي بيروت، لكنه رفض هذا العرض على حد قوله.

وتذكر بعض المصادر انه في نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان يزور الأراضي المقدسة في كل عام ما يقارب عشرين ألفاً من الحجاج الروس[٥]. يطردون بالقوة إذا ما بقوا بعد انقضاء المدة المحددة، ولكن عدداً منهم استطاع التهرب من القوانين العثمانية، ولم تكن في العهد التركي العبرة بالقوانين بل بتنفيذها. وكان الباب العالي قد ترك منفذاً واحداً إلى فلسطين هو الحج والزيارة، فكان لليهود أن يدخلوها بهذه الصفة، وبواسطة المال وبوسائل أخرى مختلفة استطاعوا إنشاء مستعمراتهم الكبيرة[٦]. إلا أن التقارير البريطانية تؤكد بأن المهاجرين اليهود كانوا يلاقون معاملة سيئة من السلطات التركية في فلسطين، وكثيراً ما كانت هذه السلطات

---

(١) نوري بك محمد (١٨٥٨–١٩٠٨) هو السكرتير العام لوزارة الشؤون الخارجية، من أم شركسية وأب فرنسي. وهو غير نوري بك علي (١٨٦١ - ١٩٣٧) السويدي الأصل واسمه الأصلي « غوستاف نورنج ».

(٢) يوميات هرتزل، ١٧ حزيران (يونيه) ١٨٩٩، ص ٨٧٣ (ت. ع. ص ١٠٠).

(٣) المصدر نفسه، ١٧ حزيران (يونيه) ١٨٩٩، ص ٨٧٣ (ت. ع. ص ١٠٠).

(٤) N. Mandel, *op. cit.*, p. 83.

(٥) A. Rappoport; *op. cit.*, p. 312.

(٦) يوسف الحاج: هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود، ج ١، ص ٩٣.

تنفي الأخبار أو الاشاعات التي تؤكد معاملتها القاسية للمهاجرين اليهود كما حدث بالنسبة لليهودي « بانين ماهالا » (Banin Mahala) حيث وُصف توقيفه بأنه كان غلطة[١] . وقد أفاد « ديكسون » في تقريره للسفير البريطاني « اوكونر » عن موقف الدولة العثمانية في قضية منع اليهود من دخول فلسطين ، فرد « اوكونر » بأنه « يبدو من تقاريرك أن السلطات التركية تميز بين حالات السفر والإقامة مشددة على تقديم شهادة تفيد بأن اليهودي المهاجر لا ينوي الإقامة أكثر من المدة المحددة . هذا وقد لفتُ نظر المركيز سالزبوري (Salisbury) لهذه الملاحظة ورجوت سعادته أن يحدد الإتجاه الواجب السير فيه بالنسبة لتصريح السلطات العثمانية »[٢] .

ومما زاد في حرج الموقف البريطاني أن السلطات العثمانية في فلسطين تشددت مع كل يهودي مهاجر مهما كانت مهنته وقصده من زيارة الأراضي المقدسة فقد حدث أن منعت سلطات ميناء حيفا السيدة « آنا لاندو » (Anna Landau) – اليهودية البريطانية لدى وصولها من انجلترا – من النزول إلى القدس لتسلم منصبها كمعلمة في المدرسة التابعة للاتحاد الأنجلو – يهودي[٣] . وإزاء هذه المسألة احتج السفير البريطاني وقدّم مذكرة للباب العالي طلب فيها لفت النظر بوجوب إلغاء معارضة بقاء السيدة « لاندو » في فلسطين . ولكن السلطات التركية المحلية استمرت في اتخاذ التدابير الخاصة بمنع المهاجرين اليهود من الدخول إلى الأراضي المقدسة ، وبمضايقة وملاحقة من استطاع الدخول إليها حتى تضطره إلى مغادرة البلاد ، فقد تقدمت اليهودية البريطانية « ياتي بتلر » (Yetti Butler) باسترحام يتضمن شكوى من محل إقامتها في يافا ، لما تلاقيه من مضايقة من رجل شرطة وأحد موظفي البلدية[٤] .

ومن الأهمية بمكان القول ، أن الإجراءات المتخذة بحق اليهود المهاجرين

---

(١) Dickson to O'Conor, 26 January 1899, No. (Tel.) in F.O. 195/2062.

(٢) O'Conor to Dickson, 14 February 1899, No. (Tel.) in F.O. 195/2060.
انظر ايضاً حول موقف بريطانيا من الهجرة اليهودية التقرير التالي :
10 March 1899, No. ? in. F.O. 78/5479 A.

(٣) Dickson to O'Conor, 16 March 1899, No. ? in. F.O. 195/2060.
انظر ايضاً حول نفس الموضوع :
Dickson to O'Conor, 21 February 1899, No. 10 in. F.O. 78/5479 A.

(٤) Dickson to O'Conor, 10 July 1899, No. 27, in. F.O. 195/2062.

كانت تزيد من حدة التوتر بين السلطات العثمانية وبين الدبلوماسيين البريطانيين حيث كان السفير البريطاني « اوكونر » (O'Conor) في مقدمة السفراء الأجانب الذين يقدمون الاحتجاجات والاعتراضات إلى قصر « يلدز » وإلى وزارة الشؤون الخارجية التركية ، إلا أن الجواب العثماني كان صريحاً فيما يختص بالمهاجرين الذين ينوون الإقامة الدائمة في فلسطين ، ذلك أن القوانين تمنع مثل هؤلاء من الإستيطان وإقامة المستعمرات . وبالرغم من هذا الموقف العثماني المتشدد إلا أن النشاط الصهيوني ظل مستمراً لكسب ود وصداقة السلطان والحصول على موافقته .

وفي ١٣ آب (اغسطس) عام ١٨٩٩ — وقبل انعقاد المؤتمر الصهيوني بيومين — أرسل « هرتزل » رسالة إلى السلطان « عبد الحميد الثاني » بمناسبة بدء جلسات المؤتمر أوضح فيها « أن الصهيونيين المجتمعين في مؤتمر بال يعتبرون أن واجبهم الأول هو أن يرفعوا تعهدهم باخلاصهم وتقديرهم للطف جلالته نحو رعاياه اليهود إلى أعتاب عرش جلالة السلطان . إن الصهيونيين يرغبون في إغاثة إخوانهم التعساء في دول أوروبا المختلفة ، وفي الإسهام في عظمة الامبراطورية العثمانية وازدهارها ، وإنهم ليأملون باخلاص أن يحظى ولاء هذه الرغبات بتقدير وتشجيع حكمة الخليفة العظيمة »[1] . وقد أرسل « هرتزل » هذه الرسالة معتبراً أنه بموافقة السلطان العثماني ، وبالاموال اليهودية ، وبتأييد الدول الكبري يمكن خلق الدولة اليهودية في فلسطين ، ويمكن أن يبيع السلطان بسرعة وسهولة ميثاقاً يحوّل فلسطين إلى اليهود الذين يمكن الاعتماد على ولائهم ودعمهم المستمر ، لأن السلطان كان بحاجة شديدة للمال ... وعندها يمكن للأموال اليهودية أن تحمل اليهود إلى فلسطين[2] . إلا أن السلطان العثماني سبق واتخذ موقفاً ثابتاً من مسألة إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وهو رفضه المستمر ليس لهذا المشروع فحسب ، بل لقبول مهاجرين يهود يستوطنون بصورة دائمة في الأراضي المقدسة . وعلى هذا الأساس فإنه تجاهل طلب « هرتزل » ولم يرسل إليه رسالة جوابية بهذا الخصوص .

وفي الفترة الممتدة من ١٥ إلى ١٨ آب (اغسطس) ١٨٩٩ ، باشر المؤتمر

---

(١) يوميات هرتزل ، ١٣ آب (اغسطس) ١٨٩٩ ، ص ٨٦٠ (ت. ع. ص ١٤٩) .
(٢) ج. جانسن ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

الصهيوني جلساته ، وقد حدثت تحولات في المؤتمر أفادت الحركة الصهيونية حيث أعلن أن جمعية « أحباء صهيون » انضمت إلى المؤتمر بصورة رسمية ، وفيه أعلن « هرتزل » أن نشاطه السياسي ينصب في هـذه الحقبة في الأوساط العثمانية لإقناع السلطان العثماني بمشروعه . وقد قرأ على المؤتمرين رسالته التي أرسلها إلى السلطان ، وأوضح أن الغاية منها لفت نظر السلطان إلى الحركة الصهيونية ومطالبها . وفي هذا المؤتمر ظهرت اتجاهات أنصار فكرة « إستيطان قبرص » نظراً لتعنت الموقف العثماني وكان « دافيز تريتش » (Davis Trietsch) قد عرض هذه الفكرة فقوبلت بمعارضة شديدة من قِبلِ الأعضاء المتطرفين ، وطالبوا بمضاعفة النشاط الصهيوني للحصول على فلسطين ، ولكن التقارير الصـادرة في فلسطين من المنظمة اليهودية (Jewish Colonization Association) [١] أثبتت فشل اليهود في العمل الزراعي واستحالة الحياة عليهم في فلسطين لأنـه « يصعب تحويل اليهود في فلسطين إلى مزارعين ، ومعظمهم يعيش في خمول قاتل »[٢] .

وبرغم هذه التقارير الصهيونية التي تؤكـد فشل اليهود في إمكانية استقرارهم في فلسطين إلا أنه بين عامي ١٨٩٨–١٨٩٩ « كنت ترى السماسرة اليهود يطوفون منطقة « مرج عيون » لتحصيل أملاك جديدة فيها »[٣] . وقد أوضحت مجلة « المشرق » وصحف الآستانة عن قلقهـا من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وحذرت السلطات العثمانية من نتائجها وقالت إنه « أتتنا الأعداد الأخيرة من جرائد الآستانة العلية ، وفيها كلام مسهب عن اليهود وانتشارهم في فلسطين ، وربما استلفت أصحاب هذه المقالات أنظار ذوي الأمر إلى استدراك ما يعدونه مخالفاً لنظام الدولة ويؤيدون قولهم بذكر الأوامر الشريفة التي كررتها مراراً الحضرة السلطانية في هذا الشأن[٤] » .

---

(١) كانت تعرف هذه المنظمة باسم «بيكا» (P. I. C. A) أيضاً، وهي التي تولت العمل الاستيطاني في فلسطين وتنظيم أوضاع المهاجرين الجدد ، وأنشأت بين عامي ١٨٩٩ – ١٩٠٨ ثمـاني مستوطنات جديدة وإثني عشرة قرية يهودية ، وهي التي تولت إعـادة تنظيم مستعمرات البارون روتشيلد .

(٢) ICA; *Report of the Central Administration* (1898 - 1899) .
نقلا عن : خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني ، ص ١٩ .

(٣) المشرق ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ ، العدد ٢٣ ، ص ١٠٨٨ .

وفي الوقت الذي كان فيه المهاجرون اليهود يستقرون في فلسطين بأساليب غير قانونية ، كان « هرتزل » يعارض – ولو من الوجهة الرسمية – هذا الأسلوب من الهجرة فقد أراد الحصول على تأييد دولي ورسمي في آن واحد لهذه الهجرة لئلا تكون الجماعات اليهودية معرضة في كل وقت للطرد وتحت رحمة السلطات العثمانية. وقد أعلن رأيه هذا مجدداً في المؤتمر الصهيوني الثالث ، لذا واصل اتصالاته بألمانيا – ولم ييأس مطلقاً من فشله السابق – وحاول الاجتماع بالقيصر وإقناعه بفائدة تأييده للحركة الصهيونية على اعتبار أن الدولة اليهودية ستكون سوقاً تجارية وصناعية لألمانيا « على أنه يمكن لألمانيا – بطريقة تبقى في الوقت الحاضر سرية ولا تتطلب في المستقبل أية مسؤولية – أن تضمن لنفسها منذ بدء مستعمراتنا وللمستقبل سوقاً صناعية كبيرة كل ما نطلبه منها مقابل هذا أن تسمح لنا بتنظيم أمورنا في ألمانيا» . ثم طلب « هرتزل » تعيين موعد لاجتماع يعقده مع القيصر الألماني ، إلا أن طلبه رُفض ، فشكا الأمر لصديقه الدوق الكبير ، وشكا إليه أيضاً من أن مديري « البنك الألماني » لم يأخذوا بتوصية الدوق بإنشاء « شركة الأراضي اليهودية » ورفضوا وضعها تحت الحماية الألمانية . ولكن « هرتزل » يذكر في يومياته في أواخر عام ١٨٩٩ ، أن الدوق أرسل إليه رسالة يخبره فيها « أن القيصر أصبح ميالاً تجاه القضية الصهيونية » .

ج – النشاط الصهيوني عام ١٩٠٠

لعبت التطورات العالمية دوراً مؤثراً في مسيرة الحركة الصهيونية وجعلتها تنقل أحد مؤتمراتها من سويسرا إلى قلب العاصمة البريطانية ، وذلك إدراكاً من الحركة بأهمية تأييد السياسة البريطانية لنشاطها ، خاصة بعد أن لمست تشجيعاً من الحكومة البريطانية وفي مقدمتها « تشمبرلن » وزير المستعمرات البريطانية .

وفي الفترة الممتدة من ١٣ إلى ١٦ آب (اغسطس) عام ١٩٠٠ ، انعقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن لحث الشعب البريطاني على مضاعفة تأييده واهتمامه بالحركة الصهيونية . وقد صرح « هرتزل » بأن حركته لم تظفر بين بقية الدول والشعوب بمثل ما ظفرت به في بريطانيا من تفهم وعطف على أهدافها وأكد أن الرجال الانجليز هم أقرب الرجال لفهم مبادىء

الصهيونية[١] . وجاء في خطاب « هرتزل » الإفتتاحي : « بأن انجلترا الدولة العظمى الحرة والتي تطلُّ بأراضيها وممتلكاتها على جميع بحار العالم ، هي الدولة التي تفهم حركتنا وجهودنا » .

وانتهى المؤتمر في مقرراته إلى ضرورة تكثيف الجهود من أجل تحقيق مقررات المؤتمرات السابقة وفي مقدمتها مؤتمر بال ١٨٩٧ ، والعمل على زيادة الجمعيات الصهيونية لخدمة الحركة الصهيونية وبإجراء المفاوضات مع المسؤولين البريطانيين لبذل المساعي من أجل تحقيق مشروع « الدولة اليهودية » وكانت بريطانيا قد طرحت مشروع استيطان اليهود في شبه جزيرة سيناء ، فأراد « هرتزل » الإطلاع على وجهة النظر البريطانية في هذا الموضوع . ففي ٢٩ نيسان (إبريل) عام ١٩٠٠ ، وسَّط إحدى الشخصيات البريطانية المرموقة « الفرد أوستن » (Alfred Austin) لتسهيل مهمته لدى اللورد « سالزبوري » ، ولكن اللورد لم يستطع الاجتماع به لانشغاله في القضايا العسكرية ومسألة التنافس البريطاني ــ الألماني في حرب « البوير » ، حيث كانت ألمانيا تؤيد « البوير » ضد بريطانيا . وحاول « هرتزل » ــ كعادته ــ أن يزج نفسه في القضايا الدولية لتحقيق المكاسب للقضية الصهيونية عن طريق مقترحات للسلم والتوسط في قضية الترنسفال ، إلا أن مساعيه باءت بالفشل .

ومهما يكن من أمر ، فقد لاقت الحركة الصهيونية تأييداً وتشجيعاً في الأوساط البريطانية لدرجة أن حوالي ستين مرشحاً لمجلس العموم البريطاني أعلنوا تأييدهم للصهيونية في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٠٠ . وللدلالة على تزايد التأييد البريطاني للصهيونية تزايد عدد الجمعيات الصهيونية في بريطانيا من ١٦ جمعية إلى ٣٩ جمعية[٢] . وكانت هذه الجمعيات الصهيونية مع جمعيات أخرى في أوروبا قد تأسست بزعامة حركة « أحباء صهيون » وقامت هذه الجمعيات اليهودية بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين عن طريق تأسيس المستعمرات والمدارس الصناعية والزراعية[٣] .

وانطلاقاً من النفوذ الذي بدأت تتمتع به الحركة الصهيونية في بريطانيا ،

---

(١) H. Bentwich; *op. cit*, p. 90.

(٢) I. Cohen; *Theodor Herzl, Founder of Political Zionism*, p. 228.

(٣) (Report), 21 December 1900, No. 71, in. F.O. 195/2084.

طلب « هرتزل » من الأوساط الصهيونية فيها السعي لدى المسؤولين لبذل مساعيهم في القيـام بضغط على السلطان العثماني ، لا سيما وأن الحكومة البريطانية قد أخذت تتخلى تدريجياً عن دورها كحامية للرجل المريض — الدولة العثمانية — وذلك بسبب تبدل العلاقات البريطانية — التركية في عهد السلطان عبد الحميد ، الذي كان عنيفاً في كرهه للانجليز ، والذي كان ينسب إليهم معظم مشاكلـه مع الأقليات في الامبراطورية[1] ، وكانت سياسته تجاه الانجليز تُعرف باسم (Anti-British) .

وبالرغم من العطف الذي أبدتـه انجلترا نحو اليهود ، إلا أننا نلاحظ بعض مظاهر العداء اليهودي ضد الانجليز في فلسطين، وربما يعود سبب ذلك إلى كره اليهود للأوروبيين عامة بسبب سوء المعاملة واللاسامية (Anti-Semitism) التي طبقتها أوروبا بحق اليهود ، فقد حدث أن اعتدى اليهود أكثر من مرة على أشخاص بريطانيين في فلسطين « مما اضطر السيد « دان » (Dunn) إلى رفـع شكوى ضد يهودي اعتدى على ابنه »[2] ، إلا أن انجلترا اعتبرت أن مثل هذه الأمور هي أمور طبيعية وفردية ، وهي لا تريد أن تتخلى عن حمايتها لليهود لا سيما بعد أن تزايد قلقها من جراء تزايد النفوذ الألماني في أراضي الدولة العثمانية ، خاصة بعد اتجاه الألمان لتنفيذ مشروع سكة حديد الحجاز الذي سيؤدي إلى توسيـع نفوذهم بعد توطيده في الحجاز واليمن والبحر الأحمر . وكان من الممكن أن يمتد هذا الخط إلى بلاد الشام بطبيعة الحـال ، فحاول الانجليز ما في وسعهم لعرقلة هذا المشروع ، وبدأوا بإثارة البدو وشريف مكة عون الرفيق ١٨٨٢—١٩٠٥[3] . ورأت الحركة الصهيونية أن تطرح نفسها كبديل لأية قـوة في المنطقة تكون في خدمة الحكومة البريطانية على أن لا تتخلى في هذه الفترة عن نشاطها الدبلوماسي في الأوساط الحكومية العثمانية والأوروبية الأخرى .

وفي هذه الفترة من عـام ١٩٠٠ ، كانت لا تزال الهجرة اليهودية تتوالى على فلسطين ، وشهدت هذه الموجة مجيء الدكتور « كليمكر » الذي أسس مصنعاً لصناعة الزيت والصابون ، وهاجر إليها أيضاً في عام ١٩٠٠ « ماينا

---

(١) أرنست رامزور ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .
(٢) J. Monahan to F.O., 22 August 1900, No. 19 in F.O. 78/5072.
(٣) لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ٤٣٤ .

شوخان » و « يشوعا خانكين » الذي درس فلسطين دراسة وافية شبراً شبراً ، وهو السمسار الأول المطلق المفاوضات لشراء الأراضي الفلسطينية للقادمين اليهود[1] . لذلك فقد شهد عام ١٩٠٠ ردود فعل عربية واسعة النطاق في فلسطين تمثلت بجملة احتجاجية وتقديم العرائض الجماعية ضد شراء المهاجرين اليهود للأراضي الزراعية[2] . على أن الزعيم الصهيوني « ماكس نوردو » (Max Nordeau) تحدث في هذا العام ، عن المصالح المالية التي تترتب لتركيا وللشعب الفلسطيني من جراء الهجرة اليهودية فيزعم « أن الأراضي المقدسة اليوم صحراء في أربعة أخماسها وأن ثلاثة أرباع سكانها البالغ عددهم ستماية ألف من البدو الرحل والفقراء هم يستعطون ، ولا تدر هذه البلاد على الباب العالي دخلاً يستحق الذكر . فحين يتم للصهيونيين توطين بضع مئات آلاف من اليهود وإتباعهم على عجل ببضعة ملايين في فلسطين ، يمكن للزراعة والصناعات الكبيرة والصغيرة والتجارة أن تزدهر وتتحسن » . وأضاف قائلاً بمنطق هرتزل « إن الصهيونية تضمن للحكومة التركية دخلاً سنوياً يرتفع بمعدل ارتفاع عدد المستوطنين اليهود في فلسطين »[3] . ولكن الباب العالي استمر في موقفه من المشروع الصهيوني والهجرة اليهودية . وأوعز إلى البعثات الخارجية في القسطنطينية دعوة وكالات السفر البحري المختصة لمعاونة السلطات التركية بمنع هجرة اليهود إلى الأراضي التركية[4] .

وفي ٨ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٠٠ ، حرص « هرتزل » على متابعة الإتصال بالدوائر الإستعمارية لممارسة نفوذها في أوساط قصر « يلدز » بالآستانة ، فاجتمع مع رئيس الحكومة النمساوية « كويربر » مرتين على التوالي ، عارضاً عليه خدمات الصهيونية لقاء التأييد النمساوي ، على أن

---

(١) علي إمام عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ، ص ١٤٣ .

(٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٠ .

(٣) M. Nordeau; *Zionistische Schriften, Hrsg. von Zionistischen Aktionskomitee* p. 221. (Köln und Leipzig 1909.)

نقلاً عن : أسعد رزوق : اسرائيل الكبرى ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

أنظر أيضاً : H. M. Kallen: *Zionism and the World Politics*, p. 106.

(٤) Salisbury to O'Conor, 29 August 1900, No. 175 in F.O. 78/5479.

وقد أراد « سالزبوري » أن يستفهم عن هذا الموقف العثماني ، ثم أيد « اوكونر » في رسالته الموجهة للحكومة التركية التي تعارض اتخاذ مثل هذا الموقف .

هذه الاجتماعات انتهت دون الحصول على نتائج ايجابية . وبالرغم من أن موقف السلطان « عبد الحميد الثاني » من الهجرة اليهودية ، كان يسبب له بعض الصعاب في معاملته مع أوروبا – على اعتبار أن الاتفاقات الثنائية العثمانية – الأوروبية ، كانت تنص على تمتع جميع رعايا الدول الأوروبية بالحقوق والامتيازات في الأراضي العثمانية دون تمييز في أديانهم ومعتقداتهم – فقد ظلّ موقفه من الهجرة اليهودية ثابتاً ، بل لقد بلغ به الأمر أن أصدر فرماناً بمنع بيع أراضي الميري في الولاية لجميع اليهود بما فيهم الرعايا العثمانيين . وقد أثارت هذه القيود احتجاجات عند اليهود العثمانيين وبعض الدول الكبرى[١] .

ومن الملاحظ أن المهاجرين اليهود استغلوا كل ثغرة وجدوها في الحكم العثماني المحلي ، فبعد نقل متصرف القدس « توفيق بك » المشهور بتشدده حيال الهجرة اليهودية في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٠٠ تبين أن اليهود وجهوا أنظارهم مرة ثانية إلى المتصرفية ، لأن المتصرفين الثلاثة الذين خلفوه في المنصب لم يكونوا مثله من حيث الأمانة والاخلاص[٢] . ولكن الحكومة العثمانية أصدرت في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٠٠ « القوانين المتعلقة بالزوار اليهود للأراضي المقدسة » . حيث ألغت قانون تأمين الخمسين ليرة تركية وتحديد الإقامة بـ (٣١ يوماً) الصادر عام ١٨٨٧ وما يليه ، وسمح لكل يهودي أجنبي يزور فلسطين بالأقامة فيها مدة ثلاثة أشهر مقابل تسليم جوازه ، وإعطائه بدلاً منه جوازاً أحمر خاصاً مقابل تعرفة رسمية هي غرش واحد . وقد احتوى القانون الجديد أربعة بنود تضمنت التعليمات الخاصة بالمهاجرين اليهود ، وذكر بأنه على جميع اليهود الزائرين لفلسطين سواء قدموا من الخارج أو من باقي الولايات العثمانية ، أن يكونوا مزودين بتذكرة أو جواز مرور يُسجل عليه مدة الزيارة والهدف من الرحلة ، وأنه يتوجب على هؤلاء اليهود لدى وصولهم إلى أي ميناء في ولاية بيروت أو متصرفيه القدس أن يقدموا التذكرة أو جواز المرور للموظف المسؤول عن الميناء ، ويدفع كل منهم غرشاً واحداً يعطى بالمقابل تذكرة سفر أو تذكرة إقامة مؤقتة تسمح لهم بالتنقل أو البقاء في فلسطين مدة ثلاثة أشهر[٣] .

---

(١) N. Mandel; *op. cit.*, p. 86.

(٢) N. Mandel; *op. cit.*, p. 90.

(٣) القانون الخاص بالزوار اليهود إلى فلسطين ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٠ . انظر : F.O. 78/5479. No. ?. ، وانظر أيضاً : الملحق رقم (٤).

وبعد انقضاء المدة يطردون بالقوة من البلاد – إذا لزم الأمر – ويكون ذلك بمعرفة القنصلية ذات العلاقة (١).

وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠١ ، وضعت السلطات العثمانية أوامر الباب العالي موضع التنفيذ ورفضت السماح لليهود بدخول القدس ما لم يقبلوا بالفترة الجديدة المحددة لاقامتهم والتي تمتد إلى (٩١) يوماً فحسب (٢). وأرسلت هذه التعليمات إلى ممثلي الدول الأجنبية في الدولة العثمانية ، وإلى ممثليها في الخارج لإفهام الحكومات القوانين الجديدة الخاصة بالزوار اليهود . وقد أرسل « لانسداون » (Lansdowne) من وزارة الخارجية البريطانية رسالة إلى سفيره في الآستانة يعلمه فيها أن الخارجية البريطانية « تسلمت رسالته المؤرخة في ٢٧ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠١ المتعلقة بنشر دورية توجهها الحكومة التركية للممثلين الأجانب في استانبول تتضمن الأنظمة الجديدة التي تمنع استقرار اليهود في فلسطين » (٣).

وكانت هذه القوانين بمثابة تجديد لقوانين عام ١٨٨٢ وغيرها من القوانين اللاحقة الخاصة بالهجرة اليهودية . ومع هذا فقد قام السفير الأمريكي في الآستانة بتقديم احتجاج في ٢٨ شباط (فبراير) عام ١٩٠١ باسم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك نهجت انجلترا هذا النهج . وكان رد الباب العالي أن ذلك « الفرمان » ليس أمراً جديداً فهو تجديد لفرمان مماثل صدر منذ عشرين عاماً (٤). وكان « ديكسون » (Dickson) قد علم من متصرف القدس أن الأسباب الحقيقية لهذه الاجراءات الصارمة ليس هدفها كما أشيع – تفادي تدهور الأوضاع الصحية – بل كانت سياسية ، لأن نشاط الحركة الصهيونية لتوطين اليهود في فلسطين قد شكل قلقاً كبيراً في الآستانة (٥)، وذلك نتيجة لخطورة الحركة على مستقبل فلسطين ونتيجة للأساليب التي أتبعها اليهود في الدخول إليها ، فقد كان يهود روسيا يسافرون إلى المستعمرات البريطانية حيث يتزودون هناك بجنسيات وجوازات سفر

---

(١) Dickson to O'Conor, 21 Dec. 1900, No. 71, in F.O. 195/2084.

(٢) Dickson to O'Conor, 9 Jan. 1901, No 1, in F. O. 195/2109.

(٣) Lansdowne to O'Conor, 7 Feb. 1901, No 31, in F. O. 78/5479.

(٤) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ٨٣ .

(٥) رسالة اوكونر إلى سالزبوري في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٩٩ نقلاً عن :
A. Hyamson; *The British Consulate in Jerusalem*..., p. 546.

بريطانية تتيح لهم السفر إلى فلسطين . لذا واجـه القناصل الأجانب في القدس — وخاصة البريطانيين — صعوبة كبرى في اقناع السلطات العثمانية بتعديل قوانينها كي يسمـح لليهود بالاستقرار في الأراضي المقدسة ، الأمر الذي اضطر « ديكسون » إلى تقديم اقتراح للسفير البريطاني في الآستانة بأنه لا يجب تقـديم أي اعتراض على إبعاد مثل هؤلاء اليهود عند نهاية الأشهر الثلاثة (١). ومع أن السفير البريطاني في الآستانة سبق ان قدم احتجاج حكومته على القوانين العثمانية إلا أنه كان متفقاً مع « ديكسون » بأنه هناك احتجاجات خطيرة لكوننا نصبنا أنفسنا بارادتنا حماة للمهاجرين اليهود من روسيا (٢)، الذين أقاموا مستعمراتهم في فلسطين بأساليب ملتوية وبمساعدة بعض الموظفين المرتشين رغم إصدار الدولة البطاقة الحمراء وسعيها لتطبيق القوانين .

ويذكر « ماندل » (Mandel) في هـذا الصدد ، أن السلطة العليا ووزارتي الداخلية والخارجية ووزارة مساحة الأملاك قد أكثرت من القيود المتعلقة باليهود في كل وقت . وبالتدريج كانت هذه الجهات تقلل ، وغالباً تناقض أوامرها السابقة ، أو تلك الصادرة عن وزارة أُخرى ، حتى أنه في عام ١٩٠٠ كانت الادارة المركزية قد أصبحت في فوضى من تشابك الأنظمة والتعليمات غير المتناسقة (٣).

د — النشاط الصهيوني عامي ١٩٠١ — ١٩٠٢

انعقد المؤتمر الصهيوني الخامس في مدينة بال بسويسرا في الفترة الممتدة من ١٦ إلى ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠١ ، واتخذت فيه مقررات هامة على الصعيد الصهيوني (٤). وكان أهم قرار في هذا المؤتمر على صعيد مستقبل

---

(١) رسالة ديكسون إلى اوكونر في ١٣ آب (اغسطس) ١٩٠٠ نقلاً عن :
A. Hyamson, *op. cit*, pp. 559,560.

(٢) رسالة اوكونر إلى لانسداون في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠١ نقلاً عن :
A. Hyamson, *op. cit.*, p. 560.

(٣) N. Mandel, *op. cit.*, p. 88.

(٤) من هذه المقررات :
١ — إقرار قانون النظام الأساسي للمنظمة الصهيونية .
٢ — عقد المؤتمرات الصهيونية مرة كل سنتين بدلاً من الاجتماع السنوي .
٣ — العمل على إنشاء جمعيات صهيونية في مختلف أنحاء العالم إذا تيسر ذلك .
٤ — تقديم اعانات مالية للمركز الثقافي القومي اليهودي في القدس . =

فلسطين هو إنشاء « الصندوق القومي اليهودي» (Keren kayemeth) لشراء الأراضي في فلسطين وجعلها أراضي ذات ملكيــة جماعية وليست خاصة وتشغيل العمال اليهود وليس غيرهم ، حتى يتم استعادة الأرض من « أيدي الأجانب » و « تهويد » (Judaization) الأرض المقدسة من جديـد . فقد أوضح « الصندوق » أن الشروط التفضيلية تمنح للفلاح اليهودي الذي يستخدم العامل اليهودي فحسب في أرضه. وقد قام « الصندوق القومي اليهودي » بنشاط ملحوظ مع القوى الصهيونية الأخرى مثل « الحالوقا » (Haluka) و « الخالوتزيم » (Chalutzim) لتحسين أوضاع اليهـــود في فلسطين ، على أن أهمية « الصندوق » تكمن في شرائه الأراضي من اليهود وتحويلها إلى ملكية جماعية ، كما انفرد بشراء أراض واسعة المساحات في سهل حطين ووادي الأردن[١]. وتمكن الصندوق من شراء حوالي (١٥) ألف دونم من الأراضي في منطقة يافا والجليل في عام ١٩٠٥[٢]. ويؤكد تقرير اللورد « طوملين » (Tomlin) في مجلس اللوردات البريطاني من أن « الصندوق القومي اليهودي » هو جزء من المنظمــة الصهيونية ، ويهدف ـ كالمنظمة ـ إلى استعادة الأراضي المقدسة من الدولة العثمانية وتوطين اليهود فيها وتكوين حكومة سياسية ، على أن تكون فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء ومناطق أخرى من تركيا الاسيوية ملكاً شرعياً لليهود[٣]. ولم تقتصر عمليات الشراء على « الصندوق » بل انتشرت بين المهاجرين اليهود الذين كانوا إذا ما اشتروا أرضاً أخـــلوا منها الفلاحين العرب . ويؤكد تقرير ورد من حيفا إلى الآستانة « بأن خمسة عشر يهودياً اشتروا من زوجة « رشيد باشا » والي سوريا ضيعة تقع بين حيفا والمستعمرة اليهودية الكبرى « زمارين » وقـد أخلوها من القرويين ، كما أن مبعوث البارون

= ٥ ـ العمل على وضع دائرة معارف يهودية تبين تاريخ اليهود وحضارتهم وثقافتهم .
٦ ـ العمل على تأسيس هيئة خاصة لإحصاء اليهود في كل بلد من بلدان العالم .
٧ ـ إنشاء محكمة لفض الخلافات بين الأجهزة الصهيونية .
٨ ـ إنشاء الصندوق القومي اليهودي لاستملاك الأراضي في فلسطين .
للمزيد من التفصيلات أنظر : I. Cohen; *Theodor Herzl...*, p. 376.

(١) للمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع أنظر : انجلينا الحلو ، عوامل تكوين اسرائيل ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، وما يتبعها .

(٢) Dickson to O'Conor, 25 Nov. 1905, No 53 in F. O. 195/2199.

(٣) يوسف الحاج ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ .

« روتشيلد » اشترى ضيعة أخرى منها أيضاً بقيمة (٢٠٠٠) ذهبية »[١]. وقد بلغ تطور المستعمرات اليهودية في فلسطين عام ١٩٠٢ أن بدأت تستورد بعض المواد اللازمة لها في الصناعة والتجارة بالاتفاق مع المملكة المتحدة البريطانية[٢].

وتؤكد «المنار» نشاط الأجهزة الصهيونية للسيطرة على فلسطين في الوقت الذي كان فيه اليهود يطلبون الاستقرار بأمان وحماية الدولة العثمانية، فتذكر بأن الحركة الصهيونية « بينما كانت في البداية تتظاهر بحب نقل فقراء اليهود المهاجرين والمنفيين إلى بلاد فلسطين ليعمروها ويعيشوا في ظل السلطان آمنين، وكأنها وثقت بقوتها الآن فخرجت من مضيق الكتمان وقد بعثت منذ أشهر المستر « إسرائيل زنغويل » من لندره إلى الآستانة للمساومة في شراء القدس الشريف »[٣]. كما واصل هرتزل جهوده للاجتماع شخصياً بالسلطان العثماني، وذلك عن طريق « أرمينيوس فامبري » (A. Vambery) الجاسوس والمستشرق الهنغاري اليهودي الأصل، الذي تزوج من أميرة عثمانية ووطد علاقاته مع الباب العالي. وكان « أرمينيوس » جاسوساً يعمل لمصلحة تركيا، فرأى « هرتزل » استغلال هذا الرجل للتوسط له لدى السلطان مقابل خدمات يقدمها الزعيم الصهيوني للدولة وللسلطان معاً باعتباره صحافياً معروفاً ويتمتع بنفوذ قوي في أوساط الصحف الأوروبية، وأن باستطاعته أن يخلق الجو الذي يريده السلطان

---

(١) (Report) to O'Conor, 25 Oct. 1901, No. 396, in F. O. 78/5479 A.

(٢) Amzalak to Dickson, 2 July 1902, No. 42, in F.O. 78/5208.
حول نفس الموضوع انظر ايضاً :
Dickson to Secretary of State, 11 July 1902, No. 14, in F.O. 78/5208.
عن تطور ادارة المستعمرات اليهودية في حيفا وغيرها انظر :
Drumont « القنصل العام في بيروت » to O'Conor, 13 Feb. 1900, No. 7, in F.O. 78/5479.
انظر ايضاً : تقرير من حيفا :
Drumont to O'Conor, 5 Feb. 1900, No. ?, in F.O. 78/5479.

(٣) المنار ٢٦٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢، م ٤، ج ٢١، ص ٨٣. ومن الملاحظ ان المصادر المعاصرة والثانوية لم تذكر بأن المنظمة الصهيونية أرسلت « زانغويل » (Zangwill) للتباحث مع الحكومة العثمانية بشأن القدس او استيطان فلسطين، ولعل « المنار » تقصد الزعيم الصهيوني « تيودور هرتزل » إلا أن صحيفة « نهضة العرب » ١٩٠٩ تذكر بأن « زانغويل » تباحث مع « رجب باشا » في عام ١٩٠٧ بخصوص استيطان يهودي في طرابلس الغرب وليس في فلسطين.

في أكثر أجهزة الإعلام والنشر . وبالفعل فقد أعطى « ڤامبري » كلمة شرف « لهرتزل » بأن السلطان سيستقبله في أيار (مايو) عام ١٩٠١ . وقد تعجب « هرتزل » كيف أنه أخذ وعداً كهذا[١] .

وفي ١٣ أيار (مايو) ١٩٠١ توجه « هرتزل » إلى استانبول ، وكانت ثالث زيارة له بعد زيارته الأولى عام ١٨٩٦ والثانية عام ١٨٩٨ ، وأقام في « اوتيل بيرا » (Pera Palace) ولم ينزل في القصر السلطاني أو في الدُور الرسمية العثمانية بالرغم من أن « ڤامبري » حصل له على وعد بلقاء السلطان ولكن السلطات العثمانية لم ترَ في « هرتزل » تلك الشخصية المرموقة التي تستحق المعاملة الرسمية . وكان بصحبة « هرتزل » بعض زعماء الصهيونية ومنهم « جوزف كوين » (Joseph Cowen) الذي ذكر بأن الجو العام في استانبول كان مليئاً بالجاسوسية ، وأن أحد الأتراك الذي اجتمع بهم مع « هرتزل » ذكر « نكتة استانبولية » بأنه إذا اجتمع ثلاثة أشخاص فأحدهم جاسوس ، وكدت أجيب بكلام ، ولكن هرتزل نكزني من تحت المنضدة محذراً . ولم تكن تلك هي النكزة الوحيدة خلال الرحلة[٢] .

وبعد مضي خمسة أيام من وصول « هرتزل » إلى استانبول ، استطاع الحصول على مقابلة السلطان ، ولكن « ڤامبري » حذره قبل الاجتماع من الإنجراف في آراء مضادة لمـــا يفكر به السلطان وقال له : « إياك أن تحدثه عن الصهيونية . إنها فانوس سحري ، القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة »[٣] . إلّا أنه أوحى إليه أن الصهيونية جيدة مع ذلك ضد المسيحية . لهذا كان « هرتزل » ينطلق من مفاوضاته على أساس أن اليهود هم الحلفاء الطبيعيون للمسلمين ضد النصارى على حد زعمه .

والواقع أن « نيولنسكي » قام بجهود مستمرة مع الدبلوماسيين العثمانيين والأجانب لتسهيل مهمة « هرتزل » ونقل فكرته ومشروعه إلى هؤلاء ، فقد اتصل بـ « خير الدين بك » السكرتير العام للصدر الأعظم الذي أدخله إلى مكتبه ، على أن مخطط « هرتزل » المـــالي لم يكن في الإمكان أن يكشفه

---

(١) حول « أرمينيوس » وجهوده في عقد اللقاء انظر : I, Cohen; *Theodor Herzl..*, p. 230.
A. Chouraqui; *Théodor Herzl...*, p. 374, J. Soustelle; *op. cit.*, pp. 36,37.
(٢) J. Cowen; *Zionism, Problems and Views*, p. 128.
(٣) يوميات هرتزل ، ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ ، ص ١٠٩٢ (ت. ع. ص ١٧٢) .

إلا للسلطان ذاته بعد أن تكون الموافقة قد تمت على عمل مشترك. ويذكر (Chouraqui) معلومات هامة حول موقف السلطان من الاجتماع المقرر مع « هرتزل » فيقول : بأن « نيولنسكي » كان قلقاً وعصبياً لأن السلطان لا يريد مقابلة « هرتزل » ولا حتى سماع أفكاره[١]. ولكن السلطان َقبلَ أخيراً مقابلة « هرتزل » بصفته صحافياً يهودياً بارزاً وليس بصفته رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية[٢]. ويضيف المؤرخ الصهيوني (Mandel) بأنه ليس هنـاك أي دليل على أن السلطان عبد الحميد تعامل مع « هرتزل » كشخص مرموق، ولكن تعامل معه كمعظم رجال المال الذين كانوا – مثل هرتزل – يقدمون المشاريع لسد الديون العثمانية[٣]. بل ان هرتزل يعترف بأن « ڤامبري » أخبره بأن السلطان سيستقبله ولكن ليس كصهيوني بل كرئيس لليهود وصحافي نافذ[٤]. وأضاف هرتزل منزعجاً من السلطان « ست مرات اضطرني للذهاب قبل أن يوافق ».

وفي ١٨أيار (مايو) عام ١٩٠١ جرت المقابلة بين السلطان وهرتزل الذي حرص على مرافقة حاخام اليهود في تركيا « موسى ليڤي » (Moshe Levy) وفي الاجتماع بدأ « هرتزل » ممالأة واستعطاف السلطان – بواسطة مترجم القصر الخاص « إبراهيم بك » – وقال له : « إني أكـرّس نفسي لخدمته لأنه يُحسن إلى اليهود، واليهود في العالم كله مدينون له بذلك. وإني بشكل خاص مستعد لتأدية أية خدمة له وخاصـة الخدمات الكبيرة ... »[٥]، وأشـــار إلى الخدمات المالية لإصلاح الاقتصاد العثماني المتدهور وتصفية الديون المقدرة بمليون ونصف المليون جنيه، وعرض توسطه لإيقاف حملات صحف « تركيا الفتاة » في أوروبا. ثم لمّح إلى أن الحركـــة الصهيونية تهدف إلى ايجاد « ملجأ لليهود » في الأراضي المقدسة. وكان الحاخام « موسى ليڤي » يؤيد هذا الرأي، فبادره السلطان غاضباً : « إننا نظن بأن بني قومكم يعيشون في الممالك المحروسة الشاهانية بعدالة ورفاه وأمن ... وأضمن أنكم تعاملون نفس المعاملة الحسنة التي يعامل بها كافة تبعتنا دون تفريق

---

(١) A. Chouraqui; *Théodor Herzl...*, p. 148.
(٢) A. Bein; *Theodor Herzl - A Biography*, p. 352.
(٣) N. Mandel; *op. cit.*, p. 87.
(٤) يوميات هرتزل، ١٨ايار (مايو) ١٩٠١، ص ١٩٠٢ (ت.ع.ص ١٧٢).
(٥) يوميات هرتزل، ١٨ايار (مايو) ١٩٠١، ص ١١١٣ (ت.ع.ص ١٧٣).

أو تمييز ، ويعيشون في أمن واعتماد . هل لكم شكاية ما أو هنالك معاملة غير عادلة ولا نعرفها نحن ؟ » . ويضيف المؤرخ التركي « جواد رفعت أتلخان » - المعاصر للسلطان عبد الحميد - بأن الحاخام « موسى ليفي » أجاب السلطان بخوف وقال : « استغفر الله سيدنا ... بفضل ظل شاهانتكم نعيش بكمال الرفاه . حاشا لا توجد لنا شكاية ما ، إننا نسترحم فقط جعل قومنا العائش مشتتين [مشتت] فوق الأرض صاحب وطن في ظل شاهانتكم ليقوموا هناك بفرائض الشكر والدعاء لحياة سيدنا العظيم طول بقاء الدنيا ». فرد السلطان منزعجاً : « لا يمكن أن نعمل أكثر مما عملناه حتى الآن لجماعتكم حيث أنكم تستفيدون من كافة خيرات بلادنا كمواطنينا الآخرين ، بل أنتم متنعمون ومرهفون أكثر من سواكم ، فأظنكم نسيتم الاضطرابات والعذاب - الذي كنتم ترونه في أنحاء الدنيا - في أحضان شعبي الشفيق ... » ثم وقف السلطان لحظة ودار نظره إلى « هرتزل » أولاً ثم إلى الحاخام وقال له : « أليس بكذلك يا حاخام أفندي ؟... ان بلادنا التي حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ... لا يمكن أن نفرّط بشبر منها دون أن نبذل أكثر مما بذلناه من دماء في سبيلها »(١) . وأضاف السلطان « اني أحب تطبيق العدالة والمساواة على جميع المواطنين ، ولكن اقامة دولة يهودية في فلسطين التي فتحناها بدماء أجدادنا العظام فلا ... »(٢) . وذكر السلطان انه لو علم بأن هذا الاجتماع سيدور حول فلسطين دون القضايا المالية لاضطر منذ البدئ إلى إلغائه ، غير ان اجتماعه هذا أسفر عن رفضه إعطاء فلسطين لليهود مع موافقته على هجرة يهودية إلى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين (العراق) لقاء دفع الديون المترتبة على الدولة العثمانية ، وعندما طلب من

---

(١) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، الصهيونية وبروتوكولاتها ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ . وتذكر « الانسكلوبيديا اليهودية » بأن السلطان عبد الحميد الثاني كان قد منح الحاخام « موسى ليفي » الوسام العثماني في عام ١٨٨٣ وعامل اليهود معاملة طيبة . وفي حوالي عام ١٩٠٠ كان يوجد في مجلس الدولة عضو يهودي اسمه « بيهار اشكنازي افندي » ويوجد في السلك الدبلوماسي حوالي (١٥) يهودياً بين مستشار وقنصل ونائب قنصل يخدمون الدولة العثمانية في الخارج . أما في الداخل فيوجد بعض اليهود الذين يرأسون الحكومات المحلية ، بينما البعض قد أعطي لقب باشا ، وهو اللقب الذي كان لا يمنح لليهودي في السابق . وهذا الاعتراف من « الموسوعة اليهودية » يؤكد معاملة السلطان الحسنة لليهود ، كما يؤكد النفوذ اليهودي في الأوساط الرسمية العثمانية . انظر :
The Jewish Encyclopedia, vol. I., p. 47.

(٢) جواد رفعت اتلخان : الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥٢ (كتاب غير منشور) .

« هرتزل » أن يوقع على الوثيقة زاد جملة ، وعلى ما يظهر كان هرتزل غير راض عن هذا المشروع (١) بسبب الشروط العثمانية ومنها تحديد الهجرة من حيث العدد ، وعلى أن تكون إلى أجزاء أخرى من الدولة العثمانية عدا فلسطين وأن تكون هذه الهجرة أيضاً تحت الإشراف العثماني (٢). ولكن هرتزل خرج من الإجتماع غاضباً من السلطان لأن السلطان كان يعلم بأنه لا يهم الصهيونية سوى الحصول على فلسطين (٣). وقد سجل هرتزل انطباعه عن المقابلة بما يلي : « انطباعي عن السلطان انه رجل ضعيف وجبان ولكنه طيب القلب ، ولا أعتبره داهية ولا صارماً ، بل سجيناً تعيساً ترتكب بطانة طمّاعة رديئة سيئة السمعة باسمه أقبح رجس » . وأضاف « ان عبدالحميد الثاني إسم جماعي لمجموعة من أحط الخبائث تمكنت من حرمان بلاد من أمنها وسعادتها . لم أكن أتصور انه من المعقول وجود مثل هذه العصابة من اللصوص » . ثم وصف هرتزل الرشوة المنتشرة بين جميع النافذين في القصر ما عدا السلطان فقال : « ولعل عار الإرتشاء الذي يبدأ على بوابة القصر ولا ينتهي إلا على بعد قدم واحد فقط من العرش ليس أسوأ ما في الأمر ، فكل موظف لص . هذا هو على الأقل ما سمعته من كل النواحي ، وما رأيته يثبت أن ما سمعته ليس بهتاناً » (٤). غير انه يؤكد من ناحية أخرى إعجابه بالسلطان حينما يقول :

(١) R. Hertzberg ; *Zionism*, p. 27, انظر ايضاً : I. Cohen ; *Theodor Herzl*, p. 262.

(٢) A. Bein ; *op. cit.*, p. 380. (٣) J. Cowen ; *op. cit.*, p. 129.

والسؤال الذي يمكن ان يطرح في مسألة موقف السلطان عبد الحميد ، انه كيف رفض استيطان يهودي في فلسطين باعتبارها أراض مقدسة وتابعة للدولة العثمانية وعرض على هرتزل بلاد العراق وهي أراض تابعة للدولة العثمانية وان لم تكن على غرار القدس ومكة ؟ وهذا مما يؤدي الى تحليل موقفه على النحو التالي :

أولا - يظهر من تمسك الصهيونية بفلسطين ، ان عرض السلطان باستيطان يهودي في العراق ليس إلا مناورة دبلوماسية ، لأن السلطان كان يعلم ان اليهود لا يهمهم سوى الحصول على فلسطين وكدولة مستقلة ايضاً عن الدولة العثمانية ، بدليل انه لما عرض « عزت بك » على هرتزل مشروع استيطان يهودي في فلسطين على ان يكون اليهود تابعين للدولة العثمانية ويحملون جنسيتها رفض هذا العرض بكل هدوء .

ثانياً - لا يعقل للسلطان ان يغضب أهل العراق وفيها أكثرية مؤيدة لسياسته في تلك الفترة وانه فيما لو تم استيطان يهودي في العراق فانه سيكون - كما عبر السلطان بنفسه - تحت المراقبة العثمانية وبأعداد قليلة ، وبالتالي ان يتخلى اليهود ايضاً عن جنسياتهم السابقة ، وان يخضعوا للقوانين العثمانية على غرار بقية العثمانيين .

(٤) يوميات هرتزل ، ١٨ ايار (مايو) ١٩٠١ ، ص ١١٢٧ (ت. ع. ص ١٧٧ ، ١٧٨) .

لقد تأثرت بأقوال السلطان التي تتسم بالحقيقة والفخر، بالرغم من أنها تضع في الوقت الحاضر نهاية لكل آمالي[١]. ويضيف «هرتزل» مصوراً وضعه مع السلطان بأنه هناك جمال مأساوي ضمن هذه القدرية (Fatalisme) التي تنبئ بالموت، وفي حين يناضل المرء للنفس الأخير يقاوم مقاومة سلبية[٢].

هذا، وقدر هرتزل «البخشيش» الذي دفعه لرجال السلطان والوسطاء بحوالي أربعين ألف فرنك. وبذلك يكون قد اضطر إلى اللجوء إلى الأساليب اليهودية القديمة جداً، أساليب دبلوماسية السلالم الخلفية ... وكان يستعمل الرشوة حيثما ذهب[٣]. ومما يلفت النظر أن المؤرخ الصهيوني (Israel Cohen) يذكر انه بينما كان هرتزل يكتب حضر شخص من قبل السلطان وأعطاه ٢٠٠ ليرة في محفظة بدل مصاريفه وتنقلاته[٤].

والواقع ان فشل الزعيم الصهيوني في الحصول على موافقة تركية لتحقيق مشروعه علّمته انه توجد حتى في عالم السياسة الفاسد بعض الأشياء مثل: أرض الوطن التي لا تباع. واقتنع بعد هذه المقابلة ان السلطان عبدالحميد الثاني من الصعب إقناعه بسهولة في تنفيذ المشروع الصهيوني والتسامح مع اليهود في استعمار فلسطين. ومنذ ذلك الوقت اتجه اليهود إلى البحث عن دولة كبرى تتولى تنفيذ مطامع اليهود في فلسطين[٥]. وبالرغم من ذلك فقد مكث هرتزل أياماً أخرى في استانبول، يحاول الإتصال بالشخصيات التركية مثل «عزت بك» و «ابراهيم بك» و «نوري بك» للتباحث معهم بشأن القروض اليهودية لتغطية العجز المالي في الدولة[٦] لقاء إصدار فرمان يسمح لليهود الأستيطان في فلسطين وليس غيرها. وحاول هرتزل أيضاً الإتصال ببعض اليهود من ذوي النفوذ لنفس الغاية وفي مقدمتهم «داوود أفندي»[٧] الذي كان موضع ثقة لدى الصدر الأعظم. وعندما

---

(١) A. Chouraqui; *Théodor Herzl*, p. 148. (٢) A. Chouraqui; *Ibid.*, pp. 148-149.

(٣) ج. جانسن، المرجع السابق، ص ٧٦.

(٤) I. Cohen; *Theodor Herzl*.... pp. 262 - 263.

(٥) انظر: فرانك مانويل: امريكا وفلسطين، ص ٣٩. آلان تايلور: مدخل الى اسرائيل، ص ١٨. يوسف هيكل: فلسطين قبل وبعد، ص ٩٧. جانسن: الصهيونية واسرائيل وآسيا، ص ٧٥.

(٦) انظر: I. Cohen; *op. cit.*, pp. 230 - 231.

(٧) داوود افندي (١٨٤٥ – ؟) واسمه الأصلي داڤيد ملحو باشا، وهو موظف يهودي تركي. عين مديراً لشؤون أمن الدولة في الحكومة التركية عام ١٨٧٨، وكان ايضاً من كبار مساعدي مترجم القصر عام ١٨٨٠.

علم « داوود أفندي » ان « هرتزل » يود الإجتماع به للتوسط بتحقيق المشروع الصهيوني ، ونظراً لموقف السلطان المتشدد حيال هذا الموضوع ، بلغ بالرجل الخوف بعد ان فهم ماذا يريد « تيو » (Théo) ، وكان يرتجف من ذلك. وذكر ان أوضاع اليهود في تركيا حسنة جداً ، وأن مشروع هرتزل ممكن أن يعرضهم للمخاطر ، وكان على هرتزل أن يتراجع عن المساعدة التي ينتظرها من « داوود أفندي »[1]. لذا توجه للإجتماع بابراهيم بك وعزت بك ، وفي هذه المرة طلب من جديد البحث في امكانية تحقيق المشروع الصهيوني ، إلا أن عزت بك أجابه – بلهجته الفرنسية الركيكة – « بامكان الاسرائيليين أن يأتوا . لكن عليهم أن يوافقوا على أن يصبحوا رعايا عثمانيين ، فمثلاً إذا استعدتم سندات الدين العام فان المساهمين يجب أن يصبحوا رعايا جلالته . الشيء نفسه ينطبق على الذين يأتون كمستعمرين ، ليس فقط عليهم أن يصبحوا رعايا أتراكاً بل أيضاً أن يتخلوا عن ولاءاتهم السابقة وأن يصدّقوا رسمياً من قبل الحكومات المعنية على تخليهم » . ويعتبر هذا الموقف العثماني إدراكاً عملياً وسياسياً للأخطار التي يمكن أن تنجم عن استيطان اليهود في فلسطين مع استمرارهم على جنسياتهم وولاءاتهم الأوروبية والأمريكية السابقة ، لأن معنى ذلك تفاحل خطر الامتيازات الأجنبية وتزايد تدخل الحكومات التي كان اليهود يعيشون في ظل سيطرتها .

وبعد أخذ ورد قال « ابراهيم بك »[2] – متابعاً آراء عزت بك – « وعليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية إذا دعاهم جلالته إلى الجندية » . ويلاحظ بأن هذا الشرط هو من ضمن الشروط التعجيزية للموقف العثماني من المشروع الصهيوني ، ذلك أن القوانين العثمانية لم تكن تسمح غالباً باستخدام غير المسلمين في الجندية العثمانية . وأنهى « عزت بك » الموضوع بأنه « تحت هذه الشروط قد نسمح بدخول الإسرائيليين من كل بلد ... أمر آخر ، يجب أن لا يجري الاستعمار في جماعات كبيرة . بدلاً من ذلك لنقل خمس عائلات هنا وخمس عائلات هناك موزعين بدون اتصال » .

---

(١) A. Chouraqui; *op. cit.*, p. 148.

(٢) ابراهيم بك (باشا فيما بعد) (١٨٥٢ – ؟) كان موظفاً في بلاط السلطان ، وفي مطلع القرن العشرين عين سكرتيراً للمراسلات الرسمية الخارجية في القصر .

فقال هرتزل في داخله – بعد سماعه الرأي الأخير – « حتى تنهبوهم وتذبحوهم بسهولة أكثر »[1].

ويفهم من دراسة عرض هذه الشروط العثمانية على « تيودور هرتزل » بأنها شروط يستحيل تحقيقها لأنها تناقض ما تؤمن به الحركة الصهيونية وأن الهدف من عرضها على هذا النحو هو إفهام هرتزل بأن الدولة العثمانية لا يمكن أن تقبل بالمشروع الصهيوني ما دام يرمي إلى إنشاء دولة مستقلة في الأراضي المقدسة. أما هرتزل فقد عارض مشروع التشتت اليهودي متذرعاً أن هناك صعوبات اقتصادية وفنية تحول دون تحقيقه، وأعطى مثالاً لِما حدث عام ١٩٠٠ حينما تفضل جلالة السلطان بمنح اليهود اللاجئين من رومانيا أرضاً في الأناضول. وبالرغم من أن هرتزل يعترف بجميل السلطان على هذا الكرم، إلا أنه كان ضد المستعمرات المبعثرة لأن الأساس الإقتصادي كان ينقصها، ويجب – برأيه – عدم تشجيع هذه الهجرة العفوية إذ لا فائدة منها. ثم عرض مشروعاً بديلاً يتضمن إنشاء شركة كبرى للأراضي تنال مناطق غير مأهولة في فلسطين وتكون خاضعة للنفوذ العثماني، بحيث يتمكن اليهود من الإستيطان فيها بعد أن يعملوا على إصلاحها، وستكون تلك الشركة قادرة بعد فترة على إقراض تركيا المال، وبواسطتها سيملك الأتراك ما يحتاجونه من أموال وفيرة. ولكن عزت بك وابراهيم بك لم يتخذا موقفاً محدداً من هذا المشروع ورفضا إبداء الرأي فيه أو الموافقة عليه.

وبعد انتهاء المحادثات غادر « هرتزل » استانبول على أمل أن تدرس الحكومة العثمانية مطالبه، ولكنه لم يكن مقتنعاً في قرارة نفسه بأن هذه المطالب ستدرس أو ستنفذ نظراً لِما وجده من صعوبات في أثناء وجوده في تركيا. وفي ١٧ حزيران (يونيه) عام ١٩٠١ حاول « هرتزل » أن يخدع السلطان ويوحي إليه بأنه قد قَبلَ « مشروع عزت وابراهيم » ليتفهم حقيقة هذا العرض، فأرسل إليه رسالة من لندن ذكر فيها : « أن المهاجرين اليهود الذين سوف نستقدمهم سيصبحون رأساً رعايا أتراكاً خاضعين للخدمة العسكرية تحت راية جلالة السلطان » إلا أن « هرتزل » يعترف بأن لا السلطان ولا رجاله أجابوه عن موقفهم من هذا العرض

---

(١) انظر : يوميات هرتزل، ايار (مايو) ١٩٠١، ص ١١٣٣ (ت.ع. ص ١٨٠).

الصهيوني الجديد. ففكر من جديد بـ « جواد بك » الذي سبق له واجتمع به في استانبول واقترح عليه تقديم مليونين للسلطان دون مقابل ، وتقديم مساعدته في القضية الأرمنية وذلك لكي يكسب ثقة السلطان(١) . إلا أن جواب « جواد بك » لم يكن مشجعاً أو ايجابياً .

ومن أجل تحقيق مشروعه رأى ضرورة الاتصال برواد الحركة الاستعمارية البريطانية للوصول إلى مخرج دبلوماسي ومالي يقنع الدولة العثمانية بما يريد أن يحققه لليهود ، فاتصل « بسيسيل رودس » (S. Rhodes) للإفادة من ماله وتجاربه الإستعمارية طالما أن السيطرة على فلسطين أمر إستعماري — على حد قول « هرتزل » — فلا بدّ إذن من الإتصال « برودس » . فأرسل إليه رسالة بتاريخ ١٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٢ يعرض عليه المشروع الصهيوني ويطلب منه أن يعلن التصريح التالي أمام العالم : « أنا رودس قمت بفحص هـذا المخطط ووجدته صحيحاً وعملياً . إنه مخطط مملوء بالحضارة ، ممتاز بالنسبة إلى الشعب الذي يتوجه المخطط نحوه ، لا يعيق تقدم البشرية العام ، مفيد جداً لإنجلترا ولبريطانيا العظمى ... أما إذا قدمت أنت وزملاؤك العون المالي المطلوب لهذا المخطط فإنك ستحظى — بالإضافة إلى الرضى الذاتي العام — بالربح الجيد . فالمال هو المطلوب ، ما هو المخطط ؟ إسكان فلسطين بالشعب اليهودي العـائد »(٢) . ولكن «هرتزل» مني بصدمة كبرى أثر تلقيه نبأ وفاة « سيسيل رودس » في آذار (مارس) عام ١٩٠٢ وقال : « مات سيسيل رودس . كنت أفكر به لجمع النقود ، لكني عجزت عن تدبير اجتماع معه » .

وفي ١٢ شبـاط (فبراير) عام ١٩٠٢ سافر « تيودور هرتزل » إلى استانبول في زيارة رابعة ولكنه لم يستطع في هذه المرة مقابلة السلطان ، غير أنه اجتمع مجدداً مع « ابراهيم بك » و « عزت بك » . وفي هذا الاجتماع أنكر « ابراهيم بك » ما أشيع من أن السلطان سمح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين لتأسيس دولة يهودية ، وكرر على سمعه بأنـه إذا جاء اليهود إلى أراضي الدولة فإنهم سيخضعون للقوانـين العثمانية ويتخلون عن جنسياتهم السابقة ويصبحون رعايا عثمانيين ، وبالمقابل يتكفل اليهود بتصفية الدين

---

(١) A. Chouraqui ; *Théodor Herzl...*, p. 149.

(٢) يوميات هرتزل ، ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢ ، ص ١١٩٤ (ت. ع. ص ٨٧) .

العام وإنشاء شركة عثمانية – يهودية تتعهد باستثمار المعادن المختلفة لسد العجز المالي . ولوحظ بأن « هرتزل » وافق على هذه المطالب العثمانية على أن يختار اليهود مناطق الهجرة وأعداد المهاجرين دون قيد أو تحديد « وأن أحصل على شيء ملموس لليهود » . ولكن الجانب العثماني رفض هذه الشروط ، وأعلن أن الدولة هي التي ستعين المناطق التي سيسكنها اليهود كالعراق وآسيا الصغرى باستثناء فلسطين ، فما كان من « هرتزل » إلا أن رفض مجدداً هذه المناطق . ويعزو الرفض من جانبه إلى أن اللجنة الصهيونية العليا لم تمنحه صلاحيات تخوله ارتجال سياسة من هذا النوع ، وقد لا تتفق هذه العروض « مع برنامجنا » .

وفي هذه المرة عاد هرتزل إلى أوروبا خائباً من الموقف العثماني ، مع حرصه على متابعة جمع الأموال من الرأسمالية اليهودية لمتابعة مسيرة الحركة الصهيونية ، فقابل في ٢٣ شباط (فبراير) عام ١٩٠٢ « ريتلنجر » ثم قابل « الكس مرمورك » لاقناعهما بمشروعه فرفض الأول ، بينما فضل الثاني تنفيذ المشروع الصهيوني في روسيا عوضاً عن فلسطين .

وفي ١٧ آذار (مارس) عام ١٩٠٢ ، أوضح « هرتزل » موقف السلطان العثماني من مشروع الدولة اليهودية في فلسطين ، في خطاب ألقاه أمام مجلس مديري الصندوق الإستعماري اليهودي ، وذكر بأن السلطان يرفض رفضاً قاطعاً مشروع استيطان اليهود في فلسطين ، وعرض الحلول المقترحة لتغيير موقف السلطان ، ورأى أن المال يبقى المؤثر الوحيد في دولة متردية الأوضاع من الناحية الإقتصادية ، لذا كتب للسلطان لإغرائه بعروض مالية جديدة ، ذلك أن « هرتزل » كان يعلم مواطن ضعف الأمبراطورية العثمانية وتفككها الذي تنبأ به مراراً [١] . وكتب في نفس الوقت إلى ابراهيم بك وعزت بك يخبرهما بوجود المال لديه ، إلا أن السلطان رفض العروض الجديدة لأنه « لا يريد مال الصهيونية » وقرر قطع أي اتصال مع الزعيم الصهيوني ، وظن « هرتزل » من أن موقف السلطان « عبدالحميد الثاني » إنما بإيعاز من « تحسين بك » الذي يقف ضد الصهيونية وضد جهود « هرتزل » ، وهو الذي يحرّض السلطان على المنظمة الصهيونية وزعيمها .

وفي ٣ أيار (مايو) عام ١٩٠٢ عاد « هرتزل » يتصل من جديد بالحكومة

---

(١) A. Chouraqui; *op. cit.*, p. 374.

العثمانية متبعاً أسلوباً رجعياً وتقليدياً يقضي بالقضاء على الحركة الثورية بين الشبان الأتراك وكبت المفاهيم السياسية الحديثة للنشئ الجديد ، وذلك عن طريق تأسيس جامعة يهودية في القدس يتلقى فيها الشبان الأتراك صنوف العلم المختلفة ، عوضاً من أن يسافر هؤلاء الشبان إلى أوروبا حيث أن الفكر السياسي الأوروبي يؤثر فيهم وينمي فيهم روح الحرية والديمقراطية ويسوقهم إلى الإشتراك في الأحزاب الثورية الأمر الذي يؤدي إلى نتائج خطرة على السلطان وقلب الأوضاع الداخلية في الأمبراطورية .

وبالرغم من اقتناع السلطان بالواقع الذي تحدث فيه « هرتزل » عن خطورة ذهاب الشبان الأتراك إلى أوروبا ، إلا أنه قبله مفضله على مشروع « الجامعة العبرية » (Hebrew University) في القدس ، لأنه رأى أن الغاية من إنشاء هذه الجامعة سياسية واستيطانية أكثر منها ثقافية [١] . وكان « حاييم وايزمن » (Ch. Weizmann) قد أقنع « هرتزل » بطرح هذه الفكرة على السلطان فوعده أن يعمل للحصول على « فرمان » من السلطان لإقامة الجامعة ، ولكن « هرتزل » أخبر « وايزمن » عام ١٩٠٢ أن مساعيه لم تكلل بالنجاح . إلا أن « وايزمن » رفض النتيجة التي توصل إليها « هرتزل » ولم يهتم بكلامه لأن رفض السلطان لا قيمة له حسب رأيه . ففي عام ١٩٠٢ نشر « وايزمن » كراساً عن فكرة الجامعة رحب بها بعض اليهود في العالم الذين أيدوه وشجعوه وأغدقوا عليه المال لتنفيذ الفكرة [٢] . إلا أن وايزمن يعود ويعترف بأن الصهيونية لم تستطع الحصول على « فرمان » لإنشاء الجامعة العبرية في موقع « روبين » — لصاحبته الليدي جراي هل — إلا بعد نهاية حكم السلطان عبد الحميد بسنوات عديدة .

ويتبين من دراسة الوقائع والمباحثات الصهيونية — العثمانية ، أن العثمانيين كانوا على استعداد بالفعل لقبول المساعدات المالية اليهودية ، لا سيما بعد تردي أوضاعهم المالية ، ولكن دون أن يسمحوا لأنفسهم بمنح فلسطين لليهود ، ثم انهم كانوا بالفعل أيضاً مستعدين للتخلي عن هذه الأموال اليهودية في حال تأمينها من أي مصدر آخر ، ومما يثبت ذلك رسالة

---

(١) كان هرتزل يهدف من انشاء هذه الجامعة ليس من أجل الطلاب الاتراك فحسب ، وانما من اجل الطلاب اليهود تمهيداً لبث الفكر الصهيوني وتكريس الاستيطان اليهودي .

(٢) انظر : حاييم وايزمن : التجربة والخطأ ، ص ١٧ .

الحكومة العثمانية إلى سفيرها في لندن – ويعترف بها هرتزل – تطلب منه ابلاغ « هرتزل » بأنه ليس من الضروري مجيئه إلى الآستانة وانه « يظهر من تقريرك أن مستر هرتزل لم يصل إلى أي تفاهم مع البنوك ولم يمهد لأي شيء . وبما أن الحكومة قد وصلت إلى قرار تغطية الدين بإصدار سندات بمبلغ ٣٢ مليوناً ، وبما أن الحكومة لن تعدل عن هذا القرار ما دامت غير متأكدة من وجود حل أفضل ، لهذا فلا ضرورة لمجيء مستر هرتزل إلى القسطنطينية »(١) .

وبعد اطلاع « هرتزل » على هذا التقرير ألح في السماح له بالسفر إلى استانبول لأنه قادر على تأمين المال ، وبالتالي سيتنازل عن بعض شروطه السابقة فيما يختص بفلسطين . وبالفعل فقد سمح له بالسفر وهناك اجتمع بالصدر الأعظم « سعيد باشا » ، وتحدث معه من جديد عن الديون وتسديد العجز المالي ، وأظهر « هرتزل » قبوله باستيطان يهودي في العراق على أن يؤخذ من فلسطين حيفا وضواحيها فحسب مع عدم المساس بمكانة القدس لأن « مشروعنا الحاضر لا يتعرض إلى القدس والأماكن المقدسة . فللأرض هناك صفة زمنية وروحية ، لن نمس ما هو روحي ، ولكن لماذا لا نجعل الأراضي العادية صالحة للزراعة بالطريقة العادية » . ولما طالب « هرتزل » بحيفا أجابه « سعيد باشا » « ولكن حيفا لها أيضاً قيمتها الحربية الهامة » فرد هرتزل « والقوة التي سنقيمها نحن في البلاد سيكون لها أهميتها الحربية أيضاً »(٢) .

والواقع ان هذا الإجتماع كان على غرار غيره من الإجتماعات ، فلم يتوصل الطرفان إلى نتيجة تذكر بسبب تشبث كلا الرجلين بموقفه . وكان كل طرف يعي تماماً ما يريده الآخر إلا أنهما كان يسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان في أكثر المسائل المطروحة .

وفي حزيران (يونيه) عام ١٩٠٢ اجتمع « هرتزل » باللورد « جيمس دي روتشيلد » لاقناعه باستيطان اليهود في فلسطين تحت الوصاية البريطانية ، فبادره « روتشيلد » بالقول « خذ أوغندا » فرد هرتزل : « لا ، لا أريد إلا هذا ... » ولما كان هناك آخرون في الغرفة كتب على ورقة ما يريده :

---

(١) يوميات هرتزل ، ١٢ تموز (يوليه) ١٩٠٢ ، ص ١٢٩٨ (ت.ع. ص ٢١٩، ٢٢٠) .
(٢) يوميات هرتزل ، ٢٨ تموز (يوليه) ١٩٠٢ ، ص ١١٣٠ (ت. ع. ص ٣٣٤) .

شبه جزيرة سيناء ، فلسطين المصرية ، قبرص . وقال له : « أتوافق على هذا » . فرد « روتشيلد » بابتسامة متكلفة جداً . عندئذ أبرز « هرتزل » خطته المتعلقة بإنشاء شركة يهودية لسيناء وفلسطين المصرية وقبرص . ثم غيّر الإسم فجعلها « الشركة الشرقية اليهودية ليمتد » .

وفي هذه الفترة اجتمع زعيم المنظمة الصهيونية بعدد من السياسيين البريطانيين المرموقين ، وباللجان البرلمانية الرسمية ، على أن اللورد « جيمس » رئيس اللجنة البرلمانية ، أخبره بأن تحقيق هذا المشروع الصهيوني إنما يرتبط بالمساعدة التي يمكن أن يقدمها « آل روتشيلد » نظراً لمكانتهم المالية ونفوذهم السياسي في بريطانيا . ولهذا اجتمع هرتزل بروتشيلد في ١٠ تموز (يوليه) ١٩٠٢ لاقناعه بمساعدة الحركة الصهيونية واليهود المشتتين في العالم ! ولما رأى إمكانية التجاوب مع مطالبه أرسل في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٠٢ رسالة إلى « كرسبي » عميله في تركيا يخبره فيها أنه قرر الإعتماد على بريطانيا بعد فشله في استانبول .

وفي ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٢ حظي « هرتزل » باجتماع مع وزير المستعمرات « تشمبرلن »[١] بواسطة صديقه « جرينبرج »[٢] ، (Greenberg) فطلب منه قبرص ، العريش ، شبه جزيرة سيناء ، فأجابه « تشمبرلن » : بأن قبرص وحدها ضمن صلاحياته ، بينما المناطق الأخرى من اختصاص وزارة الخارجية . ثم أكد له : « إن قبرص وطن الآخرين من يونانيين ومسلمين ، ولا يمكن حشر هؤلاء من أجل مهاجرين جدد » .

أما الاجتماع الآخر فكان في ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٠٢ مع وزير الخارجية اللورد «لانسداون» لإقناعه بمشروع العريش وصحراء سيناء وحل المسألة اليهودية في شرقي أوروبا التي لا تزيد في اعتبار بريطانيا فحسب ، بل سيكون في صالحها لأن الهجرة اليهودية إلى المناطق البريطانية

---

(١) جوزف تشمبرلن : (١٨٣٦ - ١٩١٤) سياسي بريطاني مشهور ، اصبح وزيراً للمرة الاولى عام ١٨٨٠ ، وفي عام ١٨٩١ تزعم « الاتحاديين الاحرار » في مجلس العموم البريطاني ، ثم اصبح وزيراً للمستعمرات بين ١٨٩٥ - ١٩٠٦ .

(٢) ليبولد جاكوف جرينبرج (١٨٦١ - ١٩٣١) يهودي بريطاني تعاون مع هرتزل وأصبح وكيله في بريطانيا ، عضو اللجنة التنفيذية الصهيونية ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، ألّف عام ١٨٩٦ « الكتاب السنوي اليهودي » ، وفي عام ١٩٠٧ ترأس تحرير « الجويش كرونكل » ، وهو الذي اشترك في المباحثات التي انتهت بصدور وعد بلفور .

ستزيد الخطر عليها باعتبار أن بريطانيا هي المكان « الذي يستقبل مضطهدي اليهود في العالم » . كما وأن إعطاء اليهود مناطق مثل العريش وشبه جزيرة سيناء – اللتين بحوزة بريطانيا – سيؤدي إلى ابتعاد ذلك الخطر عنها من ناحية ، وتصبح مناطق الإستيطان الجديدة بمثابة مستعمرات بريطانية من جهة ثانية « وسيكون لإنجلترا عشرة ملايين عميل من أجل عظمتها وسيطرتها . وهذا الولاء لا بد أن يكون على الصعيدين السياسي والاقتصادي »(١) .

وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٣ اجتمع « هرتزل » باللورد « روتشيلد » في لندن لتأمين مبلغ ثلاثة ملايين جنيه من « جمعية الإستعمار اليهودية » التابعة للشركة اليهودية الشرقية على أن يؤمن بقية المبلغ من أثرياء اليهود ، ثم اجتمع مع سير « توماس ساندرسون » وكيل وزارة الخارجية البريطانية للتداول معه بشأن مشروع سيناء على أن سير « توماس » أكد له أن بقاء بريطانيا في مصر لا يعتبر أمراً مفروغاً منه (٢). ولكن « هرتزل » اتفق أخيراً مع البريطانيين على إرسال مجموعة من الخبراء الانجليز اليهود إلى مصر وفي مقدمتهم : « كسلر »(٣) ، الكولونيل « جولد سميد »(٤) ، و « جرينبرج » وذلك لدراسة الأوضاع عن كثب والتباحث مع اللورد « كرومر » (Cromer) والحكومة المصرية(٥) . وبالفعل فقد أُرسلت

(١) يوميات هرتزل ، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢ ، ص ١٣٦٤ (ت.ع. ص ٢٥٠) .

(٢) الواقع انه خلافاً لهذا الرأي ، فقد أكد جوزف تشمبرلن وزير المستعمرات البريطانية في تموز (يوليه) ١٩٠٣ : « ان الحكومة البريطانية لا تريد الجلاء عن مصر ، وأن نيتها مبيتة على البقاء فيها من أول الأمر ، وأنا أعلم ذلك علم اليقين لأنني كنت وزيراً للتجارة في حكومة غلادستون عام ١٨٨٠ والتي تم على عهدها الاحتلال البريطاني لمصر » .

(٣) ليوبولد كسلر (١٨٦٤ – ١٩٤٤) مهندس يهودي في جنوب أفريقيا ، ترأس الجمعية الصهيونية في الترنسفال بين أعوام ١٨٩٩ – ١٩٠١ ، وفي عام ١٩٠١ انتقل الى لندن وفي عام ١٩٠٢ ترأس البعثة الصهيونية الى العريش ، أشرف على مجلة « الجويش كرونكل » عام ١٩٠٧ ، وفي عام ١٩١٢ ترأس الاتحاد الصهيوني في انجلترا ، وهو الذي اشترك في اللجنة السياسية التي الفها وايزمن لاصدار وعد بلفور عام ١٩١٧ .

(٤) جولد سميد (١٨٤٦ – ١٩٠٤) كولونيل بريطاني ابن يهودي تنصر ، ولكن جولد اعتنق اليهودية من جديد عام ١٨٧٠ . بين أعوام ١٨٩٢ – ١٨٩٣ أدار مستعمرات البارون هيرش في الأرجنتين . في عام ١٨٩٥ أسس فرقة الشبان اليهود وترأس جمعية « احباء صهيون » البريطانية ونظمها على أساس عسكري .

(٥) حول مشروع استيطان سيناء والعريش انظر الرسائل المتبادلة بين « هرتزل » واللورد « كرومر » واللورد « لانسداون » في التواريخ التالية : 18 December 1902, in F.O. 78/5479.
2 January 1903, in F.O. 78/5479. 15 January 1903, in F.O. 78/5479.

« اللجنة الصهيونية » (Zionist Commission) إلى مصر في ٢٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٣ على أن يظل تحركها وأهدافها سرية ، وأن ترسل تقاريرها مباشرة إلى « هرتزل » باعتباره رئيس اللجنة ومحدد أهدافها. وبعد خمسة عشر يوماً وصلت اللجنة إلى مصر وقابل « ليوبولد جرينبرج » اللورد « كرومر » مرتين على التوالي . وكان « بطرس غالي » – رئيس الوزراء المصري – موجوداً في الإجتماع الثاني فأبـدى تحفظاً وسلبية من المشروع الصهيوني في شبه جزيرة سيناء وغم موالاته للاحتلال البريطاني .

ولما أرسلت التقارير الأولى إلى هرتزل قرر السفر إلى القاهرة للتباحث مع « بطرس غالي » واللورد « كرومر » فوصلها في ٢٣ آذار (مارس) عام ١٩٠٣ ، وبعد اجتماعه بهما ثبت له الصعوبات التي تواجه تنفيذ المشروع ، لأن بريطانيا ليست مستعدة في الوقت الحاضر لمواجهة السلطان العثماني ، لذلك غادر مصر في ٤ نيسان (ابريل) من نفس العام يحدوه الأمل بتغيير الظروف لتحقيق مشروع شبه جزيرة سيناء[١] .

وفي ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٣ قابل هرتزل « تشمبرلن » الذي بادره بالقول : « إن الإنجليز اختاروا لليهود منطقة في أفريقيا هي اوغنـدا ، وهي ذات تربة خصبة وواسعة » . فأجابه هرتزل : « يجب أن تكون قاعدتنا فلسطين »[٢] ، وتحت الحماية البريطانية وإذا ما اتخذت الصهيونية اوغندا فإنها ستكون بمثابة محطة لجماعات اليهود المتوجهين إلى فلسطين ، على أن تبقى أيضاً – بعد تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين – مستعمرة صهيونية في افريقيا .

وفي منتصف أيار (مايو) عام ١٩٠٣ وردت إلى هرتزل أنباء من القاهرة بأن اللورد « كرومر » أبلغ الكولونيل « جولدسميد » رسمياً رفض الحكومة المصرية نهائياً للمشروع[٣]. هذا وقد فشلت المفاوضات الصهيونية – البريطانية

---

(١) تذكر بعض المعلومات من ان هرتزل بادر بالقول : « بوسعك أن تتأكد أن بوسعي أن أغنم فلسطين بالفتح واراقة الدماء ولو أني اخذت بما تميل اليه نفسي لآثرت هذه الطريقة على أية طريقة غيرها » انظر : عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، ج ١ ، ص ٥٧ . على انه لم يذكر لنا المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات ، بينما اسعد رزوق : اسرائيل الكبرى ، ص ١١٨ ، يورد لنا هذا النص ويحيلنا بمصدره الى :
G. Sykes; *Two Studies in Virtue*, p. 161 (London 1953).

(٢) يوميات هرتزل ، ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ ، ص ١٤٧٣ (ت.ع. ص ٢٨٠) .

(٣) N. Sokolow: *History of Zionism 1600 — 1918*, Vol. 1, p. 296.

بسبب ظهور المعارضة المصرية للمشروع ، وبسبب احتدام الجدال على سيناء أتكون تركية أم مصرية ؟[١] ، لأن العثمانيين رأوا أن خلق دولة يهودية في شبه جزيرة سيناء سيؤثر مباشرة على مستقبل فلسطين ، لذا أبدوا انزعاجهم بعد معرفتهم بتفاصيل المشروع . والواقع أن موقف السلطان العثماني من الحركة الصهيونية كان له أكبر الأثر في اتخاذ هذه المعارضة ، والحقيقة أن اللورد « كرومر » والحكومة المصرية قد تخوفا من غضب الباب العالي وعملا على عدم إثارته في هذا الموضوع[٢] .

وبالرغم من فشل الصهيونية في تنفيذ مشروع استيطان شبه جزيرة سيناء ، فان « حاييم وايزمن » — أحد قادة الحركة الصهيونية — يذكر أن السبب في عدم نجاح المشروع لا يعود إلى مواقف بريطانيا ومصر والدولة العثمانية بل إلى البعثة الصهيونية ، فهي التي رفضت هـذا المشروع لأنه لا يفي بحاجة الوطن القومي . ويضيف « وايزمن » أنه كان من رأيه أن لا يرفض هذا المشروع « ذلك أننا كنا نستطيع إقامة مستعمرات في جنوب فلسطين منذ خمسين سنة . ولو فعلنا هـذا لكان ساعدنا على تحقيق فكرة إنشاء مملكة اسرائيل في فلسطين في مدة أقصر جداً مما احتجنا إليه من بعد »[٣] . ولكن يلاحظ من خلال نشاط « هرتزل » ويومياته أنه كان حريصاً على تحقيق ذلك المشروع ، ولم يشر إلى ما نشره « وايزمن » من معلومات ، ولعل هذا الأخير كان يجهل المباحثات السرية مع اللورد « كرومر » و « بطرس غالي » ، وإما أن يكون قد تعمّد نشر تلك المعلومات ليدلل على حرص الحركة الصهيونية على أن اليهود لا يريدون بديلاً عن فلسطين .

ونظراً للفشل المتواصل للمنظمة الصهيونية ، فكّر « هرتزل » بشراء « موزامبيق » في معرض التفكير باقتراح « تشمبرلن » المتعلق بأوغندا ، على أن يشتريها من الحكومة البرتغالية لقاء سد عجزها المالي ودفع جزية مؤخرة . ويؤكد أن سعيه للحصول على « موزامبيق » يهدف فقط إلى مقايضتها والمساومة عليها ، حيث يقدمها إلى الحكومة البريطانية ليحصل في المقابل على شبه جزيرة سيناء بأكملها وعلى مياه النيل وربما على قبرص

---

(١) انظر : آلان تايلور : مدخل اسرائيل ، ص ١٨ . يوسف الحاج : هيكل سليمان او الوطن القومي اليهودي ، ص ٩٣ .

(٢) J. Soustelle; *op. cit.*, p. 42.

(٣) حاييم وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

أيضاً . ولكن هـذا المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ لأن أثرياء اليهود رفضوا تمويله ، ورفضوا أيضاً تمويل مشروع استيطان الكونغو . وقد أبلغ « فيليبسون » — المتمول اليهودي البلجيكي (١٨٥١ — ١٩٢٩) — « هرتزل » رفضه الإشتراك في المشروع لأن الكونغو غير ملائمة على الاطلاق .

وكان « هرتزل » قد عاود اتصاله بالحكومة التركية حيث عرض في ثلاث رسائل — إحداها إلى السلطان والثانية إلى الصدر الأعظم والثالثة إلى ابراهيم باشا — مسألة القروض اليهودية إلى الدولة العثمانية وأنـه على استعداد لتأمين مبلغ مليون ليرة تركية مقابل تنفيذ مطالبه السابقة ، وأقحم في هذا الموضوع بعض الشخصيات المقربة من السلطان عربية وتركية على السواء ، فأرسل رسالتين إحداهما إلى « عزت باشا العابد » [(١)] والأخرى إلى « تحسين باشا » [(٢)] لبذل مساعيهما في تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين أو على أجزاء منها مثل حيفا وعكا ملحقتين بالعراق . وفي الوقت نفسه واصل نشاطه مع الرأسمالية الصهيونية لشراء بعض أملاك اللبناني « الياس سرسق » [(٣)] والآن « يطلب السيد سرسق ٢٥ فرنكاً للدونم الواحـد ، بينما تقول تقاريرنا أنه لا يساوي أكثر من ١٥ — ١٨ فرنكاً » [(٤)] . وقد استطاعت الحركة الصهيونية شراء هـذه الأراضي وغيرها في سهل مرج ابن عامر من عائـلة سرسق الأمر الذي أدى إلى إثارة وسخط الفلاحين الفلسطينيين ، لأن ذلك سيؤدي إلى طردهم من الأراضي التي كانوا يعملون بها .

---

(١) عزت باشا العـابد (? - ١٩٢٤) سياسي عربي من دمشق ، سطع نجمه أيام السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان سكرتيراً له الى ان نال الباشوية عام ١٩٠٢ ثم أصبح وزيراً وتزايد نفوذه وسطوته الى ان هرب من تركيا عام ١٩٠٨ بعد قيام الثورة .

(٢) تحسين باشا (١٨٦٠ - ١٩٣٥) سياسي تركي ، كان مديراً للمراسلات في وزارة الداخلية ثم البحرية . وفي عام ١٨٩٥ أصبح السكرتير الأول للسلطان وأصبح وزيراً وباشا عام ١٩٠٢ واستمر نفوذه في التزايد الى ان تغلب عليه منافسه عزت باشا . وفي عام ١٩٠٨ نفي عن تركيا ، ثم سمح له بالعودة وعاش آخر ايامه فقيراً .

(٣) الياس سرسق : هو أحد كبار أثرياء آل سرسق ، من أسرة لبنانية ارثوذكسية ، حصل افراد منها في عام ١٨٧٢ على مساحات واسعة من ارض فلسطين بسعر زهيد من السلطات العثمانية وفي مطلع القرن العشرين ازدادت الاتصالات بينهم وبين الصهيونيين وسماسرة الأراضي لبيع ممتلكاتهم التي بلغت حوالي ربع مليون دونم في مرج ابن عامر لوحده .

(٤) يوميات هرتزل ، حزيران (يونيه) ١٩٠٣ ، ص ١٥٠٤ (ت. ع. ص ٢٩٠) .

هـ - النشاط الصهيوني عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤

نشطت المنظمة الصهيونية وزعيمها « هرتزل » لحل بعض المشاكل العالقة في الدول التي يتواجد فيها اليهود ، وذلك قبل عقد المؤتمر الصهيوني بحوالي الشهر . ففي ٢٤ تموز (يوليه) عام ١٩٠٣ أصدر « ڤون بلهفي » (Von Plehve) وزير الداخلية في روسيا القيصرية مرسوماً وزعه على حكام المقاطعات والشرطة يقضي بمنع المؤتمرات والإجتماعات الصهيونية في جميع البلاد ، ومنع جمع التبرعات والأموال من اليهود لخدمة الحركة الصهيونية بعد تخوف الدوائر الروسية من خطورة هذه الحركة على القيصرية الروسية ، خاصة وأن عدداً من اليهود كانوا قد اشتركوا في عمليات الاغتيال لعدد من الوزراء الروس في عامي ١٩٠١ و ١٩٠٢ [١] . ونتيجة للقرارات القيصرية قامت بعض الصحف المؤيدة لليهود تدافع عنهم ، وفي مقدمتها صحيفة (Kievlianian) الناطقة باسم اليهود التي دافعت عن قضاياهم منذ تموز (يوليه) عام ١٩٠٢ ، ووصفت اللاسامية من قبل الحكومة بأنه عمل قاس [٢].

ومن الملاحظ أن الزعيم الصهيوني « هرتزل » لم يتبع أسلوباً مناوئاً للقيصرية ومؤيداً لليهود في روسيا كما كان ينتظر البعض ، بل أرسل رسالة إلى « بلهفي » هاجم فيها الحركة اليهودية الثورية ، واقترح الصهيونية لتكون وسيلة للحد من تأثير هذه الحركة في الشبيبة اليهودية في روسيا . ورأى « هرتزل » ضرورة زيارة روسيا للتفاهم مع المسؤولين الروس . وبالفعل ففي أوائل آب (اغسطس) عام ١٩٠٣ سافر إلى روسيا حيث لقي تأييد وترحاب بعض اليهود . وفي ١٠ و ١٤ آب (اغسطس) من نفس العام اجتمع بوزير الداخلية مرتين حيث توصلا إلى قدر كبير من التفاهم ، ف« هرتزل » تعهد بأن تسلخ الصهيونية اليهود عن صفوف الاشتراكيين ، وتعهد « بلهفي » بتسهيل عمل المنظمة الصهيونية ، كما وعد بالتدخل لدى السلطان لتسهيل الاستيطان الاستعماري الصهيوني [٣] ، ووعده أيضاً بأنه إذا اقتصرت جهود ونشاط الحركة الصهيونية على إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين ، وتنظيم عدد معين من يهود روسيا ، فان الحكومة الروسية ستبذل مساعدتها

---

(١) انظر : الاميرال وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ١٥٩ .

(٢) L. Greenberg; *The Jews in Russia*, p. 49.

(٣) اميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، ص ٦٠ .

المادية والأدبية في المفاوضات التي ستدور في الآستانة بين الباب العالي وبين المنظمة الصهيونية ، كما أن الحكومة الروسية ستعمل على تسهيل نشاط جمعيات الهجرة اليهودية بمدها بالأموال التي يقدمها يهود روسيا[1]. وقد نشر « هرتزل » هذه الوعود في صحيفته « العالم » (Die Welt) في ٢٥ آب (اغسطس) عام ١٩٠٣ في أثناء انعقاد إجتماعات مؤتمر بال السادس .

والواقع أن عداء قادة الحركة الصهيونية للأفكار الاشتراكية والثورية قد حولهم إلى معسكر مضطهدي أنصار تلك الأفكار . وبذلك تكون المنظمة الصهيونية قد التقت في كثير من المواقف مع المعادين للسامية ووضعت نفسها في خدمة أية دولة تؤيد سيطرة الصهيونية على فلسطين .

وفي عام ١٩٠٣ قررت الحركة الصهيونية عقد مؤتمرين في آن واحد ، أحدهما في بال بسويسرا في الفترة الممتدة من ٢٣ إلى ٢٨ آب (اغسطس) ، والآخر في فلسطين وهو أول مؤتمر صهيوني عقد في الأراضي المقدسة أعد له الروسي الصهيوني « مناحم ماندل أوسيشكين » (Menahem Mandel Ussishkin) (١٨٦٣ — ١٩٤١) . وكان الاتجاه السائد في المؤتمرين أن تكون فلسطين « دولة قومية لليهود » (Jewish National State) . ففي المؤتمر الصهيوني ببال ظهر اتجاه — قبل المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥ — بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود مع التشبث بتحقيق ذلك. ويلاحظ ذلك بعد أن وقف « هرتزل » ليعلن لممثلي يهود العالم أن بريطانيا ، وبريطانيا وحدها بين دول الأرض ، كانت هي الوحيدة التي اعترفت باليهود كأمة قائمة بنفسها ومنفصلة عن غيرها ، وأن اليهود جديرون بأن يكون لهم وطن ودولة[2] . ثم قرأ عليهم رسالة اللورد « لانسداون » باسم حكومة جلالته التي عبر فيها عن مشاعر بريطانيا نحو اليهود ، وانتهت الرسالة بتقديم « أوغندا » لتحقيق التطلعات الصهيونية ، فرحب مؤيدو « مشروع أوغندا » (Ugandists) بهذا العرض بينما عارضه كثيرون[3] . وخرجوا من قاعة المؤتمر إلى الخارج وانطرحوا أرضاً ، وبدأوا يبكون فاتخذ

---

(١) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ٩٦ .

(٢) حاييم وايزمن : المصدر السابق ، ص ١١ .

(٣) حول عدد المؤتمرين البالغ ٦٠٠ عضو واتجاهاتهم انظر :
I. Cohen; *Theodor Herzl...*, p. 324.

« أحد هاعام » عنوان مقاله « آيها الباكون » محرضاً على التمسك بالرفض[١] . وقد بلـغ التطرف ان جعل سيدة يهودية تقترب من « هرتزل » وتناديه « يا خائن » ، وكانت هذه السيدة من أنصار « حاييم وايزمن » الذي اعترف بأنه عمـــل ما بوسعه لتفشيل مشروع أوغندا و « اننا نحن يهود روسيا قضينا عليه في المهد وألغيناه بدون ضجة » . ويذكر بأن هؤلاء الروس المتطرفين يرجعون بنسبهم إلى الخزر ، وليس من صلة لهم ولا لأجدادهم بفلسطين مطلقاً ولا بالسامية أصلاً ، إنما كانت ميولهم قد لاقت رواجاً في بعض الدوائر الاستعمارية فشجعوها وعملوا على استغلالها .

أما المؤتمر الصهيوني الذي عقد في فلسطين في مستعمرة « زخرون يعقوب » فقد كان اجتماعاً سرياً عقده اليهود لتوحيد جهودهم داخل فلسطين ومقاومة القوانين العثمانية والعمل على تسهيل مهمـــة المهاجرين[٢] . غير أن عرب فلسطين تنبهوا للاجتماع الصهيوني ، كما تواردت أنباؤه إلى السلطات العثمانية فلاحقت المؤتمرين وأتهمتهم بمخالفة القوانين ، الأمر الذي أدى إلى عـدم انعقاد اجتماعات مماثلة في السنين المقبلة ، لا سيا بعد طرد مجموعة من اليهود خارج فلسطين تلبية لردود الفعل العربية . وقد كانت الكراهية ضد اليهود تنمو في المدن وخاصة في أوساط رجال الأعمال المسيحيين والمحافظين من المسلمين[٣] ، ولكن الخلل في الادارة العثمانية جعل الهجرة اليهودية تستمر في التدفق عام ١٩٠٣ ، وقد شملت بعض اتباع جمعيـة « بيلو » (Bilu) واتسمت هذه الموجة بهجرة الطبقات المتوسطة في روسيا وبولندا ورومانيا[٤] . وازدادت خطورة هذه الهجرة بإبعادها العمال العرب عن المستوطنات الزراعية

---

(١) عجاج نويهض ، المرجع السابق ، م ١ ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) اتخذ اجتماع « زخرون يعقوب » عدداً من المقررات السرية في مقدمتها :

١ – تنظيم جميع اليهود في المستعمرات التي أنشئت في فلسطين .

٢ – يدفع كل عضو بلغ الثمانية عشر من عمره اشتراكاً سنوياً قدره فرنك واحد .

٣ – أن يجتمع المؤتمر مرة كل عام ، وأن يتم اختيار أعضاء المؤتمر بالانتخاب .

٤ – أن تقسم فلسطين إلى ست مناطق يهودية على النحو التالي :

أ – بيت المقدس ، الخليل ، متسمة ، عرطوف . ب – المستعمرات حول الرمـلة . ج – يافا وبتاح تكفا . د – الناصرة ، طبريا وما حولها . هـ – الخضيرة ، زخرون يعقوب ، حيفا . و – صفد والجليل .

(٣) N. Mandel; *op. cit.*, p. 90.

(٤) I. S. Sitton; *Immigration et Croissance*, p. 37.

اليهودية وحصر العمل باليهود فحسب . واعتبر هؤلاء أن الاستقلال الاقتصادي خطوة نحو الاستقلال السياسي فمنعوا الفلاحين العرب من العمل في الممتلكات اليهودية ، وكان هـذا بمثابة مقاطعة اقتصادية تامة للسكان العرب أصحاب البلاد [١] .

وفي هذه الفترة كان هرتزل يواصل جهوده لكسب أصدقاء للمنظمة الصهيونية ، ففي ٢٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٤ سافر إلى روما وقابل وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال « ميري دى ڤال » (M. de Val) حيث أكد له « هدفه الخيِّر » من مقابلة البابا « بيوس العاشر » ، وأنه لا يريد أن يطلب شيئاً يسبب حرجاً له ، بل سوف يطلب الممكن فحسب ، وليصرح البابا في إحدى البيانات البابوية بأنـه لا يعترض على الصهيونية مطلقاً ، على أن تبقى الأماكن المقدسة « خارج نطاق حكمنا » ، غير أن « ميري دى ڤال » أعلن موقف البابوية ــ الذي سبق وأعلنه البابا منـذ سنوات ــ برفض ايديولوجية الحركة الصهيونية لا لشيء إلا لأن اليهود ينكرون طبيعة المسيح الإلهية . وانتهت المقابلة على أمل اللقاء مرة أخرى مع البابا « بيوس العاشر » [٢] .

وفي ٢٣ كانون الثاني (يناير) من نفس العام قابل هرتزل ملك ايطاليا الذي أبدى عطفاً على المشروع الصهيوني ، وصرح أنه لا يميز بين اليهود والايطاليين بدليل أن اليهود قـد توصلوا إلى أعلى المراتب والوظائف في ايطاليا ، بل هناك وزراء يهود أمثـــال « لوزاتي » ، وقبله كان الجنرال « اوتولنغي » و « ليمبورج » . أما عن موقف ملك ايطاليا من تنفيذ المخطط الصهيوني باستعمار فلسطين فقد قال لهرتزل : « ستكون لـكم ويجب أن تكون . المسألة فقط تحتاج إلى وقت ، انتظروا حتى يصبح عددكم هناك نصف مليون » فأبدى هرتزل تذمره من الموقف العثماني وقال : « إن اليهود ممنوعون من الدخول يا سيـدي » فرد الملك « كل شيء يمكن أن يكون بالبخشيش » [٣] .

---

(١) الياس سعد : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، ص ١٧ .

(٢) انظر : I. Cohen ; *A Short History of Zionism*, p. 54.

(٣) أنظر : يوميات هرتزل ، ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ، ص ١٥٩٦ ، (ت . ع . ص ٣١٨ ، ٣١٩) .

ورأى هرتزل أن « البخشيش » يمكن اتباعه على مستوى الأفراد وليس على مستوى الحكومة العثمانية أو السلطان بدليل أن السلطان « عبد الحميد الثاني » ومعاونيه من الوزراء رفضوا في اجتماعات متلاحقة العروض اليهودية لاستيطان يهودي مستقل في فلسطين ، وطالما الأمر على هذا النحو فإنه لا يمكن تحقيق مشروعه في الوقت الحاضر ، لذا انتقل الحديث مع ملك ايطاليا إلى إمكانية استعمار طرابلس الغرب كمرحلة تمهيدية للانطلاق إلى فلسطين ، وقـال مرغباً الملك : تحويل الفائض من الهجرة اليهودية إلى طرابلس الغرب في ظلّ القوانين والمؤسسات الليبرالية الايطالية . فأشار الملك – كما سبق وأشار تشمبرلن بالنسبة لقبرص – « لكن هـذه أيضاً وطن للآخرين » ، فراح هرتزل يؤكد للملك بأنه مهما يكن الأمر ، فإن تقسيم الدولة العثمانية آت في فترة قريبة ، وأن ايطاليا تستطيع أن تفعل الكثير من أجل اليهود لا سيما وأن السلطان يخشاها .

وانتهى هذا الاجتماع بإظهار عطف ملك ايطاليا وتشجيعه للمشروع الصهيوني بعد اقتناعه بآراء هرتزل خاصة وأن لايطاليا مطامع استعمارية في ليبيا وأنه يمكن استخدام الحركة الصهيونية كمطية للوصول إلى أهدافها ، بالإضافة إلى أن القيادة الصهيونية في نشاطها على الصعيد الدولي كانت ترى مشروعاتها جزءاً من النشاط الإستعماري وأعربت عن أهدافها بهذه الروح[١] . وقد دوّن « جوليتي » (Giolitti) في مذكراته إمكانية السيطرة على ليبيا بالاسلوب الصهيوني فذكر أنه « لم يكن من الضروري اللجوء إلى التدابير العسكرية لحل المشكلة الليبية إبان حكم عبد الحميد الذي كنا نستطيع أن نحصل منه على امتيازات ذات طابع اقتصادي وقانوني بشكل يضمن المصالح الايطالية ضد أية دولة أخرى تستهدف التوسع »[٢] . ولما وجدت معارضة من السلطان العثماني أفرزت السياسة الايطالية المحافل الماسونية في الولايات العثمانية ومنها « سلانيك » ، من أجل إنهاك الدولة العثمانية والعمل للقضاء على حكم السلطان . وقد كانت أكثر المحافل الماسونية ازدهاراً في سلانيك هي التي كانت تحت الحماية الايطالية . ولما كان السلطان عبد الحميد الثاني يكره هذه المحافل ، فقد كان من المنتظر قيام نزاع بينه

---

(١) اميل توما ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) أرنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥٦ .

وبين السفير الايطالي المركيز « إمبريالي » (Imperiali) [١] .

وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) عـام ١٩٠٤ عاد « هرتزل » ليجتمع من جديـد مـع البابـا في رومـا ، ليوضـح لـه مطـالب الحركـة الصهيونيـة ، وأكد « هرتزل » من جديـد أن الأماكن المقدسة ستكون خارج نطاق الدولة اليهودية . فاستمع البابا « بيوس العاشر » إلى المقترحات المطلوبة ورد عليه بالقول : « لا نستطيع أن نقبل بهذه الحركة . لا نقدر أن نمنع اليهود من الذهاب إلى القدس ، ولكن لن نرضى به رسمياً أبداً ... » .

والواقع أن موقف البابوية المعارض للحركة الصهيونية كان مستمداً من مبادئ الايمان المسيحية القائمـة على التناقض بينها وبين التعاليم اليهودية ، بالاضافة إلى أن القدس هي أرض مقدسة ليست بالنسبة للمسلمين فحسب وإنما للمسيحيين أيضاً . وفي ظل هـــذه الحقائق اعتبر « هرتزل » نفسه « بابا اليهود » وهذا ما يؤكده في مذكراته حينما يذكر وقائع اجتماعه مع البابا فيقول : « ابتدأ مرة ثانيـة النزاع بين روما التي يمثلها البابا ، وبين القدس التي أمثلها أنا » [٢] معتبراً أن مركزه عند اليهود يماثل مركز البابا عند المسيحيين . وتظهر ميول « هرتزل » القيادية حينما ذكر أنه خلال زيارته لفلسطين تحاشى ركوب حصان أو حمار أبيض « كي لا يحرجني أحد ويحسبني المسيح المنتظر » . بالرغم من أن صوره الفوتوغرافية التي أخذت له في فلسطين تثبت عكس ما يدعي [٣] .

ويلاحظ من خلال الاجتماع أن البابا عاد يؤكـد لهرتزل ، بأن القدس يجب ألا تكون بأيدي اليهود ، وهو لا يريدها أيضاً بأيدي المسلمـــين — الدولة العثمانية — « وأعرف أن كونها الآن في حوزة الأتراك سيء . وهذا ما علينا أن نتحمله ، ولكن لا يمكن أبداً أن ندعم اليهود في الاستيلاء على هـــذه الأماكن المقدسة » [٤] . وانطلق قداسته من اعتبارات دينية وخلافات بين الديانتين اليهودية والمسيحية ، ومن أجل ذلك أوضح أن هناك إحتمالين إثنين : إمـا أن يحتفظ اليهود بإيمانهم القديم ويبقوا على انتظارهم

---

(١) J. Haslip, *The Sultan : The Life of Abdul-Hamid* II, P. 256.
(٢) يوميات هرتزل ، كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ، ص ١٦٠٢ (ت. ع. ص٣٢٣ ، ٣٢٤) .
(٣) أنظر : A. Chouraqui ; Théodor Herzl,..., pp. 175 - 186
(٤) يوميات هرتزل ، ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ، ص ١٦٠٢ (ت. ع. ص ٣٢٤) .

لمجيء المسيح الذي جاء بالنسبة لنا فينكرون بذلك ألوهية يسوع المسيح ، ولا يمكننا إذ ذاك مساعدتهم . أو أنهم يرغبون في الذهاب إلى فلسطين كشعب لا دين له على الاطلاق ، وفي تلك الحالة يكون تأييدنا لعملهم على درجة أقل أيضاً » .

وانتهى الاجتماع البابوي – الصهيوني بدون نتائج إيجابية لاعتبارات دينية أكثر منها سياسية أو اقتصادية . وفي ٢٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٤ قابل هرتزل وزير الخارجية الايطالية « تيتوني » الذي وعده بالتأييد الايطالي ومراسلة سفير ايطاليا في الاستانة ليبذل مساعيه مع السلطان العثماني . وبناء على طلب الوزير الايطالي قدم هرتزل مذكرة بمطالبه مؤرخة ٤ شباط « فبراير » عام ١٩٠٤ شرح فيها هدف الصهيونية وهو تأسيس وطن شرعي للشعب اليهودي ، وذكر أسماء الدول التي ناصرت الفكرة وهي : ألمانيا وانجلترا والنمسا وروسيا ، أما الدولة العثمانية وسلطانها والوزراء المتشددون فقد وقفوا « ضد تحقيق أمانينا » . وذكر « هرتزل » في مذكرته إلى الوزير الايطالي مطالبه فقال « نحن لم نطلب دولة مستقلة في فلسطين خوفاً مما قد يسببه لنا مثل هذا الطلب من صعوبات . كل ما نطلبه هو أن يستوطن الشعب اليهودي في فلسطين تحت امرة صاحب الجلالة السلطان ، ولكن بشرط الحماية الشرعية ويكون لنا أمر إدارة مستعمراتنا ، واحتراماً لمشاعر جميع المؤمنين تخرج الأماكن المقدسة عن نطاق الحكم إلى الأبد »(١) .

ويظهر من دراسة هذه المذكرة تناقض واضح لمطالب الصهيونية ، فتطالب حيناً باستيطان يهودي « تحت امرة السلطان » ولكن تشترط الحماية الدولية لهذا الاستيطان ، بينما تطالب من ناحية أخرى باستقلال ذاتي بحيث « يكون لنا ادارة مستعمراتنا » مما يؤكد أهداف الصهيونية بإنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين .

والجدير بالذكر أن « هرتزل » استمر في عرض مطالبه ، وطلب من الدوائر الايطالية التوسط لدى الباب العالي للحصول على حق امتياز سنجق عكا مقابل تعويضات مالية للخزينة العثمانية قدرها مائة ألف ليرة تركية .

---

(١) أنظر : يوميات هرتزل ، ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ، ص ١٦٠٢ ، (ت . ع . ص ٣٢٤) أنظر أيضاً : حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ١٠١ .

وطلب أخيراً من الملك الايطالي نفسه أن يراسل السلطان العثماني للتوصية باستعمار فلسطين . ولكن السلطان « عبد الحميد الثاني » ظـل على موقفه المعارض للحركة الصهيونية ، وقد أفهم السلطان وسطاء « هرتزل » بتبليغه رفضه تحقيق مشروعه في فلسطين وقال : « انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع . أني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت أمبراطوريتي فعلّهم يستطيعون آنذاك بأن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولا في جثتنا ، واني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة » .

ومن الأهمية بمكان ، أن هــذا القرار العثماني أثر تأثيراً مباشراً على المنظمة الصهيونية ، بـل وعلى الدول الأوروبية حيث رأت أن السلطان « عبد الحميد الثاني » لم يغير مواقفه من الاستيطان اليهودي ، وهذا مما يؤثر على تطلعاتها مباشرة . وكان الموقف الذي اتخـذه السلطان نتيجة قناعة وشعور منه بأن الهدف من تدخل الدول الأوروبية في المسألة اليهودية ، هو زرع شعب غريب في الأراضي المقدسة من الدولة العثمانية والعمل على إضعافها ليجري تقسيمها والسيطرة على كافة مناطقها ، وللدلالة على ذلك ما اتخذته الحكومة البريطانية من موقف معارض ومستمر للقوانين العثمانية الخاصة بالهجرة اليهودية ، فقد أوعزت إلى قنصلها في القدس في نيسان (ابريل) عام ١٩٠٤ « إلى أن الحكومة البريطانية لن تقبل قوانين الهجرة ، ومن أجل ذلك لا يمكن إرغام اليهود الانجليز على مغادرة البلاد »(١) . ولكن الحكومة العثمانية أصرت على تنفيذ قوانينها الخاصة بالهجرة وبيع الأراضي ســواء لليهود أو للشركات اليهودية الأجنبية كما مانعت باجراء معاملات نقل الملكية إليها « ففي عام ١٩٠٤ تمسكت الحكومة العثمانية بقرار منع بيع الأراضي والعقارات في فلسطين إلى اليهود من جميع الجنسيات ، لأن معظم اليهود الأجانب كانوا يأتون إلى فلسطين بغرض شــراء الأراضي والإقامة الدائمة »(٢) .

(١) Dickson to O'Conor, 17 April 1904, No. 20, in F. O. 195/2106.
(٢) Dickson to O'Conor, 12 October 1904, No. 64, F. O. 195/2175.

ويلاحظ في تقارير « ديكسون » أنه كان يخالف أحياناً وجهة نظر حكومته بالنسبة إلى المهاجرين اليهود البريطانيين وكثيراً ما أبدى استياءه من الهجرة اليهودية كما عبّر في تقاريره السابقة . وفي عام ١٩٠٤ عبر « ديكسون » عن آرائه من النشاط الصهيوني في فلسطين ، فقد حدث أن ادعى الأمير المزعوم « عمانويل » (Emmanuel) — كما أسماه ديكسون — أنه يريد افتتاح الكلية الإنجليزية — الصهيونية (Anglo - Zionist College) في القدس ، وأصدر منشورات بهذا الخصوص ، إلا أن ديكسون نفى هذا الادعاء معتمداً — وقبل كل شيء — على الموقف العثماني من الحركة الصهيونية ، وأفاد أنه « لا يوجد مثل هذا المعهد ، وإنني متأكد من أن « عمانويل » لم يحصل على « الفرمان » اللازم ، ومما يدعو للشك في هذا الموضوع الأخذ بعين الاعتبار موقف الحكومة العثمانية من الحركة الصهيونية المنتشرة بين اليهود »(١) . وتذكر بعض المصادر الصهيونية أنه نتيجة للموقف العثماني الرسمي من المشروع الصهيوني ، عرض القنصل العام للدولة العثمانية في ڤيينا « علي نوري بك »(٢) على « تيودور هرتزل » مشروعاً غريباً لتحقيق استيطان يهودي وإقامة الدولة اليهودية ، وبدونه لا يمكن أن تنال الصهيونية ما تريد في فلسطين وهو أن يبحر « هرتزل » إلى البوسفور في سفينتين وينسف « يلدز » ويعمل على إتاحة الفرصة للسلطان عبد الحميد بالهرب أو القبض عليه وتعيين سلطان آخر بدلاً منه ، ولكن قبل ذلك يجب إقامة حكومة مؤقتة تعطي اليهود امتياز الإستيطان في فلسطين . ورغم غرابة القصة فقد درسها هرتزل وقدّر تكاليفها وفكر بعواقب فشلها ، وقد طرحت الفكرة في ٢٤ شباط (فبراير) عام ١٩٠٤ وقرر هرتزل اللجوء إليها إذا فشلت مساعيه الأخيرة السلمية في استانبول ، لكنه أبرق إلى « علي نوري بك » في ١٩ نيسان (ابريل) من نفس العام معتذراً عن قبول الاقتراح بسبب خشية « هرتزل » من قيام مذبحة هائلة

---

(١) Dickson to Secretary of State, 7 sept. 1904, No. 22, in F. O. 78/5352.

(٢) علي نوري بك (١٨٦١ — ١٩٣٧) اسمه الأصلي غوستاف نورنخ من التابعية السويدية ، عمل صحافياً في برلين ثم في القسطنطينية لدى الحكومة التركية عام ١٨٨١ . اعتنق الإسلام وحصل على الجنسية العثمانية ، عين قنصلاً للسلطنة في روتردام إلى ١٩٠٠ ثم في ڤيينا، وبعد أن حدث خلاف بينه وبين السلطان انضم إلى الجماعة المعارضة لحكم السلطان ، فحكم عليه بالسجن المؤبد غيابياً .

يمنى بها اليهود في الدولة العثمانية إذا فشل المشروع[١] .

والواقع أن « هرتزل » ظل حتى آخر أيامه يجد من أجل تحقيق مشروع « الدولة اليهودية » في فلسطين ، وقبل وفاتـه بأيام قليلة اتصل بالكونت « غولوشوفسكي » وزير خارجية أمبراطورية النمسا ـ المجر الذي وعده بتقديم المساعدات والتوسط لدى الدولة العثمانية ـ إذا سمحت الظروف ـ بالتخلي عن بعض المناطق في فلسطين لاستيطان عدد من اليهود يتراوح بين ٥ ـ ٦ ملايين نسمة ، على أن يتبع ذلك استعمار اليهود لسنجق عكا ليكون أيضاً منطقة للاستعمار والاستيطان ونقطة للتوسع صوب المناطق المتاخمة .

وفي ١٦ أيار (مايو) عام ١٩٠٤ فقدت الحركة الصهيونية زعيمها فطويت بوفاته صفحة نشطة من التحرك الصهيوني . وكانت آخر رسالة كتبها موجهة إلى مدير عـام وزارة الخارجية النمساوية يقترح فيها تأسيس « صندوق الاستعمار اليهودي » في لندن بواسطة إحدى المؤسسات الصهيونية . ويقول « سوكولوف » بصدد وفاة « هرتزل » : « أنه تركنا وكان متأكداً بأننا سنسلك نفس الطريق ، ولكن عاش فينا للأبـد كمثل النجمة التي تضيء وتسير ويبقى ضؤها مؤثراً في الآخرين »[٢] .

ومن اللافت للنظر أنه بلغ من خطورة الحركة الصهيونية ونشاطاتها ان جعلت « هرتزل » يناشد محرري يومياته ضرورة الحفاظ عليها وإخفائها ، لأنها تبرز مخططات الصهيونية الخطرة وتحركاته السياسية المتناقضة بين الدول الأوروبية التي اجتمع بممثليها ، وذكر أنه « يجب أن تحذف تلك الملاحظات التي قد تزعج الحكومات الأجنبية ، ولكن يجب أن يبقى تفصيل اسلوب المفاوضات حتى يعلم الشعب كيف قدت اليهود إلى بلدهم »[٣] .

ويقيناً أن السنوات التي قضاها « هرتزل » منذ بداية نشاطه الصهيوني وحتى وفاتـه عام ١٩٠٤ كانت سلسلة من الجهود والمحاولات للحصول على

---

(١) انظر تفصيلات هذا المشروع في: يوميات هرتزل، ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٠٤ ص ١٦١٤، ١٦١٩ ، ١٦٢١ (ت. ع. ص ٣٥٦-٣٥٩) .
أنظر أيضاً : N. Mandel; *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine 1882-1914*, p. 105.

(٢) N. Sokolow; *Zionism, Problems and Views*, p. 37.

(٣) أنظر يوميات هرتزل : ص ٥٥ (ت. ع. ص ٤٠٦) .

موافقة الدول الاستعمارية لمساعـــدة الصهيونية على تحقيق أهدافها مقابل إسهـام المنظمة الصهيونية في تدعيم استراتيجيتها الأمبريالية [١] الهادفة إلى توزيـع المناطق الاسيوية والافريقية فيما بينها ، وإلى اضعاف الدولة العثمانية وتقسيمها فيما بعد ، إذ أن انتظار تقسيم الأمبراطورية العثمانية أحيا أملاً جديداً في صفوف المنظمة الصهيونية [٢].

---

(١) اميل توما ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .
(٢) لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، ص ٦٩ .

الفصل الرابع

موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني - الدولي ١٩٠٥ - ١٩٠٨

أ - النشاط الصهيوني ١٩٠٥ - ١٩٠٦.
ب - النشاط الصهيوني ١٩٠٧ .
جـ - مؤتمر «كامبل بانرمان» الاستعماري ١٩٠٧
والنشاط الصهيوني ١٩٠٨ .

اليقظة القومية وردود الفعل العربية ضد النشاط الصهيوني والهجرة اليهودية

الفصل الرابع

موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني - الدولي

١٩٠٥ - ١٩٠٨

التشبث الصهيوني في استعمار فلسطين :

في الفترة الممتدة من شباط (فبراير) عام ١٩٠٤ الى كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٥، حدثت تطورات عالمية أثرت في مجرى الحركة الصهيونية والجماعات اليهودية لا سيما في روسيا ، فنتيجة للحرب الروسية — اليابانية ، فان مدناً مثل « كيشينف » (Kischineff) و « غومل » (Gomel) قد دمرت تماماً ، وان كثيراً من اليهود والجمعيات اليهودية قد شردت ، وبسبب ذلك ، وبسبب فشل الثورة الروسية — التي اشترك فيها اليهود — فان المسألة اليهودية طرحت من جديد على بساط البحث بين أعضاء المنظمة الصهيونية . وفي خلال هذه الظروف كان اثرياء اليهود قد استطاعوا بسهولة تأمين ٠٠٠و٠٠٠و١٠ جنيه استرليني لاعطائها للسلطان عبد الحميد من أجل امتلاك فلسطين ، بينما كانت المحادثات مع بريطانيا تدور حول امتلاك أوغندا [١] .

وفي ٢٧ تموز (يوليه) عام ١٩٠٥ ، عقد المؤتمر الصهيوني السابع بمدينة بال ، وهو أول مؤتمر يعقد بعد وفاة « هرتزل » . وقد انتخب الدكتور « ماكس نوردو » (Max Nordeau) رئيساً للمؤتمر حيث أكد في خطاب له ضرورة التعاون بين الحركة الصهيونية والدولة العثمانية « لأن حركة عربية تضم اكثرية من السكان قادرة على العمل بما يضر فلسطين ، وأن من مصلحة تركيا أن تقيم في فلسطين وسوريا شعباً قوياً منظماً [٢] » ، للوقوف حائلاً في وجه اليقظة العربية التي من الممكن أن تهدد كيان الدولة العثمانية . وليس هذا الأسلوب بجديد على الحركة الصهيونية ، فقد سبق واتبعه « هرتزل » فيما يختص بالقضية الأرمنية ، وأبدى استعداده لمساعدة الدولة العثمانية والدول الأوروبية في القضاء على الحركات الثورية .

(١) H. M. Kallen; *Zionism and World Politics*, pp. 82, 83.

(٢) A. Cohen; *Israel and The Arab World*, p. 76

ولاحظ المؤتمرون بأن الصهيونية تمر بمرحلة حاسمة من مراحل تاريخها لأسباب عديدة منها :

الشعور التي سببها ركود الحلول الأولى، ومشروع الصهيونية الخاص بأوغندا، وموت «هرتزل» عام ١٩٠٤، فقد شعرت المنظمة الصهيونية بنفاذ صبر الجماهير اليهودية التي تريد بناء «ملجأ» لها ، لا سيا بعد خيبة أملهم لفشل ثورة ١٩٠٥ في روسيا[١]. وكانت تجربة الهجرة الى الارجنتين قد فشلت بالرغم من أن المهاجرين كانوا من النخبة المختارة من يهود روسيا ، ذلك لأنهم لم ينسجموا مع مناخ البلاد ، ولأن الارجنتين لم تكن تمثل شيئاً بالنسبة الى معنوياتهم الروحية ، وهو عكس ما حدث في فلسطين وأميركا حيث انسجم اليهود فيها[٢].

ومن أجل ذلك ، قرر المؤتمر بأغلبية ساحقة في جلسة ٣٠ تموز (يوليه) عام ١٩٠٥ رفض مشروع استيطان أوغندا ، أو أي مشروع آخر لا يتضمن فلسطين التي لا بديل عنها كوطن للشعب اليهودي . وقد جاء هذا القرار بتأييد من الممول الصهيوني الألماني « داڤيد ولفسون » (Herr. D. Wolffsohn) وجاء فيه « ان المؤتمر الصهيوني إذ يشكر الحكومة البريطانية عرضها لتوطين اليهود في أوغندا ، فانه يرى ألا تهتم الحكومة بعد اليوم بهذا المشروع.» واعتبر المؤتمر ان مجرد هذا العرض البريطاني دليل على اعتراف بريطانيا بالمنظمة الصهيونية وبضرورة ايجاد وطن للشعب اليهودي ، وأعرب عن أمله في أن تسعى الحكومة البريطانية لتقديم مساعدتها وجهودها في المستقبل للاسهام في حل أية مسألة ترتبط ببرنامج بال . وأورد هـذا المؤتمر تعريفاً دقيقاً لمدلول كلمة صهيوني فقال : انه كل يهودي يوافق على برنامج بال .

ويعلق المؤرخ « ارنولد توينبي » (Arnold Toynbee) على هذا الموضوع فيقول : « يستطيع كل دارس للتاريخ أن يتبين الخطر العظيم الذي يمكن ان ينتج من مبدأ تعشق القديم ومحاولة الرجوع اليه ... لقد كانت تلك الفكرة خطيرة في السابق ... فكيف بها اذا اعتنقها أعضاء مجتمع هو في حقيقته بقـــايا متحجرة من حضارة قديمة ؟ ألا يكون في ذلك مناقضة صارخة مع حقائق الحياة »[٣].

---

(١) M. Louvish; *Immigration and Settlement*, P. 17.

(٢) L. Greenberg; *The Jews in Russia*, P. 75.

(٣) ارنولد توينبي : فلسطين جريمة ، ص ٥١ — ٥٢ .

والواقع انه بالرغم من الاجماع في اتخاذ بعض المقررات ، إلا أن الخلاف ظهر بوضوح بين أعضاء المؤتمر ، وهي المرة الأولى التي ينشق فيها الصهيونيون بهذا الشكل [١] ، فانشق على « ماكس نوردو » فريق من كبار الصهيونيين البريطانيين بقيادة « اسرائيل زانغويل » (Israel Zangwill) ، وأسسوا « المنظمة الاقليمية اليهودية » (Jewish Territorial Organization) [٢] التي قام أفرادها بجولات في بعض بلاد العالم يهدفون منها الى انشاء مستوطنات يهودية خارج فلسطين ، فلاقت تأييداً من بعض الحكومات الاوروبية ومن بعض المتمولين اليهود ، إلا أن جهودها لم تؤد الى نتائج فعالة .

أ – النشاط الصهيوني ١٩٠٥ – ١٩٠٦

استمرت الحكومة العثمانية في موقفها من الهجرة اليهودية الى فلسطين فأصدرت عدداً من القرارات الخاصة بفلسطين والقادمين اليهود والتي تؤكد عدم قبولها لاستيطان دائم في الاراضي المقدسة سوى ما نصت عليه القوانين السابقة من السماح بزيارة دينية محددة . وكان للموقف العثماني أثرٌ في انقسام أعضاء المنظمة الصهيونية في مؤتمر عام ١٩٠٥ ، فتذكر المصادر من ان معارضي مشروع أوغندا اعتقدوا ان النشاط الرئيسي للمنظمة الصهيونية يجب أن يكرس الاستيطان والعمل الثقافي في فلسطين ، بينما رأى الصهيونيون السياسيون – أتباع سياسة هرتزل – بأن المنظمة يجب ان لا تبدأ النشاط العملي في فلسطين قبل الحصول على ضمانات سياسية كافية [٣] .

ويمكن القول أيضاً بأن الانشقاق بين صهيوني بريطانيا وصهيوني ألمانيا ليس إلا وجهاً من وجوه التنافس الدولي للسيطرة على مناطق النفوذ في العالم ، فقد أصبح من مصلحة ألمانيا المتحالفة مع الدولة العثمانية والمستغلة لخيراتها ، تشجيع الصهيونية لاستعمار فلسطين واستغلالها للمهاجرين اليهود فيما اذا سقطت الدولة العثمانية ، وذلك بأسلوب منظم بواسطة السيطرة الاقتصادية والبشرية ، بينما كانت الدوائر الاستعمارية في بريطانيا تشجع

---

(١) كانت الصهيونية تنقسم الى قسمين : « الصهيونية العملية » (Practical Zionism) وتسعى لاستعمار فلسطين و « الصهيونية السياسية » (Political Zionism) وتسعى لاستعمار أية بقعة في العالم .

(٢) تعرف اختصاراً باسم (JTO) .

(٣) *Esco Foundation For Palestine*, P. 49.

الصهيونية للاستيطان في ممتلكات الامبراطورية البريطانية في شرقي أفريقيا. ولكن التنافس البريطاني – الألماني انتقل فيما بعد الى منطقة واحدة هي فلسطين، لا سيما بعد مقررات المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥، فأقنعت بريطانيا جنـاح الصهيونية السياسية بالتخلي عن تصميمهم القديم فاندمجت الصهيونية العملية والصهيونية السياسية لتوحيد الجهود من أجل استيطان فلسطين والتخلي عن أية منطقة في العالم لتحقيق الايديولوجية الصهيونية الهادفة الى خلاص «الوطن القديم» وجعل هذا الوطن مجتمع عمال مرتبطين بالأرض[١]. على أن يكون النشاط الصهيوني العملي في فلسطين له الدور الأساسي في اهداف المنظمة الصهيونية، وانه من أجل اعداد فلسطين لاستيطان يهودي جماعي يجب استخدام «العمل اليهودي» عن طريق العمال اليهود في شتى النواحي الاقتصادية ولا سيما الزراعة. وعبرت المنظمة عن ذلك بشعار قهر الارض عن طريق العمل[٢].

ومن الأهمية بمكان القول بأن المنظمة الصهيونية والدوائر البريطانية لم تنس مطلقاً فعالية المال والرشوات لتحقيق الأهداف الصهيونية، فاتصلت ببعض المسؤولين الاتراك وفي مقدمتهم «رشـيد باشا» متصرف القدس (١٩٠٤–١٩٠٦)[٣] الذي خضع لشهوة المال الصهيوني وأصدر عام ١٩٠٥ عدة قرارات مخالفة للقوانين العثمانية الرسمية، وإن كانت قراراته لا تنص صراحة على تسهيل الهجرة اليهودية، إلا أن الدارس لهذه القرارات الخاصة بالرعايا والمهاجرين الأجانب يدرك تماماً مدى التحايل على القوانين الرسمية الصادرة لمصلحة اليهود الذين كانوا عادة يحملون جوازات سفر أجنبية. فقد أرسل رشيد باشا رسالة إلى وزارة الداخلية في استانبول يطلب فيها السماح للمهاجرين اليهود –الأجانب– بتملك الأراضي وتشييد الأبنية، ولكن جاء الرد برفض طلبه، بعد أن تداول مجلس الدولة ودائرة الحقوق العثمانية بهذا الموضوع «لان الغرض من منع تملك المهاجرين

(١) لوران غاسبار: تاريخ فلسطين، ص ٦٩.

(٢) D. Ben Gurion; *The Jews in their Land*, p. 280.

(٣) رشيد باشا: تولى متصرفيه القدس منذ عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٠٦. وكان يؤيد الهجرة اليهودية الى فلسطين ويتعامل مع المنظمة الصهيونية، ونتيجة لسياسته المؤيدة لليهود احتج العرب وقدموا شكاوي ضده الى السلطة والحكومة العثمانية، وبسبب هذا الضغط العربي أقيل من منصبه وعين مكانه علي أكرم بك (١٩٠٦ – ١٩٠٨) الذي طبق القوانين العثمانية الخاصة بالهجرة اليهودية بشدة وبكل قسوة.

الأجانب ... إنما هو لتجنب المشاكل الدائمة التي تترتب على انشاء الأجانب لأبنية جسيمة في أماكن يجب أن تكون في ملكية المواطنين العثمانيين ... »[١].

والواقع أن المنظمة الصهيونية استطاعت أن تستفيد من هذه القرارات المحلية فتدفق اليهود الأوروبيون إلى متصرفية القدس ، لا سيما وأن بريطانيا قامت بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ولو بأساليب سلبية في بعض الأحيان . ففي عام ١٩٠٥ أصدرت بريطانيا قانون « هجرة الأجانب » الذي يحدّ من الهجرة اليهودية إليها ، وقد أدى هذا القانون إلى تدفق اليهود إلى فلسطين[٢] . وقد خدمت بريطانيا الحركة الصهيونية باصدارها هذا القانون نظراً للصعوبة التي كانت تلقاها هذه الحركة في إقناع بعض اليهود بالهجرة إلى فلسطين .

ومن ناحية أخرى ، فإن الصهيونية لم تكتف بهجرة اليهود إلى فلسطين ، بل طالب بعض قادة وزعماء الصهيونية الروس بايجاد مراكز خاصة تسهل عملية نزول المهاجرين إلى فلسطين عبر الموانىء ، وطلب الروسي « كالاييج » (Calleague) من القنصل البريطاني في القدس التدخل من أجل إتمام هذه التسهيلات وإحداث محطة للقوارب في يافا وجعلها تحت إدارة الأوروبيين « لا لشيء إلا لتزايد الأعداد الكبيرة من الحجاج الروس الذين يزورون فلسطين خلال أشهر الشتاء والربيع » . ولكن القنصل البريطاني صرّح « بأن الأمل ضئيل في أن تنفذ الدولة العثمانية هذا الاقتراح »[٣] . نظراً للموقف العثماني الرسمي من النشاط الصهيوني في فلسطين ، إلا أن القنصل أشار إلى أن تأسيس « الدولة اليهودية القومية » (Der Judische National) وتحقيق مبدأ « هرتزل » تحت راية الصهيونية من أجل إستيطان يهودي في

---

(١) رسالة وزارة الداخلية إلى متصرف القدس باللغة التركية الصادرة في ٣ شعبان ١٣٢٣ هـ – ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٣٢١ رومي، مرفقة برسالة ديكسون إلى اوكونر في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٥. Dickson to O'Conor, 2 Nov. 1905, No ? F. O. 195/2199. أنظر: الملحق رقم (٥) بالتركية وترجمته العربية. أنظر أيضاً: القرارات التركية رقم تحريرات قلم ٢٢٣ بتاريخ ٢٣ حزيران ١٣٢٠ (١٣٢٢) . ورقم تحريرات قلم ٩٣ – ٢٨ مارت ١٣٢١ ، ورقم ٣٩٨ – ٢٣ تموز (يوليه) ١٣٢١ في : F.O. 195/2199 - 1905 .

(٢) I. S. Sitton; *Immigration et Croissance*, p. 25.

(٣) Dickson to O'Conor, 19 Oct. 1905, No. 44, ir F.O. 195/2199.

فلسطين لا يمكن أن يتم إلا بالمال وبالمال وحده ، وانه من الضروري تشكيل لجان لجمع التبرعات والتعامل بالأمور المالية ... لأن ذلك يعتبر الأساس الأول لإنشاء الدولة اليهودية طبقاً لنظريات « هرتزل »(١) . وبهذا التصريح يكون « ديكسون » قد استطاع أن يعي مفعول المال الصهيوني في تحقيق مبادىء الحركة الصهيونية وأمانيها في فلسطين ، نظراً لاطلاعه على حقيقة الفساد الإداري المحلي للسلطات العثمانية . وقد سبق « لهرتزل » نفسه أن ألح على ضرورة إنشاء «البنك اليهودي» لتحقيق الأهداف الصهيونية. واضاف « ديكسون » بأن الحركة الصهيونية استطاعت شراء بعض الاراضي في فلسطين من الاقطاعيين العرب ، وقد استطاعت الحصول على (١٥٠٠٠) دونم من الاراضي في يافا ، وهي تساوي (٣٣٦٨) آراً ، وعملاً بالأنظمة التركية المرعية الاجراء ، فان من الواجب ان تسجل هذه الأراضي باسم عضو من المؤسسة اليهودية(٢) . ولكن القوانين العثمانية تمنع اليهودي من تملك الأرض في فلسطين ، لذا واجهت المؤسسة عقبة التسجيل (الطابو) إلا أن القنصل البريطاني اقترح بعض الاقتراحات لتجاوز القوانين العثمانية وتسجيل الأراضي وفي مقدمتها امكانية تلقي الحماية البريطانية بوصف المؤسسة اليهودية شركة بريطانية(٣) . وقد لعب رشيد باشا دوراً مهماً في تنفيذ هذه التجاوزات الصهيونية .

وكانت الرأسمالية اليهودية في بريطانيا خاصة وأوروبا عامة ، قد تخوفت من القرارات العثمانية من أن تكون حائلاً دون وصول اليهود واستيطانهم في فلسطين ، فعمدت إلى إغداق الأموال لتسهيل الهجرة وتشجيع اليهود بإقامة مستعمراتهم هناك ، ليس لأسباب إستعمارية فحسب ، إنما لتخوف الرأسماليين اليهود من يهود أوروبا الشرقية ، من أن يصبحوا إما منافسين لهم في الميادين الاقتصادية ، وإما أن يصبحوا عالة دائمة عليهم . ومن هنا كان التعاون الرأسمالي اليهودي مع الدوائر البريطانية لإبعاد اليهود إلى فلسطين . وكان إنشاء الشركة اليهودية ــ البريطانية مثالاً حياً لهذا التعاون الهادف إلى إنشاء الدولة اليهودية ، إلا أن مثل هذا التدبير في

(١) Dickson to O'Conor, 23 Nov. 1905, No. 53, in F.O. 195/2199.
(٢) Dickson to O'Conor, 23 Nov. 1905, No. 53, in F.O. 195/2199.
(٣) Dickson to O'Conor, 23 Nov. 1905, No. 53, in F.O. 195/2199.

فلسطين أوجد مشاكل ومسائل بين بريطانيا والدولة العثمانية[١].

وبالرغم من أن المؤتمر الصهيوني في عام ١٩٠٥ جسّد الآمال الصهيونية في جعل فلسطين دولة يهودية، فإنه لم ينجح في وقف الهجرة اليهودية إلى العالم الجديد، فقد وجد اليهود في الولايات المتحدة الأميركية توافر الشروط الاقتصادية والمالية والقانونية الملائمة، بالإضافة إلى سهولة الإستيطان بدون قيود قانونية، حيث لا يمكن توفر ذلك في ظل الدولة العثمانية وقوانينها، خاصة لِما تبادر إلى اليهود من أخبار عن مدى ما يعانيه إخوانهم في فلسطين سواء أثناء وصولهم أو بعده. لذا فضَّل كثير من اليهود الإستيطان في العالم الجديد وتركوا جانباً دعوة «البعث القومي اليهودي». ويكفي للدلالة على ذلك أن عدد اليهود في الولايات المتحدة الأميركية في الفترة الممتدة من ١٨٨٠ — ١٩١٠ كان حوالي مليونين ومئتي ألف نسمة، بينما كان عددهم في فلسطين في ذات الفترة حوالي ثمانين ألفاً.

وفي أوروبا، بدأ اليهود يتمتعون بامتيازات واسعة لا سيما في فرنسا، فقد ذكرت جريدة «العالم الإسرائيلي» في عام ١٩٠٥، أن عدد اليهود في باريس وحدها كان سبعون ألفاً تبعاً لإحصاء سابق وعددهم في هذا العام أكثر بكثير، لأنه قلما تجد شارعاً إلا وفيه ستة أو عشرة مخازن تخص اليهود ويقدر عدد اليهود الذين نالوا الجنسية الفرنسية في فرنسا والجزائر عام ١٩٠٥ بأكثر من ثلاثمائة ألف نفس، كما أن نسبة المراكز التي يحتلها اليهود في فرنسا أكثر بكثير من نسبة المراكز التي يشغلها الفرنسيون، وذلك نظراً إلى عددهم ومقارنتهم بسكان فرنسا[٢]

وتبعاً للموقف العثماني من الهجرة اليهودية والتناقض بين القوانين المركزية الرسمية وبين القوانين المحلية، فإن الهجرة بين أعوام ١٩٠٥—١٩٠٧ كانت تتأرجح بين التزايد والانخفاض، ففي هذه الفترة وصل إلى فلسطين عدد من القادمين كان في مقدمتهم «دافيد بن غوريون» و«اسحق بن زفي»، ولما وصل بن غوريون الى فلسطين عام ١٩٠٦ رأى ان حيفا هي البوابة الرئيسية الى فلسطين من الغرب، بينما كانت بقية البلاد القطعة المنسية من

---

(١) Dickson to O'Conor, 23 Nov. 1905, in F.O. 195/2199.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول عدد اليهود ونفوذهم في فرنسا منذ عام ١٨٤٨ حتى عام ١٩١٠ انظر: المقتطف، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، جـ ٦، م ٤٣، ص٥٦٢، ٥٦٣.

الأرض . ويعترف بأن حيفا كانت متمدنة وفيها عدد قليل من اليهود الذين يرجع وجودهم الى عهد الملك سليمان . ويذكر بأن مكتباً كان يوجد في حيفا للجمعية الصهيونية ، وكذلك لباقي الجمعيات اليهودية السياسية التي كانت تهدف الى تشجيع الهجرة والترحيب بالمهاجرين وتهيئة الظروف لتسهيل استيطانهم[1] .

---

(١) D. Ben Gurion ; *Memoirs*, P. 47.
ولد « داڤيد جرين » (بن غوريون) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في مدينة بلونسك في بولندا ، وكان عدد سكانها حوالي (١٠٠٠٠) نسمة نصفهم من اليهود . وكان جده (Zvi Ariah Green) من رواد حركة « مندلسون » الهادفة الى التوفيق بين الدين اليهودي وروح العصر . وكان والده (Avigdor Green) أحد قادة حركة « أحباء صهيون » في بلونسك وكان منزله ملتقى اتباع الحركة ، وكثيراً ما كان بن غوريون في طفولته يجلس ويستمع الى الحوار والجدل الذي يدور بين انصار هذه الحركة ومعارضيها ، وكان يستمع باستمرار الى عبارة « أرض اسرائيل » .

وفي عام ١٩٠٠ كـوّن بن غوريون مع جماعته « جمعية عزرا » لترسيخ مفاهيم « هرتزل » وتشجيع العبرية بين اعضاء الجمعية الذين كانوا يتكلمون اليديشية الروسية ، لأن العبرية كانت لغة ميتة منسية على حد تعبيره . وفي عام ١٩٠٢ انضم الى حركة « عمال صهيون » الداعية الى هجرة اليهود الى فلسطين والعمل فيها . وبعد مذبحة « كيشينيف » (Kishineff) ووفاة « هرتزل » عام ١٩٠٤ ، قرر بن غوريون وجماعته الهجرة الى فلسطين بعد اشتراكه في معارضة العرض البريطاني لاستعمار اوغندا . وكان قد سبقه اليها صديق طفولته « شومو زماخ » (Shomo Zemach) غير ان والد بن غوريون كان يريد لابنه متابعة دراسته العليا ، ولكن بن غوريون يذكر « بأنني لم استطع ان اغير تفكيري عن « أرض اسرائيل » وفي وارسو شعرت كأنني اضيع الوقت على نفسي دون تحقيق امنيتي الصهيونية ... ولكن لو يستطيع الانسان ان يدخل الى فلسطين ويعمل من الداخل بهدف انشاء « وطن اسرائيل »» . وبالفعل فقد وصل فلسطين في عام ١٩٠٦ ، حيث انضم الى حركة « عمال صهيون » ، ولم يرغب في البقاء في يافا ، بل توجه الى مستعمرة « بتاح تكفا » (ملبس) للبدء في العمل باعتباره المعنى الرمزي لوجوده في فلسطين . ويذكر انه لم يستطع النوم في أول ليلة وصل فيها فلسطين لأن مشاعره غلبته « هذه الليلة محفورة في ذاكرتي بكل ما تعني من فرح ونجاح ... انني في ارض اسرائيل وارض اسرائيل حولي اينما توجهت ... »

وفي عام ١٩٠٨ اتجـه بن غوريون إلى روسيا للالتحاق بالخدمة العسكرية ولكنه فرّ هارباً « لأعود إلى بلدي » ، وفي فلسطين فكـّر بضرورة تعلم اللغة التركية والسفر إلى استانبول لدراستها ودراسة القانون ، حتى يتيسر له التعامل مع السلطات التركية وتسهيل عملية الهجرة والسير على خطى « هرتزل » . وكان يشجعه في اتخاذ هذه الخطوات بن زفي ، كما كان يطمح لأن يصبح عضواً في البرلمان التركي ، غير أنه لم يسمح له بدخول تركيا في عهد السلطان « عبد الحميد الثاني » إلى أن تسنى له ذلك في عهد الاتحاديين عام ١٩١٢ . حول سيرة بن غوريون أنظر : D. Ben Gurion ; *Memoirs*, pp. 34, 35, 41, 47, 184.
أنظر أيضاً : تهاني هلسة : داڤيد بن غوريون ، ص ١١ ، ١٣ ، ١٥ وما يتبعها .
محمود العابدي : بن غوريون وبناة اسرائيل ، ص ٣١ ، ٣٢ .

وقد اتبع « بن غوريون » و « اسحق بن زفي » أسلوباً جديداً في عملية الاستيطان والعمل الزراعي ، فقد نظما حركة يهودية لمقاطعة اليد العاملة العربية ، وطرد حراس المزارع اليهودية من الشركس والبدو ، ثم أقام بن غوريون مع آخرين منظمة « هاشومر » (الحرس) لتصبح فيما بعد الجناح العسكري « الهاغانا » للمنظمة الصهيونية . وساهم مبدأ مقاطعة اليد العاملة العربية والجو المعادي للغزو الصهيوني في فلسطين في عزل المهاجرين اليهود ضمن مستعمرات جماعية عرفت بالكيبوتز لاسيما في الجليل، ولكن « بن غوريون » سكن في مخيم (Sejera) الذي كثيراً ما هاجمه العرب(١) .

وكانت الحياة – كما يعترف بن غوريون – صعبة للغاية ، إذ أن معظم اليهود كانوا يعانون من ردود الفعل العربية والقوانين العثمانية ، بالاضافة إلى إصابتهم بالملاريا ، فقد كانت نسبة الوفيات بينهم مرتفعة جداً في مستعمرة « الخضيرة » ، وقد أصيب بن غوريون بها فطرحته الفراش ، وكانت تعاوده كل اسبوعين إلى أن نصحه أحد الأطباء بمغادرة البلاد ، إذ لا فائدة من بقائه ، ولكنه أصر على البقاء في « أرض إسرائيل » لأنها « أرض الأجداد » . وأما بالنسبة لعمله في فلسطين فقد فشل فشلاً ذريعاً كعامل زراعي ، ومضت عدة أشهر قبل أن يتعلم شيئاً واحداً هو جرّ عربات « الزبل » لتسميد المزارع ، ثم تعلم فيما بعد الحراثة في مستعمرة « الشجرة » . ويعترف « بن غوريون » « بأن التعب والعمل لم يعد هو الذي يزعجنا ، وإنما قلة النوم ، فقد كان العرب يحيطون بنا من كل جانب ... » يحاولون الانقضاض على المهاجرين لإرهابهم وتهجيرهم من جديد من حيث أتوا ، إلا أن « بن غوريون » كان يؤمن بالعمل والجدية لتحقيق الأهداف الصهيونية في فلسطين ، إذ رأى أن جميع يهود شرقي أوروبا وشمالي شرقي الدانوب – وهو منهم – فضّلوا أخذ المسألة بكل تفكير ومنطق ، وبعد قرار الهجرة كان قرار البناء الفعّال لإنشاء « اسرائيل » عوضاً عن الكلام المعسول أو الحلم والانتظار لتحقيق الوعود السحرية والتنبؤات(٢) . ورأى أن استعمار فلسطين لا يتم عن طريق التبرعات أو بواسطة الامتيازات ، وإنما من خلال النشاط اليهودي ، فالانتصار الصهيوني لا يتحقق إلا بالعمل وحده(٣) .

---

(١) D. Ben Gurion; *Memoirs*, p. 158. أنظر أيضاً : عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٤٠ .

(٢) D. Ben Gurion; *Memoirs*, p. 34.

(٣) D. Ben Gurion; *Rebirth and Destiny of Israel*, p. 6.

وبالفعل فقد قامت الجمعيات الصهيونية بنشاطها العمـــلي في فلسطين لتنفيذ برامجها الاستيطانية ، ولكنها واجهت عقبة السلطات المحليـة التي عارضت هذه النشاطات الصهيونية ، فقد كانت الجمعية الصهيونيّة قد أخذت على عاتقها مهمة مساعدة اليهود المضطهدين للحصول على امتيازات من الارادة السلطانية التي عاقبتهم لتعيينهم رئيسهم اللورد «امهرست» (Lord Emherst) قيّماً على ممتلكات الجمعية في فلسطين . وأوضح « فرانك بيڤن » (F. Bevan) « من أن إسم الجمعية كان سيء الحظ مثل كلمة « مضطهد » التي كانت تطبق كعقوبة للذنب الذي يقترفه اليهود في باقي البلاد غير التركية ، ومع ذلك إذا غيرنا الإسم فانه ينتج عنه صعوبة تواجـــه الجمعية في المطالبة بالحقوق الممنوحة لها تحت الإسم القديم »[١]. وبالرغم من هذا الموقف العثماني إلا أنه يلاحظ أن النفوذ الصهيوني بدأ يعطي نتائجه في فلسطين بين أوساط اليهود أنفسهم ، ففي الانتخابات بين الحاخامين اليهود في فلسطين برز نفوذ « الأليانس الاسرائيلي » ذي الصبغة الصهيونية بحيث عُزي انتخاب الحاخام الأكبر للقدس « جاكوب ماير » (Jacob Meyer) إلى هذا الاليانس ، بالرغم من أن هذا الرجل لم يكن معروفاً ، إنما على حد تعبير التقرير البريطاني « أنه يحمل أفكاراً تقدمية »[٢]. أما السيد « بانيجل » (Panigel) مرشح الفريق المناوىء للاليانس الاسرائيلي فانه لم ينجح ...[٣] ، وبذلك تكون الحركة الصهيونية في فلسطين قد بدأت تتدخل في الشؤون الدينية البحتة ، وتجذب إليها الحركة الدينية اليهودية لتجعل من الدين ومؤيديه أنصاراً للصهيونية ومؤيدين لها . ومن ثم لتثبت أقدامها في الأراضي المقدسة عن طريق بعض المؤسسات اليهودية .

وفي هــذه الفترة ، تمتع رجال الدين اليهودي بنفوذ كبير في أوساط الحركة الصهيونية ، لا سيما بعد تشجيعهم اليهود للهجرة إلى فلسطين « أرض الميعاد » ومما ساعدهم في نجاح حركتهم تصميم عدد من اليهود على استيطان فلسطين ، لا سيما بعد ممارسة الاضطهادات الروسية بعد انتخابات عام ١٩٠٦

---

(١) Campbell (F.O.) to O'Conor, 7 Feb. 1906, No. 54, in F.O. 371/146.

(٢) Freeman to Barcly, 29 Sep. 1906, No. 50, in F.O. 371/155.
انظر ايضاً : Barcly to Secretary of State (Jerusalem) 11 Oct. 1906, No. 694, F.O. 371/155.

(٣) Freeman to O'Conor, 28 March 1907, No. 8, in F.O. 371/348.

واصدار القوانين المجحفة بحقهم ، وكانت الحكومة الروسية قد ضاعفت نشاطها بفرض قيود على عودة اليهود إلى روسيا ، والذين يعيشون في الخارج منهم بالذات ، حيث كان يسمح لهم بالدخول للزيارة فحسب ، وكان البوليس يجلس قرب الفندق المسموح لليهود النزول فيه ليراقب تحركاتهم ومخالفاتهم . فاتبع اليهود في روسيا نفس الاسلوب الذي أتبعه المهاجرون اليهود إلى فلسطين وهو اسلوب الرشوة ، فكانوا يرشون البوليس من ناحية ، وكانت الجمعية اليهودية في « كييف » تدفع مقابل تلك الزيارة ضرائب تقدر بـ (١٥٠٠٠) روبل سنوياً من ناحية أخرى[١] .

والواقع أن يهود روسيا كانوا أكثر هجرة من بقية المهاجرين اليهود سواء إلى فلسطين أو غيرها من الدول وذلك منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ، نظراً للظروف السياسية التي عاشوها . وبالرغم من ذلك فكان من رأي هرتزل – قبل وفاته – ألّا تزداد هذه الهجرة إلا بعد الحصول على موافقة عثمانية ودولية بشأنها . وبعد وفاة هرتزل قدّر للحركة الصهيونية زعماء استطاعوا أن يسدوا ثغرة الزعامة الصهيونية ، ويتابعوا النشاط العملي مع الدوائر الاستعمارية لإقناعها بضرورة إستيطان فلسطين . وكان « حاييم وايزمن » – الكيمائي اليهودي الروسي – في مقدمة هؤلاء الزعماء ، حين سافر إلى لندن وانصرف عملياً إلى توطيد علاقاته مع السياسيين البريطانيين . وكان منهجه الصهيوني القائم على أساس « الصهيونية التركيبية » (Synthesis Zionism) يهدف إلى « صهينة » كبار الساسة غير اليهود في العالم (Gentile Zionism) وإلى محاولة التنسيق بين الجهود السياسية والعملية ودمجها في بوتقة واحدة[٢] . ومن أجل ذلك اجتمع « وايزمن » مع « آرثر بلفور » (Arthur Balfour) في عام ١٩٠٦ في مقاطعة « كلايتون » في شمال مانشستر – أثناء خوض الأخير المعركة الانتخابية – فأشار « وايزمن » إلى أن اليهود يريدون امتلاك فلسطين ويطلبون مساعدة بريطانيا ، فحاول بلفور معرفة رأي الزعيم الصهيوني في أوغندا كوطن لليهود . فقال وايزمن لبلفور : « ماذا لو أن الناس قدموا لك باريس بدل لندن ؟ » .

فقال بلفور : ولكن اذكر أن لندن هي ملكنا وهي بأيدينا ، أما فلسطين !

---

(١) L. Greenberg; *op. cit.*, pp. 13,49.

(٢) *Esco Foundation For Palestine*, p. 48.

فقال وايزمن : إننـــا كنا نملك فلسطين حين كانت لندن غابات ومستنقعات ، وسوف نعود فنملكها من جديد[1] . وقد وعد بلفور الزعيم الصهيوني خيراً ، وأشار فيما بعد إلى هذا الاجتماع وقال عن وايزمن ، انه الرجل الذي جعله صهيونياً[2] .

وفي عام ١٩٠٦ قامت بريطانيا بمناورات عسكرية في أراضي الدولة العثمانية رمت من ورائها « جس نبض » الأتراك حينما حاولت أن تنتزع العقبة وخليجها من الدولة العثمانية وتضمها إلى سيناء المصرية التي كانت تحت حكم وسيطرة بريطانيا ، وحدث من جراء ذلك نزاع طويل بين الدولتين انتهى بفشل بريطانيا وبقاء العقبة بيد الدولة العثمانية[3] . وكانت الحركة الصهيونية بمساعدة المظاهرات العسكرية البريطانية في المنطقة ، تحـــاول الضغط على الدولة العثمانية التي كانت لا تزال تعاني من العجز الاقتصادي. وبالرغم من هذه الأوضاع العسكرية والاقتصادية التي كانت تواجهها الحكومة التركية فقد استمرت في التمسك بموقفها الثابت من الصهيونية وبريطانيا على السواء . وكانت ديون الدولة العثمانية توحي من جديد أن بالامكان الحصول على تنازلات من قِبلها . فقــد أصبح العجز المالي الشغل الشاغل للعاملين في هذا المجال . وقد قدرت الديون الخارجية للدولة في العام ١٩٠٦ بعد تناقصها (١٠٤،٢٢٨،٠٠٠) جنيه عثماني ، ومعدل فائدتها ٤٪ ، وكان مجموع هذا الدين لعام ١٨٩٨ نحو (١٣١،٠٠٠،٠٠٠) جنيه عثماني ، ولكن ارتفعت الديون مجدداً بعد فترة وجيزة وبلغت ما يقارب (١١٩،٩٩٦،٢٨١) جنيهاً عثمانياً[4] .

ب – النشاط الصهيوني عام ١٩٠٧

عملت الصهيونية على مواصلة نشاطها ، فعقدت في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٠٦ مؤتمراً مصغراً في « بروكسل » للتوصل إلى مساعٍ مشتركة لتنظيم الهجرة والاعتناء باللاجئين اليهود في فلسطين ، على أن هذا المؤتمر لم يتوصل إلى نتائج تذكر ، إلى أن عقد في عام ١٩٠٧ المؤتمر الصهيوني

---

(١) حاييم وايزمن : التجربة والخطأ ، ص ١٤ .
(٢) آلان تايلور : مدخل الى اسرائيل ، ص ٢٠ .
(٣) مذكرة عن خليج العقبة ومطامع اليهود ... ، ص ٧ .
(٤) انظر : الهــلال ، ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٧ ، ج ٢ ، ص ١٠٨ . انظر ايضاً : المقتبس ، ١٩١٠ ، م ٥ ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ .

الثامن في « لاهاي » ، وتوصل إلى نتائج هامة تأتي في مقدمتها أن « حاييم وايزمن » استطاع دمج جميع الكتل في إطار الصهيونية السياسية ، وقد حل جميع الخلافات القائمة بين الأجنحة الصهيونية لكي يدفع بالقضية الصهيونية إلى الأمام داخل فلسطين وخارجها[١] .

وفي المؤتمر الصهيوني الثامن أكد الزعيم الصهيوني « ماكس نوردو » أن الذهاب إلى فلسطين ضرورة صهيونية ، بالاضافة إلى أن الصهيونية بمثابة رائدة للمدنية الأوروبية . وهو بذلك يكرس ما سبق وذكره « هرتزل » من أن الصهيونية هي الرسول الأمين لنشر الثقافة والمدنية والحضارة الأوروبية في الشرق . وفي هذا المؤتمر خطت الصهيونية خطوة عملية ، إذ تقرر تأسيس شركة للأراضي الفلسطينية وتخصيص قرض يقدمه « البنك القومي اليهودي » وذلك لبناء مستعمرات جديدة بالقرب من يافا — نواة مدينة تل أبيب — ، كما قرر المؤتمر اعتبار اللغة العبرية لغة التخاطب الرسمية للصهيونية[٢] .

وعن موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فقد عالج أعضاء المؤتمر هذا الموقف ، ورأى بعضهم أن هذا الموقف من الصهيونية سيؤدي إلى صعوبة في تحقيق أهدافها في الأراضي المقدسة ، ولكن حاييم وايزمن رفض من جهته هذا المنطق ورأى أنه يمكن التغلب على القوانين العثمانية والحصول على فلسطين بواسطة العمل الصهيوني وقال : « أنا أعلم أنه يوجد بينكم من يتحدث عن الدولة العثمانية وعن قوانينها التي تحظر علينا كذا وكيت من أعمال في فلسطين ، أما أنا فأرفض هذا الهذيان وأؤكد أن العزيمة والاصرار يتغلبان على الأتراك وعلى قوانينهم . وهناك شيء آخر ، انكم تتحدثون عن وعد تنالونه من دولة كبرى يبيح لكم العمل في فلسطين ، وأنا أؤكد لكم أن ألف وعد كهذا لا يفيد إن لم نعمل نحن

---

(١) لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، ص ٦٩ ، انظر ايضاً : آلان تايلور ، المرجع السابق ص ٢١ . من بين أهم مقررات المؤتمر الصهيوني الثامن : ضرورة شراء الصحف الاوروبية لخدمة الحركة الصهيونية ، وقد تمكنت المنظمة بالفعل من شراء صحيفة « الجويش كرونيكل » (Jewish Chronicle) اللندنية ، وقد لعب « صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار » دوراً رئيسياً في اتمام الصفقة .

(٢) اكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، ص ٤٤ .

أولاً في فلسطين ونقوم بالأعمال التي من شأنها أن تحول فلسطين هذه إلى وطن عملي لليهود »[١].

وعلى هذا الأساس عملت المنظمة الصهيونية على تمويل عمليات شراء الأراضي في فلسطين معتمدة على رضوخ عاملين لها : الاقطاع والادارة الفاسدة . وبالفعل فان المستعمرين اليهود في حيفا ابتاعوا عام ١٩٠٧ من العائلات الاقطاعية اللبنانية من آل سرسق وتويني قريتي بيت لحم وأم العمد في جوار الناصرة[٢] كما اشترى اليهود بعض القرى الأخرى بأسماء مستعارة على أساس انهم من رعايا الدول الأجنبية . وقد ذكر « محمد حبّال » – المكاتب العام لصحيفة « ثمرات الفنون » في عكا – عمليات الشراء غير المشروعة وقال : « بأنني أخبرتكم في رسالتي الماضية عن عزم الحكومة السنية بإنشاء مرفأ في حيفا يستوعب نحواً من خمس وعشرين باخرة ، وبإنشاء فرع من سكة حيفا الحديدية إلى جنين فنابلس فالقدس ، وبلغني الآن ، أن البعض يسعون لتملك ما يستطيعون امتلاكه من القرى المجاورة لهذا الخط من قضوات حيفا والناصرة وجنين ، **حتى أن بعض المحظور عليهم قد تملكوا من عهد قريب بعض القرى التابعة لشفا عمرو ، وأخذوا يشيدون فيها الأبنية ويشترونها بأسماء مستعارة** » . ويضيف « محمد حبّال » أن الموقف العثماني حيال هذه المخالفات كان شديداً وأنه « لما بلغ الخبر صاحب السعادة « فريد باشا » – متصرف اللواء – أصدر أمره إلى جميع الملحقات بوجب القصاص الشديد على المختارين وغيرهم من الأهلين الذين يرون أبنية تُشيّد بغير رخصة رسمية »[٣] .

وفي عام ١٩٠٧ استمر النشاط الصهيوني ، وسعى المهاجرون اليهود القادمون من روسيا إلى تأسيس مصنعين في حيفا أحدهما لصنع الصابون والآخر لعمل الحديد ، وصرفوا عليهما جميع ما كان في أيديهم من الأموال حتى تمكنوا من إنهاء البناء . إلا أن اليهود في حيفا بصورة عامة كانوا قلة وفي حالة تعيسة ، وبعد تزايد هجرتهم أصبح عددهم على مقتضى الاحصاء الصهيوني (٣٠٠٠) بينما كان عددهم على مقتضى القيود العثمانية الرسمية (١١١٧)

---

(١) حاييم وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١٥ .
(٢) محمد رفيق ومحمد بهجت : ولاية بيروت – القسم الجنوبي ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .
(٣) ثمرات الفنون ، ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٧ ، العدد ١٦٤١ ، ص ٧ ،

يهودياً[1]. وهذا ما يدل على استمرار الهجرة اليهودية بأساليب غير قانونية مثل التسلل، والبقاء بفضل الرشوة، كما تزايدت الجهود الصهيونية لا سيما في حيفا وزمارين وهما من أهم مناطق الاستعمار اليهودي في فلسطين في هذه الفترة، حيث تولت شعبة حيفا لشركة الاستعمار اليهودي وظيفة الادارة العامة المستوطنات اليهودية في طبريا وزمارين، ثم تملكت الشركة أراضي شاسعة من رجال الاقطاع الشامي — اللبناني والسوري — وكانت تمنح كل أسرة يهودية تهاجر إلى فلسطين أرضاً تتراوح مساحتها من ٣٠٠ إلى ٤٢٠ دونماً، وتستوفي الشركة ثمن الدونم من ٢٠ إلى ٣٠ فرنكاً وذلك في مدد طويلة قد تصل إلى ٥٠ أو ٦٠ سنة، بالاضافة إلى ذلك فقد وجد في شعبة حيفا صندوقان لاقراض الأموال مقابل إنشاء الدور وكان فائض هذه الأموال ٦٪ من الناحية الشكلية[2]، بينما لم يكن الفائض يُستوفى من اليهود في الغالب، لأن الهدف من هذا الاقراض هو تشجيع الهجرة اليهودية وتمكين المستوطنين من البقاء في فلسطين.

وقامت شركة الاستعمار اليهودي بجهود ثقافية لربط اليهودي بتاريخه الثقافي فعمدت إلى تأسيس مدارس لتعليم العبرية، على أن يؤخذ بعين الاعتبار دراسة اللغتين التركية والعربية، وكانت الشركة تدفع رواتب معلمي المدارس اليهودية راتباً يتراوح بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ فرنك للمعلم، وتقدم لهم دور سكن مفروشة بلا مقابل. وعلاوة على ذلك فان المعلمين والمديرين في هذه المدارس كانوا أيضاً لا يدفعون ثمن ماء أو أدوية أو أجور طبابة. وكانت الشركة تهدف إلى تشجيع اليهود في فلسطين على دراسة «الثقافة القومية» (National Culture) وترسيخها في أذهانهم وربطها مباشرة بتاريخهم الديني وضرورة التشبث والعمل بالأراضي المقدسة.

وكان المؤتمر الصهيوني الثامن قد قرر ايفاد حاييم وايزمن مع آخرين إلى فلسطين ليطلع بنفسه على أحوال اليهود فيها. ولما وصل إلى الأراضي المقدسة وتجول في مناطق الإستيطان اليهودي وبقي فيها مدة ثلاثة أسابيع تألم جداً من أوضاع اليهود، واعترف بفشلهم وتأكد بنفسه أن ما جاء في خطابه في المؤتمر الصهيوني لا يمكن تحقيقه بهذه السهولة، ثم رأى أن من

(١) محمد رفيق ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٢٤١.
(٢) انظر: محمد رفيق ومحمد بهجت، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

أسباب فشل الإستيطان اليهودي هو اعتماد اليهود على أموال الإحسان والهبات التي تأتيهم من الخارج ، فيضطرون في كثير من الأحيان إلى ترك مستوطناتهم ويذهبون إلى المدن أو إلى « المنفى » الذي جاؤوا منه . وأكثر ما تألم منه هو طبيعة الحياة اليهودية في القدس القائمة على التسول والاستجداء .

وفي فلسطين التقى « آرثر روبين » (Arthur Ruppin) —الألماني الروسي— الذي أكد له صعوبة المشاكل التي تواجه اليهود ، من عدم التكيف مع البيئة إلى تزايد الفقر بينهم إلى هربهم من المستوطنات . وقد استطاع « روبين » خدمة الصهيونية واليهود في فلسطين إثر إقامته فيها ستة أشهر ، إذ استطاع خلالها دراسة الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للسكان العرب واليهود على السواء . وقدم تقريراً هاماً بعد أن عاد إلى النمسا في ٢٣ شباط (فبراير) عام ١٩٠٨ ، وقدم برنامجاً لاسلوب العمل الإستيطاني ورأى ضرورة تبنيه من « جمعية الإستيطان اليهودي » وطلب فيه التوسع في شراء الأراضي في فلسطين في المدن والريف معاً ، على أن يتم توزيعها تبعاً لمتطلباتهم البيئية والنفسية .

وبعد فترة وجيزة عاد آرثر روبن إلى فلسطين ممثلاً للمنظمة الصهيونية ومديراً لِما عُرف باسم « مكتب فلسطين » ، ومهمته إعداد التقارير عن فلسطين والإشراف على عمليات الاستيطان فيها ، تساعده في ذلك شركة صهيونية عرفت باسم « بلدس » (P. L. D. C.) وهي « شركة تطوير أراضي فلسطين » (Palestine Land Development Co.) . وكان موظفوها من قادة الحركة الصهيونية في « الدياسبورا » (Diaspora). بالإضافة إلى ذلك فقد كان مكتب فلسطين مسؤولاً عن جلسات العمل الصهيونية داخل الجمعية ، وكان مركزه في كولون من عام ١٩٠٥ حتى آب (اغسطس) من عام ١٩١١(١) . وهكذا استطاعت المنظمة الصهيونية متابعة نشاطها الاستيطاني وتقوية مصالحها الاقتصادية والثقافية وهو ما أسمته التغلغل السلمي في فلسطين(٢) .

وفي عام ١٩٠٧ كانت مشاكل السلطان المالية تتعاظم مع الأيام ، وكان

---

(١) Y. Roi; *The Zionist..*, p. 201.

(٢) M. Louvish; *Immigration and Settlement*, p. 19.

انظر ايضاً : خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي ، ص ٢٩ .

مساعدوه ينتظرون حدوث معجزة لانقاذ الدولة ، ومن أجل هذا زار الزعيم الصهيوني « ولفسون » القسطنطينية في هذا العام مرتين على التوالي ، وبالرغم من أنه لم يستطع التحدث عن الهجرة اليهودية أو تملك الأراضي ، وبالرغم من أن الأتراك كانوا بحاجة ماسة للمال الصهيوني إلا أن نتيجة رحلتـه كانت – مثل رحلة هرتزل – بدون فائدة[١] . وهذا مما يؤكد تمسك السلطان العثماني بقرارات وقوانين الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ولو أراد مقايضتها بالأموال الصهيونية لوافق على ذلك أثناء محاولات هرتزل المتعددة بهذا الصدد ، بل على العكس ، ظلت الحكومة العثمانية تفرض قوانينها وتحارب الأهداف الصهيونية – لا سيما بعـد تغيير بعض موظفي الادارة – بدليل أنه عندما طلبت الشركة الانكليزية – الفلسطينية منحها ترخيصاً للعمل في يافا باعتبارها مؤسسة تجارية في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٠٧ رفض رئيس المحكمة التجارية في يافا طلبها[٢] .

ج – مؤتمر «كامبل بانرمان» الاستعماري ١٩٠٧ والنشاط الصهيوني ١٩٠٨

كانت البلاد الخاضعة للدولة العثمانية محط أنظار وأطماع الدول الأوروبية الاستعمارية لِما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية بالإضـافة إلى وجود التنافس الأوروبي – الأوروبي على مناطق عديدة من دول أفريقيا وآسيا .

وفي عام ١٩٠٥ عقد مؤتمر لندن بصورة رسمية وسرية بعد سقوط حكومة المحافظين التي كان يرأسها « آرثر بلفور » وقد استمرت جلسات المؤتمر حتى عام ١٩٠٧ ، وكان قد دعا إليه حزب المحافظين وقدمت توصيات إلى حكومة الأحرار برئاسة سير «هنري كامبل بانرمان» (Sir H. Campbell Bannerman) ، وكان هدف المحافظين إقناع رئيس الوزراء الجديد بالعمل لتشكيل جبهة استعمارية من الدول الأوروبية وهي : انجلترا ، فرنسا ، ايطاليا ، أسبانيا ، البرتغال ، بلجيـكا وهولندا ، وذلك لمواجهة التوسع الاستعماري الألماني ولتحقيق بعض الأهداف التوسعية في أفريقيا وآسيا .

وبالفعل فقد تأسست لجنـة عليا مختصة في الشؤون الاستعمارية مؤلفة من أعضاء الدول المشتركة ، واجتمعت في لندن عام ١٩٠٧ ، وكانت تضم

(١) M. Medzini; *Zionism*, p. 89.

(٢) Blesh to O'Conor, 6 Sep. 1907. No. 38, in F.O. 195/2255.

جماعة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والاقتصاد والزراعة والجغرافيا والبترول [١]. وانتهى تقرير المؤتمر عام ١٩٠٧ إلى ضرورة توطيد الاستعمار في المناطق التي تسيطر عليها الأمبراطوريات المشتركة في المؤتمر، فعلى سبيل المثال لا الحصر، توطيد سيطرة بريطانيا في أفريقيا والهند والشرق الأقصى، وايطاليا في ليبيا، واسبانيا في المغرب وجزر المحيط الأطلسي، وانتهى المؤتمر أيضاً إلى قرارات تقضي بضرورة التوسع في مناطق أخرى آسيوية وأفريقية.

والواقع أن المؤتمر استعرض الأخطار التي يمكن أن تنطلق من تلك المستعمرات فاستبعد قيام مثل هذه الأخطار في كل من الهند والشرق الأقصى وأفريقيا والمحيط الأطلسي والهادئ نظراً لانشغالها بالمشاكل الدينية والعنصرية والطائفية، وبالتالي بعدها عن العالم المتمدن. وتوصل مؤتمر لندن ١٩٠٧ بالنتيجة إلى أن مصدر الخطر الحقيقي على الدول الاستعمارية إنما يكمن في المناطق العربية من الدولة العثمانية، لا سيما بعد أن أظهرت شعوبها يقظة سياسية ووعي قومي ضد التدخل الأجنبي والهجرة اليهودية والحكم التركي أيضاً [٢]. وأوضح تقرير المؤتمر أهمية المنطقة العربية باعتبارها نقطة التقاء بين الشرق والغرب، وزاد من أهميتها وجود قناة السويس كأهم ممر مائي لأوروبا. ورأى المؤتمر خطورة الشعب العربي على المصالح الاستعمارية نظراً لتوافر عدة عوامل يملكها: وحدة التاريخ واللغة والثقافة والهدف والآمال، واحتمال تزايد عدده من ٣٥ مليون نسمة إلى مئة مليون نسمة خلال قرن من الزمن، ثم أن امكانية وعوامل الوحدة وانتشار التقدم العلمي والفني والثقافي متوفر لدى الشعب العربي، وفي الوقت الذي ستتم فيه هذه الاحتمالات ستحل الضربة القاضية على الأمبراطوريات الاستعمارية. وأخيراً انتقل التقرير إلى الوسائل لدرء الخطر المحتمل من المنطقة العربية فدعا الدول الاستعمارية إلى العمل على استمرار وضع هذه المنطقة متأخراً، والعمل على إيجاد التفكك والتجزئة والانقسام، وإنشاء دويلات مصطنعة

---

(١) من اعضاء اللجنة العليا: البروفسور جيمس مؤلف كتاب: زوال الامبراطورية الرومانية، ولوي مادلين مؤلف كتاب: نشوء وزوال امبراطورية نابوليون، والبروفسور ليستر ولسنج، وسميث، ودثرتنج، وزهردف.

(٢) على سبيل المثال للوعي القومي في هذه الفترة: ثورة عرابي عام ١٨٨٢ في مصر، ثورة المهدي عام ١٨٨٤ في السودان وغيرهما، وقيام عدد كبير من الجمعيات القومية في بلاد الشام.

تابعة لتلك الدول وخاضعة لسيطرتها وأوصى التقرير بشكل خاص على محاربة إتحاد هذه الجماهير العربية أو ارتباطها بأي نوع من أنواع الاتحاد الفكري أو الروحي أو التاريخي، وبضرورة ايجاد الوسائل العلمية القوية لفصلها بعضها عن بعض ما استطاع الاستعمار إلى ذلك سبيلاً (١).

وفي التواصي العاجلة التي قدمها مؤتمر لندن الاستعماري لرئيس الوزراء «كامبل بانرمان» أكد المؤتمرون ضرورة فصل الجزء الأفريقي من المنطقة العربية عن جزئها الآسيوي وضرورة إقامة «الدولة العازلة» (Buffer State) إذ أن إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوربية ومصالحها هو التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسبل المقترحة (٢). وكانت هذه التوصية تعني أموراً عديدة منها:

١ - أن الاشارة إلى زرع شعب غريب في شرقي قناة السويس أي في سيناء وفلسطين باعتبارهما منطقتين وحيدتين يمكن أن تفصلا عرب آسيا عن عرب أفريقيا، هذه الاشارة تعني مباشرة الشعب اليهودي.

٢ - كان تقرير مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ بمثابة «الضوء الأخضر» للسياسة البريطانية والحركة الصهيونية في انتزاع فلسطين عن سائر الوطن العربي، لخلق نواة استعمارية تؤمن استمرارية النفوذ الاستعماري في المنطقة.

٣ - لم يكتف التقرير بضرورة إيجاد «الدولة اليهودية» في فلسطين بل رأى أن الضمانة الأكيدة لاستمرار النفوذ الاستعماري في المنطقة العربية هو ضرورة إيجاد ظروف التقسيم والتفكك والتناحر بين الشعب العربي.

٤ - ان تقرير المؤتمر الاستعماري يعني حتمية الصراع بين مجموعة الدول التي اشتركت في المؤتمر من جهة وبين ألمانيا والدولة العثمانية من جهة اخرى. ذلك لأن النتائج التي توصل اليها خبراء اللجنة العليا، أوضحت انه لا يمكن الوصول الى تجزئة العالم العربي وتقسيمه إلا بعد اقامة دولة عنصرية غريبة في المنطقة، ولا يتم ذلك ايضاً إلا بعد تصفية الدولة العثمانية،

---

(١) حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية، ص ١١٥، ١١٦.
(٢) ملف وثائق فلسطين، جـ ١، ص ١٥٣.

وكان ذلك أمراً مستحيلاً ما لم يتم القضاء على المانيا – الطامعة في الشرق – لأن أي صدام مع الاتراك يعني الصدام مع المانيا.

وكانت الحركة الصهيونية ترى ضرورة وحتمية الصراع بين الدول الاستعمارية القديمة من ناحية وبين الاستعمار الألماني وتركيا من ناحية أخرى وذلك لتحقيق أهدافها في فلسطين وتنفيذ مقررات مؤتمر «بانرمان». وفي الوقت الذي اتخذ فيه هذا المؤتمر الاستعماري مقرراته بانشاء دولة يهودية في فلسطين – وذلك لأسباب استعمارية بحتة – وجدنا القنصل البريطاني «بلش» (Blesh) في القدس يؤكد عدم إمكانية تحقيق ذلك، فذكر في تقريره إلى «اوكونر» (O'Conor) «بأنني أعتقد أنه من الأضمن القول أنه ليس هناك أحد يؤمن كثيراً بتأسيس دولة يهودية في فلسطين في المستقبل القريب سوى القسم المتعصب دينياً، أما القسم الرزين العقلاني فإنه يتخطى تحقيق التنبؤات النظرية إلى الحقائق الواقعية من أن جحافل هجرة اليهود في الحاضر تنصب على جمهورية الأرجنتين، كندا، والولايات المتحدة، وأنه يبدو لي بالتأكيد أن ولاية نيويورك تحوي حوالي مليون نسمة من اليهود. إن فلسطين بترابها وصخورها لا يمكن أن تستوعب في الظروف الحاضرة أكثر من ضعفي سكانها الحاليين، وإنني في مناقشة مع أحد الرسميين الأتراك هنا، ذكرت له أن هناك في العالم اليوم (١٢) مليوناً من اليهود. فصرخ قائلاً: رباه! لا يمكن لهؤلاء مطلقاً المجيء إلى فلسطين[١]». وقد أكد هذه الحقيقة بعض وجهاء اليهود أنفسهم حينما أرسل اللورد روتشيلد رسالة شكر إلى كامبل (Campbell) في وزارة الخارجية البريطانية يشكره فيها على رسالته المتضمنة نسخة من رسالة «ادوار غراي» (E. Grey) التي أثبتت رأيه القائل بأن فلسطين ليست المجال الملائم للهجرة[٢].

ومن الأهمية بمكان القول، أن الدوائر الاستعمارية البريطانية والحركة الصهيونية وبقية الدول التي وقّعت على مقررات «بانرمان» لم تهتم لهذه الحقائق، وظلت تسعى من أجل تحقيق غاياتها. ومما يلاحظ في هذا الصدد أن الحركة الصهيونية لم تبتعد عن المانيا في نشاطها، بل عملت على ايجاد الوفاق معها ليقينها بأن لألمانيا في الشرق مصالح لا تقل اهمية عن مصالح

---

(١) Blesh to O'Conor, 16 Nov. 1907, No. 62, in F.O. 371/356.

(٢) Rotschild to Campbell, 17 Dec. 1907, No. 40321, in F.O. 371/356.

الدول الأخرى ، ومن اجل ذلك نجح « ڤكتور جاكوبسون » (Victor Jacobson) – رئيس مكتب المنظمة الصهيونية في استانبول عام ١٩٠٨ – في كسب ود وثقة المانيا ، لدرجة ان اعطي المكتب الصهيوني في استانبول حق استخدام الحقيبة الدبلوماسية الألمانية واستعمال « الشيفرة » – الرموز – للاتصال بالمكتب التنفيذي في برلين ومع فلسطين[١] . وبواسطة النفوذ الألماني والصهيوني استطاع « جاكوبسون » مراقبة جميع ما يحدث في فلسطين على صعيد الهجرة اليهودية والقوانين العثمانية . وقد ظل في العاصمة التركية حتى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٠٨ ، حين عُيّن رئيساً على « الشركة المصرفية البريطانية » (Anglo Levantine Banking Co.)[٢] . ونظراً لتزايد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية ارتفع نفوذ الصهيونيين الألمان في دوائرها أيضاً ، فتعاون معهم « د. جاكوبسون » للاتصال باليهود والدونمة الذين كانوا من الأعضاء البارزين في جمعية الاتحاد والترقي ، ثم تعاون هؤلاء الدونمة مع الأتراك العثمانيين مما أدى ذلك في إثارة الشكوك الروسية ، إلا أنه كان من الطبيعي أن يؤيد الدونمة الاتجاه الموالي لألمانيا[٣] . وكان جاكوبسون من المؤيدين للألمان ، الأمر الذي أزعج صهيوني بريطانيا ومؤيديها على اعتبار أن لها فضلاً كبيراً على اليهود والصهيونية ، مما حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن الأعضاء اليهود في جمعية الاتحاد والترقي سيكون لهم الدور الفعّال في عداء تركيا لكلٍ من بريطانيا وروسيا ، وقد كان لنشاط الوكالة اليهودية في الآستانة ونشاط اليهودي « الفرد نوسيج » (Alfred Nossig) أثر على هذا الاعتقاد ، لأنه حضر فوراً إلى الآستانة بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ ، ومعه مشروعات لتوطين اليهود في فلسطين والعراق تحت رعاية منظمة يهودية ألمانية أنشأها وجعل مقرها برلين[٤] .

والجدير بالذكر ، أن أهم سمات التقارب الصهيوني – الألماني تمثلت في العمل السياسي المنظم الذي قام به عدد من قادة الحركة الصهيونية مثل : « ماكس بودنهايمر » و « أدولف فريدمان » و « فرانز أوبنهايمر » ، وذلك

---

(١) الحكم دروزه : ملف القضية الفلسطينية ، ص ١٩ .

(٢) Y. Roi; *op. cit.*, p. 201.

(٣) L. Stein; *Balfour Declaration*, p. 35.

(٤) محمود منسي : تصريح بالفور ، ص ٣٢ .

للحصول على وعد بلفور ألماني[١]. وقد واصل الصهيونيون جهودهم مع الألمان لتحقيق هذا الوعد. وقد أرسل « ريتشارد لختيم » أحد ممثليهم في استانبول برسالة إلى زعيم الصهيونية في برلين، يصف فيها الجهد الذي بذله لدى السفارة الألمانية في استانبول، ومما جاء في هذه الرسالة: « لم أترك وسيلة مقنعة إلا استعملتها، نشر اللغة الألمانية والتجارة الألمانية، وما في عروضنا هذه من انسجام نحو الأتراك، وأن نكون بالمرصاد للعرب، وما لنا من نفوذ مالي وصحفي في العالم وما سيكون من يهود أمريكا من مؤازرة لألمانيا شاكرين لها الفضل هذا، وما هناك من فائدة لألمانيا بإنشاء هذه القاعدة الثقافية الصهيونية وألمانيا صائرة إلى أن تكون الدولة الكبرى في الشرق الأدنى. وإني أكتب اليك هذا مفصلاً لكي تجعل مقالتك للألمان هناك مؤتلفة مع مقالتي للأتراك هنا »[٢].

وكان الأسلوب الصهيوني المتبع يقضي باستعمار فلسطين عن طريق التغلغل الاقتصادي وتكرّس ذلك في عام ١٩٠٨ عندما شجعت الدوائر الصهيونية الحكومة الألمانية على مساعدة الحركة الصهيونية لِما فيه منافع لأوروبا وألمانيا بالذات على اعتبار أن الاستعمار الاقتصادي إمتداد لسياسة أوروبا في الخارج، ويمكن تطبيق هذه السياسة في نطاق المصالح اليهودية[٣]. ولكن الدولة العثمانية لم تكن تتغاضى عن هذه السياسة الأوروبية — الصهيونية، إذ أنها كانت تقابل النشاط الأجنبي الموسع في الأراضي المقدسة بحقد وغيظ وخصوصاً الإستيطان اليهودي في فلسطين[٤].

ومن الناحية العملية سعت الحكومة التركية إلى الاهتمام بالمناطق الفلسطينية لاسيما متصرفية القدس التي أظهر اليهود منذ البداية أطماعهم بها، فأصدرت العديد من « الفرمانات السلطانية » لتثبيت السلطة العثمانية في تلك المناطق كتحويل مسؤولية بعض القائمقاميات إلى معاون المتصرف كما حدث في « بئر السبع » التي عين عليها سعادتلو عبدالكريم أفندي مدير معارف القدس مع توجيه الرتبة الأولى من الصنف الثاني عليه، ونقل نائب يافا إلى « بئر السبع » مع ترفيعه إلى رتبة « مخرج » بصورة دائمة. وهذا ما حدث أيضاً في

---

(١) الحكم دروزه، المرجع السابق، ص ١٩.
(٢) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، ج ١، ص ١٠١.
(٣) H. M. Kallen; *Zionism and World Politics*, p. 108.
(٤) S. A. Rappoport; *History of Palestine*, p. 322.

منطقة « الحضري » التابعـــة لمتصرفية القدس حيث أصبحت قائمقامية ، وعُين عزتلو نابي أفندي مدير المكتب الاعدادي بالقدس قائمقاماً لقضاء الحضري [١] .

والواقع أن هناك قرارات أكثر فعالية وأهمية اتخذها السلطان « عبدالحميد الثاني » ، فأوعز إلى متصرف القدس بضرورة الاهتمام بأهالي المتصرفية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والقيام بجولات استطلاعية لاعـلام الأهالي بمشاريع السلطان الزراعية والمالية ، وذلك لمواجهـة المستثمرين والمرابين اليهود والاقطاع على السواء . وبالفعل فقد قام متصرف القدس في منتصف نيسان (ابريل) عام ١٩٠٨ بجولات استطلاعية للتعرف على أوضاع الفلاحين وصل بها إلى « بئر السبع » وهناك خطب خطاباً في مشايخ وعربان وأهالي المنطقة قال فيه : « من المعلوم أنكم بأقل همـة وجد وسعي تستخرجون ذخائر كافية ليس فقط لأهل بئر السبع ، بل وتعم أهالي لواء القدس بل وأهالي سوريا بأجمعهم ... وأما مزروعاتكم فهي كالزمرد في اخضرارها » . وبدأ يذكر مشاريع الدولة بأنه « سينشأ مكتب كبير في مركز السبع لتعليم دروس الزراعة ... وسأنشئ لكم في مركز بئر السبع برج ساعة ... وفي بئر السبع لا طواحين لكم وسيصير ان شاء الله طواحين لطحن حبوبكم ... أنتم جميعكم أهل زراعة والزراعة هي روحكم ومداد حياتـكم ... أنظروا أيضاً كيف أمر حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الأعظم بالأشياء الخيرية لكم فانه سينشئ في بئر السبع شعبة بنك زراعي ... سيصير اقراضكم الدراهم بكمال السهولة ، فتخلصون من أيدي المحتكرين والصرافين وتجلبون بذاركم ومؤونتكم وذخائركم وأدواتكم الزراعية بكل سهولة ، وأيضاً سيجلب لكم بواسطة الحكومة ماكنات وآلات زراعية من الجنس الذي استعمل بـ « يافا » فتحرثون بها أراضيكم وتبذرون عليها بذاركم ... » [٢] .

والواقع أن هذه السياسة الاقتصادية التي أتبعها السلطان عبدالحميد الثاني في فلسطين جاءت متأخرة ، وتبين عن مدى الإهمال الحكومي للفلاحين الفلسطينيين وللشؤون الزراعية ، وقد تكون جولة متصرف القدس بمثابة سياسة دعائية لحكم السلطان لكي يستميل الأهالي ، وهي على كل حال

---

(١) ثمرات الفنون ، ١٦ آذار (مارس) ١٩٠٨ ، العدد ١٦٥٤ ، ص ٧ .
(٢) ثمرات الفنون ، ٢٥ أيار (مايو) ١٩٠٨ ، العدد ١٦٦٤ ، ص ٦ .

مشاريع لم تخرج إلى حيز الوجود، وبالرغم من ذلك فانه مما لا شك فيه أن السلطان كان معارضاً شديداً للهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة، وما تعذر على الحركة الصهيونية القيام به في عهده، لم يتعذر عليها تحقيقه بعد ثورة ١٩٠٨ – ١٩٠٩، حيث أظهر الحكم الجديد تأييداً رسمياً للنشاط الصهيوني في فلسطين مما أدى إلى مضاعفة الاحتجاجات وردود الفعل العربية للهجرة اليهودية.

اليقظة القوميّة وردود الفعل العربيّة ضدّ النشاط الصّهيوني والهجرة اليهوديّة

بدأ الوعي القومي العربي منذ فترة مبكرة ولا سيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خاصة بعد انتشار أفكار الثورة الفرنسية مع فتوحات نابوليون للمنطقة، وما صاحبها من إدخال وسائل الطباعة الحديثة وانتشارها باللغة العربية. وقد لعبت المعاهد العلمية الأولى والمدارس المحلية دوراً في هذا المجال، لا سيما في بلاد الشام ومصر، الأمر الذي أدى إلى تبلور الفكر العربي في إطاره الصحيح.

وكانت «الجمعية السورية العلمية» التي تأسست عام ١٨٦٨ أول حركة قومية سرية ظهرت في عام ١٨٧٥ وهي أول من أطلقت شعار «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب». وبلغ من وعي ونشاط الحركة العربية ان مارست نشاطاً يدعو إلى التحرر واليقظة تمثل بالاجتماعات وتوزيع المنشورات، كما كان يحدث في بيروت مثلاً. وكانت الفكرة القومية تنتشر سراً في عهد السلطان «عبد الحميد الثاني»، ولم يكن يجهر بها إلا بعض العرب القاطنين مصر أو أوروبا أو أمريكا[1] وقد كانت «الجمعية الخيرية» – التي تأسست في دمشق عام ١٨٧٨ في أواخر أيام «مدحت باشا» – تعتبر أول نواة قام عليه التعليم الحديث في دمشق، وأن النهضة الأدبية الحديثة في تلك العاصمة تبدأ في الحلقة التي كان واسطة عقدها الشيخ «طاهر الجزائري» وكان من أعضائها رفيق العظم، والشيخ سليم البخاري، والشيخ جمال القاسمي، وعطا الكيلاني، والأمير شكيب أرسلان، ومحمد كرد علي

---

(١) مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار، ج ٢، ص ٣٤.

وغيرهم[1]. وكانت هناك حلقات سياسية تدار بواسطة جماعة أخرى، أثرت في الحياة السياسية واليقظة القومية في بلاد الشام، وأجرت اتصالات ـ فيما بعد ـ مع أعضاء تركيا الفتاة، ومن بين هؤلاء: أسعد بك درويش الطرابلسي، وسليم بك الجزائري، وشكري العسلي، وفارس الخوري، وعبد الوهاب الانكليزي، يتعاون معهم جماعة من الأتراك منهم بدري بك وحسين عوني بك، وكان الهدف من هذه الحلقات العمل لنشر الدستور العثماني.

والواقع أن فلسطين لم تكن بمنأى عن هذه التيارات السياسية والفكرية بل تفاعلت معها تفاعلاً تاماً وأثرت فيها، وقد أكد ذلك القنصل البريطاني في القدس في تقاريره إلى حكومته عام ١٨٨٢، من أن شعب فلسطين وقف مؤيداً ثورة عرابي في أعقاب الغزو البريطاني، وحدثت اضطرابات في كل من يافا والقدس. وأكد القنصل البريطاني تكرار هذه المظاهر والتجاوب والتفاعل أثناء قيام ثورة المهدي عام ١٨٨٤ باعتباره عربياً يناضل من أجل جنسه العربي ضد السيطرة العثمانية وسوء الحكم العثماني[2].

وبعد تزايد الوعي القومي في فلسطين برز رجالات فيها أثروا في الحياة السياسية والدستورية في الدولة العثمانية، ومن بين هؤلاء يوسف ضيا بك الخالدي نائب القدس الذي سبق وألقى خطاباً في مجلس المبعوثان دفع بالسلطان عبد الحميد إلى تعطيل المجلس إلى أجل غير مسمى، ثم نتيجة لازدياد المعارضة العربية أصدر السلطان أمره بنفي عشرة نواب من المعارضة خارج الآستانة[3]، كان من بينهم ممثل القدس الشريف.

وفي بداية القرن العشرين برزت بعض الشخصيات الفلسطينية في إطار الوعي القومي السياسي، وكان في مقدمتهم، عوني عبد الهادي من (جنين) ورفيق التميمي من (نابلس) وسليم عبد الهادي وعلي النشاشيبي وغيرهم. وعلى هذا فالشعب الفلسطيني ليس كما تصفه المصادر الصهيونية من أنه يميل إلى الدعة والخمول فهذا تزييف أثيم للحقيقة[4].

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام على صعيد الحركة السياسية العربية، فقد كانت هذه الحركة بمجملها حركة سرية تخشى كشف سرها من السلطات

---

(١) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص ٣٥.
(٢) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٤٧.
(٣) توفيق برو: العرب والترك ١٩٠٨ - ١٩١٤، ص ٣١، ٣٢.
(٤) جفريز: فلسطين اليكم الحقيقة، ص ٦١.

العثمانية ، أما فيما يختص بمواجهتها للهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة ، فلم تخفِ الحركة ولا عرب فلسطين شعورهم بخطورتها ورفضهم القبول بها ، فقد أعلنوا – منذ البدء – معارضتهم لهـا ، ولم يحاولوا كبت مطالبهم وأفكارهم حول هذه الهجرة . ويذكر « بن غوريون » (Ben Gurion) من أن ردود الفعل العربية ضد اليهود لم تولد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، إنما منذ فترة بعيدة تمتد إلى القرن السادس عشر الميلادي ، حين قامت الاحتجاجات والمظاهرات ضد اليهود في فلسطين ومصر ، بل والهجوم عليهم في مناطق عديدة من فلسطين ، فقد هاجمت القبائل العربية صفد عام ١٥٦٧ م ، وعام ١٥٨٧ م . فأخذ اليهود يهربون إلى طبريا وبيروت ودمشق ومصر(١) .

وتؤكد الوثائق البريطانية من أنه خلافاً لكل ما قيل وكتب ، فإن ردود الفعل العربية والموقف العثماني حيـال الهجرة اليهودية وامتلاك الأجانب للأراضي الفلسطينية ، لم تبرز في أوائل القرن العشرين فحسب ، وإنما بدأت في منتصف القرن التاسع عشر ، وهذا ما يؤكده « أسعد خياط » – القنصل البريطاني في يافا – في تقرير له يُظهر موقف العرب والدولة العثمانية من تملك الأجانب والإقامة في فلسطين(٢) . ويذكر « بأن الناس يعتقدون أن الحكومة المحلية هي التي تشجع مرتكبي الجرائم على إتيان هذه الفظائع المنكرة لغاية في النفس ... ومن ثم لما كانت عـدة جرائد أوروبية قد جالت بعواطف بعض الأوروبيين والأميركيين ، وأظهرت رغبتهم في شراء الأملاك والإقامة في الأراضي المقدسة وإنشاء مستعمرات صغيرة ، وكانت جملة عيال قد جاءت وأقامت هنا ... فلا يبعد عن الصحة أن تكون الحكومة التركية أهملت الاهتمام بالجنايات المذكورة [قتل المستر ديكسون والمسيو ستينبك أصحاب مستعمرات في فلسطين] بقصد تخويف الأجانب ... ومنعهم من المجيء إلى هنا بكثرة والإقامة في تلك الأنحاء »(٣) . ويضيف القنصل في تقريره مؤكداً هـذه الوقائع من أن الباشا « أعطى

---

(١) D. Ben Gurion; *The Jews in Their Land*, pp. 215-218.

(٢) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان : ١٨٤٠ – ١٨٦٠ ، م ١ ص ٢٩٠ . تقرير من القنصل البريطاني « اسعد خياط » الى الكونت « دي كلارندون » – يافا – ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٨ .

(٣) المحررات السياسية ... ، م ١ ، ص ٢٩١ .

حديثاً أوامر شفاهية إلى القاضي هنا بعدم تسجيل صكوك بيع وشراء عقارات ومزارع للأوروبيين والأميركيين . وهذا مخالف كل المخالفة لفرمان التنظيمات المذاع حديثاً ولمعاهدة باريس »[١] .

ويرجع سبب هـذا الموقف العثماني الى الرغبة في تجنب تزايد النفوذ الاجنبي في الاراضي المقدسة ، وتجنب هجرة اليهود واقامتهم في فلسطين كأوروبيين أو أميركيين ، ذلك ان المهاجرين اليهود ظلوا محتفظين بجنسياتهم للاستفادة من الامتيازات الاجنبية[٢] . ومن هنا كانت الدولة العثمانية تتغاضى عن ردود الفعل العربية ضد هجرة الاجانب بوجه عام ، وان كان ذلك يخالف نصوص ومعاهدات الامتيازات الاجنبية . ومن خلال ذلك يمكن القول ان بداية ظهور الوعي السياسي واليقظة القومية والمطالبة بالتحرر سابقة لبداية بروز الحركة الصهيونية في طورها التنظيمي[٣].

وكان واضحاً من دراسـة ردود الفعل العربية الفلسطينية ، ان هناك معارضة للهجرة اليهودية ولشراء الاراضي واقامة المستوطنات الزراعية ، بـل تعددت حركة الاحتجاجات حتى أصابت رجال الاقطاعية العربية لا سيما اللبنانية والسورية التي لعبت دوراً مهماً في عملية بيـع الاراضي لليهود ، بعد ان استطاعت اغراء بعض الملاكين الفلسطينيين والفلاحين الرازحين تحت وطأة الديون على بيع اراضيهم. واستطاع المتمولون اللبنانيون شراء مساحات كبيرة منها ، وقام هؤلاء بدور « تجار أرض » ، فباعوها بدورهم للمهاجرين اليهود بأسعار مرتفعة ، ذلك ان رابطة « حب الارض » والتضحية من أجلها كانت مفقودة عند هؤلاء ، ولم يكن هناك شيء يشدهم الى الارض الفلسطينية لأنها لم تكن ملكهم في الأساس ، بالاضافة الى أن الهدف من شرائها – أولاً وقبل كل شيء – هو استثمارها والمتاجرة بها وبيعها للذي يدفع اكثر ، ولو كان يهودياً أجنبياً .

ويذكر « روحي الخالدي » في مخطوط « المسألة الصهيونية »[٤] من أن بائعي الاراضي الفلسطينية كانوا يتألفون من الفئات التالية :

---

(١) المحررات السياسية ... ، م ١ ، ص ٢٩١ .

(٢) يوسف الحكيم : سوريا والعهد العثماني – ذكريات الحكيم (١) ، ص ١٩٩ .

(٣) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٤٦ .

(٤) يعتبر مخطوط « المسألة الصهيونية » من المخطوطات الهامة والمعاصرة للحركة الصهيونية والهجرة اليهودية الى فلسطين، حيث يذكر صاحبها تعريف عن الصهيونية وجذورها ، وتاريخها =

١ – المُلاك الغائبون ، ومعظمهم من الأسر اللبنانية مثل : سرسق وتويني وتيان ومدور وغيرهم .

٢ – الحكومة العثمانية ، وكانت تبيع الاراضي عن طريق المزاد العلني حيث تباع فيه اراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم.

٣ – المُلاك الفلسطينيون ، ومعظمهم من العائلات المسيحية مثل : كسار ، روك ، خوري ، وحنا وغيرهم . ولا يعني ذلك بأن بعض الاقطاعيين من المسلمين لم يبيعوا بعض الاراضي ، فقد حدث أن باع الأراضي كثير من افندية صفد والرملة[١] .

وقد شعر الفلاح الفلسطيني بخطورة هذه القوى الاقطاعية والادارة العثمانية ولكنه لم يكن قادراً على استرداد اراضيه أو شرائها نظراً لأوضاعه الاقتصادية المتردية ، ولعدم قدرته على سداد ديونه وفوائدها المتراكمة . وإزاء هذا الواقع أيقن الفلاح الفلسطيني معنى سلب اراضيه ، فبدأت الاحتكاكات بين الفلاحين العرب وبين اليهود . وتحاول المصادر الصهيونية ان تبرر سبب العداوة والاضطرابات بين الفئتين بأنه لم يكن بسبب الهجرة اليهودية وانما حدثت بسبب جهل اللغة وتقاليد وطبائع العرب[٢]. غير ان المقاومة العربية الاولى قامت ببادرة من الفلاحين العرب الذين كانوا يملكون او يعملون في الاراضي الزراعية ، بعد اقتناعهم بأن انتقال الارض من أيديهم أو من الاقطاعي العربي الى اليهودي كان يعني بالضرورة طردهم من الارض ، وبالفعل فقد طردوا منها ، لذلك حدث في عام ١٨٨٦ بعض الاضطرابات حينما هاجم الفلاحون المطرودون من « الخضيرة » و « بتاح تكفا » (ملبس) قراهم المغتصبة التي اجلوا عنها رغم ارادتهم . ودفعت الاصطدامات الحكومة

= وأهدافها ، ثم أدرج قائمة بأسماء جميع المستعمرات اليهودية التي كان قد تم انشاؤها حتى عام ١٩١١ ، مع ذكر موقع كل منها واسمها العربي وأسماء الملاكين الذين باعوها . ومما يؤسف له انني حاولت مراراً الحصول على هذا المخطوط للاستعانة به في موضوع اطروحتي إلا أنني قوبلت بالاعتذار من قبل مقتنيها المقيم في بيروت . ولكنني استطعت أن اسد الثغرات من مصادر اخرى معاصرة للاحداث مثل مجلة « المشرق » ومقال الأب « لا منس » عن أوضاع وأسماء المستعمرات اليهودية ، وصحيفة « ثمرات الفنون » وغيرها من المقالات والمعلومات المعاصرة .

(١) انظر : عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) A. Cohen; *Israel and the Arab World*, p. 41.

العثمانية في عام ١٨٨٧ الى فرض قيود على هجرة المستوطنين اليهود الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح (١).

ومن الملاحظ ان وعي الفلاح الفلسطيني ويقظته للخطر الصهيوني لم يكن نتيجة لثقافته او دراساته عن الخطر الصهيوني ، ولكن جاء نتيجة عملية وحتمية للاخطار التي لمسها الفلاح بعد السيطرة على مصدر رزقه وسلب أرضه . وتعترف المصادر الصهيونية ، بأن المهاجرين اليهود ارتكبوا اخطاء ضد الفلاحين العرب ، واتبعوا أساليب الخداع والرشوة لشراء الاراضي التي كان يرافقها عادة طرد الفلاحين من اراضيهم بدون تعويض ، مما دفعهم الى شن الهجمات المتكررة على المستوطنات لأنهم لن ينسوا « أننا أخذنا اراضيهم » (٢) .

والواقع ان الهجـرة اليهودية لم تشكل خطراً على الفلاحين فحسب ، وانما شكلت خطراً اقتصادياً على الطبقة العاملة الصناعية ، وبذلك يكون الاستعمار الاستيطاني الصهيوني منذ البداية معادياً لا للاقطاعيين العرب كما يدعي زعماء الصهيونية ، بل للفلاحين والعمال العرب (٣) . ولا بد من الاشارة الى أنـه لم يكن معظم أهل فلسطين فلاحين وزراع ، بل كانت هناك طبقة صنّاع تعمل بمختلف الصناعات (٤) . ومن هنا كان تحالف القوى العاملة من فلاحـين وصناع في فلسطين لمواجهة الهجرة اليهودية والخطر الصهيوني ، لا سيما بعد ان اثبتت التجارب فشل المهاجرين في الميدان الزراعي فتحول عدد منهم الى الميدان الصناعي ، ومن أجل ذلك ظهرت منافسة جديدة في ميدان اقتصادي لا يستوعب عناصر جديدة ، غير أن الطابع

---

(١) عبد الوهاب الكيالي ، المرجـع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) A. Cohen; *op. cit.*, p. 41.

(٣) أميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، ص ٦٩ .

(٤) كان أهل فلسطين ينقسمون الى فلاحين وصناع وتجار « ... أما المسلمين فمعاشاتهم من البيـع والشراء والفلاحة ... وبينهم اصحاب صنايـع فيشتغلون الصرامي [الاحذية] ويدبغون الجلود وعندهم حذق بذلك ويصطنعون الخزف والقرب ، وقد اشتهروا بشغلها ويذهب في كل سنة منهم اناس للتجارة بها في الحجاز . ومن أعمالهم المشهورة شغل الزجاج انساور ، وقد نجحوا بتلك نجاحاً مكنهم من أخذ الاسبقية الاولى بهذه الصنعة . وقد شاهدت اعمالهم المتقنة بهذه الصناعة ويحق لهم الثناء عليها ... » وفي مدينة الخليل يوجد « خمسين نولاً ... لنسج العبي الزريقية واشغالهم جيدة بهذه الصنعة كالدمشقيين وربما أحسن منها ... » انظر : مخطوط في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

القومي والسياسي لردود الفعل العمالية والفلاحية لم يكن أقل حدة ونزعة من العامل الاقتصادي .

وكان لردود الفعل العربية الأثر الواضح في إصدار مجموعة من القرارات والقوانين العثمانية الخاصة بمنع المهاجرين اليهود من الإستيطان في فلسطين[١] فقد كانت الدولة العثمانية تواجه حركة معارضة عربية لسياستها في الولايات العربية المطالبة بالاصلاح والحرية ، فجاءت ردود الفعل الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية تؤجج نيران المعارضة ، فخشيت الحكومة العثمانية من مضاعفاتها . وكان السلطان عبد الحميد الثاني يقدر أهمية البلاد العربية ويدرك أن اليوم الذي ينفصل فيه العرب عن امبراطوريته – وعددهم يقارب عشرة ملايين – سيكون نذيراً بانهيار الامبراطورية ، لأنهم يشكلون أساس دعامتها ، ذلك أن بلادهم من أغنى المناطق العثمانية[٢] . وكما أثرت المعارضة العربية الفلسطينية على موقف الحكومة العثمانية فانها اثرت ايضاً على المستوطنين اليهود ، فقد زادت من مشكلة الأمن اليهودي كما زادت من حاجة المستعمرات إلى الحراسة ، ولقد ظهرت بوادر الحراسة والدفاع الذاتي اليهودي في البلاد منذ بدء الاستيطان[٣] . وعمدت الجمعيات الصهيونية إلى تزويد المستعمرات بالأسلحة المهربة ، كما لجأت إلى السلطات المحلية العثمانية لتضليلها بأن الهجمات العربية هي خروج عن النظام ومثيرة للقلاقل في وجه « أصحاب الأرض الشرعيين » !

وفي الفترة الممتدة بين عامي ١٨٩٠ – ١٨٩١ ، قدّم وفد من وجهاء القدس للصدر الأعظم عرائض احتجاج على متصرف القدس « رشاد باشا » لأنه كان منحازاً لليهود ، وفي طليعة المستفيدين من الرشاوى الصهيونية . وكانت هذه العرائض تعبّر عن حركة الوعي القومي واليقظة السياسية لفئات الشعب الفلسطيني ومدى الرفض للاستيطان اليهودي ، وقد طالبوا باصدار فرمان يمنع اليهود من دخول القدس وشراء الأراضي . وقد وقّع هذه العرائض (٥٠٠) من الأهالي ذكروا فيها بأن اليهود قد سلبوا

---

(١) حول مجموعة القوانين والقرارات العثمانية الخاصة بالهجرة اليهودية الى فلسطين انظر : الفصل الثاني والثالث وصفحات متفرقة من البحث .
(٢) توفيق برو : المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٣) بولاك : اسرائيل أمة وتاريخها ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

الأراضي من المسلمين وبدأوا تدريجياً بالسيطرة على كل التجارة المحلية وجلب السلاح إلى فلسطين[١].

وتذكر المصادر الصهيونية حقيقة أوضاع اليهود في فلسطين، ومدى الغبن اللاحق بالفلسطينيين من جراء الهجرة اليهودية، ولكن تذكر أيضاً مدى الوعي العربي الفلسطيني، فيذكر «أحد هاعام» - رغم تعصبه للصهيونية - في مقال «الحقيقة من فلسطين» عام ١٨٩١ بأن اليهود «كانوا عبيداً في الدياسبورا[٢]، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود، بل وسط حرية لا رادع لها ولا يمكن العثور عليها إلا في تركيا وحدها. ولقد ولّد هذا التحول المفاجيء في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما هي الحال حين يصبح العبد السوء سيداً. وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة فيمتهنون حقوقهم بصورة معوجة وغير معقولة ثم يوجهون لهم الإهانات دون مبرر كاف ويفاخرون بتلك الأفعال رغم كل ذلك». وأضاف «أحد هاعام» بأن اليهود اعتادوا على الاعتقاد بأن جميع العرب رجال بدائيون يعيشون في الصحراء وأنهم لا يرون ولا يفهمون ما يجري من حولهم، ولكن هذه غلطة كبيرة، فإن العرب - وخاصة سكان المدن منهم - يرون ويفهمون ما يفعله ويبتغيه اليهود في فلسطين، وإن العرب قد عقدوا العزم على عدم التخلي عن أراضيهم و «إذا ما تطور الأمر في فلسطين إلى درجة زحفنا إلى المجال الحيوي للمواطنين الأصليين فإنهم لن يتخلوا عن مكانهم بسهولة»[٣].

وبعد فترة حذّر «أحد هاعام» - بعد زيارته لفلسطين بدعوة من جمعية «أحباء صهيون» - من ثورة عربية ضد المستعمرات اليهودية، وأكد أن في فلسطين ذاتها مشكلة يهودية، ولم يكن يهدف بذلك عدم تشجيع أي نشاط صهيوني في فلسطين، بل كان يريد أن يؤكد لزعماء الصهيونية خطورة المشكلة وضرورة التخطيط الدقيق لتجاوز المصاعب وعدم الاستخفاف بها[٤]. وبالفعل فقد صدقت تنبؤاته بعد تزايد الاصطدامات

---

(١) Y. Porsth; *The Political Awakening.*, p. 31.

(٢) حول الدياسبورا انظر : J. ISAAC; *Génèse de L'Antisémitisme*, p. 54 ff.

F.S. Esh; *La Vie Juive dans L'Europe Contemporaine*, p. 142 ff.

(٣) ملف وثائق فلسطين، ج ١، ص ٦٧، ٦٩.

(٤) *Esco Foundation for Palestine*, p. 22.

والهجمات المتكررة من قِبل العرب على المستوطنات اليهودية . بل ان « هرتزل » نفسه تنبأ في عام ١٨٩٦ بأنه في حال الهجرة اليهودية ومحاولة اليهود إنشاء دولتهم ، سيواجهون معارضة وأعداء « وقد يقال أنه لن يكون لليهود في دولتهم أعداء ... أتصور بأن اليهود كأية أمة أخرى ، سيكون لهم أعداء كفاية ، إنما سوف لن يتفرقوا ثانية بعد أن يجتمعوا في وطن »(١) .

وبعد انعقاد مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، ازدادت الأطماع الصهيونية في فلسطين وتبلور العمل الاستيطاني اليهودي ، ونتيجة لذلك ازدادت ردود الفعل العربية في عام ١٨٩٧ ، واتخذت المعارضة الفلسطينية طابعاً جديداً ، فقد ترأس « محمد طاهر الحسيني » ــ مفتي القدس ــ هيئة عربية محلية هدفها الوقوف في وجه الاستيطان اليهودي ، وكان من مهامها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس ، فحال ذلك دون حصول اليهود على أراضي زراعية جديدة لسنوات عديدة . وكان الحديث عن قيام مملكة يهودية وتشجيع بريطانيا على تحقيق ذلك قد بعث الشك والريبة في قلوب العرب ، فبدأوا عملية الاحتجاج والاستنكار وطالبوا بوقف الهجرة ومنع شراء الأراضي(٢) ، لأن المهاجرين اليهود وحركتهم الصهيونية كانت قوة ثانوية جلبت من خارج البلاد ، ولم تفعل شيئاً إلا أن تعيق تقدم القوى الوطنية الأساسية للعروبة الأسبق منها(٣) .

ومما يلاحظ أنه رغم الاحتجاجات العربية فقد ظل الاقطاع العربي يتعاون إلى أقصى حد مع الدوائر الصهيونية التي استطاعت شراء مساحات واسعة من الأراضي من عائلة « سرسق » اللبنانية بالقرب من طبريا ، فما كان من فلاحي القرى المجاورة إلا أن هاجموا الفنيين الذين جاؤوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها(٤) .

وكانت المعارضة من جانب عرب فلسطين للهجرة اليهودية محاولة

---

(١) فقرة من كتاب هرتزل : الدولة اليهودية ، نقلاً عن : أنيس صايغ ولطفي العابد وآخرون : الفكرة الصهيونية ــ النصوص الاساسية ، ص ١٢١ .

(٢) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٠ .

(٣) جفريز : فلسطين ، اليكم الحقيقة ، ص ٦١ .

(٤) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٠ ، ٥١ .

مستميتة من أجل الحياة والأرض. أما بالنسبة إلى الزعامات العربية فلم تكن على مستوى الخطر الصهيوني، ولم تظهر أي ردود فعل ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بغض النظر عن زعامات فلسطين السياسية والدينية التي استطاع بعضها إبداء تخوفه ومعارضته للأهداف الصهيونية. وعلى الرغم من النضوج السياسي لبعض الزعامات الشامية إلا أنها لم تستوعب خطر الحركة الصهيونية على مستقبل فلسطين، واقتصر استيعابها ونضوجها على معارضة الحكم العثماني للتخلص منه. فقد كتب «أمين أرسلان» — وهو أحد الزعماء اللبنانيين — مقالاً في «المقطم» في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٩٧ بعنوان «مملكة صهيون» أرسله إليها من باريس يشير فيها إلى مؤتمر بال دون أن يبدي أية معارضة له ولأهدافه، وبعد أن تحدث عن مؤتمر بال قال إن من أهدافه شراء أراض فسيحة وقرى كثيرة في فلسطين بجوار اورشليم، وجعلها مملكة إسرائيلية مستقلة تحت سيادة الحضرة الشاهانية عاصمتها القدس الشريف. وأضاف «أمين أرسلان» بأن المؤتمر ختم أعماله بما مفاده أن الحركة الصهيونية تعمل على إنشاء وطن للاسرائيليين في فلسطين تضمنه شرائع الدول. ولبلوغ هذه الغاية قررت الحركة الصهيونية مساعدة الفلاحين والصناع اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وإلى إنشاء مصرف مالي لتحقيق هذا الهدف. وقد بلغ سوء التقدير بالخطر الصهيوني أن جعل «أمين أرسلان» يستبعد تحقيق إنشاء مملكة إسرائيل لا لشيء إلا «لأن المسيحيين لا يرضون أن يبيت بيت المقدس في يد اليهود...» وتجاوز في خطأ استنتاجاته عندما ظن أن الدول الأوروبية ستعارض تأييد اليهود في إقامة دولة خاصة بهم ظاناً أن الدولة العثمانية تؤيد قيام هذه الدولة اليهودية إذ «أن للدول حق الاعتراض على الباب العالي إذا أجاز ذلك البيع»(١). وقد يكون «أمين أرسلان» تعمَّد هذا الاستنتاج لإثارة الشعوب العربية والإسلامية ضد السلطان العثماني والحكومة العثمانية.

وفي مصر بلغ الأمر بأحد رجالات مصر وهو مصطفى كامل(٢)، أن

---

(١) امين ارسلان، من مقال: «مملكة صهيون»، نقلا عن: المقطم، ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٧.

(٢) مصطفى كامل: (١٨٧٤ — ١٩٠٨) زعيم الحزب الوطني ١٩٠٧ وأحد رواد النهضة القومية في مصر زار أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر للعمل من أجل القضية المصرية =

أعطى شهادة حسنة بحق اليهود لأنهم نجحوا منذ فترة طويلة في عدم إثارة شكوك الدولة العثمانية، وهو على عكس ما قام به الأرمن والدروز والمسيحيون من ثورات، وتحركات مباشرة ضد الدولة. وبالرغم من أن الزعيم المصري «مصطفى كامل» هاجم الأطماع الأجنبية في المنطقة العربية ولا سيما البريطانية منها، وبالرغم من مرور ما يقارب السنة على انعقاد مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ونشر مقرراته وغاياته في استيطان فلسطين ومناقشة بعض الصحف العربية له، وبالرغم من مرور ما يقارب الخمسة عشر عاماً على تاريخ الهجرة اليهودية المركزّة إلى فلسطين، فقد أوضح رأيه باليهود قائلاً: «... وهـا هم اليهود لا يثورون ولا يهيجون ولا يشتكون ولا يتألمون بل يحمدون الدولة ليلاً ونهاراً في السراء والضراء ويسبحون في كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم، وما ذلك إلا لأنه لا يوجد في الدول الأوروبية دولة تدعي الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم، فهم ليسوا بآلات في الدولة ضد الدولة، بل هم يعرفون من أنفسهم أنهم عثمانيون ممتعون بكل الحقوق العثمانية»(١).

ولعل هـذا الرأي الذي أبداه مصطفى كامل باليهود على هذا النحو إنما لإستمالتهم لئلا يثوروا ضد الدولة العثمانية على غرار غيرهم من الأقليات ونابع من ضرورة تأييد وكسب الإعلام الصحافي الصهيوني للمسألة المصرية بدليل الاتصالات التي أجراها مع زعيم الحركة الصهيونية تيودور هرتزل، ففي أثناء زيارة «مصطفى كامل» لأوروبا من أجل المسألة المصرية، اجتمع بـ«هرتزل» مرتين على التوالي لكسب مساعدته الصحافية. وقد أكد «هرتزل» نفسه في يومياته هذا اللقاء وصرح بأن الموفد المصري زاره مرتين لهذه الغاية وقال: «إنه في رحلة أخرى لجمع المشاعر المؤيدة لقضية

= والمطالبة بجلاء البريطانيين عنها. في عام ١٩٠٠ أسس جريدة «اللواء» الشهيرة التي صدرت بالعربية أولاً، ثم اصدرها باللغتين الفرنسية والانجليزية ابتداء من عام ١٩٠٧، وكان يعاونه في تحريرها محمد فريد واسماعيل صبري وأحمد شوقي. ومن مؤلفاته:

١ – المسألة الشرقية، مصر ١٨٩٨.
٢ – مصر والاحتلال الانجليزي، مصر ١٣١٣ هـ.
٣ – دفاع المصري عن بلاده، مصر ١٣٢٤ هـ.
٤ – رسائل مصرية – فرنسية، مصر ١٩٠٩.
٥ – الشمس المشرقة (حرب اليابان – روسيا)، مصر ١٩٠٤.

(١) مصطفى كامل: المسألة الشرقية، ص ٨، الطبعة الأولى، مصر ١٨٩٨.

الشعب المصري الذي يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية ... إن سليل مضطهدينا في مصرايم [مصر] يتنهد اليوم من عــذاب الرق ، وتقوده طريقه إليّ ، أنا اليهودي ، طالباً مساعدتي الصحفية »[١] .

ويمكن القول بأن الصحافة العربية – في هذه الفترة – لم تكن أيضاً كلها على مستوى الأحداث[٢] ، وإن تكن بعض الصحف قد عالجت موضوع الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين مثل « المقتطف » ، « المنار » و « النشرة الأسبوعية » وغيرها ، ولكن هناك عدد آخر من الصحف كان يعرض الأخبار دون الاعتراض أو التنبيه إلى الخطر الصهيوني . ولكن استطاعت « النشرة الاسبوعية » ابتداء من ١١ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٧ أن تعالج الحركة الصهيونية وتبيّن أهدافها بل اعترضت على الهجرة اليهودية واليهود ، وأظهرت فشلهم في الميادين الزراعية ، بينما كان العرب مثالاً حسناً في اجتهادهم في عمران البلاد وتحسين الزراعة[٣] . كما أشارت مجلة « المشرق » في مقال للأب « لامنس » إلى المهاجرين اليهود في فلسطين وأوضاع مستعمراتهم وتأخرهم في الزراعة ، كما أشارت إلى دراسة خاصة عن الحركة الصهيونية وأهدافها في فلسطين . وأشارت « المقتطف » و« المنار »

(١) يوميات هرتزل ، ٢٤ آذار (مارس) ١٨٩٧، ص ٥٢٧ (ت.ع. ص ٦٢) .

(٢) يعود السبب في وضع الصحافة العربية على هذا النحو الى سببين رئيسيين ، أولاً : انشغال الصحف في مهاجمة الدولة العثمانية ومطالبتها بالاصلاح ومهاجمة بعضها للدول الاجنبية المحتلة بعض الاراضي العربية . ثانياً : كانت الصهيونية والدوائر البريطانية تسيطر على مجموعة كبيرة من الصحف العربية مثل صحف : « المقطم » ، « المقتطف » ، « الاجيبشان غازيت » ، « نهضة اسرائيل » ، « الزراعة » و « الحقيقة » واكثرها كان يصدر في مصر ، بينما كانت « لسان الحال » الموالية للصهيونية تصدر في بيروت . وكانت هناك مجموعة أخرى من الصحف المعادية للصهيونية مثل : « المحروسة » ، « الفلاح » و « الراوي » وتصدرها كلها في مصر و « البشير » وتصدر في بيروت .

وكانت صحف اوروبا خاضعة للنفوذ الصهيوني منذ فترة مبكرة مثل صحف : « الدايلي تلغراف » و « التايمز » . وفي باريس وحدها أربعون صحيفة يومية يسيطر اليهود على تحرير ثلاثين منها . ويذكر « دريمون » (Drumont) من أن كل الصحف الاوروبية الكبرى تخضع لليهود ما عدا القليل منها ، والاسرائيليون يملكون لا أقل من مئة صحيفة تخدم قضاياهم ومنها : Les Archives Israélites, L'Univers Israélite de Paris, Le Jewish Chronicle, Le Jewish World de Londres ...

حول هذا الموضوع انظر : لمقتطف ، ١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٣ ، م ٤٣ ، ج ٦ ، ص ٥٦٣ ، انظر ايضاً : عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية ، ص ١٨٦ – ١٩٢ . انظر أيضاً : E. Drumont; *La France Juive*, *t.* 2. pp. 57, 58.

(٣) انظر : الفصل الثالث ، ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤١ وصفحات متفرقة أخرى .

إلى محاولات الهجرة اليهودية إلى فلسطين أيضاً[١] .

وتذكر « المقتطف » في باب المسائل تحت عنوان « عودة اليهود إلى فلسطين » رداً على سؤال ورد إليها من « فرانكفورت » من « ا. س. جواد »[٢] يطلب فيه معرفة ردود الفعل العربية وموقف العرب من المؤتمر الصهيوني الأول الذي تبيَّن منه كما قال « إن غاية الصهيونيين إنشاء مساكن في فلسطين لليهود المضطهدين في روسيا وبلغاريا ورومانيا وبلاد الفرس والمغرب » . ويتساءل هذا القاريء فيما إذا اعتنت الجرائد العربية في مصر والشام بهذا الأمر ، وهل يمكن تحقيق هدف الصهيونية في فلسطين . وأوضحت « المقتطف » في ردها على القاريء أنه « لا يظهر لنا مما نطالعه في الجرائد العربية أنها اعتنت بهذا الأمر اعتناء خاصاً ، وإنما ذكره بعضها مع سائر الأخبار التي يذكرها »[٣] .

وبالرغم من عدم وجود الوعي السياسي الكفيل بمواجهة الخطر الصهيوني على مستوى الصحافة العربية إلا ان صحيفة اسلامية مثل «المنار» كانت بمقالاتها تمثل أولى مظاهر وعي الصحافة العربية في تلك الفترة ، فهي أول من طالبت بمواجهة الخطر الصهيوني ، وبذلك لم تسبقها صحف عربية أخرى في هذا الصدد . ومن خلال مطالعة مقالات « المنار » يظهر لنا بُعد نظر صاحبها ومحررها « رشيد رضا » مما لا يدعو المجال إلى الشك فيه بحيث يُعتبر أول من دعا العرب والمسلمين باسلوب واعٍ إلى تفهم ودراسة الخطر الصهيوني ، وقد ذهب في تعليقه على الحركة الصهيونية ليؤكد أمرين :

الأول : يدعو العرب الى اليقظة القومية والتنبه الى الاستيطان اليهودي وخطورته ، ويوجه نداء بأسلوب ناقد لاذع عندما يقول : « فيا أيها القانعون بالخمول اقنعوا رؤوسكم (أرفعوها) وحدثوا أبصاركم وأنظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم ، اصيحوا لما تتحدث به العوالم عنكم . أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول ان

---

(١) انظر الفصل الثالث ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، وما يليها ، والفصل الخامس من البحث.

(٢) لم تذكر الصحيفة ولا « جواد » نفسه مـا هية جنسيته أو من يمثل أهو عربي كان في أوروبا أم تركياً أو يهودياً أراد معرفة ردود الفعل العربية .

(٣) المقتطف ، ١ نيسان (ابريل) ١٨٩٨ ، م ٢٢ ، ج ٤ ، ص ٣١٠ . انظر ايضاً : المنار ، ٩ نيسان (ابريل) ١٨٩٨ ، م ١ ، ج ٦ ، ص ١٠٦ .

فقراء اضعف الشعوب – الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها – هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل أربابها أُجراء وأغنيائها فقراء ... »

الثاني : يدعو « رشيد رضا » الى التثبت والتحري عن أهداف الحركة الصهيونية ، والعمل بجدية لمواجهتها إن هي حقيقة واقعة والعمل على التناظر وعقد الاجتماعات والمؤتمرات بين العرب والمسلمين. ويتابع نداءه بالقول : « تفكروا في هذه المسألة واجعلوها موضوع محاورتكم لتتبينوا هل هي حقة أم باطلة ، صادقة أم كاذبة . ثم اذا تبين لكم انكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم ، فانظروا وتأملوا وتفكروا وتحاوروا وتناظروا في مثل هذا الأمر ، فهو أخلق بالنظر من اختلاق المصايب وانتحال المثالب والصاقها بالبراء وأحرى بالمحاورة من التذقح والتجني على اخوانكم ، فان في الخير شغلاً عن الشر ، وفي الجد مندوحة عن الباطل ، ومـا يتذكر إلا من ينيب[1] .

والواقع ان دعوة « رشيد رضا » أثرت في اتجاهات بعض الصحف العربية واهتمامها بنشر المقالات عن اليهود والحركة الصهيونية ، بينما لم تلق هذه الدعوة أي تجاوب يذكر من الزعامات العربية في مختلف المناطق العربية ، غير انه من المؤكد ان الشعب الفلسطيني – الفلاحين والصناع – هو الوحيد الذي أحس بخطورة الحركة الصهيونية على مستقبل بلاده بدليل ان ردود الفعل في المناطق العربية تكاد تكون معدومة في الوقت الذي كانت تتأجج بعوامل الرفض والمعارضة في فلسطين حتى ان بعض الزعامات الفلسطينية استطاعت التنبه الى الخطر الصهيوني وابدت معارضتها لانشاء وطن قومي لليهود . ففي مطلع آذار (مارس) عام ١٨٩٩ أرسل « يوسف ضيا الخالدي » – ممثل القدس في مجلس المبعوثان وكان في السبعين من عمره – رسـالة مطولة الى حاخام فرنسا « صادوق خان » (Zadok Kahn) أكد فيها بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وان سكانها ليسوا من اليهود . لذا رأى الخالدي خطراً على مصير شعب فلسطين ، لأن الهجرة اليهودية ممكن ان تؤدي الى طرد الفلسطينيين من ديارهم ، ولكن اليهود سيواجهون بالطبع

(١) المنار ، ٩ نيسان (ابريل) ١٨٩٨ ، م ١ ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

حركة شعبية[١]، من قبل السكان العرب ، لذا طلب الخالدي من الحاخام إفهام اليهود أنه من الأفضل لهم ان يذهبوا الى مكان آخر غير فلسطين.

والجدير بالذكر ان الحاخام « صادوق خان » لم يجب على رسالة الخالدي إنما سلمها الى زعيم الصهيونية « تيودور هرتزل » الذي بادر على الفور الى الرد عليها. فكتب في ١٩ آذار (مارس) عام ١٨٩٩ رسالة أوضح فيها « أن اليهود كانوا وما زالوا وسيبقوا من أحسن اصدقاء تركيا ... وأن الفكرة الصهيونية ليس لديها مشاعر العداء تجاه الحكومة العثمانية ، بل على العكس من ذلك تماماً ، فهذه الحركة مهتمة في ايجاد موارد جديدة للامبراطورية العثمانية عن طريق السماح لعدد محدود من اليهود بالهجرة.. ولهذا لا يوجد شيء على الاطلاق يثير الخوف من هجرتهم ... » أما بالنسبة لشعب فلسطين فانهم « سيكسبون اخوة أذكياء كما سيكسب السلطان مخلصين ... لقد قدمت لجناب السلطان بعض المطالب العامة وأنا سعيد لاعتقادي بأن ذكاءه الحاد سيجعله يقبل الفكرة من حيث المبدأ ... واذا رفضها سنبحث وثق بأننا سنجد ما نبتغيه في مكان آخر ... »[٢].

وفي هذه الفترة من عام ١٨٩٩ تأزمت العلاقات بين العرب واليهود نتيجة للهجرة اليهودية واخطارها ، الأمر الذي دعا الشرطة التركية للتدخل وخصوصاً في مستعمرات الجليل الأدنى : الشجيرة ، يقيل ، بيت جان ، ملحمية. وقد تركزت الازمات بين الجانبين في هذه المناطق بسبب الضيق والاشمئزاز بين أوساط الفلاحين الفلسطينيين نتيجة لتزايد بيع العائلات اللبنانية المالكة لهذه الأراضي للمهاجرين والشركات اليهودية.

والواقع أن المعارضة العربية للهجرة اليهودية وبيع الأراضي لم تتوقف في فترة من الفترات ، بل كانت متواصلة ومؤثرة بحيث استطاعت أن تشكل قوة ضاغطة على الحكومة التركية لوضع حد لبيع الأراضي ، وبدعم من مفتي فلسطين امتنعت السلطات العثمانية في متصرفية القدس في

---

(١) انظر : Y. Roi; *The Zionist Attitude to the Arabs 1908 - 1914*, pp. 200 - 238.
انظر ايضاً : N. Mandel; *Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine 1882 - 1914*, pp. 77 - 108,

(٢) W. Khaldi (Editor); *From Haven to Conquest*, pp. 91,92, ff.
انظر نص الرسالة كاملة في الملحق رقم (١٨). إلا انه يلاحظ من خلال دراسة يوميات هرتزل بأنه لم يأت على ذكر الرسالتين سواء رسالة الخالدي أو جواب هرتزل عليها.

عــام ١٩٠٠ عن السماح بانتقال الأراضي لليهود[١] . وكانت ردود الفعل العربية وحركة الاحتجاجات قد أثّرت منــذ فترة بعيدة على الحكومة العثمانية بإصدارها قوانين خاصة بالهجرة اليهودية ، ونتيجة لذلك وبسبب تشدد السلطات في الموانىء الفلسطينية اتجه عدد كبير من المهاجرين اليهود إلى مرافئ ولاية بيروت الجنوبية ليتم تهريبهم إلى داخل فلسطين وذهب عدد آخر إلى مصر حيث رأوا أن باستطاعة انجلترا حمايتهم وهي المسيطرة هناك . واستطاع هؤلاء المهاجرون التعاون مع الحركة الصهيونية والجمعيات اليهودية المصرية ، وذلك قبل عام ١٨٩٧ وقبل انعقاد مؤتمر بال الأول[٢] . وفي مصر لقي اليهود والحركة الصهيونية بعض المعارضة مما دعا البعض إلى اعتبار ذلك بمثابة لا سامية أو لا يهودية[٣] .

ومن أجل العودة إلى فلسطين ، وإنجاح الحركة الصهيونية وتجاوز ردود الفعل العربيــة والقوانين العثمانية ، اجتمع نفرٌ من الصهيونيين في الاسكندرية في الملهى العباسي عام ١٩٠٢ ، للتداول فيما يجب اتخاذه من مبادرات لتعزيز المنظمة الصهيونية وتحقيق مقرراتها . وقد ألقى أحـد خطبائهم خطاباً بالعبرية طلب فيه من اليهود مواصلة العمل والجد والابتعاد عن الفتور والكسل وذلك للوصول إلى إنشاء الدولة اليهودية[٤] .

---

(١) N. Mandel; *op. cit.*, p. 86.

(٢) أرسل صهيونيو مصر رسالة الى هرتزل في نيسان (ابريل) عــام ١٨٩٧ ، يؤيدونه فيما ذهب اليه ، وأنهوا رسالتهم بعبارة « تحيا الدولة اليهودية » (Vive L'Etat juif) . انظر نص الرسالة في الملحق رقم (١٧) .

(٣) أنظر : J. Landau; *Jews in Nineteenth Century Egypt*, pp. 225 - 268.
(Documents, Anti-Jewish Agitation in Port - Said, p. 225 - Difficulties for Zionism in Egypt, p. 268.)

(٤) جاء في الخطاب : أيها الاخوان

« ان شعبنا ما برح يعلل النفس بأن تكون له أمة – دولة – ولم يتوان في السعي ولن يتوانى مهما عارضته الصوارف وناهضته الصوادف ... تمزق شعب اسرائيل كل ممزق وتفرق شمله في الارض ولكن « بلاد صهيون » كانت مهد الارتباط بين أفراده فهي مأمن السرب وفرجة الكرب ، وبسببها بقينا حافظين للعهود ، محافظين على سنن الآباء والجدود .

... فالمشروع الصهيوني يطالبنا الآن بالمبادرة الى العمل ، والمسارعة الى اتخاذ الحيل ، ويحذرنا عاقبة الفتور والكسل . حسبنا اننا مخرجون – منفيون – من كل مكان ، مبغضون من كل انسان يرمينا الشانيء بذلك الوصف الشائن الذي نبذنا من أجله بلقب « اليهودي التائه » ..

اذاً لا علاج لهذا الامتهان إلا الاتحاد والاعتصام لتأييد النهضة المحلية التي تأسست في النمسا من أفاضل شعبنا لحفظ حقوقنا المقدسة .

اخواننا، عليكم نعتمد في نجاح المشروع الصهيوني في أرض مصر، فلنسلك مسالك اخواننا =

وفي أواخر عام ١٩٠٢ اجتاحت موجة من الاحتجاجات العربية المناطق الفلسطينية لأن المهاجرين اليهود أثروا في إعاقة عجلة التطور الاقتصادي والاجتماعي والصحي، مما جعل الحكومة التركية والسلطات المحلية تخضع لظروف جديدة، الأمر الذي اضطرها إلى مضاعفة نشاطها وانشغالها لمواجهة الأعباء الجديدة من العناصر الجديدة. وقد ذكرت «النشرة الاسبوعية» تحت عنوان: «أخبار محزنة عن طبريا» لأحد قرائها في فلسطين «سليم عبود» وصف فيه حالة اليهود فقال: «... ويهود طبريا موصوفة بقذارة المعيشة وإهمال أمر النظافة كل الإهمال، ولمحلتهم شوارع ضيقة للغاية لا تصلها حرارة الشمس، وفيها ما فيها من الرطوبة والعفونة حتى أن المار بتلك المنافذ الضيقة يلتزم لسد خياشيمه والإسراع في الجري ليعجل خروجه من تلك القواذير. واليهود عادة يرسلون كل هذه الأقذار مع الأوساخ الأخرى إلى البحيرة وبها يغسلون موتاهم ويشربون من مائها، وهو عند الشاطىء عبارة عن مدوف أوساخ، وبهذه الواسطة امتد الوباء وانتشر في طبريا وفتك فيها ...» فخشي السكان العرب من امتداد هذا الوباء إلى بقية المناطق، فطلبوا من السلطات المحلية أخذ الاحتياطات اللازمة والواقية تحسباً لكل طارىء، على أن اليهود استاؤوا من بعض إجراءات الوقاية المتخذة لأنها على حد زعمهم «يكون غير موافق لمذهبهم» مما اضطر وكيل القائمقامية إلى إجبارهم على غلي الماء في دار الحكومة وتوزيعه بعد ذلك. ونظراً لعدم تجاوب اليهود فقد صحّ ما توقعه الأهالي العرب. وقال «سليم عبود» أنه «استفحل الداء وعمّ البلاء وانتشر الوباء فخافت الأنحاء المجاورة شره وحسبوا ألف حساب لزيارته وأقيمت المحاجر الصحية داخل طبريا وحواليها حتى الى «عين الكتب» البعيدة نحو ساعة عن البلدة ...»(١). وهكذا يمكن القول بأن الاحتجاجات العربية على الهجرة اليهودية ليست سياسية فحسب، وإنما كانت أيضاً لأسباب اقتصادية واجتماعية وصحية.

= في الاقطار البعيدة، فقد مهدوا لنا السبيل فاذا عضدناهم فساعة الفوز آتية بعد زمن قليل ويناجينا الشعور بحاجة بعضنا الى بعض بأن ستبادرون الى اجابة دعوتنا وحضور ليلتنا لسماع الخطب في ملهى «منفراتو» الساعة ٩ من مساء السبت ١١ الشهر الافرنكي، ونحن في انتظاركم شاكرين لكم سلفاً محبة صهيون.» قسم جمعية بارخورشبا – الاسكندرية
نقلاً عن: المنار، ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢، م ٤، ج ٢١، ص ٨٠٦ – ٨٠٧.

(١) النشرة الاسبوعية، ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٢، العدد ١٩٢١.

وفي حزيران (يونيه) عام ١٩٠٣ استمرت المحاولات الصهيونية لشراء الأراضي في فلسطين، فقد فاوضت الشركات الصهيونية الاقطاعي اللبناني الياس سرسق لشراء مقاطعة وادي جزريل – مرج ابن عامر – فطلب سعراً مرتفعاً قياساً بأسعار الأراضي المتعارف عليها ذلك أن الياس سرسق كان يعتبر من تجار الأراضي الفلسطينية. وقد أكد هرتزل نفسه هذه العمليات بقوله «أن السيد سرسق يطلب ٢٥ فرنكاً للدونم الواحد، بينما تقول تقاريرنا أنه لا يساوي أكثر من ١٥ – ١٨ فرنكاً»[١]. إلا أن السماسرة الصهيونيين استطاعوا ابتياعها فيما بعد بالسعر الذي حدده «السيد سرسق». وكانت عمليات البيع قد أثرت على كثير من الفلاحين على اعتبار ان مرج ابن عامر من أهم المناطق الخصبة في فلسطين. «والفلسطينيون لا يزالون ساخطين لأن عائلة سرسق المتغيبة عن البلاد باعت مساحات واسعة منه لليهود مما أدى إلى إخراج المزارعين العرب. وقد تراءى لي هذا السخط في أثناء محادثاتي مع العرب الأفندية منهم والفلاحين على السواء»[٢]. ذلك أن الوسيلة التي أتبعها اليهود للتخلص من الأيدي العاملة العربية، كانت بالاعتماد على اليهود القادمين من اليمن الذين خبروا الأعمال الزراعية بعكس يهود أوروبا الذين فشلوا في الميدان الزراعي، ولكن استطاع هؤلاء أن يعزلوا يهود اليمن في أحياء خاصة بهم كانت بمثابة «جيتو» (Ghetto) أوروبي مثل مستعمرات: «ريشون لوزيون»، «بتاح تكفا»، و «رحبوت»، غير أن هذه المستعمرات كانت قليلة الانتاج سيئة الأسلوب، مما اضطر المسؤولين اليهود إلى الإعتماد من جديد على الفلاحين الفلسطينيين.

وللدلالة على ضآلة الدور الذي قام به اليهود في الحياة الزراعية ما يذكره «داڤيد بن غوريون» من أنه كان يعمل في مستعمرة «نس زيونا» أكثر من ٢٠٠ عربي مقابل ٦ يهود، ٥ فقط منهم يعملون في الزراعة. وفي مستعمرة «بتاح تكفا» كان عدد العرب العاملين فيها يتراوح بين ١٠٠٠ شخص و ١٥٠٠ شخص مقابل ٦ فقط من اليهود، وهذا أمر لا يدعو إلى الفخر[٣]. وفي الفترة ما بين ١٨٨٢ و ١٩٠٣ كان عدد اليهود

(١) يوميات هرتزل، ٤ حزيران (يونيه) ١٩٠٣، ص ١٥٠٤ (ت.ع. ص ٢٩٠).
(٢) السير جون هوب سمبسون: فلسطين – تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران، ص ٢٨.
(٣) D. Ben Gurion; *Rebirth and Destiny of Israel*, p. 58.

المهاجرين ما بين عشرين وثلاثين ألفاً ، فمن أصل هؤلاء الألوف لم يقبل على الزراعة في فلسطين سوى ألف عائلة فحسب ، كانت كلفتها ما يقارب مليونين من الجنيهات الاسترلينية (١).

وفي أواخر عام ١٩٠٣ وردت الأنباء من الأراضي المقدسة إلى يهود أوروبا عن ردود الفعل العربية والقوانين العثمانية وعدم وجود الأمن وحسن الجوار ، لذا آثر عدد كبير منهم الهجرة إلى العالم الجديد ، ليس في مطلع القرن العشرين فحسب وإنما منذ أواخر القرن التاسع عشر حيث تكاثر عدد اليهود في الولايات المتحدة الأميركية «وغصت بهم شوارع المدن وساحات القرى وما علة ذلك إلا ما رأووه من الأمن وحسن الجوار في تلك البلاد . والمهاجرون من الاضطهاد في بعض بلاد أوروبا يقدمون إليها أفواجاً . وقد أثروا فيها فانتفعوا ونفعوا ، وأكثر اليهود الذين يدخلونها من اللاجئين إليها من روسيا وألمانيا (٢)» .

والواقع أن ردود الفعل الفلسطينية ظلت مستمرة فتتخذ حيناً شكل الإصطدامات والهجمات على المستوطنات اليهودية ، وحيناً آخر شكل الجهود السياسية ورفع الاعتراضات إلى الحكومة العثمانية . ويرى البعض بأن هذا الشعور كان أكثر وضوحاً في المدن بسبب منافسة اليهود للعرب في المجالين الصناعي والتجاري . أما في الريف فقد كان هناك شعور بالاستياء من تملك الأجانب للأرض (٣) . وقد حدث ان ثار العرب وهاجموا مستعمرة « بيار تعبيا » — خير الله — وهي مستعمرة يهودية في غزة — فدمروها تدميراً وكانت قد تأسست عام ١٨٩٥ ومساحتها ٤٨٠٠ دونم وعدد سكانها ٦٥٥ نسمة .

وكان النشاط العربي منذ أوائل القرن العشرين قد بدأ بالتطور في مواجهة الحركة الصهيونية والاستعمارية ليس عن طريق القوى العاملة فحسب ، وإنما عن طريق بعض المفكرين وكبار الموظفين العرب في الدولة العثمانية . ففي أوائل عام ١٩٠٥ تمكن عدد من القوميين العرب والمناوئين للصهيونية من لفت انتباه الصحافة الأوروبية ومؤيدي الحركة الصهيونية إلى حركة

---

(١) S. I. Sitton; *op. cit.*, pp. 37 - 38.

(٢) النشرة الاسبوعية ، ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٣ ، العدد ١٩٧٤ .

(٣) محمود صالح منسي ، تصريح بالفور ، ص ٤٢ .

القومية العربية [١]. وكان في مقدمة هؤلاء نجيب عازوري – مسيحي من لبنان – حيث كان يعمل موظفاً في ادارة متصرفية القدس (١٨٩٨ – ١٩٠٤) إلى أن نفي إلى باريس بعد معارضته للمتصرف التركي « رشيد باشا » الذي كان مثالاً سيئاً في تطبيق القوانين الخاصة بالهجرة اليهودية في خلال أكثر من سنتين من توليه المتصرفية (١٩٠٤ – ١٩٠٦) [٢].

وكانت حملة « عازوري » (N. Azouri) قد بدأت منذ عام ١٩٠٤ ، عندما أسس جمعية عرفت باسم « عصبة الوطن العربي » (La Ligue de La Patrie Arabe) وينص برنامجها على تكوين أمبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى الخليج العربي ، ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون ، وقد تسربت بضعة منشورات من عصبته إلى فلسطين [٣] في عام ١٩٠٥ وكانت تحت عنوان « بلاد العرب للعرب » (Les Pays Arabes aux Arabes) وانتشرت لدرجة اضطرت السلطات العثمانية الى اعتقال بعض أعيان العرب في يافا وغيرها من المدن والقيام بتفتيش منازلهم وأوراقهم [٤].

وفي عام ١٩٠٥ أصدر « نجيب عازوري » كتاب « يقظة الأمة العربية في آسيا التركية » (Le Reveil de la Nation Arabe dans L'Asie Turque) عبر فيه بفكر ثاقب عن واقع الأمة العربية وخطر الحركة الصهيونية ، وطالب فيه بتأسيس أمبراطورية عربيـــة مستقلة من النيل إلى الفرات ، وحـــذر من خطر تحقيق المشروع الذي تنادي به الحركة الصهيونية ، وهدفها البعيد – حسبما أورده عازوري – كان إحياء الدولة اليهودية القديمة بحدودها القديمة [٥].

وتعود أهمية كتاب عازوري إلى أنه تنبأ فيه باستمرار الصراع بين الحركة العربية والحركة الصهيونية وأوضح أنه « تظهر في الوقت الحاضر

---

(١) Y. Roi; *The Zionist Attitude to The Arabs 1908 - 1914*, p. 198.

(٢) انظر : ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٤ .

(٣) Y. Porath; *The political awakening of the Palestinian Arabs* .., pp. 24, 25.

(٤) N. Mandel; *op. cit.*, pp. 91, 92.

(٥) Y. Roi; *op. cit.*, p. 198. ويذكر (Roi) من ان مقالة عن الحركة العربية مبنية في معظمها على تحليل لكتاب عازوري ، كانت واحدة من ثلاث مقالات صدرت حـــول الموضوع في « النشرة القومية اليهودية » « هاشيلوا » (Hashiloah) .

وبشكل لم يثر الاهتمام في السابق ، ظاهرتان متعارضان رغم تشابه طبيعتهما ، هما يقظة الأمة العربية ، وجهد اليهود لإعادة تأسيس مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . أنه مقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى ، ومصير العالم كله منوط بنتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين »[١] .

ويدرك « عازوري » أهداف الحركة الصهيونية وأطماعها في إقامة اسرائيل الكبرى ، فيذكر حدودها كما تتوخاها الصهيونية والشعب اليهودي « بأن هذه الحدود الطبيعية هي بالنسبة إليهم جبل الشيخ الذي يضم منابع نهر الأردن ووادي بردى في الشمال مع الأراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كتوطئة ، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب ، والجزيرة العربية في الشرق والبحر المتوسط في الغرب . وبتكوينها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها ... بلداً صعب المنال[٢] » .

وكان لكتابات عازوري ولمنشوراته أثرٌ في اليقظة العربية لا سيما في فلسطين ، وكانت الحركة العربية تجد ذاتها في طور النمو والتطور السياسي ، إلا أن المؤرخ الصهيوني (Roi) يحاول التقليل من أهمية هذه الحركة في مواجهة الصهيونية فيذكر بأن اليقظة العربية لم تكن قد اتخذت شكلها الحقيقي وأن المنشورات الصهيونية الرسمية منها وغير الرسمية كانت لا تشير إلى هذه المشكلة حتى بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨[٣] . ولكنه يعود ويعترف بأن النشرة القومية اليهودية قد اهتمت بظاهرة الحركة العربية وأصدرت عدة مقالات حولها . كما أن كتابات « أحدها عام » عام ١٨٩١ تنفي تماماً ما سبق وأشار إليه (Roi) من أن المنشورات الصهيونية لم تهتم بالحركة العربية[٤] . ويذكر « ماندل » بأن من مميزات انتخابات عام ١٩٠٨ أن « نجيب عازوري » العائد من باريس لترشيح نفسه عن يافا لم يتخذ له منطلقاً البرنامج العربي القومي الذي سبق وتحدث عنه خلال الخمسة عشر شهراً السابقة في مجلته « الاستقلال العربي » (L'Indépendance

(١) N. Azouri; *Le Reveil de la Nation Arabe dans L'Asie Turque*, p. 5. (Paris 1905) .

(٢) N. Azouri; *op. cit.*, p. 7.

(٣) Y. Roi. *op. cit.*, p. 199.

(٤) انظر : الفصل الرابع ، ص ٢٣٥ .

Arabe) بل فضل عوضاً عنه أن يتناول في خطبه معظم الأمور العامة [١]. وربما يعود سبب ذلك إلى تجاربه السابقة مع السياسة العثمانية عندما طرد من وظيفته بعد أن أبدى معارضته للحكم. إلا أن «بوراث» (Porath) يؤكد أنه بعد ثورة ١٩٠٨ سمح لنجيب عازوري بالعودة إلى فلسطين وكان من الممكن أن يتابع نشر أفكاره هناك، إلا أنه يشك في أن كتاب «يقظة الأمة العربية» كان له مفعول كبير في فلسطين [٢].

ويذكر «جورج أنطونيوس» أن حملة «عازوري» ومؤلفاته «أثارت شيئاً من الاهتمام في أوروبا في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلاً. وبغض النظر عن قيمة هذه الحركة فان ظهورها في عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو إلى شلها والحد منها...» [٣]. إلا أنه من الممكن جداً أن تكون أفكار عازوري قد انتشرت في فلسطين والبلاد العربية الأخرى عن طريق المثقفين العرب الذين وصلتهم نشرات من عازوري وباسم جمعيته «عصبة الوطن العربي» الأمر الذي دعا السلطات العثمانية إلى اعتقال عدد منهم. وكان هؤلاء قد ألفوا عدداً من الجمعيات للمطالبة بالحرية والإصلاح ومعارضة الهجرة اليهودية نظراً لخطورتها على الشعب الفلسطيني، وعن طريق هذه الجمعيات نشروا آراءهم وأفكار عازوري بين الأهلين، بدليل أنه بعد عام ١٩٠٥ ازدادت المظاهرات والاحتجاجات في مدن فلسطين. ومن نتائج ردود الفعل العربية المتشددة ضد الهجرة اليهودية ان اضطرت وزارة الداخلية العثمانية

---

(١) N. Mandel; *op cit.*, p. 92.

(٢) Y. Porath; *op. cit.*, p. 24.

(٣) جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص ١٧٣. وتذكر بعض المصادر العربية والصهيونية من ان نجيب عازوري استطاع ان يستميل بعض الكتاب الفرنسيين امثال (Eugene Jung) صاحب كتابي:

1 — *Les Puissances devant la Révolte Arabe,* (Paris 1906).
2 — *La Révolte Arabe,* (Paris 1924).

واستطاع التعاون مع عدد آخر في المجالات السياسية والفكرية، وبواسطة مجلته الشهرية «الاستقلال العربي» (L'Independance Arabe) استطاع ان ينشر المعرفة عن البلاد العربية والمشاكل التي تواجهها واستطاع ان يثير الاهتمام بقضية تحريرها. وقد ظهر العدد الأول منها في نيسان (ابريل) عام ١٩٠٧ وتوقفت عن الصدور حين اعلن الدستور العثماني في تموز (يوليه) ١٩٠٨ حين عاد الى فلسطين، واعدادها الخمسة عشر موجودة في المكتبة الوطنية بباريس.

إلى إصدار تعليماتها في عام ١٩٠٥ إلى متصرف القدس رشيد باشا ، تقضي بمنع تملك المهاجرين الأجانب – ومنهم اليهود – الأبنية والأراضي ، لئلا يثير ذلك المشاكل الدائمة في الأراضي المقدسة [١]. ونتيجة لاستمرار ضغط الشكاوي العربية اضطرت السلطات العثمانية في نهاية عام ١٩٠٦ إلى نقل « رشيد باشا » – الذي عين عام ١٩٠٤ وأيد الهجرة اليهودية علانية – واستبدل بـ« علي أكرم بك » الذي طبق القيود بحماس واندفاع ضد اليهود إلى أن قامت ثورة تركيا الفتاة في تموز (يوليه) عام ١٩٠٨ حين نقل بعدها إلى بيروت [٢].

وفي الوقت الذي كانت فيه حركة المعارضة الفلسطينية تتزايد ضد مسألة تدفق المهاجرين اليهود ، وفي الوقت الذي كان فيه « نجيب عازوري » يوضح أخطار الحركة الصهيونية ويدعو إلى يقظة الأمة العربية كان « شاهين مكاريوس » [٣] يشيد بأعمال المنظمة الصهيونية ، ويدّعي أن الاستيطان اليهودي أدى إلى التقدم والعمران في فلسطين « وأن من آثار هذه الجمعيات وخيراتها شراء قرية المطلة في قضاء مرجعيون بولاية بيروت واستيطان الاسرائيليين لها ، وشراء أراضي في جهات الحولة وطبريا ويافا وحيفا وغيرها حيث استوطنها اليهود وأبدلوا حالتها من عسر إلى يسر ومن جدب إلى خصب » [٤].

ويرى « مكاريوس » ان الصهيونية ستصل إلى أهدافها بالرغم من المآسي التي ألمت بها « فهي دائبة في لم شعثها وجمع كلمتها وضم جامعتها تدافع عن كيانها بالصبر وثبات الجأش والرضوخ لأحكام الأقدار ، فلا تقعد عن عمل يلوح لها فيه بارقة أمل إلى غايتها الشريفة ... » [٥].

وفي عام ١٩٠٦ أظهر العرب الفلسطينيون تذمرهم من الهجرة اليهودية ،

---

(١) انظر : رسالة وزارة الداخلية العثمانية الى محافظ مدينة القدس في ٣ شعبان ١٣٢٣ هـ – ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٣٢١ رومي ، في الملحق رقم (٥) مع ترجمته العربية .

(٢) N. Mandel; *op. cit.*, pp. 90, 91.

(٣) عن سيرة شاهين مكاريوس ومؤلفاته انظر : مقدمة الكتاب .

(٤) شاهين مكاريوس : تاريخ الاسرائيليين ، ص ٢٠٣ ، طبع المقتطف ، مصر ١٩٠٤ . وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب الى « فيلكس سوارس » رئيس الطائفة اليهودية في مصر ، وتحدث فيه عن كبار اليهود وعن نشأة الحركة الصهيونية وزعيمها هرتزل .

(٥) شاهين مكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ٢٦١ .

لا سيما بعد أن رأوا عدداً وفيراً من المهاجرين الذين دخلوا إلى الأراضي المقدسة على أمل الزيارة الدينية لم يخرجوا من البلاد ، بل بدأ بعضهم يقيم المستوطنات والمزارع الجماعية ومارسوا نشاطاً جعل العرب يشنون غاراتهم الهجومية على اليهود كما حدث في منطقة (Sejera) وغيرها[١] . وبالرغم من هذا الواقع بين العرب واليهود ، إلا انه يلاحظ ان الحركة الصهيونية كانت قد قررت منذ عام ١٩٠٥ ضرورة الهجرة المركزة نحو فلسطين والعمل مع الدوائر الاستعمارية والبريطانية بصورة خاصة للحصول على « تبرئة » استيطان يهودي في فلسطين ، ومن أجل ذلك استمرت عمليات الرشوة والتسرب بل وشراء الأراضي والممتلكات من المتمولين اللبنانيين في أملاكهم الكائنة في بيت لحم وأم العمد والناصرة وغيرها من المناطق ، وذلك بأسماء مستعارة وبجنسيات أوروبية . وقد تكررت هذه الحالة في عام ١٩٠٧ في حيفا والقدس ونابلس وجنين[٢] . مما أظهر سخطاً على الحكومة والملاكين معاً .

ومن الأهمية بمكان القول ، أن الحركة الصهيونية حاولت الافادة من الظروف السياسية المحيطة بالدولة العثمانية لتتحالف معها . فقد كانت الحركة الوطنية الفلسطينية مهتمة بواقعها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي منذ أن بدأت تصعد حملاتها على الصهيونية وعلى فساد الادارة العثمانية في آن معاً مطالبة باتخاذ تدابير صارمة لمنع القادمين اليهود من الدخول إلى الاراضي المقدسة ومطالبة بنفس الوقت بضرورة الاصلاح واعلان الحريات العامة . وأمام هذا الواقع استغلت الحركة الصهيونية هذه الظروف مبدية استعدادها للحكومة العثمانية الوقوف في وجه الحركة العربية الناشئة في مقابل زرع الشعب اليهودي في فلسطين ومناطق سوريا الطبيعية . ويؤكد « ماكس نوردو » (Max Nordeau) هذه الحقيقة حيث يقول : « أن الحركة التي جمعت حولها جانباً هاماً من الشعب العربي يمكن أن تثير اضطرابات في فلسطين ... يمكن أن تضطر الحكومة التركية إلى الدفاع عن ملكها ضد رعاياها في فلسطين وسوريا بقوة السلاح ... في هذه الحالة ، يمكن أن تقتنع تركيا بأنه يهمها دونما شك أن يوجد في فلسطين وسوريا شعب قوي وحسن

---

(١) D. Ben Gurion; *Memoirs*, p. 158.

(٢) انظر : ثمرات الفنون ، ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٧ ، العدد ١٦٤١ ، ص ٧ ، محمد رفيق ومحمد بهجت ، المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

التنظيم يحمي هذه السلطة بكل قواه[1] ». وأكد ذلك أيضاً اليهودي « أوري أفنيري » بقوله : « اننا في صدد اعلان حرب على الحركة العربية الناشئة وأن كون هذا القرار قد أملته مصالح مادية ، فذلك لا يغير شيئاًمن نتائجه ».

والواقع أن الدولة العثمانية لم تتحالف مع الحركة الصهيونية ضد الحركة العربية لاعتبارات عديدة يأتي في مقدمتها الوزن والأهمية التي يشكلها العرب في كيان الدولة العثمانية وصمودها ، غير أن ذلك لم يمنع العرب من متابعة معارضتهم للهجرة اليهودية واستمرار هجماتهم على اليهود ، كما حدث في أواخر عام ١٩٠٧ وأوائل عام ١٩٠٨ ، وقد استدعي قائمقام يافا إلى القسطنطينية لإيضاح رأيه في االمشاجرة الحاصلة بين اليهود والمسلمين في ١٢ آذار (مارس) عام ١٩٠٨[2] . والظاهر أن القنصل الروسي كان يؤيد اليهود في منازعاتهم مع العرب ، بينما اعتبر القنصل البريطاني « بلش » (Blesh) أن هذه المظاهر هي نجاح للقنصل الروسي العام الذي أُفهم بأن المتصرف كان منزعجاً من هذا الوضع[3] . وفي يافا أبدى وكيل القنصل البريطاني قلقه من ردود الفعل العربية والهجوم العربي على اليهود الروس ، إذ سببت هذه الحوادث ذعراً عاماً بين اليهود في يافا[4] ، الأمر الذي جعل البريطانيين يتخوفون من تكرار مثل هذه الحوادث ، وقد صرحوا بذلك للقنصل البريطاني الذي أبدى انزعاجاً من اليهود الروس. ولكن بالرغم من ذلك فإن اليهود بصفة عامة ، كانوا يجدون في الدول الأجنبية حماية لهم في علاقتهم مع السلطات المحلية والعرب على السواء. وقد بلغ الأمر بالقنصلية البريطانية في القدس أن طلبت من الحكام المحليين في عام ١٩٠٨ السماح بشق طريق للأحياء اليهودية ، ولكن الاستدعاء المقدم كان يوضح بأن الطريق هي لأحد منازل الرعايا الانجليز ، فرفض الأهالي تحقيق ذلك « وصار السؤال عن بعض الفلاحين المارين منها فأجابوا بأنهم يمرون منها من قديم ما يفوق عن ثلاثين سنة وزيادة »[5] . غير أن مجلس

---

(١) انظر : لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، ص ٩٠ ، انظر ايضا :
A. Cohen; *Israel and The Arab* World, p. 76.

(٢) Blesh to Barclay, 2 April 1908, No. 20. in F.O. 195/2287.

(٣) Blesh to Barclay, 2 April 1908, No. 20, in F.O. 195/2287.

(٤) (Report) to Barclay, 18 March 1908, No. 12052, in F.O. 371/591.

(٥) وثيقة باللغة العربية من مجموعة الوثائق البريطانية تحمل التصنيف التالي :
F. O. 195//2287, 1908.

القدس وافق على الاستدعاء المقدم من قِبل « وليم هنري » الانجليزي ، واعتبر المجلس أن المستفيد من هذه الطريق هو أحد الرعايا الانجليز ، إلا أن من يطلع على الخريطة الخاصة بالأرض يتأكد بأن المستفيد من تلك الطريق هم اليهود وأحياء السكناج ويهود اليمن وكومبانية البوخارية وغيرهم من اليهود[١] .

والواقع أن عرب فلسطين مارسوا معارضتهم للاستيطان اليهودي بأشكال عديدة ومختلفة ومنها المعارضة السياسية والحرب الاقتصادية ، حيث شكل العرب لجاناً شعبية مهمتها التضييق على اليهود ومؤسساتهم في كافة المناطق الفلسطينية ولا سيما في القدس ، فكان أعضاء هذه اللجنة يوزعون أنفسهم في مختلف المناطق لتنفيذ مخططاتهم في تخريب وحرق المؤسسات الأجنبية والصهيونية ، ويذكر مراسل صحيفة « ثمرات الفنون » ١٩٠٨ من أنه قد « بلغنا من أخبار القدس أنه حدث فيها حريق هائل إلتهم محل الكريدي ليونه[٢] ، والمرسح والبوسطة العثمانية وسبب خسائر باهظة . جرى ذلك عند منتصف ليل الأربعاء الواقع في ٢٢ نيسان (ابريل) ، وأول شبوب النار كانت في قهوة نقولا تنكجي الواقعة في الجناح الأيمن من أول السوق الذي عند باب الخليل ، ثم اندلعت ألسن اللهيب وامتدت إلى ما يجاور القهوة فالتهمت بيت الخواجه خريستاكي المضمون في شركة « النورثرن » ثم اتصلت ببيت مدير بنك الكريدي ليونه فأحرقته أيضاً ، فإدارة البوسطة والتلغراف العثمانية فأحرقتها ، فمخزن الخواجه اينلندز.. »[٣] . وبعد ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨ ازدادت ردود الفعل العربية بعد أن شعر العرب بتأييد اليهود المثير لهذه الثورة تحت ستار الولاء للعثمانية والعمل لمنفعة الدولة ونفي الهدف السياسي ، ولكن هذا لم يمنع الصهيونية من أن تُبقي الهدف الأساسي لمشروع هرتزل بانشاء الدولة اليهودية كامناً في تحركاتها ونشاطها .

والواقع أن العرب أيدوا ثورة الاتحاديين باعتبار أن ذلك يؤدي إلى تحقيق مطالبهم ، وكانت معظم الزعامات الإسلامية المنتمية للعائلات العريقة

---

(١) انظر خريطة الاحياء اليهودية في وثيقة اخرى تحمل نفس رقم التصنيف ونفس التاريخ .
F. O. 195/2287, 1908.

(٢) الكريدي ليونه : مؤسسة مصرفية صهيونية .

(٣) ثمرات الفنون ، ١١ أيار (مايو) ١٩٠٨ ، العدد ١٦٦٢ ، ص ٧ .

في البلاد وبعض المسيحيين قد عبروا بطرق مختلفة وبمناسبات عدة عن شكرهم لهذه الثورة إلا أن أملهم كان هو ألا تنحرف إلى النقطة التي كانوا يشكون منها في السابق[١]. ولكن التأييد الصهيوني للثورة كان على شكل يثير القلق والشكوك العربية ، فقد رفع الصهيونيون في كافة أنحاء المستعمرات – لا سيما في يافا – علماً أزرق وأبيض هو علم الصهيونية ، ورفعوا إلى جانبه علم الاتحاديين الأحمر والأبيض ، ورفعوا نداءات مؤيدة للاخوة الاتحادية – الصهيونية [٢]. وبالنسبة للموقف العربي ، فانه إذا ما أيدت بعض الزعامات العربية ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨ إلا أنه لا يعني ذلك مطلقاً بأن مختلف فئات الشعب قد أيدتها ، فقد كانت الممارسات والاجراءات التي قام بها الاتحاديون قد أثارت معارضة في فلسطين وسوريا ، وقامت مظاهرات صاخبة في بغداد في ١٧ رمضان ١٣٢٦هـ – ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٨ ونادى المتظاهرون باعادة الشريعة التي سلبها ونهبها الاتحاديون . وقام أنصار جمعية الاتحاد والترقي بأعمال تبرر مخاوف « حماة الشريعة » فقد ارتكبت المخالفات الدينية بصورة علنية ، بدت وكأنما هي تحدٍ للدين . وظهرت منشورات ومجلات وجرائد تدعو إلى آراء متباينة ، كما انتشرت المراقص والملاهي والحانات وسهل على الأفراد تحقيق شهواتهم[٣]. ولما كانت روح العصر لا تستسيغ كثيراً مثل هذه الأمور ولا تتقبلها ، فكان من الطبيعي أن يحدث ردود فعل ضدها ، لا سيما بعد انتشار الأخبار الواردة إلى كافة المناطق من أن اليهود كانوا من مخططي ثورة الاتحاد والترقي .

وفي فلسطين كثر الفساد وعم التعدي وسادت الفوضى ، وضعفت هيبة الحكومة والادارة ، وبدأ الناس باحتقار الحكام وجهلوا معنى الحرية ، وكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف ، وإذا عُنّف أو زجر قال : حرية ، مساواة[٤].

والواقع أن العهد الاتحادي أتاح لليهود ممارسة نشاطهم بحرية أكثر من

---

(١) Blesh to Lowther, 6 August 1908, No. 39, in F.O. 195/2287.

(٢) انظر : Falanga to Blesh, 5 August 1908, No. 46, in F.O. 195/2287.
انظر ايضا : N. Mandel ; *op. cit*, p. 92.

(٣) عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٤) عمر البرغوتي وخليل طوطح : تاريخ فلسطين ، ص ٢٧ .

ذي قبل ، ففي هذه الفترة واصل مجموعة من المهاجرين في الجليل نشاطهم مع بن غوريون ، وبدأوا بتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي الجبلية وتحويلها إلى أراضٍ زراعية ، وكانت تلك الأراضي قد اشتريت من مال « صندوق الإدخار القومي اليهودي »[١] ، من بعض الاقطاعيين الفلسطينيين واللبنانيين ، لذا كانت التقارير المتوفرة في عام ١٩٠٨ تدل على أن الفلاحين الفلسطينيين يضمرون العداء نحو اليهود ونحو الاقطاعيين العرب أصحاب الأراضي الشاسعة أمثال : مصطفى باشا ، فؤاد سعد ، الياس سرسق ، الذين سهلوا الاستيطان اليهودي ببيعهم تلك الأراضي . غير أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لم يثر المسلمين العرب فحسب ، وإنما المسيحيين ايضاً من أهل فلسطين ، إذ أن الشعور بالخطر الصهيوني كان من جملة العوامل التي قربت بين الفئتين[٢] . وقد ذكر « نجيب نصار » — وكان مراسلاً لصحيفة « ثمرات الفنون » في فلسطين قبل تأسيسه الكرمل — تقريراً عن ردود الفعل العربية للاستيطان اليهودي ، أكد فيه تكرار حوادث القتل والاحتكاك بين الجانبين وذكر أنه « جرت مشاجرة من نحو عشرين يوماً ما بين أهالي قرية معذر .. وأهالي مسمة من اليهود ، انتهت بجرح واحد من كل فئة بالرصاص ، ومن ثلاثة أيام أصيب أحد اليهود برصاصة بجنبه وشج رأسه بضربة سيف ، ويقال بأن حالته تنذر بالخطر والحكومة للآن لم تقبض على أحد من الفاعلين »[٣] .

وتوالت المظاهرات في أواخر عام ١٩٠٨ في فلسطين لفضح المؤامرات الصهيونية ، وبيان خطر بيع الأراضي لليهود ، وتوالت هجمات العرب على مستوطنات اليهود لتدميرها ، كما دعا الوطنيون إلى مكافحة الصهيونية عن طريق خلق وعي قومي ثقافي فأسسوا معهدين علميين وطنيين : الدستورية والروضة ، وأخذ النواب العرب في مجلس المبعوثان يثيرون قضية فلسطين منذ عام ١٩٠٩ ، حتى أجبروا رئيس الحكومة على إعلان أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين[٤] . وكان نواب القدس الشريف ، قد واصلوا جهودهم لدى الدوائر الحكومية العثمانية للعمل لوقف الهجرة اليهودية إلى

---

(١) D. Ben Gurion ; *Memoirs*, p. 185.

(٢) *Esco Foundation for Palestine*, p. 449.

(٣) ثمرات الفنون ، ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ ، العدد ١٦٧٩ ، ص ٣ .

(٤) محمود منسي : تصريح بالفور ، ص ٤٣ .

فلسطين ، لأن اليهود باتوا يشكلون خطراً على المواطن الفلسطيني . ويذكر « صالح بويصير » من أن فرصة دخول العرب إلى مجلس المبعوثان لم تكن هي التي حمت فلسطين من تغلغل اليهود وتسلطهم في فلسطين ، فإن التاريخ يثبت قبل ذلك أن السلطان عبد الحميد أشهر سلاطين بني عثمان قوة وانفراداً بالحكم ، لم ينصع لإغراءات اليهود واتصالاتهم العديدة(١) . غير أن « بوراث » (Porath) – المؤرخ الصهيوني – يؤكد بأن إدخال الحياة البرلمانية في الامبراطورية العثمانية ، قد هيأ منصة هامة للتعبير عما هو ضد الفكرة الصهيونية ، وأشهر من قدم هذا المثال اثنان هما : سعيد الحسيني وروحي الخالدي ، وهما اثنـــان من ثلاثة ممثلين عن متصرفية القدس في البرلمان العثماني من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٢ . ويضيف « بوراث » بأن هذان الشخصان استغلا هذه المنصة لتوضيح أخطار الصهيونية وضرورة تفادي انجازاتها في فلسطين(٢) .

وهذا الحديث عن فعـــالية نواب فلسطين في مجلس المبعوثان يقودنا لتأكيد ناحية هامة في تاريخ القضية الفلسطينية ، وفي دحض الأتهامات الصهيونية القائلة أن الفلسطينيين لم يكونوا يؤثرون في مجريات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الدولة العثمانية ، فالواقع يثبت غير ذلك تماماً فالأمر لم يقتصر على استمتاع المواطنين العرب – ومنهم الفلسطينيون – بحقوق معينة لا سيما فيما يتعلق بالتمثيل النيابي ، بـــل لقد اشتركوا فعلياً في ادارة البلاد . وكان منهم من ارتقى المنـــاصب التنفيذية العليا والمناصب التشريعية والادارية ، وكان بينهم من شغل وزارات هامة ووظائف في البلاط ، ومن المهم التأكيد على المنزلة القانونية والسياسية التي كان العرب الفلسطينيون يتمتعون بها زمن الحكم العثماني(٣) .

هذا وقد استمر النشاط الصهيوني لاستيطان فلسطين، وعين «جاكوبسون» (Victor Jacobson) – وكان مديراً لفرع شركة (Anglo-Palestine) الصهيونية في بيروت – ممثلاً للمنظمة الصهيونية في القسطنطينية ، وهناك قام باتصالات مع اليهود الخمسة الممثلين في البرلمان العثماني الثاني ، واتفقوا

---

(١) صالح بويصير : جهاد شعب فلسطين ، ص ٣٠ .
(٢) Y. Porath; *The Political Awakening of the Palestinian Arabs...*, p. 33.
(٣) هنري كتن : فلسطين في ضوء الحق والعدل ، ص ٨ .

جميعاً على تسهيل مهمة الحركة الصهيونية في فلسطين والسعي لدى الاتحاديين بالدعم المطلق ، والقيام بحملة توعية سياسية منظمة في الآستانة تهدف إلى « صهينة » اليهود الذين لم « يتصهينوا » بعد ، لحشد جميع الطاقات اليهودية من أجل « أرضنا الموعودة » .

وبعد فترة قصيرة تأكد للصهيونيين في فلسطين وفي العالم بأن تغيير نظام الحكم في تركيا لا يؤمن لهم قانونية استيطانهم ، ولا يؤمن لهم وسائل الأمن والاستقرار بالقدر الذي تصوروه ، طالما أن العرب يعارضون هذا الاستيطان . وكانت الاشتباكات المستمرة خير دليل على ذلك ، كما عبّر العرب أحياناً عن معارضتهم للاتحاديين بأساليب عديدة تعدت العرائض والمظاهرات إلى أعمال أشد عنفاً ، وهذا ما يؤكده أحد التقارير البريطانية « من أن العرب دمروا سكة الحديد الواقعة على طريق معان حيث كان المستر « سايكس » (Sykes) ذاهباً، مما دعا « نظمي باشا » إلى ارسال أوامره برقياً إلى الكرك ومعان لاتخاذ كل الخطوات الممكنة لتأمين سلامته »(١) . وقد كانت هذه المظاهر المضادة لليهود حيناً والعدائية للاتحاديين حيناً آخر قد دعت المهاجرين اليهود إلى إعادة النظر في أوضاعهم في فلسطين ، وكان في مقدمة التغييرات التي طرأت على السياسة الصهيونية مضاعفتها لإرسال الأسلحة إلى المستوطنات الصهيونية بحجة الدفاع عن الأخطار المحدقة بها . وقد لاحظ العرب الفلسطينيون مدى خطورة تسرب الأسلحة إلى اليهود ، فبدأوا بتكوين تنظيمات مضادة تؤمن الحماية والدفاع عن المواطنين والأرض ، وأكد « أبيلا » نائب القنصل البريطاني في حيفا « تزايد الوعي العربي بتكوين جمعية من الأعيان تمثل أهالي عدة قرى في قضاء حيفا هدفها الدفاع عن حقوق سكان هذه القرى وحماية أراضيهم من أي تدخل أو اعتداء ، واتخاذ اجراءات ضد الحكومة إذا ما تدخلت في شؤونهم »(٢) . غير أن الشعب الفلسطيني — رغم إصراره على رفض الهجرة اليهودية — كان يجابه قوى رجعية تتمثل بالسلطات المحلية وطبقة الإقطاع من جهة ، ويجابه قرارات حكومية صادرة من أوساط تمثل النفوذ الصهيوني ، ومثال ذلك نقل المخلصين من الولاة والقائمقامين والمعارضين للهجرة اليهودية ، كما حدث بالنسبة

(١) تقرير بدون توقيع وبدون رقم .
(Report) to Blesh, 16 Feb. 1909 No. ? in F.O. 195/2321.

(٢) Abella to Cumberbach, 17 March 1909, No. ? in F.O. 195/2321.

إلى قائمقام يافا « أحمد يوسف بك » حينما طالب الناس بعودته إلى منصبه[1]، وكما حدث لمتصرف القدس « أكرم بك » ووكيل القائمقام « محمد اسماعيل »، إذ أن استبداد المتنفذين أدى إلى « نقل محمد بك اسماعيل وكيل قائمقامنا ... فعزّ على الأهالي فراقه والرأي العام [لأن] جنابه لا يتبع خطة السلف في خدمة أفكار أرباب الغايات »[2].

وبالرغم من أن القوى الثلاث: الصهيونية والحكومة الاتحادية والاقطاع قد حاربت الشعب الفلسطيني إلا أن موجات الاستنكار والمعارضة للهجرة ظلت قائمة مع هجمات متكررة على المستوطنات التي أقامها المهاجرون. وقامت الصحف الفلسطينية بعد ثورة ١٩٠٨ بدور بارز في كشف الأخطار الصهيونية ومنها صحيفتا « الكرمل » و « الأصمعي » وقد أوردت الأخيرة مقالاً هاجمت فيه الوجود الصهيوني كمغتصب غريب، ودعت إلى بذل الجهد القومي من قِبل القادة العرب لبعث التراث والتقاليد الثقافية والحياتية حتى لا تقع فلسطين فريسة بأيدي اليهود[3]. كما هاجم عرب فلسطين السلطات العثمانية الاتحادية لِما أبدت من تأييد للهجرة اليهودية، فأعلن العرب اعتراضهم على النشاطات الصهيونية في فلسطين، ولكن لم يكن منتظراً من السلطات العثمانية أن تفرض قيوداً على الهجرة اليهودية وعمليات شراء الأراضي[4]. بل ان البعثات اليهودية البريطانية بدأت تتوالى على فلسطين لتكريس المفهوم الصهيوني بأن « فلسطين يهودية » فباشرت التنقيب عن حفريات في حرم المسجد الأقصى وتحت قبة الصخرة، وكانت عمليات الحفر تتم ليلاً إلى أن علم العرب في القدس بهذا الأمر فاحتجوا على هذه العمليات، وعمت التظاهرات والهتافات العدائية ضد جمعية الاتحاد والترقي لأنه يشاع في الوقت نفسه أن الوزارة العثمانية هي التي أجازت لهذه اللجنة القيام بمهمتها الأثرية. واتخذت الحكومة المحلية التدابير المقتضية لاتمامها سراً[5].

وبعد ثورة ١٩٠٨ تزايد وعي الصحافة الفلسطينية لا سيما بعد إصدار

---

(١) Falanga to Blesh, 5 August 1908, No. 46, in F.O. 195/2287.

(٢) ثمرات الفنون، ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨، العدد ١٦٧٩، ص ٣.

(٣) N. Mandel; *op. cit.*, p. 92.

(٤) Y. Roi; *The Zionist*..., p. 208.

(٥) يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني، ص ١٩٨.

صحف جديدة ساهمت مساهمة فعالة في إبراز الخطر الصهيوني ، فبالاضافة إلى صحيفة « الأصمعي » بدأت « الكرمل »[(١)] – صحيفة الشعب كما سمت نفسها – تكرس كلمتها « لخدمة الشعب الذي ذللته الحكومة الظالمة ... ستجتهد بتعريف نسبته إلى حكومته ومركزه في الهيئة الاجتماعية ، وستنقل شكاويه من أعوان الاستبداد إلى مراجعها الرئيسية وستنتصر للشعب في كل المطالب العادلة »[(٢)] وليس غريباً على نجيب نصار تأييد مصالح الشعب وهو الصحافي الذي دافع عن الفلاح الفلسطيني وهاجم قوى الادارة العثمانية وذلك منذ ان كان مراسلاً لصحيفة «ثمرات الفنون» البيروتية.

والظاهر أن الهدف من تحويل « الكرمل » من صحيفة هزلية إلى صحيفة سياسية بحتة هي قيادة الحملة ضد الصهيونية وممارساتها في فلسطين ، ففي العدد الخامس عشر منها يورد « نجيب نصار » خبراً مفاده أن الدكتور الصهيوني « شمرجه لفين » عاد إلى انكلترا بعد ان طاف في الولايات المتحدة لحث الناس على الاكتتاب بالمال لإنشاء مدرسة اسرائيلية للصنائع في حيفا ، وقد علق على ذلك بقوله : « تتألف الجمعيات لمشترى بلادنا واستعمارها وتهتم بإحياء قوميتها من كل الوجوه ونحن نهاجر إلى البلدان الأجنبية لنوسع مكاناً لغيرنا ، ومنا من يعمل على إضعاف جامعتنا وإفناء قوميتنا لمنافعه ، فمتى تدب فينا الروح العثمانية الصحيحة وننتبه لمصالحنا »[(٣)]. ونظراً لأن الشعب في فلسطين رأى في « الكرمل » منبراً معبراً عن آرائه وردود فعله تجاه الصهيونية ، فقد توالت الرسائل إليها تشكو الافتراءات الاسرائيلية على الشعب الفلسطيني ، وتظهر سبب الاضطرابات ، ومن بين هذه الرسائل

---

(١) كان نجيب نصار (١٨٦٢ – ١٩٤٨) صاحب « الكرمل » بينما كان ايليا زكا مديرها . ولكن ظلت حتى اصدار العدد الرابع عشر صحيفة هزلية أكثر منها سياسية تبحث أمور الشعب ، وابتداء من العدد الخامس والعشرون السبت ٦ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ – حيفا – أصبح نجيب نصار هو المسؤول الأول عنها ، ولم يعد يظهر اسم ايليا زكا على صفحاتها الأولى ، وقد أرسل نجيب نصار رسالة بخط يده في ١٣ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ الى الكونت فيليب دي طرزي – وقد اطلعت عليها وهي محفوظة بين مجموعة دي طرزي الصحفية في دار الكتب الوطنية ببيروت – وقد أرفقها بالعدد الخامس والعشرين من «الكرمل» حيث أورد نصار في رسالته بأنه « أول عدد اصدرناه نحن من هذه الجريدة ، وان ايليا زكا لم يبق على علاقة معنا ولذلك ضربنا عن اسمه كما ترون ...» وعلى صفحة الجريدة يبرر ذلك لانشغال زكا بأمور شخصية أخرى .

(٢) الكرمل ، ٢٧ آذار (مارس) ١٩٠٩ ، العدد ١٥ ، ص ١ .

(٣) الكرمل ، ٢٧ آذار (مارس) ١٩٠٩ ، العدد ١٥ ، ص ٨ .

رسالة من مواطن في طبريا (عثمانلي إتحاد وترقي – طبريا قلوب هيئة ادارسي) يوضح فيهـــا أن وكيل الاستعمار الاسرائيلي الأجنبي في حيفا الخواجه « اشناركمت » رفع شكوى تلغرافية إلى المقامات العالية يقول فيها : « أن الأمن مختل في قضاء طبريا إلى درجـة تماثل آطنة ، ويظهر أنهم موهوا أيضاً على جريدة « الشمندوفر » الحرة الصادقة التي تصدر في حيفا حتى جعلوها تثبت خبراً أن بعض أرباب الفساد يسعون في تحريك الأهالي ضد الدستور ، ولما كانت هذه الأخبار كلها عارية عن الصحة بادرنا بتكذيبها على صفحات جريدتكم قائلين أن أهـــالي قضاء طبريا قوم عرفوا بحسن الأخلاق ... »[١] إلا أن صاحب الشكوى يورد ردود الفعل العربية ضد الهجرة والمستعمرات اليهودية ويذكر أسبابها ولكن باسلوب بعيد عن الشبهات فيوضح « بأن أحد الاسرائيليين قتل رجلاً من أهالي كفركنا ، فقام أهل القتيل وقتلوا اثنين من مزارعي قرية الشجرة بدم قتيلهم ، وقـتل حارس جركسي مستخدم في يما أحـد المزارعين عقيب منازعة معه على اجرته وذلك من نحو ثلاثة أشهر ، ومن نحو أسبوعين تنازع أحد الحراس القديين من العرب مع أحد المزارعين الاسرائيليين في يما على اجرة خصمت عليه فقتله »[٢]. وأخيراً يوضح بأن عـدم وجود الأمن في طبريا إنما هو من باب الإشاعات « فالمرجفون يقصدون بهذه الإشاعات تخديش أذهان أولياء الأمور لأن لهم في ذلك مآرب أخرى » . ونتيجة لنشر هذه الشكوى يظهر النفوذ الصهيوني في أوساط الاتحاديين ، فيسعى كبار الصهيونيين لدى المتصرف بتعطيل الجريدة مـــدة شهرين لا لشيء إلا لأنها أوردت هذه الشكوى ، ولم تصدر « الكرمل » بعد ذلك إلا بأمر من المتصرف ذاته . ويذكر أنه بعـد ازدياد الهجمات العربية على المستعمرات اليهودية طلبت الحكومة الإتحادية من السلطات المحلية الايعاز لليهود بتسليح أنفسهم والدفاع عن مستوطناتهم . ويرجح « ماندل » من أن السبب في ذلك يعود إلى أن أحداث الثورة المضادة في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ في القسطنطينية هي التي دعت قائمقام طبريا إلى السماح لليهود بتسليح أنفسهم وإقامـة حرس منهم بهدف الحماية خشية حدوث مذابح لليهود[٣]. غير أن حملة التسلح

(١) الكرمل ، ٦ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ ، العدد ٢٥ ، ص ٣ ، ٤ .

(٢) الكرمل ، ٦ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ ، العدد ٢٥ ، ص ٤ .

(٣) N. Mandel ; *op. cit.*, p.p. 92, 93.

أشعرت اليهود بأنهم يخطون خطوات نحو إنشاء دولتهم المرتقبة في ظل نظام عثماني جديد مؤيد لتطلعاتهم إلى حد كبير ، إلا أنهم في هذه الفترة كانوا يشعرون أنهم في خطر دائم ويعيشون في انعزالية لم تستطع أن تحميهم كثيراً من ردود الفعل العربية ، فقد ذكرت مجلة « حمص » أخباراً عديدة عن احتكاك العرب باليهود دون أن تحلل الأسباب الكامنة وراءها ، فأشار مراسلها في « يافا » إلى حوادث وقعت في ١٠ و ١٩ و ١٣ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٩ وجاء في أحدها أنه « أطلق عيار ناري على يهودي كان ماراً بشارع البطمة وقضى به ولم يعرف له غريم »[١].

واستمرت الصحف الفلسطينية والعربية في تحذير الشعب من الخطر الصهيوني وخطر بيع الأراضي الحكومية للقادمين اليهود . فقد « أرسل حيدر أفندي عبد الهادي تلغرافاً إلى الولاية الجليلة بشأن الأراضي التي ظهرت في جوار الخضيرة من أعمال حيفا بأنها أميرية ومراع للأهالي ، وقد كان أحد مستخدمي الاستعمار الأجنبي يحاول ضمها إلى أملاكه ، وطلب في تلغرافه طرحها في المزاد العلني لأنه راغب في مشتراها ... » وبعد أن أوردت « الكرمل » هذه المعارضة رأت أنه من الأفضل أن تباع لأهل البلاد لأنه « إذا اشترى هذه الأراضي أحد المتمولين من الوطنيين ففقراء الأهالي يعيشون فيها وينتفعون منها ، وبعكس ذلك إذا اشتراها أحد مستعمري الأجانب »[٢]. وبالرغم من أن السلطة العثمانية قد باعت أراضي أميرية إلى الأهلين ، إلا أن أكثر المشترين كانوا من الاقطاعيين ، وأنه إذا ما اشترى أحد الفلاحين أرضاً فانه يخضع للتسلط الاقطاعي نظراً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة في فلسطين وقد تباع الأرض من جديد إلى المقاطعجية الذين قد يبيعونها بدورهم إلى القادمين اليهود[٣].

وحذرت « المنار » أيضاً — في معرض حديثها عن الانقلاب العثماني ١٩٠٨ — ١٩٠٩ — من مطامع الصهيونية في فلسطين وتوقعت خطرهم بقولها أنه « إذا لم تنتبه الأمة العثمانية لكيدهم وتوقف حكومتها عند حدود

---

(١) مجلة حمص ، ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩ ، العدد ٨ ، ص ١٢٤ .
(٢) الكرمل ، ٢٦ آذار (مارس) ١٩١٠ ، العدد ٥٧ ، ص ٣ .
(٣) أنظر السندات الخاقانية المتضمنة بيع أراضي أميرية في عهدي السلطانين عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد ، في الملحقين رقم (١٣ و ١٤) .

المصلحة العامة في مساعدتهم فان الخطر من نفوذهم عظيم وقريب ... »[١]

ثم تحدثت « الكرمل » عن أحداث عام ١٩٠٩ في معرض حديثها عن تأسيس « مملكة اسرائيلية » ، ونشرت مقال « آمال اليهود » حيث نبهت فيه من تزايد الهجرة اليهودية وأنه « من العجيب كيف أن الحكومة لا تعير هذه القضية ما تستدعيه من الاهتمام وتضع لها قانوناً يمنع مهاجرة الاسرائيليين إلى فلسطين وتملكهم فيها لأن الناس يظنون أن المقصود من الأوامر التي تبعث بها الحكومة -مانعة تملك اليهود- تسكين خواطر الشعب، لا سيما وهم يشعرون بميل منها أو من بعضها لإعطاء الإمتياز الأصفر الذي يفيد تملك اليهود في سوريا بلاداً أكبر من مصر . فعلى الجرائد والشعب أن لا يكتفوا بما قيل عن المشروع الأصفر ويوالوا الاحتجاجات ويمانعوا بكل طريقة مشروع منح هذا الإمتياز »[٢].

وفي هذه الفترة من عام ١٩٠٩ رأى الفلسطينيون أخذ المبادرة بأنفسهم حيال النشاط الصهيوني في بلادهم ، ويؤكد تقرير من سكرتير الجمعية اليهودية في القدس معارضة السلطات المحلية البلدية الاستعمار الصهيوني ويقول : « ان قاضي المحكمة الشرعية في القدس أصدر قراراً ، إذا ما طبق فانه سيؤثر تأثيراً بالغاً على ممتلكات الجمعية اليهودية في القدس المعروفة باسم « كرم الخليل » (Abraham's Vineyard) . ففي عام ١٩٠٨ اشترى بعض أثرياء اليهود « البوخارية » ممتلكات على جانبي الطريق في القدس ، وبدأوا فجأة ببناء أساس جدار الماسونية وجزء من بيت « ڤينيارد » (Vineyard) يصل إلى كرم الخليل ... وبالرغم من أن الحاكم قد أعطانا الترخيص الرسمي بإحداث الطريق بالعرض القانوني حسب القياسات الرسمية ، إلا أن السلطات البلدية قاضت هؤلاء اليهود البوخارية[٣] .

والواقع أن الحركة العربية والفلسطينية استمرت في معارضتها للحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين ، إلا أن التحولات السياسية في داخل تركيا وقلب نظام الحكم عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ قد أثر تأثيراً مباشراً في حياة فلسطين وشعبها وفي حياة المنظمة الصهيونية والجماعات اليهودية .

---

(١) المنار ، ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٠ ، م ١٣ ، ج ١٠ ، ص ٧٢٥ .
(٢) الكرمل ، ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٠ ، العدد ١١٤ ، ص ٢ .
(٣) Feen to Grey, 19 April 1909, No. 15040, in F.O. 371/774.

الفصل الخامس

دور اليهود في خلع السلطان عبد الحميد الثاني

١٩٠٨ - ١٩٠٩

١ - السياسة الاسلامية للسلطان عبد الحميد الثاني .

٢ - السياسة الدولية للسلطان عبد الحميد الثاني .

٣ - الوفاق الصهيوني - الدولي - المحلي لخلع السلطان عبد الحميد الثاني .

٤ - دور اليهود في ثورة عام ١٩٠٨ ودورهم في خلع السلطان عام ١٩٠٩ .

الفصل الخامس

دور اليهود في خلع السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨ـ ١٩٠٩

١ ـ السياسة الاسلامية للسلطان عبد الحميد الثاني

أدرك السلطان « عبد الحميد الثاني » ، أنه لا يمكن بقاء الدولة العثمانية ـ لا سيما بعد ظهور تدهور أوضاعها ـ إلا بالاعتماد على المسلمين والعرب وتأييدهم في مواجهة التدخل الأوروبي في شؤون الدولة . وكانت سياسته تقضي بالحفاظ على ما تبقّى من ولايات في حوزة الامبراطورية العثمانية ، وكان معنى ذلك أن لا يثير غضب المسلمين والعرب في ممارسة نشاطاته السياسية . ولما كانت الحركة الصهيونية تسعى لدى الحكومة العثمانية بتحقيق مشروع استيطان فلسطين ، كان المسلمون والعرب يرون في هذه المباحثات امتحاناً عملياً لإخلاص السلطان نحوهم ونحو « قدسهم » . وقد حدد كثير منهم موقفه تجاه عبد الحميد من خلال قوانين الهجرة اليهودية ، ومن خلال موقفه من مشروع « هرتزل » ، ومن هنا جاء رد السلطان بعدم الموافقة على هذا المشروع .

ويرى البعض بأن السبب في رفضه المشروع الصهيوني هو لرغبته في تجنب إثارة العرب من جهة ، ولتجربته مع الأقليات ، ولهذا فهو لا يريد أقلية جديدة تتعبه من جهة ثانية[١] . ثم ان السلطان كان يعاني في هذه الفترة من نمو الشعور القومي لدى قوميات عديدة في امبراطوريته مثل : القومية العربية ، القومية البلغارية ، اليونانية ، الأرمنية ، والسلافية ، ولذلك فإن أعطى اليهود أية امتيازات في فلسطين فمعنى ذلك انه يخلق لنفسه مشكلة قومية جديدة . وكثيراً ما حاولت الأقليات في الدولة العثمانية أن تبرز نشاطها وتسعى لاستقلالها السياسي والثقافي والاجتماعي ،

---

(١) هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، ص ٥٤ .

وكثيراً ما عانت الدولة من مشكلة الأقليات التي حاول السلطان عبد الحميد «عثمنتها»، إلا أن أكثرها رفض الإنصهار بحكم نزعاتها الاستقلالية، فكانت الدولة تحارب هذه الاتجاهات سواء العربية أو الأرمنية، حتى انه كانت هناك نزعة استقلالية آرامية - وان كانت ذات فعالية بسيطة - ويذكر بأن «نعوم فائق»[١] الآرامي حاول إعادة تراث وحضارة الآراميين، فلم يجد الجو السياسي الملائم، ويقول فيليب دي طرزي[٢] عنه أنه «لما رأى هذا الصحافي الآرامي الفاضل أن النجاح لا يتوفر لمهنته في دائرة وطنه تحت لواء الدولة العثمانية حوّل نظره إلى العالم الجديد ليشتغل في بلاد الحضارة تحت سماء الحرية، فسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهناك استعان بما رزقه الله من النشاط وتوقّد الذهن على دعوة أمته إلى التنبه من غفلتها لاسترجاع سابق عزها. ولم يلبث أن جدد هناك نشر جريدته «بين النهرين»، وهي باكورة الصحف السريانية التي ظهرت في البلاد الأمريكية[٣].

هذا بالنسبة لمحاولات الأقليات الإستقلالية، أما بالنسبة للمشروع الصهيوني فقد أثبتت الأحداث السياسية بأن السلطان عبد الحميد الثاني لم يرفضه لتخوفه من وجود أقلية جديدة فحسب، وإنما كانت هناك أسباب عديدة في مقدمتها:

١ - ردود الفعل العربية الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية، بعد أن تزايدت خطورتها على المواطنين العرب.

---

(١) نعوم فائق (١٨٥٦ - ؟) صحافي آرامي سرياني، حاول بعث اللغة والآداب والتاريخ السرياني، وأنشأ في ديار بكر جريدة «بين النهرين» وكان يطبعها باللغات الآرامية والعربية والتركية بحروف سريانية. وفي عام ١٨٩٦ تعرف على فيليب دي طرزي في بيروت وذلك قبل سفره الى أمريكا.

(٢) الكونت فيليب دي طرزي، وهو من مواليد بيروت ١٨٥٦، وكان له الفضل في تأسيس دار الكتب الوطنية ببيروت، له مؤلفات ومخطوطات عديدة منها على سبيل المثال:
١ - تاريخ الصحافة العربية، بيروت ١٩١٣.
٢ - السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية، بيروت ١٩١٠.

(٣) الكونت فيليب دي طرزي: القول الصادق في الأستاذ نعوم فائق، ص ٢، رقم المخطوط ١٢٨ - دار الكتب الوطنية - بيروت.
حول الأقليات في الدولة العثمانية أنظر أيضاً: حنا أبي راشد: جبل الدروز، الطبعة الأولى، مصر ١٩٢٥. د. ك. ل. استارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل ١٩٥١.

٢ - شعور السلطان العثماني بخطورة الحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين .
٣ - دور الجامعة الإسلامية والمشاعر التي انبثقت عنها .

والجدير بالذكر ، أنه أثناء مفاوضات هرتزل مع المسؤولين العثمانيين أدرك السلطان أن هناك مشاعر إسلامية ضد المشروع الصهيوني تزداد قوة يوماً بعد يوم أكثر مما توقّع ، ومن أجل ذلك قطع وعـداً استجابة للاحتجاجات التي صدرت عن فلسطين بأنه سيفرض رقابة على الهجرة اليهودية[١] . ومما يؤكد ذلك الجهد الذي بذله السلطان من أجل انتزاع سيناء من حكومة خديوي مصر عباس حلمي (١٨٩٢ - ١٩١٤) بهدف الحفاظ على سيناء بعيدة عن متناول الصهيونية ، لأن محاولة إستيطان اليهود في العريش كانت بمثابة نقطة وثوب إلى فلسطين . بل ان السلطان كان مطالباً أيضاً في هذه الفترة باستعادة مصر كلها من أيدي الإنجليز ، وتجلت هذه المطالبة عندما حددها « جمال الدين الأفغاني »[٢] بقوله : « إن مصر بحدودها الطبيعية وملحقاتها تعـدّ من الأملاك العثمانية ، وإنه لا يسمح للخديوي أن يتنازل عن قطعة أرض منها صغرت أو كبرت لأجنبي كائناً من كان لأي سبب ولا بأي وجـه ، ولا يسوغ له أن يتخلى عن شيء من الامتيازات الممنوحة لمصر مهما كانت الأسباب والحوادث ... »[٣] . وفي معرض مطالبته بخضوع مصر للسيطرة العثمانية حذّر خديوي مصر بأنه يجب عليه أن يلتزم بالمعاهدات والفرامانات السلطانية ، وأن لا يفرّط بعثمانية مصر .

والواقع أن « جمال الدين الأفغاني » كان مدركاً أهمية مصر بالنسبة لمصير

---

(١) جفريز : فلسطين اليكم الحقيقة ، ص ٨٣ .
(٢) جمال الدين الأفغاني : (١٨٣٨ - ١٨٩٧) من مواليد كابل في أفغان . سافر الى الهند بعد اتمام علومه في أفغان ، ثم توجه الى الحجاز عام ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م لأداء فريضة الحج . وفي عام ١٨٧١ توجه الى مصر ، ومكث فيها ثماني سنوات وكانت فترة مليئة بالنشاط السياسي والديني ، وفي عام ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م سافر الى الآستانة حيث استقر في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني لمدة خمس سنوات . وفي عام ١٨٨٣ اتجه الى أوروبا حيث زار لندن وباريس ثم زارهما ثانية عـام ١٨٩٢ . هاجم الاستعمار الانجليزي بشكل بارز وفعال ، وطالب بضرورة تنفيذ الوحدة الاسلامية . وقد طاردته السلطات البريطانية في مصر وغيرها من المناطق التي زارها وعطلت مجلته « العروة الوثقي » وهي لا تزال في مهدها ووضعت العقبات في طريقه أينما سار .
(٣) جمال الدين الأفغاني - محمد عبده : العروة الوثقى ، ص ٢٢٦ .

ومستقبل بلاد الشام ، ومن هنا كانت مطالبته مع الشيخ محمد عبده بابقائها تابعة للدولة العثمانية وضرورة جلاء الأنجليز عنها فقد قال : « أما الدولة العثمانية فلو حولت النظر عن حقوقها الثابتة في الأراضي المصرية من وجوه كثيرة فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأراضي هي الركن الأعظم للسلطة العثمانية في سوريا ، وقسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرى وفي الحجاز واليمن فمن المفروض على العثمانيين أن يبذلوا وسعهم لصيانة مصر دفاعاً عن حقوقهم المقررة وحفظاً لشوكتهم في معظم ممالكهم ، ولا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا في المسألة المصرية لا في جزئي منها ولا كلي ، فان مصر عقدة تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية فإذا انحلت فقد انحلت — والعياذ بالله — سائر العقد »[(١)] .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان السلطان عبدالحميد الثاني يدرك أهمية مصر بالنسبة لمستقبل فلسطين ، ومن أجل ذلك كانت محاولاته الدائمة لإعادة سيطرته الفعلية عليها ، إلا أن الظروف السياسية والعسكرية وتمسك الإنجليز بها حال دون تحقيق ذلك . غير أنه يمكن القول أيضاً بأن رفض السلطان للمشروع الصهيوني إنما يرجع إلى تزعمه لحركة « الجامعة الإسلامية » التي رفع لواءها . حقيقة كانت فكرة الجامعة الإسلامية تهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية ، ولكن كيف يستطيع عبدالحميد أن يفسر للمسلمين وللعرب قبوله توطين اليهود ؟ وكيف يقنعهم ببيع الأراضي المقدسة لهذه الجماعات ؟ الواقع أن السلطان عبدالحميد كان يخشى غضب الرأي العام الإسلامي . ومما يدل على ذلك حرصه الدائم على إبقاء علاقاته طيبة مع المسلمين والعرب منهم بالذات ، ويذكر في معرض انتقاده لسياسة مدحت باشا — الصدر الأعظم — الإسلامية فيقول : « إن مدحت باشا قد ولّى المناصب الكبرى المسيحيين والروم في المناطق الواقعة خارج تركيا والخاضعة للأمبراطورية العثمانية . ان مثل هذه الأعمال تؤلب المسلمين علينا »[(٢)] .

والجدير بالذكر أن « الجامعة الإسلامية » كانت في حقيقة ذاتها أداة دينية لتقوية سلطة عبدالحميد السياسية في العالمين العربي والإسلامي ، وبواسطتها استطاع أن يحتفظ بولاء العناصر الإسلامية غير التركية داخل

---

(١) جمال الدين الأفغاني — محمد عبده : المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .

(٢) Sultan Abdül Hamid,in: *Hatira Defteri.*

الأمبراطورية العثمانية ، واستطاع أيضاً أن يكسب إلى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها [1]. ومن أجل ذلك - ولفترة طويلة - اعتمد في حكمه على مجموعة من المسلمين العرب وغير العرب ومنهم عزت باشا العابد وأبوالهدى الصيادي وسليم باشا ونجيب باشا ملحمه ، وكان لجمال الدين الأفغاني دورٌ مؤثرٌ في سياسة السلطان ، فبعد ان كان خصماً عنيداً لسياسة عبدالحميد إذا به يبدل رأيه فيه ويؤيد سياسته ، ثم رأى أن الاهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب [2].

وكان « جمال الدين الأفغاني » يناهض الإستعمار الأوروبي في المناطق الإسلامية الخاضعة للنفوذ الأوروبي ، وخص باهتمامه مصر ، ورأى أن نشاط السلطان وغيرته وهمته هي التي أثارت روح الأنفة عند المصريين ودعتهم للتخلص من تسلط الإنجليز بعزيمة ثابتة وقلوب غير واجفة [3]. وكان « الأفغاني » يحاول أن يوقف الزحف الأوروبي عامة والبريطاني خاصة عن طريق القوة المنظمة للحكومات الإسلامية ، وكانت حركة الجامعة الإسلامية تدعو إلى ضرورة وحدة المسلمين شعوباً وحكومات للوقوف في وجه التيار الأوروبي الزاحف . ولذلك اعتمد الأفغاني على تعاضد المسلمين ووحدتهم واستند على أسس اسلامية وعمل على الصعيد السياسي مباشرة ضد النفوذ الأوروبي المتغلغل ، إلى جانب الدعوة الإصلاحية ضد المساوئ الدينية والإجتماعية التي دخلت المجتمعات الإسلامية [4].

ولما وافق السلطان « عبد الحميد الثاني » على المطالب الإسلامية اخذ الافغاني يؤيد السلطان ويقول فيه : « رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية ، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلماً . وأعظم ما أوحشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل كيلا تتفق اوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ، ويريها عياناً محسوساً ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها ...» [5] ورأى الافغاني ان السلطان رجل داهية إذ انه كلما

(١) فيليب حق : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ .
(٢) جمال الدين الأفغاني - محمد عبده : العروة الوثقى ، ص ٢٧٢ .
(٣) جمال الدين الأفغاني - محمد عبده : المصدر نفسه ، ص ٣١٢ .
(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ ، ص ٢٤١ .
(٥) محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٣٥ .

حاولت أوروبا أن تجمع كلمة البلقان للخروج على سيادة الدولة بحرب تقيمها ، كان السلطان يسارع بدهائه لحل مـا ربطوه وتفريق ما جمعوه من كلمة وخطط . ويرى الأفغاني أن السبب الذي دعاه إلى تأييد السلطان ومبايعته هو حرص السلطان على التصدي للدول الأوروبية وتأييده لنهضة المسلمين ، ويقول الأفغاني في هذا الصدد : « ... أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة – الذي فيه نهضة المملمين عموماً – فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالملك والخلافة »[١].

وكانت « الجامعة الإسلامية » قد قوّت من شوكة السلطان عبدالحميد ، باعتباره ممثل المسلمين ورافع لواء الجامعة . وقد رأت أوروبا أن السلطان العثماني استطاع استغلال المشاعر الدينية عند رعاياه خاصة وعند المسلمين عامة ، وبواسطة هذا الإستغلال يستطيـع أن يهدد النفوذ الأوروبي ليس في المناطق العثمانية فحسب وإنما أيضاً في المناطق الإسلامية الخاضعة مباشرة للحكومات الأوروبية ، وبالفعل فقد بدأ السلطان يهدد الدول الأوروبية بنصرة العالم الإسلامي لمنصب الخلافة ، فالمسلمون في ألبانيا يهدد بهم النمسا ، والمسلمون التتر والأكراد يهدد بهم روسيا ، والمسلمون في الهند يهدد بهم انجلترا ، والمسلمون في الغرب يهدد بهم فرنسا[٢] .

والواقع أن السلطان عبدالحميد استطاع الإفادة من « الجامعة الإسلامية » والأفكار التي انبثقت عنها ، ونظراً لِمـا لمسه من مشاعر قد تفيده في الميادين السياسية والعسكرية ، عمد إلى المضي بسياسته الإسلامية ، بل لقد أدى به الأمر إلى الانتساب إلى الطرق الصوفية الإسلامية لإرضاء نزعات بعض المسلمين وكسب تأييدهم .

ويوضح السلطان « عبدالحميد الثاني » الأسباب التي دعته إلى الوقوف في وجه الهجرة اليهودية فيقول في مذكراته « إنه كان لا بد من إشغال الأراضي الخالية من السكان في داخل امبراطوريتنا (Dahili Iskân) وكان علينا أن نتبع طريقة تهجير مناسبة ، ولكننا لم نجـد أن هجرة اليهود مناسبة ، لأننا لا نريد أن نزرع في أرضنا سكاناً لا ينتمون إلى نفس

(١) محمد باشا المخزومي : المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٢) محمد أنيس ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

ديننا وعاداتنا حتى لا نمكنهم من السيطرة على الحكم ، ولذلك نقبل ان يكون المهاجرون من نفس الدين والايمان وواجبنا يحتم علينا تقوية العنصر التركي المسلم ، وإلى تشجيع هجرة المسلمين إلى البوسنة والهرسك وبلغاريا والعمل لاستيطانهم فيها ... »(١). ويلخص السلطان سياسته تجاه فلسطين والعرب المسلمين بتوقعات يرى في حدوثها نكبة على الأراضي المقدسة وأهلها فقد أوضح « أن دولاً أوروبية كثيرة أرادت التخلص من اليهود وأيدت هجرتهم إلى فلسطين ، ولكن في دولتنا عدد كبير من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربي الإسلامي متفوقاً في فلسطين يجب أن لا نسمح بهجرة اليهود إليها ، وإذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا بالهجرة فإنهم بفترة قصيرة يسيطرون على الحكم وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم ، ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد »(٢).

هذا وقد لعبت سياسة « عبد الحميد الثاني » دوراً مؤثراً في وقف الهجره اليهودية إلى الأراضي المقدسة أتبعها بسلسلة من الفرمانات السلطانية طلب فيها من موظفي الادارة العثمانية أن يطبقوها بحذافيرها ، في الوقت الذي كان فيه زعماء المنظمة الصهيونية يطلبون في مفاوضاتهم مع السلطان الحصول على وثيقة رسمية تعلن قبول القادمين اليهود دون قيد أو شرط على أن يعلن ذلك السلطان نفسه . ولكن السلطان — كما هو معلوم — رفض مثل هذه الأمور لأسباب عديدة ، ولموقع الدولة العثمانية بالنسبة إلى شعوب العالمين العربي والإسلامي ، لا سيما وان بعضاً من المسلمين والعرب كانوا يرون فيها ضمانة لحمايتهم واستقلالهم عن الدول الأوروبية ، ذلك أنه في عام ١٨٩٨ نشر الزعيم المصري « مصطفى كامل » كتاباً بعنوان « المسألة الشرقية » أكد فيه ضرورة الحفاظ على الدولة العثمانية ودعا إلى تأييدها والالتفاف حول رايتها ، لأنها هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن تحارب الإستعمار البريطاني في مصر وبقية المناطق الإسلامية والعربية وذكر « أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري ، وان في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق »(٣).

---

(١) Sultan Abdul Hamit; *Siyasi Hätirätim*, p. 57.

(٢) *Ibid.*, p. 60.

(٣) مصطفى كامل ، المسألة الشرقية ، ص ١٣ ، وصفحات متفرقة من الكتاب .

واستمراراً لسياسة « الجامعة الإسلامية » بدأ السلطان بتنفيذ مشروع خط سكة حديد الحجاز في ربيع عام ١٩٠١ وانتهى في خريف عام ١٩٠٨، حيث أوصل القسطنطينية بالمدينة المنورة، مخترقاً سورياً من الشمال إلى الجنوب، فكان ما أنفقه على هذا المشروع ثلاثة ملايين ليرة، جمع أكثر من ثلث المبلغ من تبرعات المسلمين في جميع أقطارهم[١]. وكان من ضمن الأسباب الهامة لإنشاء هذا الخط هو استمالة عطف المسلمين في جميع أنحاء العالم وكسب صداقتهم، لما يترتب عنه من تيسير سبل أداء فريضة الحج. ولكن « جورج أنطونيوس » يرى أن لهذا المشروع أهدافاً سياسية وحربية قبل كل شيء، إذ أن السلطان كان يهدف من وراء إنشائه وصول جيشه بالسرعة اللازمة إلى شبه الجزيرة العربية والعودة منها، وكان من قبل مضطراً إلى نقلهم بالبحر بواسطة قناة السويس[٢]. إلا أنه مما لا شك أن هذا المشروع الذي أشرف عليه « عزت باشا العابد » ونفذه مهندسون ألمان كان له وقع طيب ومؤثر في نفوس المسلمين[٣]. ويؤكد « أنطونيوس » هذه الحقيقة بقوله: « ان تنفيذ المشروع كان ضربة خبير في السياسة، فقد أثار الحماسة البالغة في جميع ديار الإسلام، وربما كان له من الآثار في تثبيت مكانة الخلافة أكثر من جميع خطط عبد الحميد الأخرى »[٤]. ويدل على ذلك ما ذكره سفير بريطانيا في الآستانة في تقريره السنوي عام ١٩٠٧ حيث قال: « يمكننا أن نقرر بأنه من بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام، الأول هو خطة السلطان الماهرة التي استطاع بها أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة — الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي — وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج، وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزاً على خضوع

(١) جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص ١٤٢، أنظر أيضاً: فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣٤٩.
(٢) جورج انطونيوس، المرجع نفسه، ص ١٤٢.
(٣) أنظر: R. Pinon; *L'Europe et L'Empire Ottoman*, p.p. 385 - 388.
أنظر أيضاً: زين زين: نشوء القومية العربية، ص ٥٧.
(٤) جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص ١٤٢.

رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل والثاني ... »[١] ويعطينا هذا التقرير فكرة عن أهمية المشروع على الصعيد الإسلامي، إلا أنه يجب أن لا يؤخذ على عواهنه وخاصة فيما يتعلق بخضوع المسلمين الأعمى للسلطان إذ أن العرب ــ المسلمين منهم بالدرجة الأولى ــ لم يخضعوا للاجراءات التعسفية التي كان يقوم بها السلطان، بل راحوا يطالبون بالاصلاح في الولايات العربية الواقعة تحت الحكم العثماني[٢]. كما أنهم بدأوا بانشاء الجمعيات السرية والعلنية مطالبين بتطبيق العدالة والمساواة، وكثيراً ما تعرض أشخاص منهم للعقوبة لقاء مطالبتهم بالإصلاحات التي نادوا بها.

ونظراً لأن روح العصر في الشرق العربي اتسمت بالطابع الديني، فقد أثّر مشروع السكة الحديدية ليس على العامة من المسلمين فحسب، وإنما على الخاصة ايضاً، لا سيما المستفيدين من النظام العثماني وعلى بعض قادتهم ومثقفيهم مثال علي باشا الإبن الثاني للأمير عبد القادر الجزائري، الذي شكر السلطان على تحقيقه هذا المشروع «وهو تمهيد السبيل بين الكعبة ... وتخفيف أثقال الحجة على طلابها بانشاء هذا الخط الحجازي الحالي الذي كان يظن مناط النجم الأعلى فإذا هو قاب قوسين أو أدنى، جمع قطر الحجاز وقطر الشام بل الدنيا بأجمعها ... والمسلمون في كل صقع من البلاد يجأرون بالدعاء إلى رب العباد أن يطيل عمر سلطانهم وكفيل عمرانهم .. »[٣].

وذكر «محمد عارف الحسيني»[٤] أهمية تحقيق هذا المشروع من الناحية الدينية والإقتصادية والسياسية وقال ان «السكة الحديدية الحجازية ــ الشامية ... أسفرت عن ثروة البلاد والعباد والراحة للحجاج ... وتوطيد

(١) أنظر: محمد أنيس، المرجع السابق، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
(٢) زين زين، المرجع السابق، ص ٥٨.
(٣) من خطاب علي باشا عبد القادر الجزائري موجه الى السلطان عبد الحميد الثاني، أنظر: *Revue du Monde Musulman*, T. 3., pp. 524, 525. (Paris 1907).
(٤) محمد عارف الحسيني: هو ابن الشيخ احمد الحسيني الشافعي الدمشقي الرئيس الثاني لمجلس المعارف بدمشق. كتب مقالته: أعظم المآثر السلطانية العثمانية السكة الحديدية الحجازية الشامية في عام ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م في منزل صاحب العطوفة محمد فائق بك يكن أحد أعضاء شورى الدولة. وقد كتبها بمناسبة العيد الخامس والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على العرش.
من مؤلفاته الأخرى:
١ - أسمى الرتب في العقل والعلم والأدب، دمشق ١٨٨٣ م.
٢ - حسن الابتهاج بالأسراء والمعراج، دمشق ١٣٠٧ هـ.

الأمن والرفاهية وتعمير البلاد الخربة وتأهيل العامرة الخالية ... » وبرأيه ان هذه السكة « تقارب المسلمين بعضهم من بعض وتعارفهم وائتلافهم وتواددهم واتحادهم وإتقان كلمتهم وبيان أحوالهم بالتبادل على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبعد بلادهم ... »[١].

وفي هذه الفترة تناولت أكثر الصحف العثمانية أهمية هذا المشروع وعددت فوائده وقالت « المنار » عام ١٩٠٨ أنه « مما لا ريب فيه أن السكة الحديدية الحجازية إذا أمكن إيصالها إلى القطر اليماني كانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب عامة وللدولة خاصة ... وبذلك تكون الدولة قد وصلت بين أقصى بلادها في الجنوب وأقصاها في الشمال والغرب ، إذ تصل بين خط الآستانة والحجاز بخط برجيك المنوي مده من حلب. وفي هذا العمل الجليل من الفوائد الإقتصادية والسياسية ما لا ينكر قدره ومنفعته ، ولا سيما بعد أن صار البحر الأحمر مزدحماً لعدة دول أجنبية وكان من قبل بحيرة عثمانية »[٢].

ويتضح من استعراض سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية والعربية بعض الملاحظات الهامة التي نلخصها فيما يلي:

١ – كان رفض عبد الحميد للمشروع الصهيوني نتيجة لردود الفعل العربية ضد الهجرة اليهودية ، ونتيجة لقناعته أن إنشاء دولة يهودية في المنطقة ستخدم الدول الأجنبية التي سعت إلى حماية اليهود في فلسطين ، وتدخلت لصالحهم في أوساط الآستانة.

٢ – ان إتباع السلطان سياسته الإسلامية والعربية ليس لاقتناعه بها فحسب ، وإنما كان من أجل تحقيق تطلعاته السياسية ، لأنه من خلالها يستطيع إستعمال « ورقة رابحة » في مواجهة الدول الأوروبية.

٣ – لم يكن تنفيذ مشروع خط سكة حديد الحجاز – الشام لأسباب دينية فحسب ، بقدر ما هي لأسباب سياسية وعسكرية ، يأتي في

(١) مخطوط : أعظم المآثر السلطانية العثمانية السكة الحديدية الحجازية الشامية ، انشاء محمد عارف الحسيني ١٣١٨ هـ. ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧. دار الكتب الوطنية الظاهرية – دمشق ، مصنفة تحت الرقم ١٨١٠.

(٢) المنار ، ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ ، م ١١ ، ج ١٠ ، ص ٧٦٧.

مقدمتها تسهيل عمليات نقل « الفيالق التركية » إلى المناطق العربية في حال نشوب حروب أو ثورات معادية للدولة العثمانية .

٤ – ان الإشراف الألماني على تنفيذ هذا المشروع ، والمساهمة في إنجازه له ما يبرره من الناحية الإقتصادية والسياسية ، فقد حرصت ألمانيا – ولفترة طويلة – على ممارسة نشاطها لإيجـــاد موطئ قدم لها في المنطقة العربية كي تنافس انجلترا في هــذا الميدان . وبالرغم من أن السلطان عبد الحميد كان على علم بأهداف الألمان إلا أنه كان يفضلهم على الأنجليز .

٢ – السياسة الدولية للسلطان عبد الحميد الثاني

اصطدمت الهجرة اليهودية إلى فلسطين في عهـد السلطان عبد الحميد ، بعدد من القوانين التي وقفت حائلاً دون تزايدها ودون إنشاء المستوطنات اليهودية ، بالرغم من أن كثيراً من المجموعات اليهودية كانت تدخل إلى فلسطين بأساليب غير مشروعة ، إما عن طريق رشوة السلطات المحلية العثمانية ، وإما هرباً عن طريق الحدود المتاخمة لفلسطين مثل ولايتي بيروت – الجنوبية وسوريا التابعتين للدولة العثمانية في تلك الفترة . وبعد انطلاق الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ ، حرصت على إقناع السلطان العثماني بالاستيطان اليهودي في فلسطين ، ليكون ذلك تحت رعايته ، حتى تنهي المنظمة الصهيونية ذاك الشكل غير القانوني في عمليات الهجرة والإستيطان . ولما أثبتت الأحداث فشل الإتصالات الصهيونية مع السلطان ، رأى زعماء الصهيونية ضرورة التعاون مع الدول الأوروبية الكبرى للحصول على فلسطين بتأييد منهـا وبمساعدتها باعتبار أن « الدولة اليهودية » المزمع إنشاؤها هي بمثابة قاعدة للمصالح الأوروبية في الأمبراطورية العثمانية .

وفي الفترة التي أظهرت الصهيونية عداوتها للموقف العثماني ، ظهرت نقمة يهود الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد ، فاستغلوا كل خلل في الدولة للاستفادة منــــه . ورأت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الأوروبية وبالاتفاق مع يهود « الدونمة » حتمية إنهاء حكم السلطان عبد الحميد ، لأن أطماع الصهيونية في فلسطين لا يمكن تحقيقها طالما بقي في الحكم ، في الوقت الذي كانت فيــه الدول الأوروبية ترى أيضاً حتمية تقسيم الأمبراطورية

العثمانية للسيطرة على أملاكها ، وإقامة دويلات لليهود والأرمن واليونان وبعض الأقليات الأخرى تكون بطبيعة تكوينها خاضعة للنفوذ الأوروبي. لذا حرصت هذه الدول على تغـذية الروح القومية والانفصالية لعناصر الدولة العثمانية ، وإن تكن هذه الروح القومية – لدى البعض – قد نشأت بدافع ذاتي ونتيجة لظروف سياسية معينة .

والواقع أن السلطان عبد الحميد الثاني أكد في مذكراته هذا الواقع وقال : « إن دول أوروبا الكبرى أرادت تقسيم العالم فيما بينها ومن ضمن ذلك الدولة العثمانية ، وإن الدول الأوروبية كانت تتذرع باعطاء الحقوق للمسيحيين في الدولة العثمانية ، ولكن فهمنا أن هـذا مجرد كلام المقصود منه تقسيم الدولة » . وأضاف أن دول أوروبا اتبعت أساليب « فرق تسد » بين مختلف طوائف الدولة ومن ذلك اسلوبان : « الأول ، تأييد المسيحيين ضد المسلمين ومساعدتهم في شن الثورات والحروب ضد المسلمين . والثاني ، العمل على إيجاد ضديات وفتن بين المسلمين أنفسهم ، وهذا مما يسهل أهداف الدول الأوروبية بعد إضعافنا »[1] .

وكانت إنجلترا وأمريكا أيضاً تساعدان على إثارة هذه الفتن ، ويتجلى ذلك في أحداث الفتن الأرمنية عام ١٨٩٠ وما يليها ، حين كانت إنجلترا ترسل إليهم الذخائر والأسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان . وقد أكدت الصحف العربية « الأهرام » و « المنـار » والصحف الأجنبية « نيويورك هيرالد » هذا التدخل ، كما أكد القسيس « سايروس هملن » في جريدة « نصير الاستقلال الكنسي » بتاريخ ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٣ صحة ذلك ، وذكر أن المرسلين الأمريكيين كانوا يشاركون في إثارة الفتن الأرمنية لإضعاف الدولة العثمانية حتى يتيسر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعاقب الحكومة العثمانية عقاباً عاجلاً[2] .

---

(١) Sultan Abdul Hamit;in: *Hatira Defteri;* نشر مجلة « ترجمان » التركية .

(٢) للمزيد من التفصيلات أنظر : الأهرام ، ٢٠ آب (اغسطس) ١٨٩٠ ، العـدد ٨٣ ، المنار ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٠٠ ، م ٣ ، ج ٧ ، ص ١٦٧ ، المنار ، ٩ حزيران (يونيه) ١٩٠٠ ، م ٣ ، ج ١٠ ، ص ٢٣٥ ، المنـار ، ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ ، م ١١ ، ج ١٠ ، ص ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، أنظر أيضـاً : مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، ص ٣٠٥ .

ونتيجة لتعامل الأقليات مع الدول الأوروبية ، حرص جماعة من العثمانيين على توجيه نداء إلى الأرمن وغيرهم مؤداه أنه لا يجوز قيام الأرمن أو طائفة أخرى بمساعدة الأجنبي وترغيبه فهذا يعتبر خيانة وجناية وضرراً بمنافع الوطن المشتركة . وكان هذا النداء قد وُجه بعد اقتناع الأتراك بأن الإنجليز يقولون بضرورة إنشاء مملكة أرمنية تكون بلا شك تحت رعايتهم وفي ظل حمايتهم(١) . ولكن إنجلترا فشلت في تحقيق ذلك واتجهت فيما بعد اتجاهاً جديداً للتعاون مع الحركة الصهيونية لإنشاء « الدولة اليهودية » في فلسطين . وقد بلغ التدخل الدولي في شؤون الدولة العثمانية أن أصرت الدول الأوروبية في اتفاقية برلين التي عقدت بينها وبين الحكومة العثمانية على إقرار بند خاص باليهود والنصارى الموجودين في أراضي الدولة العثمانية ينص على أنه « لا يمنع النصارى واليهود من إجراء رسوم أديانهم واتساع بطارقتهم وكواهنهم فيما يتعلق بمذاهبهم »(٢) .

وكانت إنجلترا قد أعلنت حمايتها لليهود في فلسطين منذ عام ١٨٣٨ باعتبارهم رعايا بريطانيين . وكانت قد أوفدت إلى أراضي الدولة العثمانية بعثات أوروبية ــ إنجليزية وألمانية ــ ادعت البحث عن الآثار التاريخية ، بينما كان هدفها التنقيب عن البترول ، وقد علم السلطان أهداف هذه البعثات الإنجليزية والألمانية . وقد علق على ذلك بقوله : « بأنني كنت سأوافق على التنقيب عن البترول بشرط مصارحتي بذلك ، ولكن أن يأتوني كجواسيس فهذا ما لم أرضه أبداً »(٣) . ونظراً لهذه الحادثة ، فقد أرسل السلطان العثماني بعثة إلى أمريكا يرأسها « صلاح الدين أفندي » للتخصص في ميدان البترول « ولكن البعثة التي بقيت سنة ، عادت بدون نتيجة ، لأن أمريكا رفضت هدف البعثة لأنها كانت أقوى دولة بترولية ، وهي لا تريد أن يكون البترول في دولة أخرى » . وأضاف السلطان قوله : « إنني طلبت المساعدة من اليابان ، ولما جاءت البعثة من هناك ، كنت مع الأسف خارج الحكم »(٤).

---

(١) مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، ص ٣١٥ .

(٢) مخطوط : سلاطين آل عثمان ، جـ ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٧٥ . مصنفة تحت الرقم ١٠٧٠٤ ، المكتبة الظاهرية - دمشق .

(٣) Sultan Abdül Hamit,in; *Hatira Defteri.*

(٤) Sultan Abdül Hamit,in; *Ibid.*

ويذكر السلطان في مذكراته هذه حوادث طريفة للغاية عن البعثات الانجليزية والألمانية =

والواقع أن الدول الأوروبية كان يهمها جداً معرفة الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية سواء الأوضاع الإقتصادية أو السياسية أو العسكرية ، لأن تلك الدول عقدت العزم على تقسيم تركة « الرجل المريض » في الوقت المناسب . ومن أجل ذلك أخـذت القنصليات والسفارات الأوروبية تهتم بإرسال التقارير إلى حكوماتها مفصلة أوضاع الدولة العثمانية . وكان القناصل أكثر ما يهتمون بالنواحي العسكرية وفي مقدمتهم « ديكسون » (Dickson) – القنصل البريطاني في القدس – الذي أرسل تقارير عديدة خلال سنوات توليه الوظيفة . ففي عـام ١٩٠٥ أرسل تقريراً عن التحركات العسكرية التركية إلى ميناء الحُديدة (١) . وأرسل « زلانـكا » (Zalanga) – نائب القنصل البريطاني في يافا – تقريراً مماثلاً يذكر فيه استدعاء ١٦٠٠ رجل من نابلس إلى يافا لإرسالهم إلى اليمن عن طريق البحر عبر القنال (٢) ، ومجموعة أخرى لإرسالها إلى بيروت (٣) . وبذلك تكون بريطانيا بالذات قد حرصت حرصاً شديـداً على جمع المعلومات عن التحركات العسكرية التركية في المنطقة العربية حتى يتيسر لها رصد هـذه التحركات للإفادة منها في الوقت المناسب ، وهذا ما تحقق فعلاً قبل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

وامتداداً لهذه الأساليب التي أتبعتها بريطانيا وكافة الدول الأوروبية ، فقد حرصت على التعاون مع الأقليات في الدولة العثمانية لا سيما اليهود من

= فيروي ان علمـاء البعثة الانجليزية قالوا له : بأن الغاية من البعثة علمية تاريخية وستغير كثيراً من المعلومات التاريخية ، ثم توجهت البعثة الى الموصل وبغداد بحجة التنقيب عن الآثار ، وبعد فترة أرسلوا الى السلطان بعض التماثيل والجرار والنقود القديمة ، كما أرسلوا سيفاً قديماً لايهامه أنهم بالفعل ينقبون عن الآثار ، ولكن تبين فيما بعد بأن السيف وبقية الآثار هي حديثة الصنع ولكنها موهت بشكل يظهرها انها قديمة ، مما دعا السلطان الى طردهم من الأراضي العثمانية . ويروي حوادث مماثلة حدثت مع الألمان .

(١) Dickson to O'Conor, 5 June 1905, No. 18, in F.O. 195/2199.

(٢) Falanga to Dickson, 22 April 1905, No. 28, in F.O. 195/2199.

(٣) Dickson to O'Conor, 22 April 1905, No. 11, in F.O. 195/2199.

أنظر أيضاً : Dickson to O'Conor, 22 June 1905, No. 34, in F.O. 195/2199.

للمزيد من المعلومات حول التحركات العسكرية التركية بعد ثورة ١٩٠٨ أنظر التقارير التالية :

Blesh to Lowther, 4 Feb. 1909, No. 8, in F.O. 195/2321.
Blesh to Lowther, 11 Feb. 1909, No. 9, in F.O. 195/2321.
Blesh to Lowther, 20 Feb. 1909, No. 11, in F.O. 195/2321.
Blesh to Lowther, 21 April 1909, No. 32, in F.O, 195/2321.

ذوي النفوذ ، بالاضافة إلى العملاء المحليين والأجانب على السواء ، ويتحدث « مصطفى كامل » عن هذه الحقيقة فيقول : « ولقد دخل في جسم الدولة كثيرٌ من الأجانب نساءً ورجالاً ، وغيروا أسماءهم بأسماء إسلامية وعملوا على الإرتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم إلى أسماها ، وصاروا من أقرب الدخلاء في الزمن السالف في كل فروع الدولة العلية حتى في الجيش نفسه ، وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير ، وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح الروسيا مدعياً أنه روسي السياسة ، ومن يعمل لصالح انكلترا مدعياً أنه أنجليزي السياسة ، ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة »(١).

ومن الأهمية بمكان القول ، أن هؤلاء الأشخاص الأجانب الذين دخلوا في جسم الدولة لعبوا دوراً بارزاً في إنهاكها وتقصير سني حياتها ، ذلك أن ولاءهم لم يكن ولاءً عثمانياً بل على حد قول « مصطفى كامل » ولاءً أجنبياً . بل لقد بلغ الأمر بالبعض إلى خيانة الدولة من الناحية العسكرية وكان منهم أتراك ومن أصل تركي ، ويذكر أنــه عندما نشبت الحرب الروسية — التركية عام ١٢٩٥ هجرية — ١٨٧٧ م ووصل الروس إلى بعض قرى القسطنطينية واستولوا على أدرنة شرع الناس « يذاكرون فيما بينهم بوقائع الحرب وينسبون للوزراء ورجال الدولة تارة إلى الخيانة والأمراء وقواد الجيش [تارة] أخرى إلى التقصير ، ويتكلمون في حق السر عسكر والوزير والبطانة وقد أغراهم بذلك من كان في دار الخلافة من شيعة مدحت باشا يرجون أن يتوسلوا بذلك لإيقاظ فتنة »(٢). لا سيما وأن الأتراك قد أتهموا مدحت باشا وجماعته باغتيال السلطان عبدالعزيز بعــد خلعه عام ١٨٧٦ فقال البعض أن وفاة السلطان عبد العزيز هي مؤامرة حيكت بإرادة مدحت باشا وحسين عوني باشا وغيرهما من الذين اتفقوا على قتله منعاً للانتقام منهم ما دام على قيد الحياة ، وقــد تم ذلك بالاتفاق مع الأنجليز(٣) . كما يؤكد السلطان « عبدالحميد الثاني » هذه الحقائق فيقول : « إن حسين عوني باشا تعامل مع الأنجليز وقبض منهم المال ، وبرأيي أن

---

(١) مصطفى كامل ، المصدر السابق ، ص ١١ .

(٢) مخطوط : سلاطين آل عثمان ، جـ ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٧٣ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ ١ ، ص ٧٢٢ ، ٧٢٣ وما يليها. مصر ١٣١٤ هـ — ١٨٩٦ م .

أي شخص يأخذ مالاً من دولة أجنبية ، فأنه سيعمل على تحقيق أهدافها ومطامعها . لم يحدث ذلـك في أيامي فحسب ، وإنما أيضاً في أيام عمي عبد العزيز وأخي مراد » . أما مدحت باشا فيقول عنه السلطان : « أنه كان يتعامل مـع الأنجليز ويؤيد سياستهم ، وكان مدحت باشا في طليعة الأشخاص الذين حرموا عمي عبد العزيز من العرش بالإتفاق مع الأنجليز ، وكانت مساعدته للإنجليز تعتبر جريمة ، كما أن إبقائي لشخص مثله في السلطة تعتبر جريمة أيضاً . أن مدحت باشا ــ الصدر الأعظم ــ يأخذ مالاً من دولة عدوة لنا ، وهذا أمر لا أستطيع أن أقبله على نفسي وأنا في الحكم ... وأخيراً نفذ صبري وأخرجته من الحكم »[١].

والواقع أن إجراءات السلطان لم تستطع أن تحـــد من تزايد النفوذ الأوروبي في أراضي الدولة العثمانية بسبب الامتيازات الأجنبية المعروفة باسم (Capitulations) ، ومن مظاهرها حمـــاية الدول الأوروبية ليهود فلسطين باعتبارهم من رعاياها ، وذلك بواسطة قناصلها لدى الدولة العثمانية كما ادعت روسيا حماية الأرثوذكس ، وادعت فرنسا حمـــاية الكاثوليك ، وادعت إنجلترا حماية البروتستانت واليهود . وعن طريق الامتيازات منعت الدولة العثمانية زيادة الرسوم الجمركية أكثر من ٨٪[٢] ، وفي عـــام ١٩٠٧ أضافت الدولة ٣٪ فأصبحت القيمة الإجمالية للرسوم الجمركية ١١٪. غير أن الدول الأوروبية اشترطت ان تخصص هذه الزيادة لتمويل ما كانت تطالب به من إصلاحات في الولايات الثلاث المعروفة باسم مقدونيا وهي : سلانيك ومناستر وقوصوه[٣] باعتبارها مناطق خاضعة للنفوذ الأوروبي ، وكانت تتمركز في إحداها ــ وهي سلانيك ــ جماعات يهودية تمثل الغالبية العظمى من السكان .

وفي عام ١٩٠٥ ، أرادت الدول الأوروبية إخضاع مالية الدولة العثمانية إلى مراقبة دولية ولا سيما في الولايات المقدونية الثلاث ، ولكن السلطان

---

(١) Sultan Abdül Hamit,in; *Hatira Defteri.*

(٢) أنظر : سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨ – ١٩٢٤ ، ص ٢١ ، وليم فهمي : الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة ، ص ٢٠ . أنظر أيضاً عن الامتيازات الأجنبية :
R. Pinon; *L'Europe et L'Empire Ottoman*, pp. 546 - 547.
زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٤٤ .

عبدالحميد امتنع عن الموافقة على هذا الطلب وتمسك بموقفه تمسكاً شديداً[١]، فعمدت تلك الدول إلى اتباع أسلوب الضغط العسكري، فقامت بمظاهرات عسكرية في أزمير والدردنيل واحتلال مناطق متاخمة لها مثل جزيرة «مدللي»، مما اضطر السلطان الموافقة على تعيين بعثة أوروبية تضم ممثلين عن الدول الدائنة. وكانت الدولة العثمانية تعمل جاهدة للتخلص من نفوذ ورقابة هذه البعثة، ولم يكن أمام الحكومة التركية سوى حل واحد هو سداد هذه الديون إما بديون جديدة من المصارف والبيوتات المالية، وإما بتغطية مالية مؤقتة من هذه المصارف، وكانت هذه البنوك في أيدي الصهيونية التي امتنعت عن تخليص الدولة العثمانية من ديونها وذلك بالاتفاق مع الدول الأوروبية[٢]، إلّا تحت ضغط تحقيق المشروع الصهيوني وهجرة يهودية غير مقيدة إلى فلسطين. وكان الممولون الأوروبيون أمثال «أورلاندو توبيني وشركاه» من كبار الرأسماليين الفرنسيين المتعاملين مع تركيا، وكان هؤلاء بدورهم يخضعون للبيوت المالية اليهودية.

وفي هذه الفترة، كانت كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا في غيظ بسبب منح السلطان العثماني ألمانيا امتياز الخط الحديدي (B. B. B.) نظراً لما يسببه ذلك من تزايد النفوذ الألماني، وانتكاسة للنفوذ الثلاثي في الدولة العثمانية، فدأبت هذه الدول وفي مقدمتها إنجلترا على استغلال العناصر التي ترى أن من صالحها إنهيار الدولة العثمانية مثل شبان «تركيا الفتاة» ويهود الدونمة وغيرهم من الجماعات، وإن كانت الحركة الصهيونية تحولت في فترة من فترات نشاطها السياسي من التعاون مع الإنجليز إلى التعاون مع ألمانيا لتوافق المصالح المشتركة بينهما.

والغريب أن جميع الأقليات في الدولة العثمانية، قامت بثورات أو حركات مناهضة للدولة ما عدا اليهود الذين ما برحوا ينتظرون ازدياد شوكتهم، ويخططون سراً مع بعض القوى المؤثرة للاشتراك في إطاحة السلطان عبد الحميد الثاني لا سيا بعد أن تأكد لهم إستحالة تحقيق مآربهم في أثناء حكمه.

وفي عام ١٩٠٨ بدأ النشاط الأوروبي يتضاعف عن ذي قبل، لا سيما

---

(١) ساطع الحصري، المرجع نفسه، ص ١٤٩.
(٢) عودة عودة: القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص ١٩٤.

بعد ازدياد النفوذ الألماني في الشرق الأدنى بعد انتهـاء مشروع السكك الحديدية ، إذ أصبح بمقدور ألمانيا الوصول عبر سكة حديد بغداد ــ الحجاز إلى الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية وعدن ، وكان يعني ذلك ضرب المصالح البريطانية في المنطقة . وزاد الوضع خطورة وضع مشروع ربط هذه السكة الحديدية بمناطق فلسطين وسوريا ، ومعنى ذلك أنه أصبح من اليسير على العثمانيين التقدم جنوباً حتى فلسطين ومهاجمة مصر منها ، فخشيت بريطانيا حدوث ذلك لأنها كانت تدرك أهمية فلسطين كمركز هام للهجوم على مصر أو للدفـــاع عنها ، بما يترتب على ذلك من أخطار على قناة السويس الشريان الحيوي للاستعمار البريطاني .

٣ ـ الوفاق الصهيوني ـ الدولي ـ المحلي لخلع السلطان عبد الحميد الثاني

إن الصيحات التي انطلقت معارضة حـكم السلطان عبد الحميد الثاني ، سواء من الأتراك أو من باقي القوميات المختلفة ، لعبت دوراً فاعلاً في مساعدة الدول الأوروبية والحركة الصهيونية لاستغلال هذه المعارضة والإستفادة منها . فبدأت الصهيونية تستميل بعض الأتراك الموجودين في بعض العواصم الأوروبية وأتراك الدولة بمساعدة يهود ودونمة سلانيك للتخطيط في مسألة خلـع السلطان ، بالرغم من أن السلطان عبد الحميد كان يعطف عـــلى اليهود المقيمين في أمبراطوريته كما تذكر بعض المصادر المعاصرة فيذكر « حبيب فارس » ــ صحافي وصاحب صحيفة المحروسة ــ مخاطباً اليهود : « هل راق لـكم الكأس زمناً كما راق في حـكم السلاطين آل عثمان ، وهل حرية في الأديان أعظم من الحرية الممنوحة لجميع المذاهب من قبل مولانا وسلطاننا عبد الحميد خان ... وأنتم مـع عدم ذكركم لإسم هذا السلطان العظيم وعدم الدعاء بحفظ وجوده ، فانـكم كغيركم من الأمم تتمتعون بضياء شمس عدالته ... » (١) ويذكر أنه عندما صـــدر القانون الأساسي أشار السلطان على ضرورة احترام الطوائف المسيحية واليهودية « وطلب أمـير المؤمنين من رجالات الدولة ووزرائه [المحافظة على] صدور العلماء وبطارقة النصارى وكواهن اليهود ... ألا يعزلوا أبداً » (٢) .

---

(١) حبيب فارس : مخطوط : صراخ البري في بوق الحرية ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) مخطوط : سلاطين آل عثمان ، جـ ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٦٧ .

هذا ، ولعبت المحافل الماسونية مع يهود « الدونمة » دوراً مؤثراً في التخطيط لخلع السلطان ، وكانت بمثابة العقل المدبر ، كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول لأنه كان لها نفوذ كبير في أوساط الباب العالي وبين الأتراك الشبان[١]. وكانت الماسونية قد بدأت في الإنتشار في أراضي الدولة العثمانية منذ وقت بعيد. ويقول الأب « لويس شيخو » عن موقف تركيا من الماسونية : « كانت تركيا بين أول الدول التي ناهضت الماسونية منذ عام ١٧٤٨ ، وأن بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين الجمعيات السرية. فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور إلى كل ما يتستر تحت حجاب الظلمة وإذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا إلى إلغائها وتشتيت شمل أصحابها »[٢]، لا سيما في عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي أثرت حوادث عام ١٨٧٦ بسيرته وسياسته منذ أن وجد أخاه السلطان عبد العزيز مقتولاً في قصر « طولمه باغچه ». ولما عين مراد سلطاناً من بعده اعتزل ولم يبق طويلاً في الحكم ، وعين مكانه أخوه عبدالحميد الثاني الذي بدأ أعماله القانونية في ظل هذه الظروف وهذا الوضع[٣]. ولذا وجدناه يخشى من سرية الأحزاب والجمعيات لا سيما الماسونية منها حين صمم على إخضاعها للمراقبة ، لكن حماية الدول الأوروبية لها — لا سيما أنجلترا — كان يخفف من قيود المراقبة[٤]. وكان السلطان عبد الحميد يشك دائماً بالمحافل الماسونية ونشاطاتها ، وأن كراهيته لها يعود إلى يوم كان شقيقه مراد قد قبل كرئيس للماسونيين الأتراك[٥]. ويذكر السلطان « عبد الحميد الثاني » في

---

(١) S. Mardin; *The Genesis of Young Ottoman Thought*, pp. 116 - 117.

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعي : السر المصون في شيعة الفرمسون ، المشرق ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العدد ٨ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٣) E. Creasy; *History of the Ottoman Turks*. p. 548.

ويضيف اسمعيل سرهنك في : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٢ - ٧٢٨ ، بأن الظروف التي أدت إلى مقتل السلطان عبد العزيز كانت لها نتائج سيئة ، فقد قام حسن الجركسي وقتل بعض الوزراء ثأراً للسلطان المقتول ، فصدم السلطان مراد وأفقدته هذه الحوادث توازنه العقلي وكثيراً ما أغمي عليه ، فعرض الأمر على أخيه عبد الحميد لكي يستلم مقاليد الدولة فنصحهم بالتأني إلى أن استقر رأي الوزراء في المجلس المنعقد يوم الأربعاء ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ - ٣٠ آب (اغسطس) ١٨٧٦ م على مبايعة عبد الحميد سلطاناً للدولة . ويمكن تفسير سياسة عبد الحميد الحذرة ، العامة منها والخاصة انطلاقاً من ظروف المؤامرات التي أحاطت بعمه واخوته من قبله .

(٤) د. محمد علي الزعبي : حقيقة الماسونية ، ص ١٧٤ .

(٥) J. Haslip; *The Sultan-The life of Abdul-Hamid II*, p. 256.

مذكراته : « من أن العمل الوحيد الذي استطاع الماسونيون القيام به في الدولة العثمانية ؛ هو نشر الشقاق والتمرد في البلد وبين صفوف الجيش ، دون أن يعلموا أنهم يعملون لحساب أنجلترا التي تدعي نشر الأفكار المتحررة في أمبراطوريتنا . وأشد ما يؤلمني أن يتعاون هؤلاء الضالون الأتراك مع اليونانيين والبلغاريين في سبيل إزاحة « المستبد » (Müstebit) ! عن الحكم (١) .

ونظراً للجهود المبذولة من قبل الماسونية (٢) ، تأسست محافل ماسونية عديدة في الآستانة وإزمير بعضها تابع للشرق الأعظم الأنجليزي وبعضها للفرنسي أو للايطالي إلى أن أنشأ الأخ *.* (٣) الكلي الإحترام « حليم باشا » مجمعاً وطنياً ترأسه وتعددت محافله (٤) ، بحيث أصبح عدد الماسون الأتراك المسلمين عام ١٨٨٢ نحو عشرة آلاف شخص من بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسؤولين (٥) . إلا أن السلطان عبد الحميد استطاع في عام ١٨٩٤ إغلاق جميع المحافل الماسونية ما عدا محافل سلانيك لارتباطاتها الدولية مع دول ومحافل أوروبا مثل : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا . ونظراً لخطورة الأوضاع والتحركات العلنية والسرية في سلانيك ، ونظراً لسيطرة الماسونيين على مجلس إدارتها ، مما يسبب خطراً على الحكم العثماني ، أصدر السلطان أوامره عام ١٨٩٥ « وقررت لجنة التفتيش في ولايات الروملي لزوم تعيين أعضاء لمجلس إدارة ولاية سالونيك زيادة عن الموجودين وأحيلت الكيفية إلى المرجع الايجابي » (٦) .

---

(١) Sultan Abdül Hamit; Siyasî Hatiratim, p. 81.

(٢) الماسونية قسمان : ماسونية اليهود ، وماسونية الغوييم – وهم غير اليهود – إلا أن رئاسة محافلها ومختلف أهدافها خاضعة للنفوذ اليهودي .

(٣) هذه إحدى الشارات الماسونية المتعارف عليها .

(٤) لويس شيخو ، المصدر السابق ، ص ٦٠٧ .

(٥) د. محمد علي الزعبي ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٦) جريدة لبنان ، ١٧ شباط (فبراير) ١٨٩٦ ، العدد ١٢٥ . هذا ويذكر اسمعيل سرهنك في كتابه السابق الذكر ص ٤٦٦ ، مؤرخاً لتاريخ سالانيك قوله : « سلانيك أو تسالونيكي وهي مقر ولاية بأسمها وتبعد عن القسطنطينية بنحو ٥٢٠ كلم . وهي من الثغور التجارية المهمة . موقعها في داخل الجون المعروف باسمها ... تجارتها واسعة جداً يخرج منها طريق حديدي إلى اسكوب ويتصل بالآستانة ... ومرفؤها أمين رحب يسع أكثر من ٣٠٠ سفينة جسيمة ... فتحها العثمانيون في عهد الغازي السلطان مراد الثاني (٨٥٣ هـ – ١٤٣١ م) ... وسكانها يبلغون ٨٠،٠٠٠ نسمة وهي أهم ثغر تجاري بتركية أوروبا بعد القسطنطينية . ومن سكانها كثير من نسل الذين طردهم الأسبانيول في زمن فرديننند وايزابيلا. وبهذه المدينة =

واللافت للنظر في هذا المجال ما أكدته المصادر والوثائق المختلفة من ارتباط وطيد بين الصهيونية والماسونية ، فقد أكدت الوثائق الصهيونية في مؤتمر بال الأول ١٨٩٧ هذه العلاقة بالقول : « ... وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة ، سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم. وسنجذب إليها كل من يصير أو من يكون معروفاً بأنه ذو روح عامة ، وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد ، كما أنها ستكون أفضل مراكز الدعاية »(١).

ويذكر أيضاً بأن الحركة الصهيونية عمدت إلى إبتداع الحركة الماسونية الحديثة منذ فترة مبكرة ، من أجل أن يتخلى الإنسان عن كل ما يؤمن به ليصبح كما يسمونه « كوزمو بوليتيني » (Cosmo - Politini) ، ومن أجل أن تكون محافلها وسيلة للصهيونية في تحقيق أهدافها والتغلغل في الأوساط الحاكمة وكسب الطبقة العليا من الحكام والوزراء وأصحاب النفوذ في أي مجتمع ، لاستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية ، ولذلك فاننا نرى أن نشاط هذه الحركة يكاد ينحصر في الأوساط الحاكمة وليس في الأوساط الجماهيرية(٢).

وهناك أدلة كثيرة تؤكد الإرتباط الوثيق بين الصهيونية والماسونية ، وتؤكد أن الماسونية هي من إفرازات الحركة الصهيونية ، وهذا ما تثبته دائرة المعارف الأمريكية عام ١٩٠٦ ودائرة المعارف اليهودية ، وبعض الصحف اليهودية الصادرة في فترات وسنوات متفاوتة والتي تؤكد هذا الإرتباط الوثيق . فقد ذكرت المجلة اليهودية « لافيريه إسرائيليت » عام ١٨٦١ من أن روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية(٣). وذكر الحاخام

= فابريقات للأقمشة الحريرية والطنافس و ... ومن تجارتها الحرير والقطن والتبغ و ... ويتردد عليها كثير من سفن الشركة العثمانية والشركات الأجنبية .»

ومن خلال هذا التأريخ ندرك مدى أهمية سالانيك وغنى أهلها الذين استطاعوا تمويل الحركات المعادية للسلطان ولا سيا في أحداث عامي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ . ويمكن أن نضيف بأن عدد سكان سالانيك في عام ١٩٠٩ كان يربو على (١٤٠) الفاً منهم (٨٠) الفاً من اليهود و (٢٠) الفاً من اليهود « الدونمة » . وبمعنى آخر فان اليهود كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة من أهاليها . أنظر : *Revue du Monde Musulman*, T. 9, p. 174. (Paris 1909).

(١) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون ، البروتوكول الخامس عشر ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية في الواقع العربي ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) سنتحدث عن علاقة الماسونية باليهود والصهيونية بمزيد من الأدلة والوثائق أثناء بحث دور اليهود في ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ .

« إسحق وايز » (Isaac Wise) (١٨١٩ — ١٩٠٠) في ٣ آب (أغسطس) ١٨٦٦ في مجلة « إسرائيلي أمريكا » (The Israelite of America) أن الماسونية مؤسسة يهودية في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وتوضيحاتها. أنها يهودية من البداية حتى النهاية [١].

وتوضح مجلة « المشرق » الإرتباط العملي بين الماسونية والصهيونية فتقول: « أنه لو أردنا بيان الرابطة الوثقى التي بين الماسونية واليهودية لطال بنا الكلام، ونكتفي لبيان ذلك بهذه الملحوظات : ... قال أحد كتبة العصر السابق المسيو دى لابينوا (H. de L'Epinois) في مجلة « المباحث التاريخية » في نيسان ١٨٨٢ : « ليست بعلاقة أوثق من علاقة الماسونية واليهودية، فإن ذوي النظر لدى مشاهدتها لا يتمالكون عن هذا الحكم، أو أن الماسونية تحولت إلى اليهودية أو بالحري أن اليهود « تميسنوا » لإدراك غاياتهم الخبيثة » [٢]. وكان اشتراك اليهود الأتراك في المحافل الماسونية تمثل مظاهر متناقضة فهم يهود في أعماقهم، مسلمون في ظاهرهم، ماسون في المحافل.

ويؤكد « يوسف الحاج » — الحائز على رتبة الأستاذية العظمى في الماسونية — المبادىء الماسونية ومعتقداتها فيقول : « بأن مبدأ هذه الفرقة وتعاليمها ودرجاتها وغايتها ترمي كلها إلى تقديس ما ورد في التوراة واحترام الدين اليهودي والعمل على تجديد المملكة اليهودية في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي » [٣].

وعلى هذا النحو استطاعت الحركة الصهيونية مع المحافل الماسونية متابعة النشاط السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات الصهيونية — الدولية — الماسونية.

ويذكر جواد رفعت اتلخان — القائد التركي المعاصر للسلطان عبد الحميد — انه في القرار المرقم ٧٠ للجمعية الماسونية الفرنسية جاء فيه انه أسست

---

(١) أنظر : عودة بطرس عودة، المرجع السابق، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) لويس شيخو : السر المصون في شيعة الفرمسون، المشرق، آب (اغسطس) ١٩١١، العدد ٨، ص ٦١٨. وقد بحث في علاقة اليهود بالماسونية بشيء من التفصيل الكاتب الفرنسي (Édouard Drumont) في عدة كتب ومنها كتاب (La France Juive) وصدر كتاب آخر لجمعية « اغسطين » عرف باسم (Judaïsme et Franc-Maçonnerie)

(٣) يوسف الحاج : هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود، جـ ١، ص ٣٥.

جمعية سرية باسم « جون ترك » (Jeune Turque) فباشرت نشاطها من سلانيك التي تضم اليهود الأكثر نفوذاً في أوروبا . عدا ذلك كان يوجد هناك المحافل الماسونية الكثيرة لقبول الثائرين فيها نظراً لكون تلك المحافل تحت حماية السياسة الأوروبية ... ويمكن القول ان فرقة الاتحاد والترقي ولدت فعلاً في المحفل الماسوني المسمى « ماكدونيا ريزتورا » (Macedonia Ristora) المؤسس من قبل « قارصوه اليهودي السلانيكي »[١]. ويعود « لويس شيخو » ليؤكد انه بعد انشاء جمعية الاتحاد والترقي تحت سيطرة الماسونية ، كان للضباط وجندهم القوة العاملة ، أما التدبير لتنفيذ العمل واخراجه إلى حيز الوجود فكان في أيدي الموسويين الذين تعهدوا بدفع المبالغ اللازمة لذلك المشروع ...[٢] وقد ازداد عدد المشتركين في هذه المحافل نظراً لاتصال الضباط الشبان في الجيش الثالث – الذين أرسلوا للقضاء على الثوار في الجبال – بالمحافل الماسونية المنتشرة في سلانيك[٣] .

وفي عام ١٨٨٩ شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الأمبراطورية في استانبول منظمة سرية هدفها الواضح عزل « عبد الحميد الثاني » ، وكان وراء هذا التشكيل السري رجل ماسوني من ألبانيا اسمه « ابراهيم تيمو » او أدهم كما كان يسمى أحياناً[٤] . وقد اتفق مع عدد من الطلاب على الاشتراك في تلك المنظمة وكان في مقدمتهم : اسحق سكوتي ، وشركس محمد رشيد ، وعبد الله جودت ، وكرديان ، وقد باشرت أعمالها منذ عام ١٨٩١ في جنيف أولاً ثم نقلوها إلى باريس ، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سراً ، واتخذوا لذلك طريق الجيش لبث أفكارهم[٥] . وقد أصدر كل من اسحق سكوتي وعبد الله جودت مجلة « عثمانلي » في جنيف لمحاربة السلطان عبد الحميد وتأليب الرأي العام عليه ، وذلك لكسب مؤيدين لتنظيمهم وقد عرف هذا التنظيم باسم « الاتحاد والترقي » (Committee

(١) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام – الصهيونية وبروتوكولاتها ، ص ١٥٠ .
(٢) لويس شيخو ، المصدر السابق ، ص ٦١٨ .
(٣) J. Haslip; *The Sultan - The life of Abdul-Hamid*, II, p. 256.
(٤) انظر : أرنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ٤٩ .
(٥) W. Miller; *The Ottoman Empire and its Successors*, p. 474.
انظر ايضاً : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤١٠ .

of Union and Progress) وهو فرع لحزب « تركيا الفتاة » . ونظراً للمخططات المعارضة لحكم السلطان دأب أعضاء الجمعية على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية ، وعقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الايطالي ، وفتحت السفارات الاجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان ، وكانت انجلترا وفرنسا سابقتين إلى ايواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي ، وتركتهم يعملون في عواصمها علناً لإسقاط السلطان[1] . وكانت ايطاليا تشجع هذه الميول لا سيما بعد رحلة « ابراهيم تيمو » إلى برنديزي ونابولي واتصاله بالمحافل الماسونية والدوائر الحكومية هناك بهدف التنسيق مع الاتحاديين ، وبالفعل فقد بدأت عناصر هذه الجمعية في تركيا بالاتصال بعناصرها في الخارج ولا سيما في العاصمة الفرنسية باريس ، وقد كانت علاقتهم متينة مع اتراك المنفى المقيمين في فرنسا[2] . ومن هؤلاء : سلانيكي ناظم وأمين أرسلان وخليل غانم[3] ، وكان هذا الأخير يكتب في عدة صحف أوروبية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبد الحميد . ففي عام ١٨٩٥ كتب مقالاً بالإشتراك مع أمين

---

(١) سعيد الأفغاني : كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضة المملكة العثمانية ، نقلاً عن : مجلة العربي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، العدد ١٦٩ ، ص ١٥٢ .

(٢) Lord Eversley; *The Turkish Empire*, p. 370.

(٣) خليل غانم (١٨٤٦ — ١٩٠٣) ، مسيحي من لبنان ، انتخب نائباً عن سوريا في مجلس المبعوثان عام ١٨٧٨ ، حمل حملة شديدة في مجلس المبعوثان ، مع احمد افندي — مبعوث أزمير — على الحكومة لنفيها مدحت باشا ، فصدر الحكم بالقاء القبض عليه ، فالتجأ إلى السفارة الفرنسية ، وبعد ان عطل السلطان عبد الحميد هذا المجلس هرب غانم الى أوروبا حيث اصدر جريدة « الهلال » في جنيف ، وعندما ذهب إلى باريس أسس صحيفة عربية هي « البصير » التي سرعان ما توقفت ، ثم أسس صحيفة « تركيا الفتاة » عام ١٨٩٥ ، وكانت تصدر بالعربية والفرنسية ، ولكن لم يذكر اسمه على الجريدة كمحرر أو مدير لها لكني لاحظت حين اطلاعي على الأعداد الأولى لهذه الصحيفة العبارات التالية : محرر الجريدة : حب الوطن، مدير الجريدة: النظام والنجاح. ولاحظت أيضاً إلى أن تاريخ إصدار الأعداد الأولى طبع خطأً على هذا النحو : باريز ٥٩٨١ ، عوضاً عن عام ١٨٩٥ تاريخ إصدار الصحيفة. وكان خليل غانم قد كتب في الصحيفة الفرنسية (Journal des Débats) إلى أن اصبحت موالية للسلطان فيما بعد . وكتب أيضاً في صحيفة « كشف النقاب » لصاحبها أمين أرسلان علاوة على توليه ادارة جريدة (La France Internationale) كما كتب في جريدة (L'Eclair) وبعد لجوء احمد رضا إلى باريس اتفقا معاً على التحرير في جريدة « مشورت » التي أصدراها بالتركية مع ملحق بالفرنسية . هذا وألف خليل غانم في باريس عام ١٩٠٢ كتاباً أسماه (Les Sultans Ottomans) . ومن مؤلفاته الأخرى : الاقتصاد السياسي ، الاسكندرية ١٨٧٩ .

أرسلان في صحيفة « تركيا الفتاة » في سنتها الأولى وعددها الأول عدّد فيه أهداف الجمعية وغاياتها في الحصول على « حرية شخصية وحرية معتدلة للمطبوعات ومراقبة حقيقية على الحكام من نواب الأمة . وبالنتيجة إعادة مجلس المبعوثان ... وإنّا سنفرغ الجهد ونبذل الوسع لإقناع جلالة السلطان بصوابية مطاليبنا وحسن نياتنا مع نقل آمال الشعوب العثمانية إلى الدول الأوروبية ... » وعدّد مطالب الجمعية بإصلاح الأحوال الداخلية والخارجية وتعميم الخدمة العسكرية « واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها ... »[١]

وفي العام التالي كتب « خليل غانم » في نفس الصحيفة موضوعاً حاول فيه استمالة المسلمين قبل أية طائفة أخرى لاعتقاده أنهم يشكلون القوة القادرة على إيجاد الأخطار لعرش السلطان ، فبدأ مقاله بآيات قرآنية ونداء إلى « المسلمين المظلومين » لأن « الإضطراب المستولي الآن على شؤون الممالك العثمانية وسوء الحال الذي صار إليه العثمانيون بالعموم والمسلمون بالخصوص يستوجبان دقة النظر وإعمال الفكرة المتجردة »[٢].

والواقع فقد اعتمد الاتحاديون على تنظيماتهم في أوروبا لنشر أفكارهم لصعوبة تحقيق ذلك من الداخل لأن طبع المنشورات السرية في داخل البلاد كان مستحيلاً بسبب صرامة المراقبة الموضوعة على مختلف المطابع كبيرة كانت أم صغيرة . لذا كانت تطبع الصحف والمنشورات في الخارج ، وكان إدخالها صعباً إلى الأراضي العثمانية ، إلا أن وجود الدوائر الأجنبية والسفارات الأوروبية وقنصلياتها كان يسهل كثيراً من دخول هذه المنشورات لأن هذه السفارات كانت كلها مصونة من مراقبة الدولة العثمانية بسبب الإمتيازات الأجنبية[٣]. وعن طريق هذه الدوائر الأجنبية كان الإتحاديون يتسلمون هذه المنشورات حيث توزع بمعرفة التشكيلات السرية لجمعية الإتحاد والترقي . ويكفي للدلالة على نفوذ الامتيازات الأجنبية بالنسبة للبريد ان فاق بريد القنصلية النمساوية في القدس – التي كان يديرها رجل يهودي – غيرها رواجاً وشهرة[٤] ، بما فيه البريد العثماني.

---

(١) تركيا الفتاة ، ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٥ ، العدد ١ ، ص ١ .
(٢) تركيا الفتاة ، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٦ ، العدد ٤ ، ص ١ .
(٣) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٠٤ .
(٤) يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني – ذكريات الحكيم (١) ، ص ٢٠٠ .

وفي عام ١٨٩٦ عقد في ڤيينا مؤتمر دعت إليه جمعية الإتحاد والترقي اشترك فيه : الأرمن واليونان والمقدونيون والعرب واليهود وبقية الأقليات ، وقرروا فيه خلع السلطان وقلب نظام الحكم ، غير أن السلطان عبدالحميد استطاع استئصال الجمعيات المطالبة بالدستور خاصة بعد انتصاره في حرب اليونان عام ١٨٩٧ واستعادته هيبة الدولة[١] . ولذا نشط الإتحاديون بمساعدة بعض الدول الأوروبية لمواصلة نشاطهم في الخارج ، خاصة بعد انتشار فروع الجمعية في بعض مناطق الدولة العثمانية ، ولا سيما في مناطق النفوذ البريطاني . فقد كانت مصر من المراكز الحساسة للجمعية ، ذلك أن بعدها عن الآستانة وكونها تحت الادارة البريطانية ، قد جعل منها ملجأ وملاذاً لجماعة من الإتحاديين الذين كانوا يخشون الوقوع في قبضة عبدالحميد الحديدية ، وهناك معلومات تشير إلى أن أعضاء من « تركيا الفتاة » قد أسسوا في القاهرة عام ١٨٩٩ مكتباً للطباعة والنشر ، هدفه إصدار جريدة تدعى « القانون الأساسي » لتكون لسان حالهم في الدعاية لمبادئهم[٢] ، غير أن سالانيك ظلت المركز الأساسي والأمين لنشاطهم السياسي والعسكري على السواء[٣] ، نظراً لتزايد تنظيمهم بإنشاء فرق « القوميته جي » . ولما شعر السلطان بقوتهم وظهور خلاياهم في « مناستر » أيضاً « عمد إلى تشتيت شملهم ورماهم بحملة عسكرية تولى أمرها القائد « شمسي باشا » ، فدخل شمسي قاعدة الولاية كقائد فاتح ، إلا أن أحد ضباط القناصة « مفيد بك » أقدم بجرأة نادرة على قتل هذا القائد والإلتجاء وأفراد فرقته إلى الجبال ... »[٤] .

وبالرغم من هذا التحرك الاتحادي ، فإن الجمعيات التي تأسست داخل

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، ص ١٦٥ .
(٢) زين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٧٦ ، ٧٧ .
(٣) باعتبار سالانيك منطقة يتكاثر فيها النفوذ الأجنبي ، فان النشاط المعادي للدولة العثمانية لم يقتصر على الماسونية والدونمة واليهود والقوى الدولية ، بل ان مسيحيي سالانيك وقفوا أيضاً ضد السلطان العثماني في أكثر من مرة . ومنها على سبيل المثال ما حدث في ٥ أيار (مايو) عام ١٨٧٦ ، عندما اختلق المسيحيون حادثة جانبية ، لكي يتسنى للدول الأوروبية ان تتدخل وتضاعف نشاطها ضد الدولة العثمانية ، وتطالب بحماية المسيحيين مقدمة لفصلهم عن الحكم العثماني .
انظر : محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
(٤) الأسرار ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٨ ، العدد ١ ، ص ٣ .

الدولة العثمانية لم تستطع أن توسع نشاطها بسبب صرامة النظام الحميدي وإتقان عمل الجاسوسية . ولكن بعد عام ١٩٠٥ وجدت جمعية الإتحاد والترقي مجالاً واسعاً لعملها في الولايات الثلاث : مناستر ، قوصوه ، سالانيك ، بسبب المراقبة الدولية التي كانت موجودة فيها[1] ، برعاية إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا . وكانت كل ولاية من هذه الولايات تخضع لمراقبة دولة أو إثنتين من هذه الدول الخمس . إلا أن سلانيك تبعاً لأهميتها عيّن لها هيئة عليا للمراقبة الدولية حتى لا يتيسر للدولة العثمانية مراقبة التحركات المناهضة للسلطان ، وإن كان هناك مفتش عثماني عام إلا أن وجود الدول الخمس كان يشل من تحركه .

وفي أوائل القرن العشرين رأت الجمعية ضرورة استمالة أقرباء السلطان ، مما يقوّي شوكتها ويدعم مطالبها ، ففر محمود باشا من الآستانة — وهو صهر السلطان — في عام ١٩٠٠ لأن فراره « من شأنه أن يقوّي حزب تركيا الفتاة ويزيده عدداً ... » وتذكر صحيفة « الخلافة » عام ١٩٠٠ بأن « محمود باشا » صرح في أوروبا بأنه « موافق على حركات حزب تركيا الفتاة ، وأن في عزمه أن يطبع رسالة يفصل فيها دسائس السلطان وحاشيته في يلديز ... وأن نشرياته ستكون واسطة لانضمام كثير من الأهالي مع حزب تركيا الفتاة وتكون نتيجة ذلك إحداث إنقلابات أساسية في الآستانة »[2] ومما يؤكد تعاون الفارين العثمانيين مع الدول الأجنبية أن صهر السلطان عندما وصل إلى لندن لقي حفاوة وتأييداً من الحكومة البريطانية « وأهل السياسة والمقامات العالية هنا يساعدونه على تنفيذ مقاصده وترويج غاياته »[3] .

هذا وقد شهدت الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٢ و ١٩٠٧ نشاطاً ملحوظاً ضد السلطان ، فقد بدأت أفكار تركيا الفتاة تنتشر في داخل وخارج الأمبراطورية ، فهناك جماعات ركزت نشاطها في جنيف والقاهرة وجماعات أخرى نشطت في استانبول في المدارس الحربية والمدنية التي كانت نواة الحركة الثورية . وبواسطة القائد التركي مصطفى كمال صار للجمعية فروع

---

(١) ساطع الحصري ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
(٢) الخلافة ، ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠ ، العدد ٨ ، ص ٢ .
(٣) الخلافة ، ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠ ، العدد ٨ ، ص ٢ .

في يافا والقدس، وقد انضم إليها قواد من الفيلق الخامس[١]. وفي عام ١٩٠٢ عقد في باريس مؤتمر إتحادي للبحث في الخطط المستقبلية وفي كيفية مناهضة السلطان، وفي عام ١٩٠٧ عقد مؤتمر ثان وكانت مقرراته تشمل ما يلي:

أ - إجبار السلطان عبد الحميد على ترك العرش.

ب - تبديل الادارة الحاضرة من أساسها.

ج - تأسيس أصول المشروطية والمشورة[٢].

وفي الفترة التي كانت فيها جماعة من العرب وأهل فلسطين تطالب الحكومة العثمانية بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كانت فئة عربية أخرى تتعامل مع الاتحاديين لقلب نظام السلطان عبد الحميد الثاني، داعية إلى الإصلاح ورفع الظلم والفساد عن العرب. وكانت أهداف الإتحاديين وشعاراتهم: حرية - عدالة - مساواة، قد استمالت بعض العناصر العربية المناهضة للسلطان، باعتبارها الغايات التي كان يسعى إليها العرب وعن طريقها يمكن أن يحققوا أهدافهم ضد «السلطان الطاغية» على حد تعبيرهم. ولا يخفى ما كان لليهود من نفوذ قوي في أوساط «جمعية الإتحاد والترقي» الذين رأوا ضرورة التخلص من السلطان العثماني لأهداف لها صلة وثيقة بمستقبل فلسطين. وقد كانت السيطرة على فلسطين أمراً عسيراً من الناحية العسكرية والسياسية، وسيظل وضعها على هذا النحو ما دامت في حوزة الأمبراطورية العثمانية[٣]. لذا كانت مقررات مؤتمر «كامبل بانرمان» عام ١٩٠٧ بزرع الشعب اليهودي في فلسطين أمراً وطيد الصلة بواقع فلسطين وبأهداف الاستعمار الأوروبي. ولما كان السلطان هو العقبة التي تقف في طريق الصهيونية إلى فلسطين، فكان من الطبيعي أن تتجه الحركة الصهيونية إلى استغلال المؤتمرات والثورات والإنقلابات ضد الحكم العثماني، والتغلغل في كافة المجالات والأوساط التي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر على الحكومة

---

(١) J. P. Garnier; *La Fin de L'Empire Ottoman*, p. 89.

(٢) ساطع الحصري، المرجع السابق، ص ١٠٦. انظر ايضاً: المنار، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨، م ١١، ج ١١، ص ٨٤٩، إذ تشير إلى مؤتمر «ويانة» الذي حضره جماعة من الترك والأرمن والمقدونيين والكرد والعرب واليهود والارناؤوط الذي قرر استعمال جميع الوسائل الانقلابية لتحقيق الانقلاب وخلع السلطان.

(٣) ارنولد توينبي: فلسطين جريمة ودفاع، ص ٤١.

العثمانية [١] . إذ أن العمل الصهيوني في عهد السلطان عبد الحميد لم يكن ملائماً لتحقيق الأهداف الصهيونية وهـذا ما يؤكده القنصل البريطاني في القدس « بلش » (Blesh) الذي يصف المصاعب التي وضعتها السلطات المحلية العثمانية لعملية إنتقال ملكية الأراضي إلى الرعايا الأجانب والهادفة إلى منع الإستيطان اليهودي في فلسطين [٢] .

والواقع أن ردود الفعل العربية والحوادث المتكررة بين العرب واليهود ، كان لها أثر واضح في إصدار مثل هذه القوانين . وقد أكد وكيل القنصل البريطاني في يافا في رسالته إلى « لوثر » (Lowther) – السفير البريطاني في القسطنطينية – « من أن هؤلاء اليهود من المهاجرين الروس مشاغبون ومعتدون وبسلوكهم وأعدادهم المتزايدة يمكن أن يثيروا إستياء أهالي البلاد المسلمين والمسيحيين على السواء » . ويضيف « بأن الحوادث بـين العرب واليهود إنما مردها إلى وجود شعور متزايد ضد تدفق اليهود » [٣] . وبالفعل فقد أكد « بلش » – القنصل البريطاني – أنه « وقعت صدامات في يافا بين العرب واليهود في آذار (مارس) ١٩٠٨ استدعت على أثرها الحكومة المركزية قائمقام يافا للتحقيق معه في أسباب الإضطرابات » [٤] . وقد بلغ من سوء الهجرة اليهودية والمضاعفات التي أحدثتها على الصعيد الفلسطيني والصعيد الدولي أن جعل ممثل دولة مؤيدة لليهود يتذمر من تصرفات هذه الفئة التي لا تستحق العطف [٥] على حد تعبيره .

وفي هذه الفترة كانت الدوائر الصهيونية لا تزال تسعى مـع الساعين لتغيير نظام الحكم في تركيا مؤكدين استمرارهم في تحركهم إلى أن يحصلوا على مطالبهم ، فقد أشاروا في مقرراتهم إلى أنه « سنعمل كل ما في وسعنا على منع المؤامرات التي تدبر ضدنا حين نحصل نهائياً على السلطة ، متوسلين

(١) عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية في الواقع العربي ، ص ٢٢٥ .
(٢) رسالة « بلش » إلى « اوكونر » ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨ ، نقلاً عن خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني ، ص ٥٥ . انظر ايضاً :
(Report) to Lowther. Dec. 1907, No. ?, in F.O. 195/2276.
(٣) (Report) to Lowther, 18 March 1908, No. 12052, in F.O. 371/591.
(٤) Blesh to Lowther, April 1908, No. ?, in F.O. 195/2287.
(٥) رسالة « بلش » إلى « اوكونر » ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨ نقلاً عن : خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

إليها بعـدد من الإنقلابات السياسية المفاجئة التي سننظمها »[1]. ونتيجة للتعاون الصهيوني ـ الماسوني قرر « الشرق الأعظم » الفرنسي في عام ١٩٠٠ إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ يجذب لهذا الغرض حركة « تركيا الفتاة » منـذ بداية تكوينها[2]. والواقع أن المبادئ اليهودية والماسونية أثرتا كثيراً على منتسبي جمعية الإتحاد والترقي، الذين حافظوا على تلك المبادئ والتقاليد حتى بعد الثورة. وهناك مسألة جديرة بالتدقيق والتأمل وهي أن اليهود المنتسبين لفرقة الإتحاد والترقي أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في هذه الجمعية[3].

وفي عـام ١٩٠٨ إتسعت جمعية الإتحاد والترقي وتفاقم خطرها خاصة بعد دخول اليهود في عضويتها، ودخول يهود « الدونمـة المتسترين » (Cryptic Jew) المقيمين في سالانيك[4]. وتعتبر هذه المدينة المركز الرئيسي لدسائسهم ومؤامراتهم، لأن هذه المدينة تضم أوفر عـدد من اليهود في تركيا، ولأنها من ناحية أخرى تضم عدداً كبيراً من الدونمة[5]. ورأى الإتحاديون أن نهاية السلطان باتت وشيكة الوقوع، فقرر أعضاء الجمعية البدء بهذه الثورة والقيام بها يوم ذكرى مقتل السلطان عبد العزيز، غير أن الظروف لم تكن مؤاتية[6]. ولذا تأجلت من ٥ حزيران (يونيه) ١٩٠٨ إلى ٢٣ تموز (يوليه) من نفس العام.

ويذكر القائد التركي جواد رفعت أتلخان ـ المعاصر للسلطان عبد الحميد ـ أن الهدف من ثورة ١٩٠٨ هو « أن الصهيونيين يريدون تجريد السلطان عبد الحميد من سلطنته وثروته وأملاكه إنتقاماً منه ولعدم إفساح المجال له للقيام ضدهم ثانية. والمرتدون كانوا منحصرين في سلانيك يريدون إزالة عبد الحميد من طريقهم لتصفية الجو لهم ... وجمعية الإتحاد والترقي كانت

---

(١) محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول ١٥، ص ١٧١.

(٢) ارنست رامزور: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ص ١٢٦.

(٣) جواد رفعت اتلخان: الخطر المحيط بالأسلام – الصهيونية وبروتوكولاتها، ص ١٥١.

(٤) Lord Eversley; *The Turkish Empire*, p. 370.
أنظر أيضاً: H M. Kallen; *Zionism and World Politics*, p. 111.

(٥) حقائق عن قضية فلسطين، صرح بها مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ص ١٢٠.

(٦) W. Miller; *The Ottoman Empire*, p. 474.

بحاجة إلى المال ... »[١]. ويضيف في كتابه « الإسلام وبنو اسرائيل » « أن اليهود هم الذين نشروا الفوضى في داخلية البلاد ، ونظموا القوة المناهضة للحكم التركي بقصد تحطيم الأمبراطورية العثمانية ، وسلحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج ونظموا صفوفهم وأمدوهم بالأموال ، كما نظموا عصابات السلافية في البلقان »[٢]. وكان المحفل الماسوني (Macedonia Ristora) قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة ، فقبل عامين من انقلاب تموز (يوليه) حصل اليهودي قراصوه على إذن لعقد اجتماعات جمعية الإتحاد والترقي في محفله . وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسون ، في الوقت الذي كان فيه قراصوه منهمكاً في تكوين اللجان الداخلية للجمعية[٣].

هذا ويمكن القول أن اليهود لعبوا دوراً فعالاً في ثورة ١٩٠٨ ، ويؤكد (Seton-Watson) هذه الحقيقة بقوله : إن أصحاب العقول المحركة لثورة الإتحاد والترقي عام ١٩٠٨ كانوا يهوداً ومن الدونمة . وأما المساعدات المالية فانما كانت تجيئهم عن طريق الدونمة ويهود سالانيك المتمولين[٤]. وشعر العثمانيون بهذا الواقع كما تقول « المشرق » إذ « أن الكل يعلم أن مركز ذلك الإنقلاب إنما كان في سالانيك واليهود فيها نيف وسبعون ألفاً »[٥]. وقد استطاعت هذه الحركة استغلال عداء العرب وبقية القوميات في الدولة العثمانية لحكم السلطان العثماني ، بالرغم من أنه لم يكن هناك هدف واحد وقاسم مشترك بين المشتركين بالثورة ، ولكن تعددت الأهداف

---

(١) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، ص ١٣٧ . وكان اتلخان معاصراً لحكم السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان مديراً لدائرة الأمن العام العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى وقد وعى أهداف الحركة الصهيونية أثناء النشاط الصهيوني قبل وبعد ثورة ١٩٠٨ – ١٩٠٩ . ويعتبر هذا القائد من الذين تعرضوا – فيما بعد – لتهديدات الصهيونية إثر كشفه الستار عن كثير من المعلومات التي تتعلق بأطماع اليهود في فلسطين وخطرهم على العالم العربي والاسلامي . ومن مؤلفاته : اسلام صاران تهلكه (الخطر المحيط بالاسلام) ، تورك أوغلي دوتسمانك طاني (أيها التركي ، اعرف عدوك) ، أسرار الماسونية ، كيزلي دولت (الدولة الخفية) ، موسى داغي ، اينه لي فيجي ، الاسلام وبنو اسرائيل ، تمزيق القناع الماسوني وغيرهم . وكان يصدر جريدة استقبال (المستقبل) وجريدة بالانجليزية باسم (United Islam Nations) .

(٢) جواد رفعت اتلخان ، الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) J. Haslip; *The Sultan - The Life of Abdul Hamid II*, p. 284.

(٤) W. Seton-Watson; *The Rise of Nationality in the Balkans*, p. 134.

(٥) المشرق ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العدد ٨ ، ص ٦١٧ .

بتعدد القوميات ، وتعددت المطالب بتعدد الزعامات ، كما يمكن القول أنه لم تكن توجد أهداف مشتركة بين الإتحاديين وبين الحركة العربية سوى اشتراكها في كراهية السياسة الحميدية.

ومن هنا يجب أن نقرر حقيقة هامة ، وهي أن بعض العرب المقيمين في باريس أو في المناطق العثمانية ، إنما استُغلوا من قبل الصهيونية والمتمولين اليهود ، دون أن يدروا غاياتهم وأهدافهم الأساسية المتمثلة في السيطرة على فلسطين. ولما تعاون العرب مع المنادين بخلع السلطان ، إنما كانوا يهدفون من وراء ذلك الوصول إلى الإصلاح السياسي والإجتماعي والإقتصادي للبلاد العربية ، بينما لم يكن اليهود والصهاينة يطالبون بمطالب إصلاحية معينة ، بل كان مطلبهم الأساسي إنشاء « مملكة اسرائيل ».

وفي ٢٣ تموز (يوليه) تمرد الجيش الثالث في مقدونيا وبالذات في ولاية سالانيك ، حيث أعلن الثورة وهدد بالتقدم نحو العاصمة استانبول بقيادة الماجور أحمد نيازي قائد « حصن رسنة » فاعتصم بالجبل وانضم إليه أنور باشا ومصطفى كمال وآخرون مع وحداتهم ، وسرعان ما احتلت المفارز الثورية مدينة مناستر (بيتولج) حيث يوجد مقر قيادة الجيش الأول [١].

ويذكر « روحي بك الخالدي المقدسي » أحداث الثورة فيقول : « في يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليه) ١٩٠٨ ، خرج الناس من سلانيك صباحاً ووجدوا إعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية « الإتحاد والترقي » العثمانية تدعوهم إلى الاجتماع في يوم الجمعة لإعلان القانون الأساسي والحرية ، فلم يتمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان « أوليمبوس » على الطوار - الرصيف - في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلاً : إما الحرية وإما الموت !!... » [٢].

ويلاحظ الدارس من أسماء خطباء الثورة ، إشتراك الدول الأوروبية في التخطيط لها بالاتفاق مع الإتحاديين واليهود فكان « أول من خطب على

---

(١) B. Lewis; *The Emergence of Modern Turkey*, p. 203.
انظر ايضاً : فلاديمير لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧.

(٢) روحي بك الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، نقلاً عن : الهلال ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ ، ج ٣ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩. انظر ايضاً : المنار ، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ ، م ١١ ، ج ١١ ، ص ٨٥٦ ، ٨٥٧.

طنف – بلكون – فندق « أوليمبوس بلاس » غـالب أفندي بالتركية ثم مانويل قرصوه باليهودية الإسبانية ، ثم روصو أفندي بالفرنسية وسليمان أفندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة « عصر » بالتركية وفيلو طاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصة – فوق العادة – بالبلغارية، وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية ثم هتف الجميع : فليحي الوطن ، فلتحي الأمة ، فلتحي الجمعية ، فليحي الجيش ، الحرية أو الموت »[١].

وفي هذه الظروف كان لجمال باشا – مساعد قائد الموقع في سلانيك – دورٌ بارزٌ في احداث الثورة ، فقد عهد إليه بمفاوضة المابين باسم الجيش ، فاحتل مع فرقة من جنوده دار البرق وأبلغ برقياً حسن تحسين باشا رئيس الديوان السلطاني إرادة الجيش بضرورة إعلان الدستور ...[٢] إلا أن السلطان أراد في الواقع مجابهة هذه الثورة ، وكان قد فكر بمهاجمة وحبس الجيش المتمرد عن طريق جيشه في ألبانيا[٣] . ولكن امكانية تدخل الدول الأجنبية لم تكن بعيدة عن مخيلته ، فاستبعد الفكرة لأنه كان يعلم بأن هذه الدول هي التي ساعدت الثوار الإتحاديين الذين كانوا – كما قالت صحيفة « المباحث » – « يعرفون كيف يستميلون الكثيرين من الأجانب الذين ازدحموا على العاصمـة يريدون أن ينالوا شيئاً من الإمتياز لاستثمار منافعها ، فكانوا يمنونهم بالوعود أنـه إذا انتهت السلطة إليهم أنالوهم ما يرغبون فيه ... »[٤] ويعترف المؤرخ الصهيوني (Kallen) بأن أكثر أعضاء جمعية الإتحاد والترقي كانوا من « الدونمة » ، وممن عاشوا في المنفى ، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوروبية[٥] ، الذين كانت تأتيهم المساعدات المالية

---

(١) روحي بك الخالدي المقدسي ، المقال السابق ، نقلاً عن الهلال ، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ انظر أيضاً : المنار ، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ ، م ١١ ، ج ١١ ، ص ٨٥٦ . وقد أنشد الجمع المحتشد بالفرنسية :

Allons Enfants de la Patrie le Jour de Gloire est Arrivé

وترجمته بالتركية : قالقك اي اهل وطن   شان كونلري كلاي .

ويعني بالعربية : هلموا يا بني الوطن   فيوم المجد قد وافى .

(٢) الأسرار ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٨ ، العدد ١ ، ص ٦ .

(٣) W. Miller; *The Ottoman Empire*, p. 474.

(٤) خليل بك خالد : نشأة الانقلاب العثماني ، نقلاً عـن : المباحث ، ١٥ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ ، العدد ١٣ ص ٥٦١ . انظر : المباحث ، ص ٥٥٨ – ٥٦٤ . وقد نشر هذا المقال ايضاً في مجلة « القرن التاسع عشر» .

(٥) H.M. Kallen; *Zionism and World Politics*, pp. 111, 112.

من الرأسمالية العالمية ، من ڤيينا وبودابست وبرلين وربما من لندن وباريس(١). كما يظهر النفوذ الأوروبي في أوساط الإتحاديين بما له من سيطرة رأسمالية واقتصادية في الإقتصاد العثماني ، فقد كانت المؤسسات الضخمة في الدولة العثمانية تخضع لسيطرة البعثات الأجنبية وأصبحت رؤوس الأموال الأجنبية ومشاريعها بارزة ومؤثرة في الإقتصاد العثماني(٢).

ونظراً لهذه الظروف التي أحاطت بالثورة ، رضخ السلطان لمطالب الجمعية ، والظاهر أنه تأثر تأثراً عميقاً من أحداث ١٩٠٨ بعد ان رأى الملابسات المحيطة بها واشتراك اليهود ويهود الدونمة في التخطيط لها – بالاضافة إلى خوفه على العرش – مما جعله يتنبأ بأن هذه الثورة ليست في مصلحة تركيا ولا العرب فصرخ عالياً : « رباه ! عاقب هؤلاء المسؤولين عن هذه النكبة »(٣).

وفي اليوم التالي من الثورة أي مساء الجمعة ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٠٨ وردت رسالة برقية إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونيا بصدور الارادة السنية باعادة القانون الأساسي . فاجتمع الناس في سراي الحكومة وأعلنت الحرية والقانون الأساسي رسمياً بحضور المفتش العام ، ومشير الفيلق ابراهيم باشا وموظفي الحكومة والبلدية وأعضاء الجمعية وابتـــدأ موسم الأفراح والسرور »(٤).

ويمكن القول أن قادة الحركة طلبوا من بعض قطاعات الجيش في مختلف انحاء الدولة العثمانية المجيء إلى سلانيك – مركز الثورة – حتى يزداد عدد الوحدات المناوئة للسلطان واعداد العدة لخلعه فيما بعد إذا ما سمحت الظروف . وقد أفاد القائم بأعمال مساعد القنصل البريطاني في يافا في تقرير موجه إلى القنصل « بلش » في القدس بأنه في ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٠٨ قـــد أبحر على متن الباخرة الروسية « لاظريف » (La Zareff) بقيادة « بليكوف » (Belicoff) (٤٠٠) جنـــدي من جنود الإمدادات متوجهين إلى سلانيك(٥). وكانت هذه التحركات والظروف الداخلية

(١) W. Seton-Watson; *op. cit.*, p. 135,
(٢) A. Rappoport; *History of Palestine*, p. 322.
(٣) J. Haslip; *The Sultan...*, p. 285.
(٤) روحي الخالدي : المصدران السابقان (الهلال والمنار) ، انظر ايضاً عن ردود فعل ثورة ١٩٠٨ في مصر : المنار ، ٢٨ تموز (يوليه) ١٩٠٨ ، م ١١ ، ج ٦ ، ص ٤٦٤ .
(٥) Blesh to Lowther, 31 August 1908, No. 44, in F.O. 195/2287.

والخارجية قد ازدادت حدة ، ويمكن القول أن الأسباب التي دعت السلطان إلى عدم مواجهة الجيش المتمرد هي ذاتها الأسباب التي دعته إلى إصدار الدستور ، بالإضافة إلى إرضاء الأكثرية العثمانية المطالبة بإصداره ، وكان هناك أسباب أخرى دولية من بينها الظروف السياسية الدولية التي كانت تنذر بالخطر من جراء المؤامرات التي تبنتها الدول الأجنبية ضد السلطنة [١]. وكانت انجلترا في مقدمة هذه الدول وهي أقرب المرشحين المنطقيين لأن تتشرف بخلع السلطان ، لأنها وصلت إلى الدرجة التي لا تخسر معها شيئاً إذا قلب النظام القائم في الأمبراطورية العثمانية . كما أن فرنسا لم تكن لها رغبة أكيدة في إبقاء كيان الدولة العثمانية على هـذا الوضع وإلى الأبد ، بل كانت تميل ميلاً تقليدياً كمعظم الدول الأوروبية إلى التأجيل بـدل مواجهة المشاكل التي لا بد أن تنجم عن أي تبدل في الوضع [٢].

وانطلقت الإشاعات بين شعوب الدولة العثمانية ، بأن ثورة ١٩٠٨ إنما مردها إلى تدخل الدول الأجنبية ، وقد أكدت الأحداث اللاحقة صحة ما شاع بين العثمانيين الذين اقتنعوا « بأن لبعض دول الغرب يداً في الثورة التي حدثت في العاصمـة . وإذا طلبت إليهم التخصيص قالوا : انجلترا وفرنسا لأن لهما في الشرق أغراضاً ومآرب . فالأولى على زعمهم ترغب في مد يدها إلى الحجاز واليمن ، والثانية تطمع باحتلال سوريا ، وقد رسخ هذا الإعتقاد في عقل بعضهم حتى أصبح يعتبر هذا الأمر أكيداً قريب الوقوع » [٣] . وقد بلغ الأمر ببعض الصحف إلى تجاهل ونفي هذه الحقائق ، ووجدنا صحيفة « لسان الاتحاد » في عامهـا الأول ١٩٠٩ — وهي لسان حال الاتحاديين — تنفي هذه الأفكار الرائجة لأنه لا أساس لها من الصحة لا لشيء إلا « لأن الدولتين الانجليزية والفرنساوية مخلصتان للحكومة العثمانية الحرة ... » [٤] . ويؤكد السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته ، الدور الذي لعبته الدول الأوروبية في القضاء على الدولة العثمانية وعلى حكمـه فيقول : « بأن منظمة مناستر كانت تـدار بواسطة الانجليز ، بينما أعضاء تركيا الفتاة في سلانيك كانوا تحت تأثير ماسون ألمانيا وإيطاليا . وقد

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، ص ١٦٨ .
(٢) ارنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥٥ ، ص ١٥٦ .
(٣) لسان الاتحاد ، ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، ص ٢٠٣ .
(٤) لسان الاتحاد ، ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، ص ٢٠٣ .

بدأ أنور ونيازي تحت ضغط الماسون الألمان - مع جماعة سلانيك - بالتحرك ضدي ... وأن الإتحاديين في سلانيك كانوا يرون أن التحالف مع الانجليز ضرورة ملحة لأنها أكبر دولة بحرية ...»[١]. ويرى مصطفى كامل أن دول أوروبا التي كانت تتظاهر بتطبيق المبدأ المقدس، مبدأ حماية استقلال الدولة العثمانية كانت هي نفسها التي تجزيء الدولة العلية بإسم هذا المبدأ المقدس نفسه[٢]. ومما يؤكد تحالف الانجليز مع الإتحاديين ما أبداه السفير البريطاني «لوثر» (Lowther) من العطف الخاص الذي تكنه انجلترا لتركيا الجديدة، وصرح أن من مهام انجلترا وأكبر واجب عليها في الوقت الحاضر أن تساعد بكل قواها رجال الإصلاح في السلطنة العثمانية[٣].

ومهما يكن من أمر، فبعد صدور الارادة السلطانية بإعادة مجلس المبعوثان جرت الإنتخابات في الولايات العثمانية، وأسفرت عن انتخاب ستين عربياً بينهم خمسة فلسطينيين في مقدمتهم روحي بك الخالدي المقدسي[٤] وسعيد بك الحسيني وحافظ بك السعيد عن متصرفية القدس، والشيخ أحمد أفندي الخماش عن لواء نابلس، وأسعد أفندي شقير عن لواء عكا[٥].

---

(١) Sultan Abdül Hamit;in: *Hatira Defteri.*

(٢) مصطفى كامل: المسألة الشرقية، ص ١٢.

(٣) توفيق برو: العرب والترك ١٩٠٨ - ١٩١٤، ص ٣٤٢، وصفحات متفرقة أخرى.

(٤) بعد صدور المشروطية في ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٠٨، كان روحي الخالدي لا يزال قنصلاً للدولة العثمانية في بوردو بفرنسا، فبادر إلى كتابة مقال طويل جعل عنوانه «الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة» وبعث به إلى مجلة «الهلال» بالقاهرة، نشرت المجلة القسم الأول منه في أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ وذكرت انه المقدسي. وكان روحي الخالدي في كتاباته التي نشرها خلال عشر سنوات - وهو قنصل عام في بوردو - يكتفي بهذا اللقب ويتخفى وراءه دون ان يذكر اسمه الصريح مراعاة لمنصبه الرسمي، وحرصاً على عدم اثارة الحكومة العثمانية ضده.

وحين صدر القسم الثاني من المقال في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ في «الهلال» كان الخالدي قد ترك منصبه في بوردو، واختاره أهل القدس نائباً عنهم في مجلس المبعوثان العثماني في الآستانة، وحينئذ صدر المقال باسمه الصريح «لروحي بك الخالدي المقدسي نائب القدس الشريف في مجلس المبعوثان» ثم جمعت المقالتان وصدرتا في كتاب طبع بمطبعة الهلال عام ١٩٠٩ وكانت مجلة «المنار» قد نشرتها في حينه. للمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع انظر: ناصر الدين الأسد: محاضرات عن محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، ص ١٠٨.

(٥) Blesh to Lowther, 26 Nov. 1908, No. 55, in F.O. 195/2287.
انظر ايضاً: الهلال، الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨، ج ٣، ص ١٧٧.

ومجموعة أخرى من بكوات أهل الشام بينهم أعضاء في جمعية الإتحاد والترقي [١]. وقد تمنت عليهم مجلة « الهلال » خدمة الأمة وتدبير شؤونها السياسية والادارية نظراً لما حازوه « من ثقة الأمة في علمهم وصدق عثمانيتهم ، وهم لا ريب من خيرة أبناء الوطن ».

ومن خلال الانتخابات الأخيرة ، حاولت الأوساط الصهيونية في فلسطين تثبيت قدميها من الناحية السياسية والقانونية ، فدعت اليهود إلى الإنتساب إلى فرع جمعية الإتحاد والترقي في القدس ، ورشحت أحد الصهيونيين في الانتخابات هو المسيو ليفي – مدير بنك أنجلو – فلسطين – في القدس ، ولكنه فشل نظراً لمعارضة العرب في فلسطين لهذا الترشيح ، ونظراً لضآلة الناخبين اليهود [٢]. إلا أن النتائج العامة في مختلف المناطق العثمانية أسفرت عن نجاح خمسة ممثلين عن الصهيونية واليهود. وكانت جمعية الإتحاد والترقي قد عملت على عقد اتفاقيات مع المجموعات غير التركية في اختيار مرشحيهم للانتخابات ، وقد نجحت في معظم الأحوال في عقد مثل هذه الاتفاقيات [٣].

وفيما يختص بفلسطين يذكر « بلش » (Blesh) – القنصل البريطاني في القدس – من أن أخبار إعادة صياغة الدستور العثماني لم تستأثر بالإنتباه كثيراً

---

(١) كانت النتائج العامة للانتخابات في بلاد الشام على النحو التالي :

في بلاد الشام

سليمان افندي البستاني ورضا بك الصلح عن بيروت وأقضيتها – فؤاد بك خلوصي من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي عن لواء طرابلس الشام – الشيخ احمد افندي الخماش من علماء نابلس عن لواء نابلس – أسعد أفندي شقير من علماء عكا عن لواء عكا.

الأمير محمد ارسلان من سراة لبنان عن لواء اللاذقية

في ولاية سوريا (دمشق)

عبد الرحمن باشا محافظ موكب الحج ، وشفيق بك المؤيد ، ورشيد بك الشمعة ، ومحمد أفندي العجلاني.

في متصرفية القدس

روحي بك الخالدي المقدسي ، وسعيد بك الحسيني ، وحافظ بك السعيد.

(٢) انظر : Y. Roi; *The Zionist Attitude to the Arabs 1908 - 1914*, p. 207.

كانت القوانين العثمانية تمنع اليهودي الأجنبي من المشاركة في الأعمال الخاصة بالدولة وادارتها ، ومنها منعه من الاشتراك في العمليات الانتخابية. وتذكر «صحيفة العالم الاسلامي» من انه فيما يختص بالانتخابات حدث اتفاق بين الأرمن والاسرائيليين في الدولة العثمانية لتنسيق الجهود فيما بينهم. انظر : *Revue du Monde Musulman*, T. 5, p. 730, (Paris 1908).

(٣) Fitz-Maurice to Lowther, 30 Nov. 1908, No. ?, in F.O. 195/2281.

انظر أيضاً : Lowther to Grey, 1 Sept. 1908, No. 30971, in F.O. 371/546.

في القدس ، وأن الصحيفة الرئيسية في السنجق في عددها الصادر في ٢٨ تموز (يوليه) ، نشرت برقية تشير فيها ان البرلمان قد حل ، وان هذه البرقية قد قدمت رسمياً من قبل المتصرف لعقد اجتماع يضم الرؤساء الروحيين [١]. والظاهر انه بعد ثورة الإتحاديين وإعادة الدستور ١٩٠٨ ، حدث اجتماع بين القنصل البريطاني في القدس وبعض الزعامات الإسلامية والمسيحية لإفهام القنصل أن أهدافهم هي المساواة وعدم التمييز بين مختلف فئات الشعب ، ويؤكد القنصل البريطاني من أنهم « بذلوا قصارى جهدهم للتأكيد لي – وقد صدقوا – بأنهم محررون من أية قيود مذهبية أو نزوات للحصول على امتيازات ، وإنما يسعون للمساواة فحسب مع باقي الرعايا من أي جنس أو دين ، ويمكنني أن أذكر شيئاً واحداً يدعم ما شرحته أعلاه ، وهو أن معظم هؤلاء الذين يتكلمون الإنجليزية بطلاقة يتعاملون مع الانجليز والأمريكيين بحرية ويرسلون أولادهم للمدارس الإنجليزية في القدس حيث يتلقون التعاليم المسيحية » [٢]. وهو بذلك يشير إلى تحرر زعماء فلسطين من التعصب الديني والثقافي . ويؤكد هذا الإجتماع من ناحية أخرى بأن المسلمين والمسيحيين في فلسطين ليسوا متعصبين بالنسبة للطوائف الأخرى ، ويقصدون هنا الطائفة اليهودية التي أخذت بريطانيا على عاتقها حمايتها ، وهذا يدل دلالة واضحة على عدم تميز الفلسطينيين بين مختلف طوائفهم ، أما الحالة فقد كانت عكس ذلك بالنسبة لليهود الأجانب الذي رفض شعب فلسطين هجرتهم . وبالاضافة إلى الاجتماع الذي عقد بين الزعماء المسلمين والمسيحيين من جهة والقنصل البريطاني في القدس من جهة أخرى ، فقد عقد اجتماع آخر بين القنصل وبين نائب القدس روحي بك الخالدي الذي أبلغه « بأنه سيسافر مع رفيقيه إلى القسطنطينية ... وقد أوضح لي بأن رأيه هو أن يبحث البرلمان في أول جلسة يعقدها في مسألة تعديل الدستور » . وأضاف روحي الخالدي للقنصل مؤكداً ما سبق أن أعلنه زعماء المسلمين والمسيحيين من أنه « لا يعترف بالإمتيازات للمسلمين ، وأن مثل هذه التشريعات في حال وجودها فانها تكون نتيجة للجهل » [٣] . ومما لا شك فيه أن عدداً من التساؤلات تثار حول حرص الزعماء الفلسطينيين

(١) Blesh to Lowther, 6 Aug. 1908, No. 39, in F.O. 195/2287.
(٢) Blesh to Lowther, 6 Aug. 1908, No. 39, in F.O. 195/2287.
(٣) Blesh to Lowther, 31 oct. 1908, No. 57, in F.O. 195/2287.

على الإجتماع بالقنصل البريطاني ، وربما يعود ذلك إلى أهميـــة القنصلية البريطانية في مسار السياسة العثمانية ، وإلى تأكيد هؤلاء الزعمـاء بأن الفلسطينيين إنما ينشدون المساواة بين الجميع ويحرصون على الاصلاح وتطبيق العدالة من قبل الحكم التركي الجديد . أما فيما يختص بالهجرة اليهودية إلى فلسطين فليس هناك مجال للشك بأن زعماء فلسطين الجدد وفي مقدمتهم روحي بك الخالدي وسعيد بك الحسيني وحافظ السعيد قد أبدوا معارضتهم الشديدة لها ، وألقوا خطباً عديدة في هذا الشأن في البرلمان الجديد ، وكان لها صدًى واسعٌ وناجحٌ ومؤثرٌ في وقف الهجرة اليهودية ولو إلى حين .

هذا ويمكن القول أنه بعد الانتهاء من الانتخابات في جميع انحاء الدولة العثمانية وإعادة دستور « مدحت باشا » عقد البرلمان الجديد أولى جلساته يوم الخميس في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ بحضور السلطان وبحضور الأمراء العثمانيين ، ولكن منذ اليوم الأول وطد السلطان عزمه على أن يتخلص من الإتحاديين ومن الدستور ومن البرلمان [١] . لأن جمعيـة الإتحاد والترقي عملت منذ البداية على تحطيم جهـــاز القصر [٢] . فاتبع السلطان سياسة خاصة مع مناوئيه حتى أنه في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨ دعا النواب إلى وليمة غداء في القصر ، وطبقاً لحسابه فقد استطاع أن يستميل عدداً كبيراً منهم بما فيهم أكثرهم انتقاداً له أحمد رضا [٣] .

٤ – دور اليهود في ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان في عام ١٩٠٩

تؤكد « الموسوعة اليهودية » بأن السلطان عبدالحميد الثاني عامل يهود الدولة العثمانية معاملة طيبة ، ويشهد بذلك بعض المقربين إليه من اليهود أمثال « أرمينيوس ڤامبري » (A. Vambery) الصديق الشخصي للسلطان الذي صرح « أنه من خلال الصداقة المستمرة التي تربطني بالسلطان منذ سنوات طويلة كان لي الفرصة للتعرف على معاملته الطيبة لليهود . وكان أول حاكم تركي يعطيهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين ، وعندما استلم الحكم أمر بإعطاء رواتب شهرية لحاخام تركيا الأكبر ، وبمعنى آخر عامل الحاخام كما يعامل كبار موظفي الدولة واتخـــذ تقليداً بأن يرسل

(١) زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط ، ص ٥٥ .

(٢) Barclay to Grey, 29 July 1908, No. 26307, in F. O. 371/544.

(٣) Lowther to Grey, 14 Jan. 1909, No. 2283, in F. O. 371/760.

سنوياً في عيد الفصح إلى حاخام القسطنطينية ثمانية آلاف فرنك لتوزع على فقراء اليهود في العاصمة التركية [١] . وعندما منعت حكومة كريت المحلية في عام ١٨٨١ مشاركة اليهود في الانتخابات البلدية ألغى عبد الحميد هذه الانتخابات ووبخ السلطات لتعديها على حقوق اليهود . وفي عام ١٨٨٢ ونتيجة للحريق الذي شب في الحي اليهودي « حسكني » (Haskani) ، تشردت ستة آلاف عائلة يهودية في القسطنطينية ، فبذل السلطان عبد الحميد ما باستطاعته لتخفيف هذه الكارثة عن اليهود [٢] .

ويؤكد « شاهين مكاريوس » – وهو مؤرخ معاد للسلطان عبد الحميد – من أن السلطان العثماني عامل اليهود معاملة طيبة وأنه في عام ١٨٩٦ م (٥٦٥٦ ع) أنعم بالوسام المجيدي على حاخام باشي الطائفة الاسرائيلية بمصر وتوابعها « رابي أهارون بن سيمئون » (Rabbi Aharon Ben Simeon) وفي عام ١٩٠٢ م (٥٦٦٢ ع) منحه الوسام العثماني الثاني [٣] .

وبالرغم من هذه المعاملة الطيبة ، إلا أن السلطان العثماني كان يميز في المعاملة بين اليهودية وبين الصهيونية ، وتؤكد ذلك « الموسوعة اليهودية » بقولها ، انه نظراً لأهداف الحركة الصهيونية المتعاظمة ارتاب السلطان بهذه الحركة وسياستها وبالتالي عمل ضدها ولم يكن متعاطفاً معها أو مساعداً لها ، وقد كانت نظرته إلى اليهود تخالف نظرته إلى الصهيونية [٤] . على أنه مما لا شك فيه أن هؤلاء اليهود الذين عوملوا معاملة حسنة قد تعاونوا مع الصهيونية باعتبارها الحركة المخولة إعادة الأراضي المقدسة إلى الشعب اليهودي ولا يخفى دور اليهود الفعال في ثورة ١٩٠٨ وفي حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ بالاتفاق مع « جمعية الإتحاد والترقي » ، ولا يخفى ما كان للدونمة والماسونيين من نفوذ قوى في أوساط تلك الجمعية [٥] .

---

(١) *The Jewish Encyclopedia*, vol 1, p. 47.
انظر ايضاً : الموسوعة اليهودية بالروسية ، م ١ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

(٢) المصدران نفسيهما بالانجليزية ص ٤٧ ، والروسية ص ٧٤ .

(٣) J. Landau; *Jews in Nineteenth-Century Egypt*, p. 238.
انظر ايضاً النص الاصلي في : شاهين مكاريوس : تاريخ الاسرائيليين ص ٢٠٨ ، ومعاملة السلطان الحسنة لبقية الاحبار اليهود ، ص ٢١٠ – ٢١٢ .

(٤) *The Jewish Encyclopedia*, vol. 1, p. 75. (باللغة الروسية)

(٥) B. Lewis; *The Emergence of Modern Turkey*, p. 208.

ويذكر جواد رفعت أتلخان الارتباط الوثيق بين الصهيونية والماسونية واليهودية والدونمة ، ويؤكد القائد التركي بأن السلطان العثماني حرص على إبقاء الدونمة (المرتدين) في سلانيك وعدم إفساح المجال لجيشهم إلى الآستانة لكي يتجنب تحركاتهم . ونتيجة لتصلبه تجاههم عادوه عـداوة شديدة ، فقاموا بالدعاية ضده لدى الشعب والجيش، كما أن الأدوار التي قام بها الثلاثي المحامي منير سالم وقارصوه وجاويد في حادثـة خلع السلطان عبد الحميد كانت مهمة جداً ، وهؤلاء هم الذين قاموا بدور بارز في تأسيس وتوسيـع جمعية الإتحاد والترقي المرتبطة برابطة متينة إلى التشكيلات الماسونية التي أسست بمال وذكاء اليهود . ويضيف قائلاً : بأن اليهود هم الذين قاموا بحوادث ١٩٠٨ ، إذ ثبت دخول ضباط الدونمـة (المرتدين) في صفوف الجيش بزي الجنود ، وبدأوا بتحريضهم للقيام بالثورة [١] .

وهناك معلومات أخرى تؤكد أن الحقيقة الظاهرة في تكوين جمعية الإتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية ، فمنذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة وقارصوه من اليهود الاسبان القاطنين في سلانيك ، وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً ، أما أحمد رضا ــ أحد زعمائهم في تلك الفترة ــ فقد كان نصفه شركسياً ، والنصف الآخر مجرياً [٢] . كما أن اليهوديين « نسيم روسو » و « نسيم مازلياح » كانا من العناصر المؤسسة والفعـالة في حركة « تركيا الفتاة » . كما أكدت الأحداث المعاصرة عظم نفوذ اليهود وكثرتهم الغالبة في هذه الحركة [٣] . بـل من الأهمية بمكان تسليط الأضواء على فئة قلما أشار إليها مؤرخو أحداث ١٩٠٨ ــ ١٩٠٩ ، وهي جماعة البكتاشية [٤] ، التي لعبت دوراً هاماً في مساعـدة الإتحاديين ضد

---

(١) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ــ الصهيونية وبروتوكولاتها ص ٧٦ .

(٢) W. Seton-Watson; *The Rise of Nationality in the Balkans*, pp. 135-136.

(٣) انظـر : جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٧٦ ، هربرت فيشر : تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

(٤) البكتاشية : وهي امتداد للحركة القرمطية ، تنسب الى الحاج بكتاش أحد الأوليـاء في الأناضول ، وقد انتقلت البكتاشية إلى البلقان بعد انتقال الاسلام اليه ، وانتشرت في ألبانيا انتشاراً ملحوظاً في منتصف القرن السادس عشر الميلادي . وقد شذت عن التعاليم الاسلامية فلم تر مانعاً من ترك الصلاة والصوم، كما أباحت شرب الخمر. وأصبحت البكتاشية فيما بعد =

السلطان العثماني ، لا سيما وان بعض زعماء « تركيا الفتاة » كانوا ممن ينتمون إلى هذه الجماعة [١]. ولعل من الأخطاء التي ارتكبها السلطان عبد الحميد الثاني أن لم يكن أحد من الرجال الأربعة المستشارين الذين وقع اختياره عليهم من أصل تركي فهم امـا يونان أو يهود أو أرمن ، وجميعهم باستثناء قائدهم أسعد كانوا أعضاء بارزين في جمعية الإتحاد والترقي [٢].

وتؤكد مذكرة « لوثر » إلى الخارجية البريطانية ، بأن لجنـة الإتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً ـ تركياً مزدوجاً ، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ، بينما يمدها اليهود بالعقل المدبر ، وبالتنظيم والمال وبالنفوذ الصحفي القوي في أوروبا [٣].

وفي ١١ تموز (يوليه) عام ١٩١١، أوردت صحيفة « التايمز » (Times) معلومات عن جمعية الإتحاد والترقي بقولها : أن لجنة سلانيك قد تكونت تحت رعاية ماسونية بمعاضدة اليهود والدونمة في تركيا وكان مركزهم في سلانيك. وان يهودا مثل قارصوه وسالم وساسون وفارجي ومازلياح ومن الدونمة مثل جاويد وأسرة بالجي قـد لعبوا دوراً بارزاً في تنظيم اللجنة المذكورة وفي مناقشات جهازها المركزي في سلانيك . وقد لعب طلعت باشا دوراً فعالاً في هذه اللجنة منذ ان كان موزعاً للبريد والبرق في أدرنة ، فقد كلف بنقل الرسائل السـرية من وإلى سلانيك ومناستر ، وتكشف « الأسرار » بأنه « بذل مجهوداً عظيماً في نشر نفوذ الإتحاديين واستعان على ذلك بالبنائين الأحرار (الفرمسون) ، يبشر بالعصبة ... فأيدها البناؤون الأحرار ودعموها بنفوذهم [٤]. وقد استطاع فرع جمعية الإتحاد والترقي في سلانيك إخفاء أهدافها وتحركاتها في البدء لأن جمعية الأحرار ـ التي جعلت شعارها الإتحاد والترقي ودبرت أمرها تدبير من طبّ لمن حب ـ تستعين

= حركة سياسيه ـ دينية ، فانتسبت اليها جماعات مسيحية لأنهـا رأت فيها حركة تمكنها من الجمع بين المسيحية والاسلام .

(١) محمد موفاكو : (استاذ في فرع الاستشراق في جامعة برشتنا ـ يوغوسلافيا) مقال : البكتاشية، نقلا عن : العربي ، آذار (مارس) ١٩٧٧ ، العدد ٢٢٠ ، ص ٦٤ ـ ٦٨ .

(٢) J. Haslip; *The Sultan - The Life of Abdul-Hamid II*, p. 283.

(٣) ملف وثائق فلسطين ، جـ ١ ، ص ١٥٥ .

(٤) الأسرار ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٨ ، العدد ١ ، ص ٤ . أنظر أيضاً : محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني، ص ١٦٦ .

على قضاء حاجتها بالكتمان الشديد فتنقل أسرارها شفاهاً[١]. ولكن أمرها كشف بعد ذلك «لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء»، فأحس بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم إلى المابين، فأرسلت الجواسيس من الآستانة، فقررت الجمعية إعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن، وعينت فدائيين من أعضائها بالقرعة أو بالتراضي[٢]. وقد يكون مقتل اسماعيل ماهر باشا بشكل غامض بعد انقلاب تموز (يوليه) عام ١٩٠٨ لأنه علم بعض أسرارهم وكتب بها إلى يلدز[٣].

ومن المؤكد أن قادة هذه المحافل كانوا من اليهود، وهذا وضع يثير كثيراً من الشكوك وخاصة في نفوس من كانوا يرون في الماسونية محاولة تقوم بها اليهودية العالمية للسيطرة على العالم[٤]. ويرى (Garnier) بأن يهود سالانيك المنتمين إلى المحافل الماسونية كان باستطاعتهم أن يحددوا بعزم العناصر الحكومية التي ستتولى الحكم في المستقبل، وأن المبادئ الأساسية الموجهة للاتحاديين إنما ظهرت تحت تأثير الحركة الصهيونية المتخفية[٥]. وبلغ من نفوذ اليهود في أوساط تركيا الفتاة ان جُعل مركز الجمعية الرئيسي في سالانيك إرضاء لرغبات اليهود والماسونية معاً، بالاضافة إلى كثرة أعضائها في مقدونيا حيث يشكلون عناصر فعالة في الجمعية[٦].

والواقع أنه بعد ثورة عام ١٩٠٨ ازداد النفوذ اليهودي في أوساط السلطات العثمانية ليس في تركيا فحسب وإنما في فلسطين أيضاً، وتذكر صحيفة «العالم الإسلامي» انه بعد تدخل الصحافي «بن يهودا» لدى باشا القدس استطاع إلغاء المضايقات التي كانت مفروضة على قبول المهاجرين اليهود من أصل روسي أو روماني. ومن ناحية ثانية فقد كُتب في صحيفة «الأفكار الحديثة» عن تدفق المهاجرين اليهود من أصل يمني إلى فلسطين

---

(١) المقتبس، كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩، م ٣، ج ١٢، ص ٢٧٢.

(٢) روحي بك الخالدي المقدسي، المقال السابق، نقلاً عن: الهلال، ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨، ج ٣، ص ١٦٨، ١٦٩، المنار، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨، م ١١، ج ١١، ص ٨٥٥.

(٣) رسالة «لوثر» إلى «غراي» ٢٩ أيار (مايو) ١٩١٠، نقلاً عن: خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٤) ارنست رامزور: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٥) J. P. Garnier; *La Fin de L'Empire Ottoman*, p. 90.

(٦) W. Miller; *The Ottoman Empire and its Successors*, p. 474.

حيث سكن ألفان منهم في القدس وشغلوا الأحياء المميزة [١]. وقد بلغ من نفوذ اليهود أيضاً بين أوساط الإتحاديين ما جعلهم يؤثرون على اتجاهات الجمعية من الناحية الدولية ، إذ كانت العلاقة جيدة مع كل من انجلترا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا بينما كان موقف أعضاء تركيا الفتاة المعادي لروسيا معناه أن النفوذ الروسي سيتضاءل حتماً إذا تولى أعضاء « تركيا الفتاة » الحكم بصورة عملية ومستمرة [٢] ، وذلك بسبب العداء المستحكم بين روسيا واليهود بسبب ظروف اضطهاد القياصرة الروس للجماعات اليهودية منذ فترة طويلة .

ويذكر أنه بعد اعلان المشروطية (الدستور) في ٢٤ تموز (يوليه) عام ١٩٠٨ دخل كثير من الدونمة إلى الآستانة وبدأوا يمارسون ضغطاً سياسياً واقتصادياً على الأتراك ، حيث حثوا الناس على الإحتجاج والاضراب أثناء التحاق البوسنة والهرسك بالنمسا ، وهم الذين استغلوا الأتراك مالياً مستفيدين من تلك الظروف [٣]. ويؤكد « خالد العظم » – وهو معاصر لهذه الأحداث – أنه جرت أحداث مشابهة قامت بها جمعية « الإتحاد والترقي » أثناء هجوم الجيش البلغاري على الدولة العثمانية وذلك لإثارة الفوضى وتعميق النقمة على السلطان الذي حاول أن يعقد هدنة مع بلغاريا . ويضيف أنه « لما علم الضباط المهووسون من جماعة الإتحاد والترقي وعلى رأسهم أنور بك بطل الانقلاب في عام ١٩٠٨ دفعوا طلاب الجامعة وسائر المدارس للقيام بمظاهرات صاخبة هاجمت الباب العالي – مقر الصدر الأعظم ووزير الخارجية – وهم ينادون « حرب ايسترز » أي نريد الحرب » [٤].

والوثائق المعاصرة لأحداث عام ١٩٠٨ تؤكد بأن اليهود اشتركوا في الثورة وقاموا بالمظاهرات ضد السلطان في العاصمة العثمانية ووصلوا بها حتى قصر يلدز [٥]. وكان هدفهم إيجاد جو ملائم للاطاحة بالسلطان عبد الحميد

---

(١) *Revue du Monde Musulman*, T. 7, p. 149. (1909).

(٢) انظر : ارنست رامزور ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ ، انظر ايضاً :
L. Stein; *Balfour Declaration*, p. 35.

(٣) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، ص ٧٦ .

(٤) خالد العظم : مذكرات خالد العظم ، ج ١ ، ص ٣٨ . شهد خالد العظم هذه الأحداث عندما كان بصحبة والده ووالدته في رحلتها إلى تركيا ، وكان والده آنذاك وزيراً للأوقاف والمساجد .

(٥) انظر الملحق رقم (٦) للمزيد من التفصيلات عن الثورة واحداثها انظر مقال :
La Révolution en Turquie في مجلة :
Revue du Monde Musulman, T. 5, pp. 718 - 744 (1908).

الثاني وسيطرة الإتحاديين على مقاليد الحكم بمساعدة المحافل الماسونية والدونمة التي هيأت الأجواء الملائمة لمثل هذه التحركات. ويقول «لوثر» — السفير البريطاني في الآستانة — بأنه في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٨ مارست الجمعية ضغطاً مكثفاً على السلطان لإجباره على إقصاء الذين اشتهروا من النظام القديم من مجلس المبعوثان [١]. ويضيف قائلاً: أن عمانويل قارصوه المحامي الماسوني اليهودي من سالانيك، كان قد أسس محفلاً فيها، له صلة بالماسونية الايطالية، ويبدو أنه قد أقنع جماعة تركيا الفتاة من الضباط والمدنيين بتبني الماسونية على أمل ممارسة نفوذ يهودي غير محسوس على الحكم الجديد في تركيا، رغم أنه ادعى ظاهرياً أنه يهدف إلى خديعة جواسيس عبد الحميد فقط، فقدم لهم محفله ملجأ، وبالتقائهم في بيت أجنبي تمتعوا بالحصانة الفائقة ضد أساليب التحقيق، وهكذا أتاحت سرية المحافل لجماعة تركيا الفتاة إمكانية تشكيل تنظيمهم للقضاء على نظام حكم السلطان عبد الحميد [٢].

ويؤكد «مارلنغ» و«لوثر» في رسائلهما إلى «غراي» بتاريخ ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٩ «أن وحي الحركة في سالانيك يبدو يهودياً بصفة رئيسية، فكلمات حرية — عدالة — مساواة — شعار الأتراك الإتحاديين — هي ابتكار الماسون الطليان، واللونان الأحمر والأبيض متماثلان. وهذه الشعارات هي ذاتها شعارات محفل (Macedonia Ristora) وشعارات الجمعية اليهودية «بني برث» (Beni Brith) وهي إحدى فروع الماسونية المتعاونة مع الاليانس الاسرائيلي العالمي [٣]. وقد عثرت على مجموعة من شهادات الماسونية وشعارات جمعية الإتحاد والترقي تثبت أن شعاراتها وتعاليمها هي واحدة كما عثرت على مجموعة من النقود التركية الإتحادية تثبت هذه الحقيقة [٤].

---

(١) Lowther to Grey, 19 Dec. 1908, No. 45087, in F.O. 371/546.

(٢) Lowther to Grey, 29 May 1910, No. 20761, in F.O. 371/1010.

(٣) انظر: محمد علي الزعبي: الماسونية في العراء، ص ٨٧، ويذكر المؤلف من أن منظمة (Beni Brith) هددت القائد التركي جواد رفعت اتلخان بعد ان كشف بمؤلفاته اخطار الصهيونية ولا سيما كتابه «اسلامي صاران» أي «الخطر المحيط بالاسلام» الذي كشف فيه جهود تلك المنظمة بتأسيس مدارس الأليانس والقضاء على أعداء صهيون ...، حول جهود الأليانس مع الاتحاديين في سالانيك أنظر:
A. Chouraqui; *L'Alliance Israélite Universelle*, p. 105.

(٤) أنظر الملحق رقم (١١)، والملحق رقم (١٢).

ويؤكد « لوثر » — ما ذكره « مارلنغ » — في رسالة إلى « غراي » بتاريخ ٢٩ أيار (مايو) ١٩١٠ من أن انضمام الكثير من ضباط الجيش وكبار الموظفين إلى المحافل الماسونية يبدو أنها موجهة وموحى بها من قبل اليهود . وبلغ من خطورة الماسونية المنتشرة في الأوساط التركية ان جعلت مسؤولاً بريطانياً يتخوف من الأفكار الماسونية ذات الصفة الثورية الغامضة والمضطربة [١] . ويضيف « لوثر » مؤكداً بأن ثورة الإتحاديين ثورة يهودية أكثر منها تركية بقوله : « ان النائب اليهودي الماسوني قارصوه قد أظهر حماساً بالغاً في تأييد التقدم نحو العاصمة لخلع السلطان ، وأن الفرق الأربع المتجهة إلى العاصمة من سالانيك كان يقودها أحد الدونمة الماسونيين من سالانيك هو الكولونيل رمزي بيه الذي عين رئيساً لمعاوني السلطان محمد الخامس » . وقد شعر الأتراك بدور اليهود الفعال في هذه الثورة ويقول « لوثر » حول هذا الموضوع « أنه أصبح ملاحظاً أن اليهود من كل الألوان مواطنين وأجانب كانوا مؤيدين ومتحمسين للحكم الجديد ، وقد عبر عن ذلك أحد الأتراك بقوله : ان كل يهودي يبدو جاسوساً ممكناً للجمعية السرية ، وبدأ الناس يعلقون بقولهم ان الحركة كانت ثورة يهودية أكثر منها ثورة تركية . »

ويذكر « أرنست رامزور » عن العلاقة اليهودية الإتحادية ، بأنه يمكن القول بكل تأكيد ان الثورة التركية تقريباً من عمل مؤامرة يهودية ماسونية [٢] . ويعترف « رفيق بك » — أحد الشخصيات البارزة لجمعية الإتحاد والترقي — لمحرر جريدة « تايمز » الباريسية في ٢٠ آب (أغسطس) ١٩٠٨ من أنه كان للمحافل الماسونية إصبعٌ في ثورة ١٩٠٨ التركية [٣] وقال : حقاً اننا وجدنا سنداً معنوياً من الماسونية وخاصة الماسونية الايطالية فالمحفلان الايطاليان (Macedonia Ristora) و (Laboret Lux) قدما لنا خدمة

---

(١) رسالة مارلنغ إلى غراي ، ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠ ، نقلاً عن : خيرية قاسمية ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) ارنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٢٦ . ورامزور من مواليد كاليفورنيا ١٩١٥ ، وحتى عام ١٩٦٠ كان لا يزال من كبار موظفي الخارجية الأميركية ، وقد شغل مناصب هامة في استانبول وبرمن وتورنتو وواشنطن وبيروت . وكان نائباً للقنصل الاميركي في استانبول ١٩٤٨ — ١٩٥٠ ، وقد اتيحت له الفرصة في تركيا للاجتماع مع عدد من الاشخاص الذين اشتركوا في ثورة ١٩٠٨ .

(٣) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

حقيقية ووفروا لنا الملاجئ فكنا نجتمع لننظم أنفسنا ، كما اننا اخترنا معظم رفقائنا من هذين المحفلين اللذين ساعدا لجنتنا كغربال نظراً لما كانا يبديانه من دقة في الاستفسار عن الأفراد [١]. وقد تبين عملياً من أن تنظيم جمعية الإتحاد والترقي كان على غرار تنظيم « الكاربوناري » (Carbonari) الايطالية ، وتبين أيضاً ان الحكومة الايطالية والمحافل الماسونية فيها ساعدا الشبان الأتراك ، لأن ايطاليا كانت تنتظر الفرصة المناسبة للسيطرة على طرابلس الغرب ، خاصة وأنه لم يكن مؤكداً بعد إلى أي مدى تعتمد الحركة الثورية التركية على ما يسمى « الشرق الكبير » (Grand Orient) المليء بالحركات السرية والتنظيمات السياسية التي انتشرت في أوروبا [٢].

وتؤكد الصحف العربية المعاصرة لأحداث الثورة حقيقة العلاقة بين الماسونية والانقلابيين بالقول « قد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة فأسسوا شرقاً عثمانياً استاذه الأعظم طلعت بك ناظر الخارجية وأركانه من زعماء جمعية الإتحاد والترقي وأنصارها من اليهود ... » [٣]. وانتخبوا في هيئة الادارة العليا داويد كوهين ، روفائيل ريجي ، نيقولا فورته ، ماركس أونا ، جاكوب سهامي ، جورج سبرساك ، الذين استغلوا شعارات الجمعية لتحقيق مراميهم الخاصة [٤].

وكانت الصحافة الصهيونية في أوروبا قد أولت أخبار الثورة الإتحادية عام ١٩٠٨ اهتماماً بالغاً ومنها الصحيفة الصهيونية (Neue Freie Presse) التي قامت بنشر أخبار الثورة وتأييدها ، ونشرت تصريحات قادة الإتحاديين أمثال فهمي باشا — سكرتير المفوض الممتاز — الذي ذكر مساوئ حكم السلطان عبد الحميد وتحدث عن مساوئ الرقابة الشديدة على التقارير المختلفة ، وكانت صحيفة « إقدام » قد ترجمت هذا الموضوع في حينه [٥].

---

(١) ارنست رامزور ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) J. Haslip; *op. cit.*, p. 256.

(٣) المشرق ، ايار (مايو) ١٩١١ ، العدد ٥ ، ص ٣٨٣ .

(٤) إذا ما رجعنا إلى البروتوكولات الصهيونية — التي يشكك البعض في صحتها — فانها تؤكد حقيقة الأهداف الصهيونية إذ يقول البروتوكول التاسع : من شعاراتنا الماسونية الحرية والعدالة والمساواة ، سنبدلها عندما نقيم مملكتنا إلى كلمات لا تحمل هذا المعنى الشعاري ... وانما يغدو معناها الوحيد مجرد الدلالة على صور مثالية . حول هذا الموضوع أنظر :
عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٥) *Revue du Monde Musulman*, T. 5, p. 730.

وتعتبر هذه الصحيفة التركية من الصحف المؤيدة للسلطان « وقد كان إقدام السبق في المطاعن وتشديد النكير لأنها صحيفة لسان حال المابين في الدور الماضي[1] ولكنها غيرت سياستها بعد الثورة وبعد إعادة الدستور واشتداد المعارضة ، مما حدا بالمتظاهرين الأتراك واليهود التوجه إلى مركز هذه الصحيفة في ٢٥ تموز (يوليه) عام ١٩٠٨ وهتفوا أمامها : « تحيا الحرية ، تحيا الصحافة »[2] .

ويذكر السير وليم رمزي (W. Ramsey) – سياسي بريطاني ورحالة – في مذكراته أثناء الإنقلاب العثماني ١٩٠٨ ان مقالة صدرت في صحيفة (Neue Freie Presse) الألمانية الصهيونية لفتت نظره ، لأن كاتب المقال أصر على أن « أهم ما يجب على الإتحاديين القيام به هو الهجوم حالاً بدون أدنى تأخير على الآستانة ، وأن الحملة السريعة ولو كانت بجيش صغير هي خير من مهاجمة المدينة بجيش جرار بعد حين ، فيكفي أن يكون هذا العدد وإحضاره أمام الاستانة فلا يقل عن الخمسة أيام ... »[3] وهذا مما يدل على حماس الصحيفة الصهيونية بالاسراع في الهجوم على العاصمة وخلع السلطان ، ويدل على تأييدها خطوات جمعية الاتحاد والترقي ، ونظراً للتأييد الذي لمسه الإتحاديون من هذه الصحيفة فقد أرسلوا رسالة إليها باسم « أنقر » عضو الجمعية يخبرها بتبني اقتراحها الزحف إلى القسطنطينية لأن « هذا اليوم هو اليوم الأول للحرية . الشعب بأكمله ... احتفل بهذا العيد، إذا كان السلطان لا يأبه لمطالبنا سنزحف إلى القسطنطينية »[4].

وكانت الأوساط الصهيونية قد استمالت بعض الصحف التركية وفي مقدمتها صحيفة الإتحاديين « تركيا الفتاة » . ويؤكد « لوثر » هذه الحقيقة في تقريره المرسل من الآستانة إلى وزارة الخارجية البريطانية عام ١٩١٠ بقوله : « ... اني أرفق نسخة من ثلاث مقالات ظهرت مؤخراً في « تركيا الفتاة » وهي صحيفة تنطق بلسان اللجنة وهي مثل صحيفة « فراي برس » .

---

(١) المباحث ، ١٥ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ ، السنة الأولى ، العدد ١٣ ، ص ٥٦٣ .

(٢) *Revue du Monde Musulman*, T. 5, pp. 722-723.

(٣) مذكرات السير وليم رمزي في أثناء الانقلاب العثماني ، نقلاً عن : النفائس ، ١٥ نيسان (ابريل) ١٩١٠ ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ .

(٤) انظر نص الرسالة كاملاً في الملحق رقم (٧) نقلاً عن :
Revue du Monde Musulman, op. cit., p. 718.

(Neue Freie Presse) التي تصدر في ڤيينا ويموِّلها ويشرف عليها اليهود[١]، ويضيف «لوثر» في رسالتين بتاريخ ٢٩ أيار (مايو) و٢٢ آب (أغسطس) ١٩١٠، إلى أن صحيفة «تركيا الفتاة» كانت تموِّلها مؤسسة صهيونية تسمى (Anglo-Palestine Trading Corp.)[٢]، وتضم في هيئة تحريرها يهوداً وأتراكاً وأرمن وكريتيين وقفقازاً، وعرباً[٣]. وكانت هناك صحف أخرى خاضعة للنفوذ الصهيوني مثل صحيفة «عثمانيتشرلويد» التي وقفت مع الثورة وأيدت خلع السلطان، وكان صاحبها ومحرر الأخبار فيها سامو هبشورغ وهو يهودي اشكنازي ماسوني[٤].

هذا ويؤكد «بلش» — القنصل البريطاني في القدس — أن الصهيونيين أبدوا آراءهم على أمل تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في العهد السابق، وأوله إلغاء القوانين السابقة المقيدة للهجرة والتملك[٥]. ومن أجل ذلك لم تكتف جمعية الإتحاد والترقي بإعلان المشروطية (الدستور)، بل قررت خلع السلطان عبد الحميد الثاني ومهدت لذلك بنشر عدد من البيانات خلال

---

(١) ملف وثائق فلسطين، ص ١٥٥، ج ١. وكانت صحيفة «تركيا الفتاة» تصدر بالعربية أولاً في أواخر القرن التاسع عشر، ثم صدرت أيضاً بالفرنسية بعد ان تغير اسمها من (Courrier d'Orient) إلى (Le Jeune Turc)، وعمد الصهيونيون إلى وضع رئاسة تحريرها بيد جلال نوري بك ابن وزير وأحد النافذين الاتراك. وفي منتصف عام ١٩٠٩ تكاثرت الصحف التي تسيطر عليها الصهيونية بعد ان كانت في الأساس اما مؤيدة للصهيونية واما هي يهودية وتأتي في مقدمتها مجلة فرنسية اسبوعية اسمها «الفجر» (L'Aurore) سبق ودافعت عن اليهود بشدة في قضية دريفوس وغيرها من قضايا اليهود، ومجلة اسبوعية اخرى تصدر باليهودية اليديشية (El Judes-Ha Hehudi.) (Ladino)، ومجلة اسبوعية تصدر بالعبرية وهي (Ha-Mevasser) وغيرها من الصحف المنتشرة في أوروبا.

(٢) وهي مؤسسة صهيونية مركزها انجلترا وفتحت فروعاً لهـا في فلسطين، وعملت على تمويل المستوطنين اليهود والمشاريع الصهيونية.

(٣) رسالة «لوثر» إلى «غراي» في ٢٩ ايار (مايو) و ٢٢ آب (اغسطس) ١٩١٠، نقلاً عن: خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٤) المشرق، ١٩١١ العدد ٨، ص ٦١٨. أنظر أيضاً عن عدد الصحف اليهودية اليديشية في تركيا: *Revue du Monde Musulman*, T. 3, p. 520, (1907) وأما بالنسبة لصحيفة «تركيا الفتاة» فان صمويل هشبورغ (Samuel Hochberg) اليهودي الألماني كان مديرها الفعلي بينما كان جلال نوري محررها الاسمي، وصمويل هذا كان استاذاً في مدارس الأليانس الاسرائيلية في الشرق، وعرف عن كثب الأوضاع فيه بعد ان قضى مدة عشرين عاماً، وكعادة اليهود فقد غيّر اسمه إلى إسم اسلامي، ودعا نفسه «سامي».

(٥) Blesh to Lowther, 29 Oct. 1908, No. 55, in F.O. 195/2287.

عام ١٩٠٨ تحرض الجنود العثمانيين على الثورة وخلع السلطان ، وتذكر مجلة « سركيس » ١٩٠٨ بأن البوليس التركي نزع هذه البيانات في الحال وأحكم المراقبة على البلاد ، وتضيف قائلة ، بأنه جاء في البيانات المنشورة : « أيها الجيش العثماني ان حكومة في عاصمة المملكة قــد خرقت حرمة القانون وخانت اليمين التي أقسمتها للشعب ، فقتلت الشريعة وخنقت الحق ، وللآن أسواق المدينة [مليئة] بالدماء ، ثم قيدت البلاد بقيود من حديد وخانت الخلافة ... انتبهوا إلى واجباتكم ، واجبات الجيش العثماني ، إحموا بلادكم ، ليندفع لسان الثورة ، حرروا الشعب ، أنقذوا البـلاد ... »[١] واستمرت مثل هذه البيانات تسود العاصمة تندد بحـكم السلطان العثماني يدعمها النفوذ العسكري الإتحادي الذي أصبح مسيطراً على جهاز الحكومة إلى أن ساد التوتر في الآستانة في نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ لا سيما بعد حركة المعارضة لجمعية الإتحاد والترقي . وقد ذكرت صحيفة مؤيدة للاتحاديين بأن المعارضين ومؤيدي السلطان « كان عملهم في العاصمة متجهاً صوب مجلس المبعوثان إذ دسوا للجند أن يحصروا أعضاء فيه وأوغروا صدورهم عليهم ، فجاؤوا ألوفاً وفتكوا ببعض كبار الدستوريين فأدمت فعالهم قلوب الناس ووقعت على السوريين خصوصاً موقعاً أبكى العيون وشق القلوب لأنهم خسروا رجلاً يجمع إلى حماسة الشباب حكمة الشيوخ أريد به المأسوف عليه كثيراً المرحوم الأمير محمد أرسلان . قتلوه في أبان عمله الدستوري نائباً عن لواء اللاذقية »[٢] .

ويذكر « يوسف الحكيم » ــ وهو معاصر لهذه الأحداث ــ بأنه قد قيل آنئذ أن قاتليه ظنوه حسين جاهد بك الركن الإتحادي المعروف ورئيس تحرير جريدة « طنين » لسان حال الإتحاديين نظراً لقوة الشبه بينهما[٣] . ومن ناحية أخرى فقد ازداد توتر الحالة بعد اغتيال الصحفي « حسن فهمي »

(١) مجلة سركيس ، أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) المباحث ، ١٥ ايار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ١١ ، ص ٥١٦ . انظر ايضاً : النفائس ، ١٥ نيسان (ابريل) ١٩١٠ ، ج ٤ ، ص ٩٩ من مقال : فتنة ١٣ نيسان .

(٣) يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني ، ص ١٦٧ . ويمكن القول بأن حسين جاهد بك كان من أصل يهودي – دونمة – ومن العناصر الفعالة في المحفل الماسوني المؤيد للاتحاديين ، وكان ذلك من الأسباب المباشرة لمحاولة اغتياله . إلا أن جواد رفعت اتلخان في كتابه « الخطر المحيط بالاسـلام » ص ١٣٧ ، يتهم اليهود بأنهم هم الذين أوجدوا هذه الاضطرابات تمهيداً لخلع السلطان .

صاحب جريدة « سربستي » على يد الإتحاديين وهذا ما أكدته « المجلة المصرية » بقولها : « تمادت لجنة الإتحاد والترقي في تداخلها في شؤون الحكومة حتى استأثرت بالسلطة في كل فروعها . ولما استأثرت بها لم تكتف بالنضال عنهـا بل لجأت إلى وسائل الأرهاب حتى أفضت تلك الوسائل إلى ما عزي إليهـا من مقتل المرحوم فقيد الحرية والصحافة حسن فهمي »[(١)]. فتجمهر جمع غفير من فئات الشعب والجنود الألبانيين مع بعض الطلاب في الشوارع الرئيسية للعاصمة وبدأوا يرددون « الشريعة في خطر » و « نريد حكم الشريعة » . وهؤلاء من الذين امتعضوا من حدوث الثورة على السلطان ، فلم يشترك واحد منهم في هتاف للاتحاديين أو امتداح العهد الجديد ، بل أنهم ألفوا جمعيات مناهضة لجمعيـة الإتحاد والترقي لا لشيء إلا لأنها تضم بينها خليطاً لادينياً من أتراك ويهود دونمة وروم[(٢)]. ومن هذه الجمعيات « جمعية الأحرار » وبرنامجها الاحتفاظ بالدستور وترك السلطة الفعلية للحكومة والنواب وطالما تصدت لجمعية الإتحاد والترقي لإجبارها أن تقف عند حد من توسع نفوذها ، وكانت هناك أيضاً « الجمعية المحمدية » برئاسة مراد بك الداغستاني وقوامها العلماء والعامة[(٣)].

والواقع أن أسباب نشأة مثل هـــذه الجمعيات لا تعود إلى الأسباب المذكورة سابقاً فحسب ، وإنما بسبب إقدام الإتحاديين على زعزعة كيان الدين الذي كان لا يزال كثيراً من الناس يرون فيه سبب عزتهم وكرامتهم ، كما أن الاتحاديين بطشوا برجال الدين وأدخلوهم إلى السجون ، وكان ذلك بداية لإشعال نار الفتنة الداخلية ، بينما لم يتلق هؤلاء العلمـــاء مطلقاً أية ضربة أثناء تعاملهم مع « المدافع عن العقيدة » السلطان الخليفة[(٤)]. وربما كانت هذه المظاهر من الأسباب التي دعت بعض العرب إلى تأييد السلطان لا سيما بعد أن تأكد لهم أن الثورة انطلقت من بلاد مقدونيا وبوحي من

---

(١) المجلة المصرية ، ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، العـــدد ١٦ ، ص ٥٦ . والمعروف عن « حسن فهمي » انه كان ضد سياسة الاتحاديين يؤيده في ذلك عدد كبير من الشعب . وللدلالة على ذلك انه عندما شيعت جنازته – قبـل الثورة المضادة – بلغ عدد المشتركين فيها أكثر من ثلاثين ألفاً ، وقيل يومذاك بأن الاستانة بأجمعها قامت بتشييع الجثمان واظهرت سخطها على الجناة .

(٢) يوسف الحكيم ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(٣) المجلة المصرية ، المصدر السابق .

(٤) S. Mardin; *The Genesis of Young Ottoman Thought*, p. 408.

اليهود . ويؤكد « لوثر » أن العرب وفرق الألبان الموالية للسلطان قاومت المقدونيين آنذاك [1] . ولكن مثل هذه المقاومة لم تؤثر كثيراً في مجريات الأمور العسكرية والسياسية ، فقد عقد الإتحاديون جلسة سرية قرروا فيها خلع السلطان عبدالحميد الثاني ، وطلب من قادة الجمعية ضرورة الاتصال بالعناصر اليهودية لحضور هذه الجلسات والاتفاق على الخطوات اللازمة ، فأرسلت برقية في ٥ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ م — ١٣٢٧ هـ إلى المركز العام لجمعية الإتحاد والترقي تطلب من الأعضاء اليهود الحضور إلى « خادم كوي » لعقد جلساتهم [2] . وبالفعل فقد اتجه الأعضاء اليهود إلى « خادم كوي » واجتمعوا هناك ، وبعد التخوف من إمكانية اكتشاف اجتماعاتهم انتقلوا إلى ضاحية من ضواحي استانبول هي « أيا ستفانوس » وعقدوا فيها مؤتمرهم الذي قرروا فيه خلع السلطان عبدالحميد .

ويذكر أنه في ١٣ نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ وقعت ثورة مضادة في استانبول للقضاء على الثورة الأولى وقامت حامية الآستانة وأركان السراي وفئات شعبية تطالب بمطالب عديدة منها عزل القوى الماسونية والدونمة ، وقد لخصوا مطالبهم بما يلي :

١ — إحياء الشريعة .

٢ — عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية .

٣ — طرد أحمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت بك واسماعيل حقي بك ... من المجلس [3] .

ولكن الجيش في مقدونيا كان على استعداد للعمل فزحف إلى العاصمة وضرب الحصار على قصر السلطان ، ودخل الجيش وانقض على حصون

---

(١) Lowther to Grey, 12 April 1909, No. 13671, in F.O. 371/769.
من مقال نشر في « التايمز » بتاريخ ٧ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، مرفقة برسالة « لوثر » إلى « غراي » .

(٢) انظر : النص الأصلي للبرقية بالتركية مع صورة لها في الملحق رقم (٨) ، أما ترجمتها العربية فهي :
« الرجاء ابلاغ البكوات حسين جاهد وجاويد ورحمي وقرصوه افندي الذي علمنا وجودهم لديكم والنواب الآخرين بضرورة القدوم إلى خادم كوي في أول قطار » .

القائمقام	القائمقام	اميرالاي اركان حرب
جمال	صلاح الدين	حسن عزت

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

الآستانة حصناً بعد آخر فامتلكها عنوة أو تسليماً حتى انتهى إلى « يلديز » بقيادة « محمود شوكت باشا » الذي قال فيه رجال السياسة الأوروبية أنه قادر على تمثيل دور نابوليون في البلقان (١).

ويبدو أن الحالة كانت سيئة في الدولة العثمانية عامة والآستانة خاصة خلال هذه الأحداث ، واعترف بعض الدبلوماسيين الأجانب بأن الفوضى التي سادت أحداث ١٣ نيسان (ابريل) أظهرت عجز الجمعية في السيطرة على الموقف وحفظ القانون والنظام (٢). ويذكر « لوثر » أسباب هذه الثورة المضادة فيقول : ان أحداث الثورة المضادة التي قامت في الاستانة ضد جمعية الإتحاد والترقي في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، لم تتضح بعد إلى حد كاف ، إلا أنها لم تغب عن الإشارة بأنها موجهة جزئياً ضد الأعضاء اليهود والماسون في الجمعية . بينما يذكر القائد التركي جواد رفعت أتلخان معلومات خطيرة عن ملابسات الثورة المضادة تناقض ما ورد في تقرير « لوثر » والتقارير الأخرى ، فيؤكد بأن اليهود هم الذين خلقوا حادث التمرد هذا حتى يصلوا إلى خلع السلطان . ويضيف بأن معظم وثائق الحادث ومضابط المحاكم العسكرية الخاصة بذلك الحادث محفوظة لدى « مدحت شكري » أحد رؤساء الإتحاد والترقي (٣). ويضيف أيضاً ، بأن اليهود ودهماء الإتحاد والترقي قاموا بقتل المواطنين في الشوارع وبالاستهزاء برجال الدين وبنهب القصور وسلبها . كما أن ستين ألفاً من أتراك أناضوليا كانوا هدفاً لأشقياء مقدونيا في أحداث الثورة (٤).

ويؤكد « زاهد باشا الهبل » — أحد باشوات الدولة العثمانية في دمشق — أن السلطان عبدالحميد عندما علم بعصيان جيش سالانيك وتقدمه نحو العاصمة ، لم يأمر جنده بالمقاومة ، ولكن آمر القوى في القصر استأذن السلطان لضرب العصاة والمقاومة فمنعه ، ثم عاوده القول يريد إذنه بالدفاع

---

(١) المباحث ، ١٥ أيار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ١١ ، ص ٥١٦ ، ٥١٧ . انظر ايضاً : النفائس ، ١٥ نيسان (ابريل) ١٩١٠ ، ج ٤ ، ص ١٠٢ ، المجلة المصرية ، ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ، العدد ١٦ ، ص ٥٧ .

(٢) Lamb to Lowther, 12 May 1909, in F.O. 195/2323.
انظر ايضاً : Lamb to Lowther, 21 April 1909, in F.O. 195/2328.

(٣) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، ص ١٣٧ .

(٤) جواد رفعت اتلخان : الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٧٢ .

فقال له ولقوى القدر : أعرف جيداً أن كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد ، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط القتلى منكم ومنهم ، وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة ، والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد [١] .

ويبرز دور اليهود مرة ثانية في حادثة خلع السلطان عبدالحميد الثاني عندما مارس الاتحاديون الضغوط على مفتي الإسلام محمد ضياءالدين بإصدار فتوى الخلع ، ثم أوفدوا يوم الثلاثاء ٢٤ نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ – ٧ ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ – هيئة مكونة من عارف حكمت باشا رئيس الوفد ، وعضوية كل من أسعد طوتباني باشا وغالب باشا وآرام أفندي الأرمني ومن زعماء اليهود الماسونيين قارصوه ، ووصلوا إلى يلدز لإبلاغ السلطان نبأ الخلع . وكانت مشاعر التأثر والأسى بادية عليه فقال بغضب : طيب ... فأشار إلى قارصوه وقال : ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة . وحدق بغضب إلى قارصوه وتابع كلامه : بأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي ... وبدلاً عن الجواب ساد الارتباك الجماعة وبالأخص اليهودي ، وعلاوة على ذلك استولى عليه الخوف ... فلم يجد في نفسه قدرة للجواب [٢] . ومما زاد في حسرة السلطان أنه سبق ان طرده من مجلسه في قصر يلدز حينما حاول التأثير عليه لإسكان اليهود بفلسطين [٣] . وخاصة أن قارصوه هذا اعتقل بتهمة التجسس في قصر يلدز على أبواب ثورة ١٩٠٨ وسيق إلى السجن إلى ان عفا عنه السلطان .

ويذكر الأميرالاي « حسام الدين أرتورك » – رئيس شعبة م. م. في حرب الاستقلال ورئيس قلم المخابرات في الأمبراطورية العثمانية – أن زميله النقيب « ديبريلي » أوضح له بأنه كان مكلفاً بحراسة السلطان عبدالحميد المخلوع عن العرش ، فذكر له السلطان – وقد عصره الألم – أن الشيء الذي آلمه

---

(١) سعيد الأفغاني : كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضة المملكة العثمانية ، نقلاً عن : مجلة العربي ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، العدد ١٦٩ ، ص ١٥٤ .

(٢) جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالاسلام ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ . وتذكر « المشرق » ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العدد ٨ ، ص ٦١٨ ، حول دور اليهود في حادثة الخلع انه كان من جملة الساعين بالأمر رئيس محفل الماسونيين في سلانيك وهو يهودي ، ومعه أحد المسلمين اليهود أيضاً .

(٣) صالح بويصير : جهاد شعب فلسطين ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أكثر من غيره هو أن يبلّغ إليه اليهودي قارصوه خادم الماسونيين قرار الخلع . وأن السلطان لا ينسى مطلقاً « عمانوئيل قارصوه » وهو في سراي يلدز ، إذ وجد في حضوره إهانة لمقام الخلافة [١] . ويضيف النقيب « ديبريلي » بأن السلطان عبدالحميد الثاني حدثه عن آخر اجتماع له مع الزعيم الصهيوني هرتزل ورئيس الحاخامين في تركيا حيث طلبا إنشاء وطن قومي لليهود وأشارا إلى القدس وقال هرتزل له : « أعرض على مقام سلطاننا اننا رهن الإشارة لتقديم ما تقدرونه من أي مبلغ من الذهب لأجل القدس . » فقال السلطان للنقيب « ديبريلي » : أنه عندما سمع هذا العرض غضب « وغلى الدم في عروقي» إذ تصور يا سيادة النقيب أن هذين اليهوديين مثلا أمامي ليقدما إلى سلطنتنا رشوة . صرخت في وجهيهما قائلاً : أن أخرجا من هنا ، ان الوطن لا يباع بالنقود . طلبت إلى رجال القصر - الذين اندفعوا حيث كنا - أن يقودوهما حالاً إلى خارج القصر . وبعد ذلك أصبح اليهود أعدائي ، فما ألاقيه الآن هنا في سلانيك من عذاب الاعتقال ليس سوى جزائي منهم حيث لم أرض أن أقتطع لهم أرضاً لدولتهم المزعومة » [٢] .

ومن الأهمية بمكان القول ، أن الاتحاديين حرصوا على سجن السلطان في سلانيك لأنها المركز اليهودي - الدونمي الماسوني - الإتحادي - الدولي- حيث نقل إلى هناك وكان يرافقه بعض حريمه وحاشية صغيرة فى ٢٧ نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ [٣] ، وسجن في ڤيلا «ألاتيني» (Alatini) وهي تخص أحد أصحاب البنوك اليهود الأغنياء في جمعية الإتحاد والترقي . ووضع شقيق « رمزي بيه » [٤] ، الماسوني حارساً عليه ، وأنه بعد الخلع هللت الصحف اليهودية في سلانيك للتخلص من « مضطهد اسرائيل » على حد قول لوثر في رسالته إلى غراي بتاريخ ٢٩ أيار (مايو) ١٩١٠ .

هذا ، وقد تولى جاويد بك في ڤيلا « ألاتيني » - باسم الحكومة التركية -

---

(١) جواد رفعت اتلخان : الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥٤ .

(٢) جواد رفعت اتلخان : الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) نقل السلطان الى سلانيك مع ثلاثة من نسائه وأولاده عبد الرحيم ومحمد سليم وعابد وبناته شادية وعائشة ورافعة.

(٤) رمزي بيه : كولونيل من الدونمة الماسونيين في سلانيك ، وهو الذي عين رئيساً لمعاوني السلطان محمد رشاد - الخامس - وكان له دور بارز في ثورة ١٩٠٨ وقرار الخلع في ١٩٠٩ .

كل الأمور المتعلقة بالسلطان الذي وقف يتذكر الأيام الماضية ، والذي سمع من جاويد بعض الكلمات وتهانيه لحراسه الذين رقوا خلال مهلة قصيرة إلى مراكز أكثر أهمية . واكتشف السلطان أنه خدع من قبل تركيا الفتاة التي لم تفكر باعطائه حريته ، بل خططت لوضع حراسة مشددة أكثر مما كانت عليه في السابق (١) . والمعلوم أن السلطان لم يعامل معاملة حسنة كما سبق ان وعد عند إصدار فتوى الخلع ، بل مورست بحقه بعض الأمور التي اعتبرها السلطان مجحفة ، بينما اعتبر الاتحاديون بأن هذه المعاملة السيئة يجب أن تطبق بحق عدو الإتحاد والترقي . وبلغ التضييق بحق السلطان — بعد أن نقل إلى قصر بكلربكي — أن منع عنه الزوار ، كما عمد الاتحاديون في كل مساء إلى تغيير كلمة السر التي لا يجوز لسوى عارفيها دخول القصر والخروج منه (٢) .

والوقع أنه كما حدثت حركة معارضة ضد الاتحاديين بعد ثورتهم في عام ١٩٠٨ ، فانه جرت معارضة مماثلة ضدهم بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني لا سيما في المناطق العربية والإسلامية أيضاً ومنها ألبانيا وقد أوردت الخبر صحيفة « نهضة العرب » نقلاً عن صحيفة « غازيت دي فرانكفورت » التي قالت : « بأن الهياج في ألبانيا على أشده بين مسلميها منذ بضعة أيام . ويتساءلون ... ما الذي دعا إلى كل هذه الحركة ويطلبون معرفة الأسباب الشرعية التي خولت فتيان الترك خلع السلطان عبدالحميد . [وهم] غير راضين عن عمل شوكت باشا والجيش المقدوني ويخشى أن يكون تصرف أصحاب الإتحاد والترقي تمهيداً لنكبة في الإسلام ، إذ أن الذين قاتلوا المسلمين عقيب حركة الاستانة لم يكونوا من المسلمين » (٣) .

ونتيجة لتردي الأوضاع في بعض المناطق العثمانية المؤيدة للسلطان العثماني خشيت الحكومة الإتحادية من انتشار حركة المعارضة إلى مناطق أخرى ، فأرسل شوكت باشا برقية إلى جمعيات سلانيك والجمعية السليمية ، يوعز فيها ان ينصحوا المسلمين بالخضوع لأوامر الحكومة الدستورية ولا يظهروا أدنى اعتراض على جلوس السلطان محمد الخامس .

(١) J. Haslip; *op. cit.*, p. 291.
(٢) انظر الملحق رقم (١٠) .
(٣) نهضة العرب ، ١٤ أيار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ٦ ، ص ٣ .

ويمكن استخلاص بعض الأمور من حركة المعارضة ضد الاتحاديين في أحداث ١٩٠٨ وخاصة حركة الألبانيين من أن هذه الجماعة – بغض النظر عن تأييدها للسلطان – كانت على دراية ووعي بأهداف الانقلاب الاتحادي وخلع السلطان، لا سيما وان معارضتهم كانت نابعة « من أن الذين قاتلوا المسلمين... لم يكونوا من المسلمين ». والمقصود بهم هنا اليهود والدونمة. ومن جهة أخرى فان المعارضة لم تقتصر على الألبان فحسب، وإنما تعدتها إلى بعض المناطق العربية، فقد حدث في اللاذقية بسوريا حركة معارضة مماثلة ويتجلى ذلك في أن أحد المدرسين نقل خبر خلع السلطان مشفوعاً باهانته له وتعظيم جمعية الاتحاد والترقي، فنقل الطلاب الخبر إلى ذويهم فتجمع الأهالي وساروا إلى منزل المدرس يريدون إلقاء القبض عليه، ففر إلى منزل رجل فرنسي، فلحقوا به إلى هناك وطلبوا أن يُسلم إليهم بإلحاح وتهديد، إلا أنه تمكن من الهرب والنزول في قارب نقله إلى باخرة فرنسية، وظلت الأفكار هائجة على جمعية الإتحاد والترقي والنقمة على أصحابها شديداً [1]. وبالرغم من أن الاحتفالات أقيمت في بعض أنحاء فلسطين للوهلة الأولى تأييداً لمحمد الخامس، إلا أن « بلش » (Blesh) – القنصل البريطاني في القدس – يصرح بأن أنباء عزل السلطان السابق لم تقابل بحماس من قبل عامة الشعب [2].

والجدير بالذكر أن بعض كبار زعماء المسيحيين السياسيين والروحيين في لبنان لم يرحبوا كثيراً بعزل السلطان عبدالحميد الثاني، بل أن البطريرك الماروني « الياس الحويك » أوضح قائلاً: لقد عاش لبنان، وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، ولا نعرف ماذا تخبئ لنا الأيام من بعده [3].

ويذكر السلطان « عبد الحميد الثاني » في مذكراته حول مفاوضات الصهيونية لامتلاك فلسطين فيقول: بأن يهود العالم تعاونوا مع المحافل الماسونية، وطلبوا مساعدتهم وإسكانهم في فلسطين، وقد عرضوا عليّ أموالاً ولكنني لم أقبلها ورفضت ذلك المشروع [4]. ويضيف قوله: « إن زعيم

---

(١) نهضة العرب، ١٤ أيار (مايو) ١٩٠٩، العدد ٦، ص ٣.

(٢) انظر: Blesh to Lowther, 29 April 1909, No. 35, in F.O. 195/2321.
Blesh to Lowther, 10 May 1909, No. 38, in F.O. 195/2321.

(٣) أوراق لبنانية (مجلة وثائقية)، آب (اغسطس) ١٩٥٦، ج ٨، ص ٣٧٩.

(٤) Sultan Abdül-Hamit, in; *Hatira Defteri.*

الصهيونية هرتزل لم يستطع إقناعي بأفكاره بإنشاء مزارع لليهود لأنني أعرف أنهم سيقيمون حكماً ذاتياً ، وبذلك تكون المسألة اليهودية (Yahudi Meselesi) قد انتهت . وربما كان هرتزل على حق بالنسبة لشعبه فإنه يريد أرضاً لهم ، ولكن نسي أن الذكاء وحده ليس كافياً[١] . كما يؤكد السلطان عبد الحميد بأنه منذ نشأة الحركة الصهيونية بدأ يعارض مخططاتها لأنه عرف مقاصدها وقال : « إن الصهيونية لا تريد أراض زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب ، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ويصبح لها ممثلون في الخارج... وإنني أعرض هذه السفالة (Saflik) لأنهم يظنونني أنني لا أعرف نواياهم ، وليعلموا أن كل فرد في أمبراطوريتنا ، كم يكنُّ لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم ، وأن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة ، وإنني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين لأنني لا زلت أكبر أعدائهم »[٢] . ويرى « ڤامبري » (Vambery) — المقرّب من السلطان — أن المشكلة الأولى التي واجهت الصهيونية وأهدافها هي الإتجاهات الحكومية ، وهي نفس المشكلة التي واجهها هرتزل زعيم الصهيونية[٣] .

وتبرز في هذا الصدد وثيقة في غاية من الأهمية وهي الرسالة التي أرسلها السلطان « عبد الحميد الثاني » إلى الشيخ « محمود أبو الشامات » في دمشق[٤] ، وشرح له فيها أسباب ثورة عام ١٩٠٨ وأسباب خلعه في عام

---

(١) Sultan Abdül-Hamit; *Siyasi Hàtiràtim*, p. 60.

(٢) Sultan Abdül-Hamit; *Ibid.* p. 61.
انظر ايضاً : الملحق رقم (٢) والملحق رقم (٣).

(٣) بالروسية *The Jewish Encyclopedia, vol. 1*, p. 74.

(٤) انظر نص الرسالة بالتركية والعربية في الملحق (٩) ، وهذه الوثيقة موجودة لدى اسرة أبي الشامات في دمشق . وكان السلطان عبد الحميد قد أرسلها في عام ١٣٢٩ هجرية إلى شيخه محمود ابو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية في دمشق وهو أول خليفة لصاحب الطريقة الشيخ علي اليشرطي الحسيني المتوفي عام ١٨٩٩ والذي كان يقيم في عكا ولا تزال زاوية الشاذلية موجودة فيها حتى اليوم . وقد وصلت هذه الرسالة إلى الشيخ محمود أبو الشامات عن طريق أحد المقربين من السلطان ومن مريدي الطريقة . والواقع ان هذه الوثيقة ظلت محفوظة حتى فترة قريبة لدى ورثة الشيخ ابو الشامات إلى ان ترجمها إلى العربية مدير عام الاوقاف السوري السابق الشيخ احمد القاسمي الذي كان يتقن اللغتين التركية والعربية اتقاناً بالغاً . أما بالنسبة إلى صحة هذه الوثيقة فقد ثبت صحتها بالمقارنة مع الأحداث المعاصرة والتقارير الاجنبية التي أسهبت في التحدث عن علاقة السلطان عبد الحميد بالاتحاديين ، وأهم من ذلك كله انه ثبت لدي — بعد الاستعانة بخبير خط — ان هذه الرسالة مكتوبة بخط =

١٩٠٩ ، وأكد له بأنه لم يتخلَ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما « سوى أنني – بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحـاد والترقي المعروفة باسم « جون تورك » وتهديدهم – اضطررت على ترك الخلافة » . ويستطرد في رسالته قائلاً : « إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة – فلسطين – ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف . وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً ، فرفضت هـذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي : « إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً – فضلاً عن ١٥٠ مليون ليرة انكليزية ذهباً – فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ... وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك ، فقبلت بهذا التكليف » .

ومن جهة أخرى ، فإن مجموعة الصحف العربية المعاصرة تؤكد العلاقة بين الصهيونية واليهود من جهة وبين الماسونيين والاتحاديين من جهة ثانية ، فذكرت « المشرق » أنه من المقرر الثابت الذي لا يمكن اليوم لعاقلٍ أن ينكره لكثرة الدلائل على صحته ان العامل الكبير في إدارة الماسونية وجمع كلمتها إنما هو العنصر اليهودي ، فإن الموسويين بما في أيديهم من الأموال الطائلة ولانتشارهم في كل أنحاء المعمور... أقدر من سواهم على ضبط دقة الماسونية وتدبير أمورها . وتضيف الصحيفة قولها : إنه بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني تخلقت جمعية الاتحاد والترقي بأخلاق الماسونية واليهودية ولبست ثوبها ، وإنه لما خمدت ثورة نيسان (ابريل) ١٩٠٩ نالت العناصر اليهودية أهمية أكبر ، فجاويد بك عين وزيراً للمالية وطلعت بك وزيراً للداخلية ، وجاهد بك – محرر طنين – مستشاراً لجاويد بك ، وكل

= يده – أو على الأقل بخط كاتبه – بعد مقارنتها بمجموعة من كتاباته وفي مقدمتها مذكراته الموجود قسم منها بخط يده في حوزتي ، وكانت د. خيرية قاسمية قـد أبدت شكوكها في صحة هذه الوثيقة . ومن ناحية أخرى فقد تأكد لي بما لا يدعو مجالاً للشك بأن السلطان كان بالفعل من المنتسبين إلى الطريقة الشاذلية بواسطة الشيخ محمود ابو الشامات الذي سبق له ان سافر إلى القسطنطينية ، وهنـاك اجتمع بعلي رضا باشا ، وعرفه إلى الطريقة وبواسطته انتسب اليها السلطان مع كبار وزرائه وموظفيه ، وهذا ما تؤكده السيدة فاطمة اليشرطية الحسينية – ابنة صاحب الطريقة الشيخ علي اليشرطي – في كتابها مواهب الحق ، ص ١٣ ، ٣٧ . وفي مقابلة خاصة أجريتها معها شخصياً في بيروت بتاريخ ٤ أيار (مايو) ١٩٧٥ .

هؤلاء ماسونيون وأولهم من سلالة يهودية[١].

وفي عام ١٩٠٩ رحبت بعض الصحف العربية ومنها « العصر الجديد » بتعيين جاويد بك وزيراً للمالية وأوضحت أنها تبشر وزارة المالية بناظرها الذي عُرف بالدراية الواسعة « فهو أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي العثماني ومن الاقتصاديين المشهورين، ولا يزال صوت خطابه – الذي رقص له مجلس الأمة بشأن القرض المالي ثلاث ساعات – يرن صداه في الأندية المالية، وكفى بأن المسيو لوران الفرنسي مستشار المالية العثمانية، قال عنه: إن الرجل المالي الاقتصادي الحقيقي الوحيد في المملكة العثمانية إنما هو جاويد بك مبعوث سلانيك ... »[٢]. ومن المعروف أن جاويد بك كان قد اتفق مع رفاقه الاتحاديين على تدبير أموال يهودية مقابل تسهيل الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين، ويؤكد « لوثر » هذه الحقيقة في رسالته إلى « غراي » (Grey) في ٣١ آب (أغسطس) ١٩١٠، من أن الصفقة المالية التي عقدها جاويد بك مع البيوتات المالية اليهودية في باريس لها علاقة بمشاريع الهجرة لا سيما وأن جاويد بك يهودي ويعمل منذ سنوات في خدمة القضية الصهيونية[٣]. وامتد نشاط جاويد بك – وزير المالية – بعد تغيير نظام الحكم في تركيا بعد ١٣ نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ – إلى خارج الدولة العثمانية وخارج أوروبا لتصل إلى الولايات المتحدة الأميركية. وتذكر صحيفة « العصر الجديد » إنه اقترح على جمعية « الاتحاد الاسرائيلية » (L'Alliance Israélite) الموجودة في نيويورك أن تؤسس في المدن الأميركية الكبرى شركات لشراء الأراضي في فلسطين بهدف إستعمارها، وان رأي هذه الجمعية متفق مع جاويد بك فهي لا تستصوب الرأي القائل بوجوب استعمار الاسرائيليين بلاد ما بين النهرين

(١) لويس شيخو : السر المصون في شيعة الفرمسون. نقلاً عن : المشرق، آب (اغسطس) ١٩١١، العدد ٨، ص ٦١٧، ٦١٨.

(٢) العصر الجديد، ٨ تموز (يوليه) ١٩٠٩، العدد ٣٧، ص ١،

(٣) استطاع جاويد بك بالاتفاق مع الحركة الصهيونية والبنوك اليهودية ان يعقد عدة صفقات مالية لحساب العهد الاتحادي لممارسة ضغوط اقتصادية لها علاقة وثيقة بتحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين. وقد استطاع بالفعل ان يحقق صفقة قدرت بستة ملايين ليرة عثمانية عقدها في باريس مع بيوتات مالية يهودية وهي : كريدي موبيليه، وبرنارد ودريفوس وجاريسلوسكي واستغل جاويد منصبه كوزير للمالية فبدأ بعقد صفقات البيع والشراء مع الشركات الاجنبية لتحقيق الأرباح والسمسرات.

–العراق – ولا ضواحي طرابلس الغرب، بل تفضل استعمارهم لفلسطين[١].

وفي العهد الاتحادي ظهرت صحف عربية لم تكن مؤيدة للعهد الجديد فحسب، وإنما أيدت أيضاً الحركة الصهيونية وهاجمت الصحف المناوئة للهجرة امثال صحيفتي «الكرمل» و «الأصمعي» وغيرهما[٢]. مما يدل على تزايد النفوذ الصهيوني لا سيما بعد تعيين «محمد رشاد» الملقب بمحمد الخامس سلطاناً خلفاً للسلطان عبد الحميد، وكان أداة طيعة بيد الإتحاديين الذين أصبحوا المسيطرين على جهاز الحكومة ومقدرات الدولة. وإذا فشلت محاولات المنظمة الصهيونية مع السلطان عبد الحميد إلا أنها واصلت مساعيها مع جمعية الاتحاد والترقي، وتمكنت من تحقيق قسط من النجاح بفضل المساعي التي بذلتها عناصر في الحكم من اليهود والدونمة الذين تستروا بالإسلام ولعبوا دوراً بارزاً في الثورة على حكم السلطان عبد الحميد[٣]. وذلك ليتسنى لهم تحقيق الفكرة الصهيونية بالاتفاق مع يهود أوروبا، إذ أن يهود ودونمة تركيا كانت علاقاتهم مع يهود أوروبا متينة وسهلة بسبب انتشار مبادئ الحركة الصهيونية. ويعتقد الأتراك أن الغرض من الجامعة

---

(١) العصر الجديد، ٨ تموز (يوليه) ١٩٠٩، العدد ٣٧، ص ٨.

(٢) ظهرت في العهد الاتحادي وقبله ايضاً – كما سبق وذكرنا في الفصل الرابع، ص ٢٣٩ – عدد من الصحف المؤيدة والمعارضة للحركة الصهيونية. فمن الصحف المؤيدة لها «النصير» و «لسان الحال» في بيروت، و «المقتطف» في مصر مع عدد آخر من الصحف المصرية التي كان يسيطر عليها اليهود. وفي فلسطين ظهرت صحف معارضة للحركة الصهيونية يأتي في مقدمتها: «الأصمعي» و «القدس» و «الكرمل» وذلك بعد اعلان الدستور في عام ١٩٠٨، كما ظهرت صحف مؤيدة للحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين مثل: «جراب الكردي» و «العصا لمن عصى» و «النفير العثماني» التي أسسها ايليا زكا بعد انفصاله عن نجيب نصار، وبواسطتها هاجم صحيفة «الكرمل» وصاحبها نجيب نصار. وكان نجيب جانا صاحب صحيفة «العصا لمن عصى» قد هاجم الحركة الوطنية الفلسطينية بأسلوب ساخر، ومن بين الذين هاجمهم سليمان التاجي الرملاوي المعارض للهجرة اليهودية وصاحب مقال: الصهيونيون وفلسطين، المنشور في صحيفة «المفيد». كما هاجمت «العصا لمن عصى» أيضاً نجيب نصار وصحيفة «الكرمل» لأنه كان يقف ضد الهجرة اليهودية وتساءلت ما هو الضرر من الصهيونيين؟ فأجابت بسخرية «ان ضررهم كبير أولاً: كان في يافه سواقي رمل لا تنبت سوا [ى] الحلفاء فأصاروها كروماً نضيرة زادت في ثروة البلاد. ثانياً: اجبرونا على استبدال المحاريث التي كنا نستعملها من عهد نوح بمحاريث جديدة زادت الارض خصباً. ثالثاً: أنشأوا لنا مصارف تقرضنا المال وتخلصنا من وجود المرابين. رابعاً: أنشأوا المدارس ومشوا بيننا التمدن. خامساً: دفعوا قيم املاكنا وعلمونا كيف نستفيد منها...» نقلاً عن: العصا لمن عصى ٢٧ شباط (فبراير) ١٩١٢، العدد ٣، ص ٢.

(٣) L. Stein; *Balfour Declaration*, p. 35.

الصهيونية هو تأسيس مملكة في آسية الصغرى ، ويتوجسون خيفة من المستعمرات المنشأة في سوريا وفلسطين ويخافون أن تكون مراكز لنفوذ الأجانب ولا سيما الألمان منهم [١]. ذلك أن العلاقة التي أقامها الأمبراطور الألماني مع السلطان عبدالحميد الثاني كانت في الأساس لمصالح اقتصادية وعسكرية بحيث أن ألمانيا وضعت في حسابها مصالحها الخاصة قبل المصالح العثمانية . لذا حرصت أيضاً في عهد الإتحاديين على إظهار صداقتها للحكم الجديد بتأثير من الزعماء الصهيونيين الموالين للألمان أمثال جاكوبسون وغيره . ويؤكد « مارلنغ » — القائم بأعمال السفارة البريطانية في الآستانة — أنه بالرغم من علاقة الود التي تربط ألمانيا بالاتحاديين إلا أن « شوكت باشا » و « درغولتز » (Dergolts) قد أتهما بالتخطيط للاطاحة بجمعية الاتحاد والترقي للمجيء بنظام عسكري يخدم المصالح الألمانية [٢].

ويكشف رشيد رضا — بعد زيارته لاستانبول — خطط الصهيونية لامتلاك فلسطين ونفوذ اليهود في دوائر الحكم الجديد فيقول : « بأن آمالهم في القدس وفلسطين معروفة ومطامعهم المالية في المكان يعظم نفوذهم فيه غير مجهولة ... وقد خطب بعض النواب المستقلين والمعارضين للحكومة خطباً بينوا فيها خطر جمعية اليهود الصهيونية على المملكة العثمانية وخطباً أنكروا فيها على ناظر المالية بيعه أحسن موقع عسكري في الآستانة لشركة أجنبية بثمن دون ثمن المثل بسمسرة بعض اليهود ، وهم يرون أنه يمكن بيع ذلك المكان بأضعاف ذلك الثمن . وقد دافع الصدر الأعظم في المسألة الأولى عن الحكومة وعن اليهود ، ودافع جاويد بك عن نفسه في الثانية . ونحن لا نتعرض للمحاكمة والترجيح بين المجلس والحكومة وحزبها وإنما ننبه الناس للتأمل والاعتبار [٣].

ويمكن القول أن النفوذ الصهيوني لدى الحكم الجديد في تركيا ساعد كثيراً على إزالة القيود التي كانت تقف في وجه الاستيطان اليهودي في فلسطين وتيار الهجرة ، وكان أكثر ما يزعج الصهيونية « الجواز الأحمر »

---

(١) لويس شيخو ، المقال السابق ، نقلا عن المشرق ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العدد ٨ ، ص ٦١٨ . انظر ايضاً المنار ، ١ آذار (مارس) ١٩١١ ، م ١٤ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٢) Marling to Grey, 14 Dec. 1909, No. 46061, in F.O. 371/781.
نقلاً عن مقال في صحيفة (Le Jeune Turc) مرفق برسالة مارلنغ إلى غراي .

(٣) المنار ، ١ آذار (مارس) ١٩١١ ، م ١٤ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

وقوانين التملك التي تحظر على اليهود الأجانب نقل ملكية الأراضي إليهم رغم إنها لم تستطع في الماضي أن تعيق تماماً دون تسرب بطيء ومستمر لليهود داخل فلسطين أو إنشاء المستعمرات[١]. وقد تدخل في موضوع إزالة هذه القيود الحاخام «حاييم ناحوم» رئيس الطائفة اليهودية في مصر وتعاون مع ستراوس ومرجانتو سفيري الولايات المتحدة، وبذلوا جهوداً كثيرة للقضاء على الجواز الأحمر الذي وضع خصيصاً لتحديد الهجرة إلى الدولة العثمانية[٢]. كما أن سياسة زعماء الحركة الصهيونية توجهت بشكل واضح تجاه استانبول والحكومة العثمانية ليس قبل عام ١٩٠٨ فحسب وإنما أيضاً في الأعوام التي تلته[٣]. ومن أجل ذلك بذلت المنظمة الصهيونية جهودها للحصول على «ميثاق إتحادي» باستيطان فلسطين رغم ادعائها أن ذلك لم يعد ضرورياً طالما أن السلطان عبدالحميد الثاني قد خلع عن العرش، وأوضحت أن الصهيونية لا تهدف إلى إستقلال فلسطين عن الدولة العثمانية لأن الوجود اليهودي لا يكون مضموناً إلا تحت حماية أمبراطورية عثمانية قوية، وأن الزعماء الصهيونيين من خلال طغيان السلطان السابق طلبوا وضعاً خاصاً وضمانات أو ما يسمى «الميثاق» حتى لا يقدم السلطان على نقض كل ما وضعوه. أما في العهد الاتحادي حيث يسود الدستور والحرية فلم يعد هناك حاجة لضمانات أو وضع خاص[٤].

وتؤكد صحيفة (Revue du Monde Musulman) هذه الحقائق عندما

(١) رسالة كمبربتش قنصل بيروت إلى لوثر في ٢ تموز (يوليه) ١٩٠٩، نقلاً عن: خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) ايلي ليفي ابو عسل: يقظة العالم اليهودي، ص ٢٥٧. ويورد الدكتور محمد علي الزعبي في كتابه: حقيقة الماسونية، ص ١٧٥، من ان «حاييم ناحوم» لعب دوراً مؤثراً في خلع السلطان عبد الحميد، وانه عين سفيراً لتركيا في الولايات المتحدة ثم تقمص حاخاما بمصر، فأنشأ بها عشرات المحافل الماسونية. وفي عهده أصبح قطاوي باشا اليهودي الماسوني وزيراً لمالية مصر، وهو الذي جمع من ماسونييها ثمانية ملايين جنيه ساعد بها يهود فلسطين. ويذكر الكاتب اليهودي «المر بيرغر» في كتابه: اسرائيل باطل يجب أن تزول، ص ٢٠، ٢١ من ان حاييم ناحوم الحاخام الأكبر لمصر، كان قبل ان ينصب حاخاماً أكبر لمصر، يشغل ذات المنصب في تركيا في العهد العثماني وان حاييم ناحوم صرح مرة بأنه عندما كان حاخاماً أكبر ليهود السلطنة العثمانية أتاه يوماً وفد برئاسة الزعيم الصهيوني «ناحوم سوكولوف» وطلب اليه التوسط لدى السلطان ليسمح للصهيونيين بشراء أراضي فلسطين، فأبدى له استعداده وبذل وساطته في هذا الموضوع.

(٣) Y. Roi; *The Zionist Attitude*, p. 208.

(٤) A. Cohen; *Israel and the Arab World*, p. 74.

توضح أن الصهيونيين الذين رفضوا تأسيس دولة يهودية خارج فلسطين قد أسقطوا عرض أفريقيا (Territoire en Afrique) المعروض عليهم من قبل انجلترا . وعلى فترات متتالية طلبت الصهيونية من السلطان عبد الحميد – الذي كان يكرم أتباعه اليهود – تحقيق أمانيها ، ولكن السلطان رفض أن يلين أمام المطالب الصهيونية ، إلا ان الظروف بعد ثورة ١٩٠٨ قد تغيرت والسلطان لم يعد هو الحاكم الوحيد ، والصهيونيون أصبح لديهم الأمل في الوصول إلى ما يبتغون(١). وتضيف هذه الصحيفة إلى أن ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ أدت إلى تقوية الروابط العاطفية بين اليهود وأتراك مقدونيا ، وتكاثرت الشركات الصهيونية وأصبحت منتشرة في المدن التالية : مناستر واسكوب وقونية وجانينا ومصطفى باشا وسميرن وأضنة وفي مناطق أخرى(٢) .

ويلاحظ أنه بعد تغير النظام في تركيا زار كثير من يهود ودونمة سالانيك الأراضي المقدسة ، لأن عملهم الأساسي إنما كان يهدف إلى تحقيق الحلم الصهيوني وقد زار فلسطين « داڤيد فلورنتين » (David Florentin) – رئيس جريدة المستقبل (El-Avenir) الصادرة في سالانيك – وعرض بعد عودته أمام ثلاثة آلاف شخص التقدم الذي حققته القدس الحديثة (La Jerusalem Moderne) والنجاح الذي حققته المستعمرات الزراعية اليهودية في فلسطين بواسطة الشركة الصهيونية (VISU)(٣). وبالاضافة إلى ذلك فان بعض التقارير الصهيونية تذكر أنه بعد خلع السلطان عبد الحميد انتعشت الأماني الصهيونية على أمل ممارسة اليهود والدونمة نفوذهم على جماعة الاتحاد والترقي الذين كانوا أقل تشدداً من السلطان عبد الحميد الثاني بشأن السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات فيها(٤) ، بعد أن حصلوا على تأييد رسمي من شخصيات يهودية تركية على رأسها عضوان نافذان في البرلمان العثماني هما : نسيم روسو ، ونسيم مازلياح .

وتذكر التقارير البريطانية أن الحكم الجديد أصبح خاضعاً ليس فقط

---

(١) *Revue du Monde Musulman*, T. 5, p. 793 (1908) .
وقد أشارت إلى هذا الموضوع في حينه صحيفة « مورننغ بوست » في ١ آب (اغسطس) ١٩٠٨
(٢) *Revue du Monde Musulman*, T. 5, pp. 147, 176.
(٣) *Revue du Monde Musulman*. T. 9, p. 176-177.
(٤) احمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٤٣٦ .

للنفوذ السياسي الصهيوني وإنما للنفوذ الاقتصادي أيضاً ، فيقول « لوثر » بأن الدستور كان يتضمن التطوير الاقتصادي ولكن الجهاز التركي الاقتصادي كان ضعيفاً ولا يمكن أن يقف وحـــده بدون دعم . ويبدو أن التركي الاتحادي قد تحالف فقط مع اليهودي العثماني والأجنبي بينما أبعدت سائر العناصر ، كما يبدو أن اليهودي قـــد أوقع في شراكه التركي المتخلف اقتصادياً وعقلياً [١] . وتضيف هذه التقارير بأن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة [٢] . ولم يقتصر ازدياد النفوذ على تلك القوى ، بل تمكنت « البكتاشية » من أن تزيـد درجة نفوذها بعد تعاونها مع حركة « تركيا الفتاة » في خلع السلطان عبدالحميد الثاني ، وكان هذا التعاون مرشحاً للبروز بسبب التقارب بين الحركتين ، بل أن المستشرق « محمد موفاكو » يرى بأن طلعت باشا وأحمـد رضا كانا ممن ينتمون إلى البكتاشية [٣] .

والواقع أن وصول الاتحاديين للحكم ومساهمة اليهود في أحداث الانقلاب والخلع ١٩٠٨ ــ ١٩٠٩ ثم حاجـة الحكومة للأموال اليهودية ، كل ذلك دفع النشاط الصهيوني في فلسطين خطوات إلى الأمـــام ، فبعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميـد ازداد النفوذ الاقتصادي والسياسي الصهيوني فازداد عدد المؤسسات المالية العاملة في ميدان العمل الاستيطاني اليهودي في فلسطين ، وفي مقدمة هذه المؤسسات شركة أنجلو ــ ليڤانتين (Anglo-Levantine) المصرفية في استانبول وشركة تطوير الأراضي الفلسطينية (Palestine Land Development) وشركة « أرض اسرائيل » (The Eretz Israel) والصندوق الثقافي اليهودي وشركة المكابي للأراضي وعـدد آخر من الشركات المالية الاستثمارية والمصرفية التي لعبت دوراً هاماً في ترسيخ الغزوة الصهيونية [٤] .

وكان الوفاق العربي ــ التركي الذي أعلنه الاتحاديون قصير الأجل ، إذ

(١) رســالة لوثر إلى غراي ٢٩ أيار (مايو) ١٩١٠ . نقلاً عن : خيرية قاسمية ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .
(٢) ملف وثائق فلسطين ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .
(٣) محمـد موفاكو : البكتاشية ، نقلا عن : العربي ، آذار (مارس) ١٩٧٧ ، العدد ٢٢٠ ، ص ٦٨ .
(٤) انظر : هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، ص ٦٢ .

سرعان ما اتضح أن عناصر جمعية الاتحاد والترقي كانت تركية ويهودية ، وكان الاتجـاه القومي الطوراني يقضي بسياسة التتريك وطمس معالم اللغة العربية والشخصية العربية ، بل إن الاضطهاد التركي للعرب ازداد عما مضى وأحس العرب بالاحتقار والسخرية بهم وبتراثهم أكثر من أي وقت سبق كما أسيئت معاملتهم وأضعفت لغتهم[١] . وفي مجلس المبعوثان حوربت اللغة العربية ، وتذكر « الكرمل » أن أحـد نواب العرب اقترح بجعل اللغة العربية إلزامية للموظفين الذين يعينون في الولايات العربية ، ولكن طلبه قوبل بالرفض[٢] . ويؤكد « لوثر » في مذكراته إلى وزارة الخـارجيه البريطانية دور اليهود في تكريس هذه السياسة الطورانية الاتحادية بقوله : إنه لكي يصل اليهود إلى مراكز النفوذ في تركيا الفتاة فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية[٣] .

ونظراً لهذه السياسة التركية فقد أظهر قـادة العرب شكوكهم في اخلاص جمعية الاتحاد والترقي التي انتظروا منها الحرية والاصلاح والمساواة وازدادت شكوكهم في زعماء الجمعية لأسباب عديدة منها :

أولاً : إن قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعاً وبدون استثناء من البنائين الأحرار (Freemasons) .

ثانياً : إن يهود سالانيك كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي .

ثالثاً : إن اليهود كانت لهم أطماع وأحلام توسعية ليس فقط في فلسطين وإنما أيضاً في بقية أنحاء الدولة العثمانية ، إذ أن السيادة على مصر ، هي جزء من ارث إسرائيل في المستقبل ، على حد قول لوثر في رسالته إلى غراي . بل تذهب الصهيونية إلى أكثر من هذه الحدود حيث يطالب « كان »[٤] في كتابه «أرض إسرائيل» (Eretz Israel) بحكومة يهودية مستقلة في فلسطين وحدودها الطبيعية هي لبنان

---

(١) انيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية ، ص ١٩ . انظر ايضاً : عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٣ .

(٢) الكرمل ، ٢٧ آذار (مارس) ١٩٠٩ ، العدد ١٥ ، ص ٤ .

(٣) ملف وثائق فلسطين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٤) كان (J. H. Kaan) ، هو أحـد الأعضاء الثلاثة في اللجنة المركزية للمنظمة الصهيونية ، ومن كبار رجال المال اليهود في لا هاي ، زار فلسطين عام ١٩٠٧ ، وألف كتابه السابق الذكر في عام ٩ ١٩ .

شمالاً ، ثم دمشق والعقبة شرقاً ، وشبه جزيرة سينـاء جنوباً ، والمتوسط غرباً .

رابعاً : إن الجمعية كانت تتعامل مع الأجنبي بشكل غريب ومثير ، فقد كانت هناك نخبة من الأتراك الاتحاديين – في مقدمتهم رشيد باشا وغيره من الساسة – يميلون ميلاً أجنبياً غريباً وإلى أقصى الحـدود ، وهؤلاء الرجال كانوا الأعضاء الأوائل في المحافل الماسونية التي كانت منتشرة في تركيا بواسطة الأجانب[١] .

والواقع أن هذه المخاوف والشكوك التي أبداها العرب نحو « تركيا الفتاة » أصبحت من صلب السياسة العربية ، وذلك بعد أن ظهرت القومية التركية الطورانية المتعصبة على حقيقتها ، وراحت تتحدى الكرامة العربية في أعزّ ما لديها من دين ولغة[٢] . وذكر الأب « لويس شيخو » من أن « رشيد رضا » – الذي أمضى سنة كاملة في الآستانة – « وقف على غوامض سياسة الجمعية ومخبآت صناديق أسرارها » . وأوضح أن جمعية الاتحـاد والترقي من شيعة الماسون . « ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة إلى إضعاف اللغة العربية وإماتتها في المملكة وتتريك العرب مع إبقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان ... ومن لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة ، وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد[٣] » .

ومما زاد في شكوك العرب وحرج موقفهم أنه بعد عزل السلطان عبد الحميد امتدت يد العزل إلى كبار من كان يُعتمد عليهم من العرب ، وهذا أمر طبيعي ولكن ما هو غير طبيعي توجيه الاتهامات والاساءات إلى الموظفين العرب فقط دون غيرهم ، وأخذت الاتهامات توجه إلى أولئك العرب بأنهم كانوا وراء مظالم السلطان فكانت نسبة المعزولين من العرب

---

(١) S. Mardin; *The Genesis of Young Ottoman Thought*, p. 110.

(٢) زين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٨٧ .

(٣) لويس شيخو : السر المصون في شيعة الفرمسون ، المشرق ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العـدد ٨ ، ص ٩١٠ ، ٩١١ . انظر ايضاً : المنار ، ١٩١١ ، م ١٤ ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٢ .

عالية جداً حتى لم يبق في وزارة الخارجية من العرب سوى موظف واحد[١]. بينما كان السلطان عبد الحميد يعمل على استمالة العناصر العربية ويسلمهم مناصب رفيعة وحساسة، وأكثر السلطان من تقريب العرب وعظمائهم حتى كانت لهم كفة مرجحة في الحكم[٢]. ومن بين هؤلاء عزت باشا العابد الدمشقي والشيخ أبو الهدى الصيادي، وسليم باشا ملحمة وزير المعادن والحراج وشقيقه الوزير نجيب باشا ملحمة والاثنان من لبنان، وغيرهم من العرب. وهؤلاء كلهم كانوا موضع ملاحقة من الاتحاديين، حتى أن الشيخ أبو الهدى الصيادي لم يسلم بن الاعتقال شهراً من الزمن[٣]. وبدأت الصحف الاتحادية في العاصمة العثمانية تنشر مقالات معادية للعرب، ولم تقتصر هذه الحملات على أشخاص العرب الحميديين بل إلى كل عربي بحيث قرنت اسم العرب بلفظة «بيس» التركية، وأضافت إلى ذلك ذكر جنسيتهم العربية بعبارة «بيس عرب» و«بيس عزت»[٤]. وكلمة «بيس» التركية معناها «قذر». وكان باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم بهذه العبارة في كل شوارع العاصمة، مما أثار اشمئزاز العرب المقيمين في العاصمة من وجهاء وأدباء وموظفين وخريجي المعاهد العليا، فقرروا في اجتماع عقدوه الاحتجاج على هذه العبارة. كما هاجمت صحيفة «طنين» لصاحبها اليهودي «حسين جاهد» كل القوى المعادية للاتحاديين وركزت هجومها على العرب بالذات، فقد هاجمت خليل باشا حمادة وزير الأوقاف العربي في أواخر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٠٩ لسبب بسيط جداً لم يكن يعادله في تفاهته أي شيء، مدعية ببطء الأعمال في الوزارة. غير أن الأمر الملفت للنظر أيضاً هو أن الدونمة واليهود نشروا بين الأوساط العربية عبارة «بيس تركيلر» أي «الأتراك القذرون»، وذلك ايماناً منهم بضرورة مضاعفة الخلافات بين العرب والأتراك، وتكريس الأنقسامات بينهم.

وفي هذه الفترة، لجأت لجنة الإتحاد والترقي إلى إستبداد لا يقل مطلقاً عن إستبداد السلاطين، كما أن الظلم والقتل ازدادا في عهد الاتحاديين

(١) سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤، ص ٢٥، ٢٦، انظر ايضاً: انيس صايغ، المرجع السابق، ص ١٩.
(٢) سعيد الأفغاني : كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضة المملكة العثمانية، نقلاً عن: مجلة العربي، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢، العدد ١٦٩، ص ١٥١.
(٣) يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني، ص ١٧١.
(٤) يقصد به عزت باشا العابد.

والفارق الوحيد هو أن تنفيذ الاعدام كان يجري بطريقة تتناسب والروح الحديثة (١). وتؤكد صحيفة « المباحث » هذه الوقائع بقولها : « إن الإتحادبين كانوا يميلون إلى الانتقام الشديد بدلاً من السلوك بالتؤدة والرفق فأدى ذلك إلى مقابلتهم بمثل شدتهم أو أشد عنفاً . وكانت النتيجة أن لحق بسمعة الجمعية وبهرجتها حيف في العاصمة (٢) ». ثم لم يتوانَ الإتحاديون من ضرب العناصر الحرة وتفردوا بحكم البلاد ، وعملوا على تتريك العناصر الأخرى أو إبادتها ، وكان للأيدي الأجنبية دورها في هذا المجال ، مما حدا برجال العرب إلى التذمر فاتفقوا مع بعض الأتراك المعتدلين وأسسوا حزب « الإئتلاف » ونافسوا الإتحاديين (٣) . وقد بلغ نفوذ الدول الأجنبية والصهيونية بين أوساط الإتحاديين بحيث شلّت قدراتهم على التحرك ، إذ أن أعضاء تركيا الفتاة لم يستطيعوا لا هم ولا إصلاحاتهم إنقاذ الأمبراطورية العثمانية التي تكالبت واجتمعت عليها القوى الأكثر قدرة في ذلك الحين (٤) .

ويؤكد السلطان عبد الحميد – بعد خلعه – حقيقة وهي أن الاتحاديين لم يستطيعوا انقاذ الأمبراطورية من التفسخ والضياع ويقول : « السلطنة العثمانية آنية قديمة متفسخة منعتها – بالاعتماد على مرهم « ادارة مصلحت » – من السقوط وذلك مدة ثلث قرن ، على أن الاتحاديين ما كادوا يتسلمونها مني – وقد استولوا عليها بقوة الشباب المخدوع بقوته – حتى أضاعوا التوازن وبدأ الانهيار دون أن يشعروا بالأمر » (٥) . وقد اعترف بعض الاتحاديين أنفسهم بفشلهم وعدم درايتهم بشؤون السياسة والحكم ومن هؤلاء « محمد كاڤيت » – صاحب الرتبة العالية بين دعاة الإتحاد والترقي والذي أصبح فيما بعد وزيراً للمال – الذي أوضح للسكرتير الأول بالسفارة البريطانية بأن تركيا الفتاة كانت تضم الشبان الذين تنقصهم الخبرة في الأعمال الادارية بالرغم من تحصيلهم العلمي ، كما انهم كانوا يفتقدون إلى الاحترام والتقدير أيضاً (٦) . لأن الممارسات العملية التي قاموا بها أثبتت خضوعهم لقوى

(١) N. Bischoff; *La Turquie dans le Monde*, p. 82.
انظر ايضاً : لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، ص ٨٩ .
(٢) المباحث ، ١٥ حزيران (يونيه) ١٩٠٩ ، العدد ١٣ ، ص ٥٥٩ .
(٣) البرغوثي وطوطح : تاريخ فلسطين ، ص ٢٧٠ .
(٤) N. Bischoff; *op. cit.*, p. 81, 82.
(٥) الأسرار ، ٣ أيار (مايو) ١٩٣٨ ، العدد ٥ ، ص ١ .
(٦) Lowther to Grey, 26 May 1909, No. 20299, in F.O. 371/772.

تركية يهودية ذات ارتباطات صهيونية وماسونية ففي عهدهم « رفعت الماسونية رأسها وعزت الفوز إلى مساعيها وصورت جمعية الإتحاد والترقي كجمعية ماسونية محضة . وكان أعضاؤها إذا ساروا إلى عواصم أوروبا يبحثون عن المحافل الماسونية ويسلمون على رؤسائها كما فعلوا خصوصاً في باريس وفي بودابست حاضرة المجر حيث صار لهم استقبال عظيم ورحب بهم الماسون ودعوهم إلى حفلاتهم كما انبأت الجرائد الأوروبية »(١) . وفي أثناء زيارتهم لبريطانيا في صيف عام ١٩٠٩ أقيمت على شرف أعضاء الاتحاد والترقي مأدبة صهيونية أكد الأعضاء فيها ترحيبهم بالهجرة اليهودية إلى الأمبراطورية العثمانية(٢) ، وإن تظاهر الأعضاء في بعض الأحيان بالحذر والتردد .

ونظراً لتأييد الاتحاديين لأطماع اليهود في فلسطين ، فقد جرى نقل الموظفين الأتراك المعارضين للهجرة اليهودية من فلسطين إلى أماكن أخرى مثلما حدث مع علي أكرم بك الذي أثبت أثناء توليه المسؤولية كل حرص لوقف الهجرة اليهودية ، وإذا بالاتحاديين بعد ثورة تموز (يوليه) ١٩٠٨ يصدرون قراراً بنقله من فلسطين إلى بيروت ، لأن الحقبة القصيرة الممتدة خلال عشرين شهراً من حكمه كانت الفترة الوحيدة بعد عام ١٩٠٠ التي تطبق فيها تعليمات الباب العالي على أكمل وجه(٣) . وقد ذكر المطلعون من أهل فلسطين أن عدد المهاجرين إلى يافا قد زاد في العهد الدستوري مما كان عليه في العهد الحميدي بفضل حماية القانون الأساسي حق كل فرد منهم(٤) .

هذا ولم يطرأ أي تحسن يذكر على الادارة العثمانية في فلسطين في العهد الاتحادي ، بل استمرت عمليات الرشوة والفساد بين الموظفين ، وبواسطة هذه الأساليب استطاعت الصهيونية – بالاضافة إلى التأييد الرسمي التي كانت تلقاه – نقل الأعداد الكبيرة من اليهود إلى فلسطين وإنشاء مستوطنات

(١) المشرق ، آب (اغسطس) ١٩١١ ، العدد ٨ ، ص ٦٠٨ . ويذكر انه في هذه الفترة كثرت الاحتفالات الماسونية في الولايات العثمانية تأييداً للاتحاديين ومنها احتفال محفل السلام الماسوني في بيروت الذي اقام حفلاً حيا فيه الاتحاديين في قهوة لاكسمبورغ وحضرها فؤاد باشا . انظر : النفائس ، ١ نيسان (ابريل) ١٩١٠ ، ج ٤ ، ص ٦٩ ،

(٢) N. Mandel; *op. cit.*, p. 94.

(٣) N. Mandel; *op. cit.*, p. 91.

(٤) يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني ، ص ٢١٤ .

لهم[1]. وكانت المصادر البريطانية قد أكدت حوادث اعتقال المهاجرين اليهود في عهد السلطان عبدالحميد، وما ان قامت ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ حتى بدأت طلبات الجمعية اليهودية البريطانية في القدس تطالب اطلاق سراح المعتقلين اليهود، وقد تم لهم ذلك بالفعل فيما بعد[2]. وتؤكد «المنار» هذه الحقائق مع الإشارة إلى دور اليهود وأهدافهم من الانقلاب العثماني فتقول بأنه: «كانت لهم يد في الانقلاب العثماني لا لأنهم كانوا مظلومين أو مضطهدين في المملكة العثمانية، فانهم كانوا آمن الناس من الظلم فيها حتى انهم كانوا يفرون إليها لاجئين من ظلم روسيا وغيرها، وإنما يريدون أن يملكوا بيت المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك اسرائيل. وكانت الحكومة العثمانية تعارضهم في امتلاك الأرض هناك فلا يملكون شيئاً منها إلا بالحيلة والرشوة. ولهم مطامع أخرى مالية في هذه البلاد فهم الآن يظهرون المساعدة للحكومة العثمانية الجديدة لتساعدهم على ما يبتغون، فاذا لم تنتبه الأمة العثمانية لكيدهم وتوقف حكومتها عند حدود المصلحة العامة في مساعدتهم، فان الخطر من نفوذهم عظيم وقريب، فانهم قوم اعتادوا الربا الفاحش فلا يبذلون درهماً من المساعدة إلا لينالوا مثقالاً أو قنطاراً من الجزاء»[3].

وكان زعماء الاتحاد والترقي قد أعلنوا مراراً عن المشاريع التي وضعوها لتحسين أحوال اليهود في الدولة العثمانية، وكان «الدكتور ناظم» في مقدمة هؤلاء، وهو من المشاركين في ثورة تموز (يوليه) عام ١٩٠٨، ويعتبر صديقاً للشعب اليهودي، وقد صرح أن الحكومة العثمانية عازمة على انفاق مبلغ ٥ ملايين ليرة تركية لتوطين مهاجرين أجانب في المناطق المقدونية بما فيهم عشرين ألفاً من يهود رومانيا[4]. وقد أكد أحد زعماء الصهيونية بعد نجاح الاتحاديين في السيطرة على الحكم من أن أبواب فلسطين مؤهلة لأن تفتح لليهود بدون صعوبة، وأن الزعماء الجدد في تركيا يسرهم الاستيطان اليهودي، وهم على استعداد لاستقبال المهاجرين الجدد بحرارة[5].

---

(١) احمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٤٣٦.

(٢) Blesh to Lowther, 26 April 1909, No. 34, in F.O. 195/2321.

(٣) المنار، ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٠، م ١٣، ج ١٠، ص ٧٢٥.

(٤) رسالة مارلنغ إلى غراي، ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩. نقلاً عن: خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٥) A. Cohen; *Israel and the Arab World*, p. 73.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى الخلافات الشديدة التي حدثت بين أعضاء الإتحاد والترقي، ففئة منهم - وهي صاحبة النفوذ القوي - شجعت الحركة الصهيونية ومشاريعها في فلسطين، وفئة أخرى حاربت النشاط الصهيوني واعتبرت نفسها مغبونة ومغرراً بها، ورأت أن الحركة الصهيونية واليهود استغلوا أعضاء تركيا الفتاة لتنفيذ مآربهم. وتضيف «المشرق» حقيقة وهي أن حزب الاتحاد والترقي تنبه لحرج الموقف وتخوف من حدوث مضاعفات وانقسامات «وان صادق بك وجه كل همته لمقاومة جاويد بك وزير المالية الذي ساءت به الظنون لوفرة علائقه بالمضاربين ولاسباغه النعم على آله، وصحبه وغيرهم من اليهــود المسلمين [الدونمة] وأعظم غلطة ارتكبوها أنهم رضوا بأن كاراسو أفندي الماسوني اليهودي يكون من الوفد الذي حمل الفتوى إلى عبد الحميد بخلعه، وقد ارتكبوا بعدها عدة أغلاط»[١]. وكثيراً ما تكررت الانقسامات والمجادلات بين الفئات المتنازعة من أعضاء الاتحاد والترقي وأعضاء مجلس المبعوثان، فقد حدث أن «مفيد بك» - أحد نواب الأحرار وممثـل ألبانيا - هاجم «حسين جاهد» اليهودي صاحب صحيفة «طنين» بشأن اسلوب الحكم، وكاد أن يضربه في داخل المجلس، وتقول «الأهرام» ١٩٠٩ بأن كلام مفيد بك كان كالسهم أصاب حسين جاهد، واندفع هو ومؤيدوه يريدون الهجوم على خصمهم، وكادت تنشب معركة في داخل المجلس لولا فرّق العاقلون بين الطرفين[٢].

وأخيراً يمكن إبراز دور الصهيونية واليهود والدونمة والماسونية في ثورة الإتحاد والترقي والأسباب التي أدت إلى نجاحها فيما أوردته صحيفة «نهضة العرب» في باريس عام ١٩٠٩ حيث أرسل إليها «أحد فضلاء العثمانيين المسلمين في باريس» مقالاً بعنوان «الإسرائيلية في جمعية الإتحاد والترقي» يُستنتج منه تأكيد الشكوك العربية بثورة الإتحاديين، كما يؤكد الوعي واليقظة السياسية والوطنية عند كاتب المقال الذي يقول: «تناقل العارفون

---

(١) لويس شيخو: السر المصون في شيعة الفرمسون، نقلاً عن: المشرق، آب (اغسطس) ١٩١١، العدد ٨، ص ٦١٨، ٦١٩. للمزيد من التفصيلات عن معارضة بعض النواب العثمانيين لممارسات جاويد بك، انظر: المنار، ١ آذار (مارس) ١٩١١، م ١٤، ج ٢، ص ١٥٩،

(٢) انظر: الأهرام، ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩، العدد ٩٣٦٨، انظر ايضاً: توفيق برو: العرب والترك ١٩٠٨ - ١٩١٤، ص ١٢٥.

من الناس ما كان من أمر الإسرائيليين والماسون مع جمعية الاتحاد والترقي واشتراكهم في نهضتها وقيامهم بمناصرتها حتى ذهب البعض إلى أن فوزها كان ثمرة مساعيهم ثم توسعوا في البيان فقالوا : إن اليهود لما قنطوا من تحقيق أمانيهم في عهد الحكم السالف باستملاك أراضي فلسطين وتشييد مملكة إسرائيلية فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام عمدوا إلى الماسونية ولهم فيها اليد الطولى كما لا يخفى ، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم في تلك الأرجاء وجروا في هذا السبيل على خطتهم المعروفة في التسلط على الحكومات الأوروبية فاستعانوا بالماسونية واستتروا وراءها ، ودفعت الماسونية جمعية الإتحاد والترقي ومدتها بالرأي والمال ، وجعلت أنديتها لها ملجأ فامتنع على أعوان السلطان المخلوع ولوجها وانضم إليها أمراء العسكرية وأخذوا مع الجمعية بنشر مبادئهم وأفكارهم في الولايات المكدونية واستمالوا إليها الكثيرين وفازوا بالقوة التي مكنتهم من قلب الحكم المطلق وتبديله بالدستور » .

ويتابع الكاتب قوله : « ومعلوم أن إسم الجمعية « الإتحاد والترقي » هو إسم اللوج الماسوني في سلانيك . فاشتراك الماسونية في نهضة الأحرار أمر ثابت لا يختلف فيه إثنان ، وما كان ذلك ليدعو إلى التخوف والوجس ما دامت نتيجته تأييد الحرية والمساواة وخير الأمة والبلاد ، ولكن الذي جعل الأمر موضوعاً للتأويل والاشتباه إنما هو الحركة الاسرائيلية الكامنة وراءه وغاية اليهود من السعي بالفتنة في الدولة والعمل على دمارها ليشيدوا على خرائب آل عثمان المملكة الاسرائيلية التي ما برحوا يحلمون بها. أما اللائحة التي بنوا عليها هذا التدبير فهي في اعتقادهم أن المتمسكين بالدين من مسلمي العرب والترك لا يرتاحون إلى الحرية والمساواة في دولة هي قاعدة الخلافة الإسلامية فيقومون على الأحرار ويقع بينهم الشقاق والنزاع وتضطر الدول الأجنبية إلى وضع يدها لحماية مصالحها الكثيرة وتحقيق مطامعها الكبيرة . ويزيد في توسيع الخرق ما هي عليه العناصر العثمانية من التباين والتنافر فيستحكم البلاء ويفضي الشر إلى تشتيت شمل الدولة وهدم أركانها وبذلك يبلغون القصد ويتم لهم المراد[1] » . وأضاف كاتب

(١) كاتب مجهول : الاسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي ، نهضة العرب ، ١٤ أيار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ٦ ، ص ٢ .

المقال [1] أنه لم يكن ليصدق هذا القول «حتى وقفت في الجرائد آخراً على التفاصيل المتعلقة بالجيش المكدوني وفيها أن معظم العساكر التي تألفت منها حملة سلانيك كان من اليهود، وكان الضباط يولونهم الأفضلية على عساكر المسلمين فأدهشني هذا الخبر، ثم ما لبثت ان طالعت عن الوفد الذي حمل للسلطان عبدالحميد فتوى الخلع، وقد تألف من أربعة أعضاء بينهم اسرائيليان عمانويل قره سو رئيس اللوج الماسوني في سلانيك وسلمون ابران. وعثرت في جريدة «النيويورك هرالد» و «البرلينر تاجبلاط» وغيرهما من جرائد العالم الكبرى أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي من عسكريين وملكيين إنما هم تلامذة قره سو في سلانيك. وقرأت أيضاً في عددكم الأخير ذكر الاسرائيليين في وفد الخلع وحملكم ذلك على محمل التساهل وحرية الضمير عند جمعية الإتحاد والترقي، فلم يعد عندي مجال للتردد ورأيت في ذلك غير ما رأيتم، ولا يسعني بعد كل ما ظهر وثبت أن أخالف القائلين بمآرب اليهود ودسائس سياستهم الخفية».

وأضاف الكاتب مستنكراً على الاتحاديين توكيلهم اليهود بتنفيذ فتوى الخلع للسلطان بقوله «متى كان الأئمة تعهد إلى اليهود بتنفيذ الفتاوى الشرعية وتنتدبهم سفراء إلى خلفاء الإسلام يتلون عليهم نص الشرع الشريف ويبلغونهم ارادة الأمة بخلعهم عن كرسي الخلافة؟ بل ما الذي اضطر جمعية الإتحاد والترقي يا ترى إلى تأليف الوفد على هذه الصورة، وكيف رضي الاسرائيليان بأن يكونا ممثلي الإسلام في هذه المهمة؟ أفاتهم ما يكون من تأثيره على المسلمين، أم أيقنوا بالفوز العاجل فظنوا انهم قبضوا على عنان الدولة وقريباً ينشرون فوقها راية اسرائيل؟ ولعمري لا أرى هناك إلا استدراجاً في الخطة التي آلوا على انفسهم اتباعها، وقد ناصروا أصحاب الإتحاد والترقي حتى ولوهم الحكم بالسيف ومكنوهم من العرش فخلعوا سلطاناً ونصبوا سلطاناً واستأثروا بحق يختص بالمسلمين، ثم باهوا به وافتخروا وقالوا: جمرة نلقيها في صدر الإسلام فتتلظى على فتيان الترك فنصليها بينهم ناراً حامية تلتهم الدولة وتقوض أركانها فنقيم على بقاياها هيكل أورشليم».

(١) لم تذكر الصحيفة اسمه، انما يبدو انه كان من مؤيدي الاتحاد والترقي ومؤيدي الثورة على السلطان، ولكن بعد ان رأى الظروف والملابسات التي أحاطت بالثورة أبى على نفسه إلا ان يعلن الحقيقة، ويشجب ممارسات اليهود والاتحاديين.

وأضاف الكاتب شارحاً بعض نشاطات الصهيونية معتمداً على ما نشرته جريدة « الطان » (Temps) في ٥ أيار (مايو) عام ١٩٠٩ من أن « اسرائيل زنغويل » رئيس الجمعية الاسرائيلية — التي تسعى لتشييد مملكة اسرائيلية — لما فرغت يده من تحقيق هـذه الأمنية في فلسطين وأميركا الجنوبية عمد سنة ١٩٠٧ إلى مفاوضة « رجب باشا » والي طرابلس الغرب ومشيرها واتفق معه ومع العساكر والضباط وكلهم من الأحرار المبعدين لكي يستعمر اليهود تلك الولاية ويستقلوا بهـا ، وأن الاتفاق تم فيما بينهم على هذه الشروط إلى غير ذلك ... « وبعد هذا من لا يرتاب بأمر اليهود مع الأحرار ومن لا يحزن ويضطرب من أن فتياننا أنصار الحرية آلة لتنفيذ المطامع ، ونهضتهم الشريفة مكمناً للمآرب والدسائس التي يحاول المفسدون أن يقضوا على الأمة والبلاد[١] » .

هذا وقد أجاب محرر « نهضة العرب » مؤكداً ما ذكره صاحب المقال ، بأنه يكفي الاطلاع على ما أوردته صحيفة (Le Matin) في افتتاحيتها الصادرة في ٧ أيار (مايو) عام ١٩٠٩ عندما قالت : « أنه كان من الممكن للوهلة الأولى إقناع العثمانيين وأشدهم وطنية وإخلاصاً بأن جيش الأحرار لم يدخل الآستانة إلا ليمحق استبداداً وظلماً مهيناً ، ولكنهم عندما رأوا العصابات البلغارية يقودها « سادنسكي » تسوق الجنـد النظامي مقيداً إلى محاصرة يلدز، ورأوا قره سو يحمل فتوى الخلع إلى السلطان علموا ان ليس هناك خلع سلطان بل تقويض أركان السلطنة العثمانية وآخر عهد العثمانيين، بالملك والدولة »[٢] وأضاف المحرر بأنـــه قرأ في جريدة « الأكلير » و « الليبر بارول » وسواهما من الصحف الكبرى مقالات بالمعنى نفسه[٣] .

ويمكن القول ان ثورة ١٩٠٨ وحادثة خلع السلطان ١٩٠٩ لعبتا الدور الأول والفعّال في انتعاش الأمـــاني الصهيونية لاقامة « مملكة اسرائيل » في فلسطين . وقـد أثبتت الأحداث بعد ذلك تزايد الهجرة اليهودية إلى

---

(١) الاسرائيلية في جمعية الاتحـــاد والترقي ، نهضة العرب ، ١٤ أيار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ٦ ، ص ٢ .

(٢) نهضة العرب ، ١٤ أيار (مايو) ١٩٠٩ ، العدد ٦ ، ص ٢ .

(٣) انظر مقـــال رفيق العظم في المقطم ، ١٣ آب (اغسطس) ١٩٠٩ الذي شرح فيه دور اليهود في ثورة الاتحاديين ، وكان رفيق العظم قد سافر إلى الآستانة في صيف عام ١٩٠٩ للاطلاع على السياسة الجديدة في العهد الجديد .

الاراضي المقدسة ، في الوقت الذي انشق بعض الاتحاديين عن حركتهم معارضين هذه الهجرة ، وفي الوقت الذي أعلن فيه العرب الموالون للاتحاديين معارضتهم أيضاً للسياسة التي تتبعها جمعية الاتحاد والترقي ولنشاط الحركة الصهيونية في أراضيهم .

***

وأخيراً ، وبنتيجة البحث الوثائقي أمكن التوصل إلى عدة نتائج يمكن تلخيصها على النحو التالي :

إن محاولة السيطرة على فلسطين جرت عملياً منذ عام ١٧٩٨ وليس أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ذلك حينما قام نابوليون بحملته على الشرق وتوجيهه نداء إلى اليهود لمؤازرته في السيطرة على الأراضي المقدسة وإسكان اليهود فيها . وكان اليهود في عداد المموِّلين الأوائل للحملة الفرنسية ، كما أن يهود الدولة العثمانية قاموا بتقديم العون وتيسير سبل الحملة وان كانوا قد انكروا هذا العون . وبعد فشل أهداف الحملة الفرنسية بدأت بريطانيا تعلن حمايتها لليهود بواسطة أول قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٨ ، وقد أرسل يومذاك « بامستون » — وزير الخارجية البريطانية — تعليماته إلى القنصل « وليم يونغ » (W. Young) بضرورة منح الحماية لليهود في فلسطين . وبدأت وزارة الخارجية البريطانية تسعى لدى الباب العالي لاقناعه بقبول اليهود كمستوطنين في الأراضي المقدسة ، وطالبت بريطانيا الحكومة العثمانية عام ١٨٤٥ بطرد المسلمين من فلسطين إلى مناطق أخرى في آسيا الصغرى، وإحلال اليهود مكانهم ، إلا أن الباب العالي والحكومة العثمانية رفضا هذا المسعى وهذه المقترحات البريطانية.

وتدعي بعض المصادر الصهيونية من أن حاكم مصر محمد علي باشا قد اتفق مع اليهودي البريطاني « مونتفيوري » على استيطان يهودي في فلسطين بما يترتب على ذلك من وجود حاكم يهودي في دولة يهودية مستقلة ، إلا أن الوثائق المعاصرة لبلاد الشام وفلسطين أثبتت عكس هذا الادعاء ، ولعل وثائق « الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا » خير دليل بأن الحاكم المصري ما كان ليرضى بإقامة دولة يهودية في فلسطين فكان طوال سني حكمه متجاوباً كل التجاوب مع مطالب أهل فلسطين فيما يختص هذا الموضوع .

أما تسوية لندن عام ١٨٤٠، فلم يكن هدفها ضرب محمد علي في مصر والشام وتقليص قدراته الصناعية والحربية والاقتصادية فحسب، بل كان لهذه التسوية أسباب استعمارية أخرى تتعلق مباشرة بمستقبل فلسطين، لأن إقامة وحدة عربية إسلامية بين مصر وبلاد الشام من شأنها أن تحول دون تحقيق المطامع اليهودية والأوروبية، ولأن قيام دولة عربية واحدة ستقطع الطريق على إمكانية إنشاء دولة يهودية في فلسطين تحت الرعاية البريطانية. ولطالما حرّك اليهود الفتن الداخلية في بلاد الشام ولا سيما في عام ١٨٦٠، وثبتت ادانتهم في تردي الأوضاع الأمنية في المنطقة، مما اضطرهم وقتذاك إلى طلب الحماية البريطانية وتدخل السير «مونتفيوري» لأنقاذهم مما اتهموا فيه، ومما يدل على ذلك ما عثرت عليه من وثائق في مجموعة «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان عام ١٨٦٠».

واستمر النشاط الصهيوني – البريطاني وتزايد نتيجة لشراء بريطانيا أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥. وبالدليل القاطع فان أموال هذه الصفقة لم تكن أموالاً بريطانية بقدر ما كانت أموالاً يهودية، لأن عملية الشراء تمت بواسطة دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني اليهودي، وبأموال عائلة روتشيلد اليهودية أيضاً، وقد اعترف «دزرائيلي» بأن الهدف من هذه العملية لم يكن السيطرة على مصر فحسب وإنما السيطرة على فلسطين أيضاً، وفي عام ١٨٨٠، صرّح بأن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقة القناة. وفي عام ١٨٨٢ قال «ادوارد كوزليت»: ان احتلال مصر قد وحّد بين مصالح الأمبراطورية البريطانية في الشرق وبين مصالح اليهود في فلسطين. وأكد «زانغويل» – الزعيم الصهيوني – هذه الحقيقة بقوله: الآن وليس في وقت آخر هي فرصة اسرائيل، لن نصبر لا اليهود ولا فلسطين بعد ان نقلت قناة السويس العالم إلى أبواب فلسطين.

وكان يقابل النشاط السياسي الصهيوني نشاط آخر تمثل بالهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة، ففي منتصف القرن التاسع عشر بدأت الهجرة اليهودية تتخذ طابعاً خطراً على البلاد لما أظهرته من أهداف استيطانية ولكن عدد اليهود حتى عام ١٨٣٩ كان لا يتجاوز ستة آلاف مقابل ثلاثمائة ألف عربي أي بنسبة ٢٪ من السكان. وبتزايد الهجرة اليهودية تزايد خطر القادمين فقد بلغ عددهم بين عام ١٨٨٢ وأوائل القرن العشرين

حوالي مائة ألف مهاجر، مما حدا بالحكومة العثمانية في إصدار عدد من القوانين الخاصة بالهجرة التي استطاعت بها أن تقلص من عددهم حيناً، وتحد من سيل الهجرة المتدفق حيناً آخر.

وكان مؤتمر بال عام ١٨٩٧ قد أقر بضرورة إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين، رغم معارضة عدد كبير من اليهود، ولكن المنظمة الصهيونية استمرت في مساعيها مع الدولة العثمانية والدول الاستعمارية والأوروبية لتحقيق مشروعها، غير أن القوانين العثمانية والفرمانات السلطانية منعت إلى حد تدفق المهاجرين اليهود نظراً لخطورة هجرتهم على مستقبل فلسطين، ونظراً لتسببهم في تأخر فلسطين اقتصادياً واجتماعياً وصحياً. ولكن يلاحظ أنه رغم إصدار القوانين العثمانية فان المتصرفين والحكام المرتشين لعبوا دوراً مؤثراً في انجاح الهجرة اليهودية، بالاضافة إلى فساد الادارة الضرائبية العثمانيـة وطرح أراضي الفلاحين بالمزاد العلني إستيفاءً للضرائب، كما أن الإقطاع اللبناني والسوري والفلسطيني قد ساهم إلى حد كبير ببيع الأراضي الفلسطينية إلى القادمين اليهود.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من الواقع الأليم الذي عاشه الفلاح الفلسطيني فقد استمر متمسكاً تمسكاً شديداً بأرضه وعمله وجعلها تدر خيرات وفيرة، لكنه في الوقت الذي شعر فيه أن حياته اصبحت مهددة بالخطر نتيجة لسلب أرضه أو طرده من عمله أبدى معارضته الشديدة واحتجاجه المستمر على الواقع الجديد. والحقيقة أن ردود الفعل الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية، تعود إلى بداية الهجرة، ويمكننا أن نستخلص من تقرير «أسعد خياط» القنصل البريطاني في يافا عام ١٨٥٨ من أن ردود الفعل العربية لم تبدأ في أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين كما كان يعتقد، بل تعود عملياً إلى منتصف القرن التاسع عشر عندما كان يقوم العرب بهجمات مستمرة على اليهود والأجانب بقصد ارهابهم ومنعهم من الإستيطان في فلسطين. واحتج القنصل على أن القاضي عندما أمر بعدم تسجيل صكوك بيع وشراء عقارات ومزارع للأوروبيين والأميركيين على السواء، إنما كان يخالف الاتفاقات المعقودة فيما بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية. ويمكن القول أن الاضطرابات قد ازدادت في فلسطين بعد سلب أراضي الفلاحين أو شرائها قصراً من قِبل الحكومة العثمانية «والمقاطعجية»

– الإقطاع – اللبنانيين أمثال عائلات : تويني ، سرسق ، مدور وغيرها ، والفلسطينيين أمثال عائلات : كسار ، روك ، خوري ، وحنا وغيرها . ففي عام ١٨٨٦ هاجم الفلاحون الخضيرة وملبس – وهي القرى التي كانوا يملكونها في الأساس – مما أجبر الدولة عام ١٨٨٧ على فرض قيود على الهجرة اليهودية . وفي عام ١٨٩٠ قدّم وفد من وجهاء القدس عريضة احتجاج للحكومة العثمانية بسبب تساهل رشاد باشا وعدم تقيده بتنفيذ قوانين الهجرة القاضية بمنع دخول اليهود إلى فلسطين ، وطالبوا باصدار فرمان سلطاني يمنع استيطان اليهود بصورة نهائية ، وقد وقّع على هذه العريضة ٥٠٠ من الاهالي مما يدل على وعي ويقظة الشعب الفلسطيني. وفي عام ١٨٩٧ ترأس محمد طاهر الحسيني لجنة عربية للوقوف في وجه الإستيطان اليهودي ومراقبة تسجيل وبيع وشراء الأراضي.

ومن الأهمية بمكان القول ، أنه اتضح لي من خلال دراستي لمواقف الزعامات العربية أنها لم تكن على مستوى الخطر الصهيوني ولا على مستوى يقظة الشعب الفلسطيني الذي لمس بنفسه مدى هذا الخطر على مستقبل بلاده . فكانت هذه الزعامات تنقسم إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول كافح من أجل إنهاء السيطرة العثمانية على البلاد العربية ، والقسم الثاني كافح من أجل إنهاء السيطرة الأوروبية – وبالذات البريطانية – على هذه البلاد ، ودعا إلى دعم الدولة العثمانية . وبينما تمثل الزعامات الشامية القسم الأول ، تمثل الزعات المصرية القسم الثاني . والواقع أنه بالرغم من وعي هذه الزعامات سواء على مستوى السيطرة العثمانية أو السيطرة الأوروبية ، غير أنني لم أجد أن هذا الوعي قد تعدى حدود ذلك رغم ان الخطر الصهيوني كان ماثلاً للعيان ، بدليل أن بعض الزعامات العربية مثل «أمين أرسلان» – وهو مثال للزعامات الشامية – و « مصطفى كامل » – وهو مثال للزعامات المصرية – لم تتحرك بفعالية ونشاط ، بل لم تبدِ اهتماماً يذكر بالحركة الصهيونية وأخطارها على مستقبل الأراضي المقدسة ، وربما يعود سبب ذلك إلى انشغال هذه الزعامات إما بالاستعمار البريطاني كما هو في مصر ، أو الانشغال بالسيطرة العثمانية كما هو في بلاد الشام ، على أن ذلك لا يبرر الصمت التام عن الخطر الصهيوني حيناً ، والتأييد للمنظمة الصهيونية أو الإعجاب بها حيناً آخر . وبالإضافة إلى ذلك فقد اتضح لي

من خلال البحث بأن الصحافة العربية لم تكن كلها أيضاً على مستوى الخطر الصهيوني ، ولكن شذت عن هذه القاعدة مجلة « المنار » ووعى صاحبها رشيد رضا هذا الخطر الذي نبّه إليه منذ عام ١٨٩٨ . وتلت « المنار » فيما بعد صحيفة « الكرمل » التي عبرت في الفترة ١٩٠٨-١٩٠٩ عن وعي سياسي ناضج برئاسة صاحبها نجيب نصار . كما أن « المشرق » بدأت بعد الثورة على السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ - ١٩٠٩ تبين أهداف الحركة الصهيونية على فلسطين . وينبغي أن نذكر في هذا المجال أن بعض الزعامات الفلسطينية كانت تعي الخطر الصهيوني وتظهره منذ عام ١٨٩٩ مثال : يوسف ضيا الخالدي ، كما أن بعض المفكرين اللبنانيين أشاروا إلى أهداف الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٠٥ مثال : « نجيب عازوري » .

ويلاحظ بأنه بعد ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ تبدلت السياسة العثمانية إزاء فلسطين والبلاد العربية وازدادت موجة الهجرة اليهودية ، بينما كانت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد تعمل ما بوسعها لمنع الاستيطان اليهودي في الأراضي المقدسة . وكان هذا الموقف قد أبداه السلطان منذ بداية عهده عندما جاءه « أوليفانت » (Oliphant) المبعوث اليهودي لمطالبته بإنشاء كيان لليهود في فلسطين ، فكان رد السلطان بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية منطقة من المملكة إلا في فلسطين ، لأن الدولة ترحب بالمضطهدين ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة دولة لهم في فلسطين يكون أساسها الدين .

والجدير بالذكر أن سياسة عبد الحميد الثاني إزاء الاتحاديين والصهيونية ودول أوروبا قد أدت إلى إتفاق هذه العناصر مجتمعة للقيام بثورة ١٩٠٨ . وبواسطة المحافل الماسونية تمكن ضباط الإتحاد والترقي من التحرك بفعالية أكثر ، لأن وجودها في سلانيك كان يضمن لها الحماية الدولية على اعتبار انها إحدى الولايات الثلاث الخاضعة للمراقبة الدولية . وعلى هذا يمكن أن نستخلص من دراسة الوثائق التي بين أيدينا أن ثورة الإتحاد والترقي هي ثورة يهودية - دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو عثمانية ، لأن لجنة سالانيك الإتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة ، وإن عناصر يهودية مثل : قارصوه وسالم وساسون وفارجي ومازلياح وجاويد وبالجي ، قد لعبوا دوراً أساسياً في تنظيم هذه

اللجنة وفي إنجاح الثورة . كما وأن معظم اليهود قد أظهروا حماساً متزايداً في ضرورة التقدم وبسرعة نحو العاصمة لاحتلالها ، وكان الجيش الزاحف نحوها ايضاً بقيادة الكولونيل رمزي بيه هو أحد يهود الدونمة . وبالاضافة إلى ذلك فان الصهيونيين في فلسطين أظهروا اهتماماً بالغاً بالثورة على أمل تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه أثناء حكم السلطان عبد الحميد وقد أكد مثل هذه الحقائق جميع الدبلوماسيين البريطانيين أمثال : لوثر وبلش ومارلنغ .

وتؤكد الوثيقة السلطانية الحميدية المرسلة إلى الشيخ محمود أبو الشامات – والتي ثبتت صحتها – بأن السلطان ما خلع عن العرش إلا لأنه رفض عرض (١٥٠) مليون ليرة ذهبية مقابل إنشاء وطن قومي لليهود . ولذا فقد حرصت المنظمة الصهيونية في عهد السلطان محمد رشاد على الحصول على قانون يسمح لليهود بالهجرة والتملك وإلغاء الجواز الأحمر ، كما أن النفوذ اليهودي والصهيوني ظهرا بوضوح في أوساط الحكومة الجديدة ، لا سيما وأن وزير المالية جاويد بك كان أحد اليهود الذين كان لهم الدور البارز في قرار خلع السلطان ، مما أدى إلى قيام حركة معارضة ضد سياسة الحكومة وضد سياسة وزير المالية بشكل خاص ، وتمثلت هذه المعارضة بممثلي المبعوثان صادق بك ومفيد بك ، ونواب فلسطين الثلاثة : روحي الخالدي ، سعيد الحسيني ، وحافظ السعيد . وبالاضافة على تأكيد الوثائق البريطانية لدور اليهود في ثورة ١٩٠٨ – ١٩٠٩ وتزايد نفوذهم في العهد الإتحادي ، فقد أكدت أيضاً الصحف المعاصرة هذه الحقائق ومنها صحف : المشرق ، والمنار ، والعصر الجديد ، ونهضة العرب . ولعل في دراسة مقال : « الاسرائيلية في جمعية الإتحاد والترقي » لأحد العثمانيين المسلمين في باريس هو خير شاهد على ما جرى من ملابسات وظروف الثورة والخلع ، الذي ورد فيه تأكيد على كل الحقائق التي سبق وتناولتها في هذا البحث ليأتي مقالاً ملماً بكل أسباب ونتائج ثورة الإتحاديين . ولا بد لي أخيراً من ذكر نتيجة من نتائج البحث ، وهي أن المسؤولية تلقى في هذه الفترة على جهات أربع هي :

١ – الادارة العثمانية الفاسدة المرتشية والتي كانت في كثير من الأحيان تخالف قرارات السلطان والحكومة .

٢ – الإقطاع اللبناني والسوري والفلسطيني الذي ساهم إلى حد كبير

في تردي أوضاع الفلاح الفلسطيني وسهل عمليات بيـع الأراضي للمهاجرين اليهود .

٣ ـ الزعامات العربية التي لم تلعب الدور الفاعل في توعية الشعب العربي بأخطار الحركة الصهيونية ، رغم أن شعب فلسطين لم يتوانَ في إظهار ردود فعـله المستمرة . كما وأن تلك الزعامات لم تظهر معارضتها لحركة الهجرة اليهودية ، وكل ما فعلته هو تركيز جهودها في معارضة الدولة العثمانية أولاً وبريطانيا ثانياً .

٤ ـ الدول الاستعمارية التي ساعدت الحركة الصهيونية بأسلوب أو بآخر لتحقيق أهدافها الأولية في القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٠٩ .

تم بحمد الله

المَلاحِق

ملحق رقم (١)

رسالة السير شارل نابيير (Charles Napier) عام ١٨٤٠ إلى اهل الشام يعلمهم فيها باتفاق الدول الأوروبية والدولة العثمانية على إنهاء حكم محمد علي(١)

أيها السوريون

إن بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا بالاتفاق مع عظمة السلطان قد اتفقت جميعاً على إنهاء حكم محمد علي في سوريا . وقد أُرسلت على رأس قوة بحرية متقدمة لأساعد في إزالة نير الحكم الذي بسطه باشا مصر على هذه البلاد .

إنكم تعلمون أنه قد صدر عن عظمة السلطان « خط شريف » يضمن سلامة رعاياه وضمان ممتلكاتهم ، وينطبق مفعول هذا « الخط الشريف » على جميع أجزاء الأمبراطورية العثمانية بما في ذلك هذه البلاد بالذات . كما أن الدول الحليفة قد رفعت توصية إلى عظمة السلطان من شأنها أن توفر لكم الخير والراحة ...

---

(١) نقلاً عن :
W. P. Hunter; Narrative of the Late Expedition to Syria, vol. 1, pp. 7,8.
زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، ص ١٨٩-١٩٠، بيروت ١٩٧١ .

ملحق رقم (٢)

تعريب بعض الفرمانات السلطانية التي أصدرها السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٠٨ هـ الخاصة بالهجرة اليهودية إلى فلسطين(١).

الفرمان الأول – ٢١ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨ هـ .

لا يسمح بإجراء ينتج عنه قبول اللاجئين اليهود المطرودين من كل بلد يترتب عليه إنشاء حكومة موسوية في القدس مستقبلاً . وبما أن هؤلاء ليسوا من مواطني أمبراطوريتنا فيتحتم إرسالهم إلى أمريكا .

يرفض قبولهم وقبول غيرهم في البلاد بل يجب تهجيرهم إلى بلاد أمريكا بوضعهم في السفن دون أي تأخير وعرض الموضوع علينا بعد اتخاذ قرار خطير بشأن تفاصيله . لماذا نقبل في بلادنا من طردهم الأوروبيون المتمدنون وأخرجوهم من ديارهم ؟ لا محل لقبولهم ما دامت عندنا فتنة أرمنية . فنطلب إلى مقام الصدارة إتخاذ قرار عام في هذا الموضوع دون حاجة لعرض الموضوعات فيما بعد على أحد .

الفرمان الثاني – ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨ هـ .

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

بما أن قبول هؤلاء الموسويين ومنحهم الجنسية العثمانية وإسكانهم أمر ضار ، وبما أن هذا التسامح تنتج منه مستقبلاً إقامة دولة موسوية ، فيتعين عليه عدم قبولهم في البلاد ، وعلى اللجنة العسكرية أن تقدم على ضوء هذا بعرض القرار سريعاً على مقام الصدارة .

---

(١) نقلاً عن كتاب : جواد رفعت اتلخان : الاسلام وبنو اسرائيل ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ . غير منشور .

الفرمان الثالث ــ ٢٩ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨ هـ

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

إن الدول التي تقدم إلينا إحتجاجات عتاب بحجة عدم قبول الموسويين الذين أخرجوا مطرودين من دول متمدنة ورفضت الدول الأخرى قبولهم ، لو أنها ترى في نفسها حق الإحتجاج فلتتقدم به إلى الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم . هؤلاء الموسويون أينما سكنوا ومهما اتخــذ ضدهم من التدابير فان الذي يلاحظ عليهم هو النزوح التدريجي إلى فلسطين مقصودهم الأصلي ليقيموا فيها حكومة موسوية فيما بعد بتشجيع الأوروبيين وحمايتهم لهم . وبما أنهم قوم لا يشتغلون بالزراعة والفلاحة وثابت عليهم أنهم سوف يضرون الأهالي مثلما أضروهم في البلاد التي طردوا منها . وكانوا يهاجرون قبلاً إلى أمريكا فان الأنسب لهم أن يتوجهوا إليها أيضاً . ونطلب مذاكرة هذه النقطة في اللجنة العسكرية مذاكرة مستوفاة .

ملحق رقم (٣)

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الهجرة اليهودية إلى فلسطين[١]

إن لليهود نفوذاً في أوروبا أكثر من نفوذهم في الشرق ، لهذا فان دولاً أوروبية كثيرة أرادت التخلص من اليهود ـــ العرق السامي ـــ وأيدت هجرتهم إلى فلسطين . ولكنّ في دولتنا عدداً كبيراً من اليهود ، فاذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربي الإسلامي (مسلمان عرب ـــ Müslümen Arab) متفوقاً في فلسطين يجب أن لا نسمح بتهجير اليهود اليها . وإذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا لهم بالهجرة ، فانهم بفترة قصيرة يسيطرون على الحكم ، وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم ، ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد .

إن زعيم الصهيونية هرتزل لم يستطع اقناعي بأفكاره . وقد يرى : « أن حل المسألة اليهودية (Yahudi Meselesi) ستنتهي يوم يستطيع اليهودي قيادة محراثه بيده » . وربما كان هرتزل على حق بالنسبة لشعبه ، فانه يريد أرضاً لهم ، ولكن نسي أن الذكاء وحده ليس كافياً لحل جميع المشكلات .

إن الصهيونية لا تريد أراضٍ زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب ، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ، ويصبح لها ممثلون في الخارج . انني أعلم أطماعهم جيداً ، وانني أعرض هذه السفالة (Saflik) لأنهم يظنونني انني لا أعرف نواياهم أو سأقبل بمحاولاتهم . وليعلموا أن كل فرد في أمبراطوريتنا لم يكن لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم ، وأن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة . وانني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين لأنني لا زلت أكبر أعدائهم .

(١) نقلا عن كتاب : السلطان عبد الحميد الثاني : خاطراتي السياسية .
Sultan Abdül Hamit; Siyasi Hatiratım, p. 60 — 61.

ملحق رقم (٤)

تعريب الجواز الاحمر الذي كان يفرض على اليهود الاجانب ان يستلموه لدى زيارتهم فلسطين بدل جواز سفرهم تبعاً للقوانين العثمانية التي صدرت عام ١٩٠٠ [١].

تذكرة إقامة تعطى للأجانب من قبل كومسيون يافا لمنع المهاجرين الموسويين (اليهود) وتحديد وتعيين مدة إقامتهم بثلاثة شهور . ويعمل بها ويحتفظ بها وبعد انقضاء هذه المدة يعتبروا ساقطين من الحكم المعمول به .

الاسم والشهرة	الأوصاف والأشكال والعلامات الفارقة	الصنعة والتابعية	محل الورود	المقصد السياحي	رقم حامل جواز السفر وتاريخه واسم مكان اعطائه الاقامة	تذكرة مرور الحامل للجواز وتاريخ ورقم مكان الاعطاء	مدة السياحة والاقامة شهر	معاملات
شوان بن سالمون	متوسط رفيع حنطي شعره يتخلله شيب عمره ٥١ سنة	تاجر – من المانيا	جنوه	تجارة	١٩ حزيران ١٩٠٩و١٤– جنوه مدينة بن وما جاورها	//	ثلاثة شهور	ان حامل الجواز المبين اعلاه والمرقم والمؤرخ يسلم له بالذات حين عودته وقد افهم ذلك علناً

عندما تطلب هذه التذكرة من قبل مأموري الانضباط ستُبرز ويعمل بها لمدة ثلاثة شهور للاقامة والسياحة في داخل أرض فلسطين . وفي نهاية هذه المدة سيُجبر الذين لم يغادروا فلسطين على الخروج بالقوة.

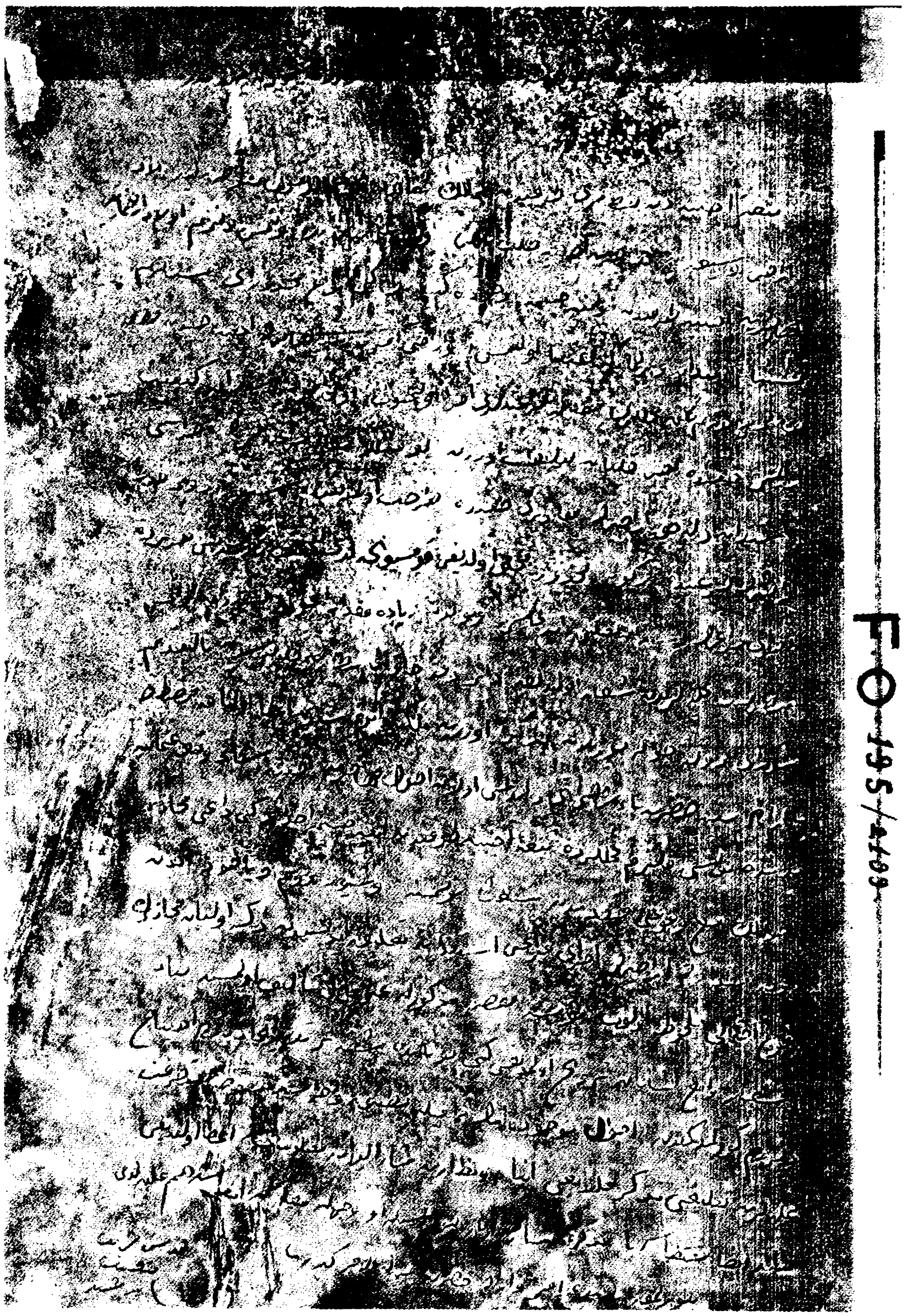
في ١٨ ربيع الأول سنة ٣١٩ – في ٢٢ حزيران سنة ١٩١٠ .

احمد حبيب   من قبل رئيس مالية المرفأ .

(١) نقلا عن :
N. Mandel; Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine 1882 — 1914.

ملحق رقم (٥)

رسالة وزارة الداخلية الى متصرف القدس وفيها تعليمات بمنع بناء الأبنية وبيع الاراضي للمهاجرين الاجانب – اليهود – حرصاً على عدم إثارة المشاكل وردود الفعل العربية في فلسطين[١].



(١) نقلاً عن : Dickson to O'Conor, 2 Nov. 1905, in F.O. 195/2199.
– رسالة مرفقة بالتقرير –

تعريب الملحق رقم (٥)

رسالة وزارة الداخلية العثمانية رقم (١٦٢) إلى متصرف مدينة القدس، في ٣ شعبان ١٣٢٣ هـ - ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٣٢١ رومي .

إنه بناء على التعليمات الصادرة ، يجب الاهتمام بعدم السماح للأجانب بإقامة أبنية كبيرة ، أو الشروع فيها أو محاولة إقامتها على أراضٍ يجب أن تبقى ملكيتها في حيازة المواطنين العثمانيين ؛ لأن من شأن ذلك إثارة المشاكل ، نظراً لقدوم بعض الأجانب المهاجرين من ذوي جنسيات مختلفة ودخولهم إلى الأراضي الواسعة في الممالك السلطانية .

بناء على ذلك ، يفرض على أولي الأمر الإستئذان قبل عملية القيام بتسجيل بيع الأملاك الأميرية الفائضة عن حاجات المواطنين ، وذلك لعدم وجود قانون صريح حول مساحات الأراضي التي يجب التقدم لأمر الإستئذان لها . إلا أنه في حال تسجيل الأراضي البالغ مساحتها ٥٠٠ دونم ، وعند احتمال ظهور أقل مشكلة تظهر للجنة لدى التحقيق ، يجب أن لا يُقدم على عملية الإستئذان ، كما لا يباشر في أمر التسجيل .

وبناء على طلب متصرفيتكم الموقرة بالإستئذان بما يزيد عن تلك المساحة ، فقد قامت وزارة الأملاك والضرائب بالكتابة لمجلس الدولة ، وعلى أثر ذلك صدر قرار عن دائرة الحقوق يؤكد فيه أن الغرض من منع تملّك المهاجرين الأجانب الذين لا يستوطنون إلا بالإرادة السلطانية السنية ، إنما هو لتجنب المشاكل الدائمة التي تترتب على إنشاء هؤلاء المهاجرين لأبنية جسيمة في أماكن يجب أن تكون ملكيتها للمواطنين العثمانيين .

ولما كانت المشاكل تنجم عن أمر الإستئذان – ملحوظة أيضاً – في تسجيل الأراضي البالغ مساحتها ٥٠٠ دونم فأقل، ولما كان هذا الأمر غير موافق للحكمة المفهومة من الغرض الأصلي المذكور ، تقرر أن لا لزوم لاتخاذ تدابير أخرى غير التدابير المتخذة. فعلى ذلك نبلغ متصرفيتكم ضرورة تطبيق الحالة الحاضرة الراهنة . وكذا نبلغكم بأن الوزارة المشار إليها قد أحيطت علماً ، فتحررت الرسالة السامية هذه إلى القدس لإجراء اللازم ، مع العلم أن الحكم والتصرف لمن له الأمر .

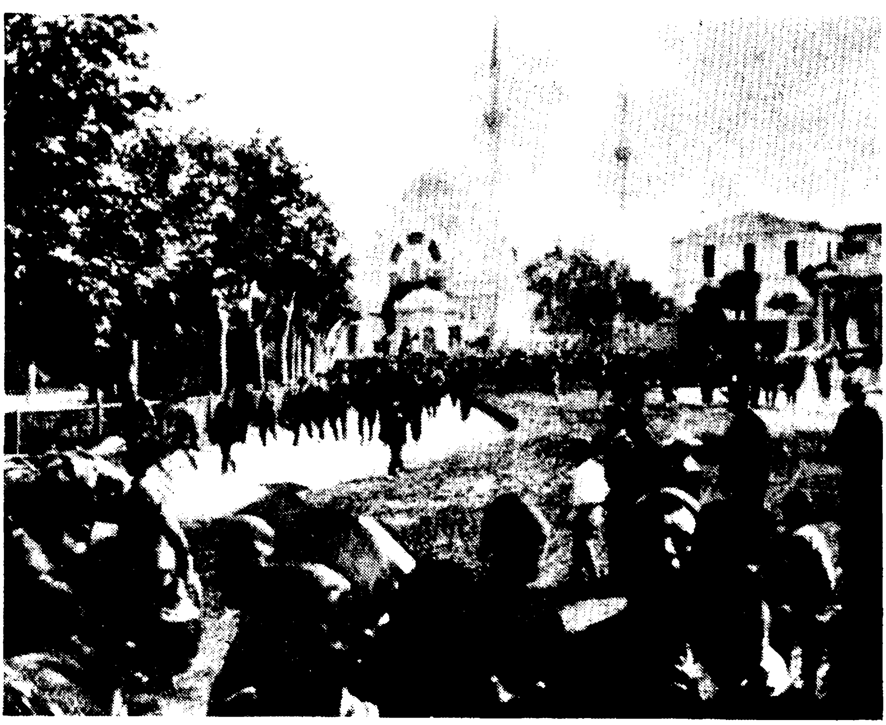
محرر إلى متصرفية القدس الشريف

(الامضاء)

ملحق رقم (٦)

المظاهرات التي قام بها اليهود مع غيرهم من القوميات في عام ١٩٠٨ بعد قيام الثورة ضد السلطان[١].





(١) نقلاً عن : Revue du Monde Musulman, T. 5, 1908.

ملحق رقم (٧)

رسالة جمعية الاتحاد والترقي الى الصحيفة الصهيونية (Neue Freie Presse) لاشعارها بالثورة على السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٩٠٨ .[١]

Très Hononré Monsieur,

C'est aujourd'hui le premier jour de la liberté. Le peuple entier (Turcs, Bulgares, Serbes, etc.) a célébré cette fête. Si le sultan ne tient pas compte de nos revendications, nous marchons sur Constantinople.

Enver
"Membre du Comité Ottoman d'Union et Progrès"
" Général d'Etat Major"

تعريب الملحق رقم (٧)

سيدي المحترم

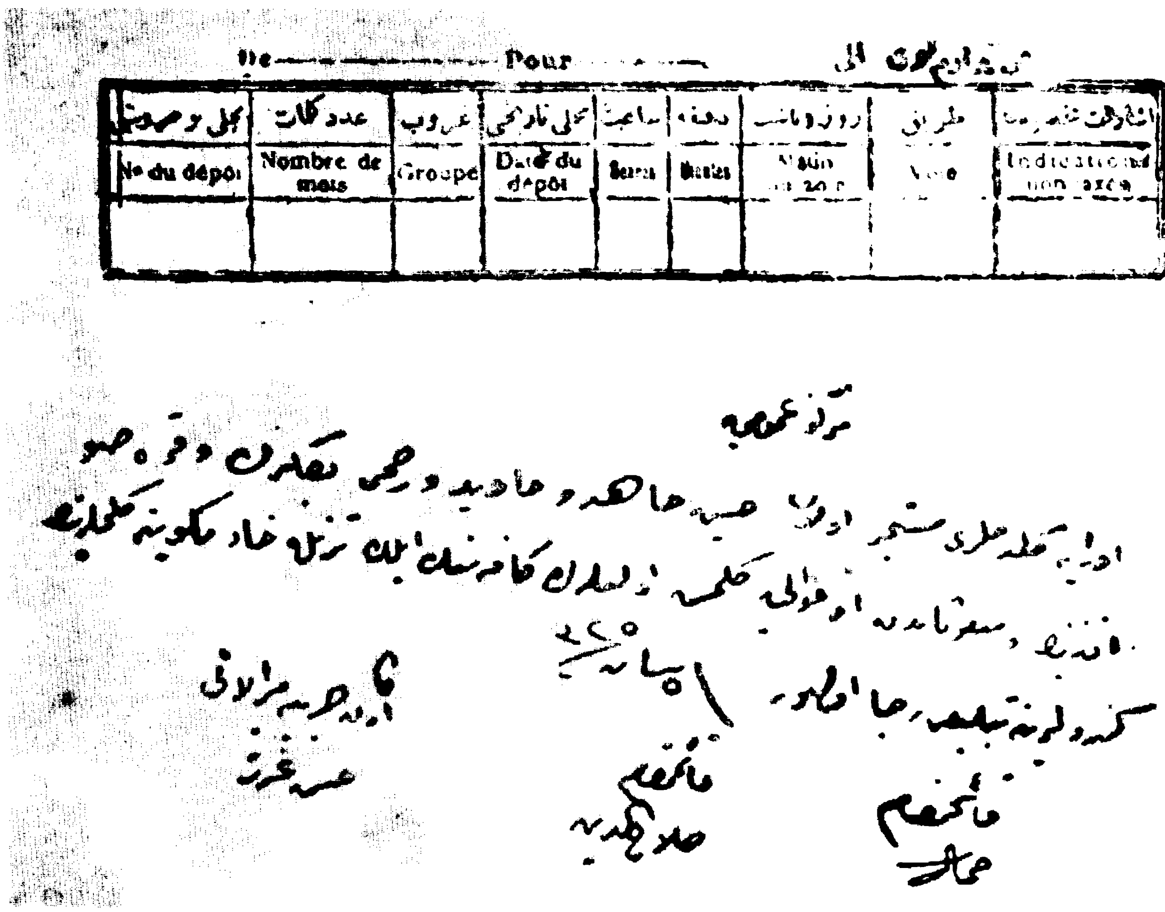
هذا اليوم هو اليوم الأول للحرية . الشعب بأكمله (اتراك . بلغار ، صرب ، الخ .) احتفل بهـــذا العيد . إذا كان السلطان لا يأبه لمطالبنا سنزحف إلى القسطنطينية .

انفر
عضو اللجنة العثمانية للاتحاد والترقي .
– جنرال أركان حرب –

(١) نقلاً عن : Revue du Monde Musulman, T. 5, (Paris 1908).

ملحق رقم (٨)

نص البرقية الداعية إلى عقد مؤتمر في خادم كوي لخلع السلطان عبد الحميد الثاني . وهي موجهة إلى الشخصيات اليهودية والدونمة .



تعريب الملحق رقم (٨)

الرجا إبلاغ البكوات حسين جاهد وجاويد ورحمي وقره صو افندي الذين علمنا وجودهم لديكم والنواب الآخرين ، بضرورة القدوم إلى خادم كوي في أول قطار .

٥ نيسان ١٣٢٥

القائمقام	القائمقام	اميرالاي اركان حرب
جمال	صلاح الدين	حسن عزت

ملحق رقم (٩)

رسالة السلطان عبد الحميد الثاني من سلانيك الى الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق يؤكد فيها ان سبب خلعه عن العرش إنما لرفضه الموافقة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين الى يوم الدين .
اشبو عريضه مي طريقت عليه شاذليه شيخي وجودلره روح وحيات
ويرن وجمله نك افنديسي بولنان الشيخ محمود افندي ابو الشامات حضرتلرينه
رفع ايديورم مبارك اللريني اوپرك ودعالريني رجا ايدرك سلام
وحرمتلرمي تقديمدن صكره عرض ايدرم كه . سنه حاليه شهر مايسك ٢٢ نجي
كونلي تاريخلي مكتوبي واصل اولدي . صحت وسلامتده دائم اولديغكزدن دولايي
الله حمد وشكر ايتدم . افندم اوراد شاذليه قرائتنه ووظيفه شاذليه
اللهيه توفيقيله كيجه وكوندوز دوام ايديورم وبو وظيفه لرمي ادايه موفق
اولديغمدن دولايي الله تعالى حضرتلرينه حمد ايدرم ودعوات قلبيه كزه دائما
محتاج اولديغمي عرض ايلرم . بو مقدمه دن صكره شو مهم مسئله يي ذات
رشادتپناهيلرينه وذات سماحتپناهيلرينك امثالي عقول سليمه صاحبلرينه
تاريخي بر امانت اولارق عرض ايدرمكه . بن خلافت اسلاميه يي هيچ بر سببدن ترك
ايتمه دم . انجق واجحق (جون ترك) اسميله معروف ومشهور اولان
اتحاد جمعيتنك رؤساسنك تضييق وتهديدي ايله خلافت اسلاميه يي تركه
مجبور ايدلدم . بو اتحادجيلر اراضي مقدسه ده فلسطينده يهوديلر
ايچون بر وطن قومي تأسيسيني قبول وتصديق ايتمكلكم ايچون اصرارلرنده
دوام . بو اصرارلرينه وتهديدلرينه رغمنده قطعيا بو تكليفي قبول ايتمدم
وبالآخره يوز اللي مليون التون انكليز ليراسي ويره جكلريني وعد ايتديلر

تتمة رسالة السلطان عبد الحميد الثاني

بو تكليفي دخي قطعيا رد ايتدم . وكنديلرينه شو سوزلرمله مقابله ده
بولندم . وكل ١٥٠ مليون التون انكليز ليراسي دنيا دولوسي
التون ويرسه كز بو تكليفلريكزي قطعيا قبول ايتمه م . بن اوتوز سنه دن
فضله بر مدتده ملت اسلاميه يه وامت محمديه يه خدمت ايتدم بوتون
مسلمانلرك وسلاطين وخلفاء عثمانيه دن آباء واجدادمك صحيفه لريني
قرارتمام . بناء عليه بو تكليفكزي مطلقا قبول ايتمام ديه قطعي جواب
ويردكدنصكره خلعمه اتفاق ايتديلر وبني سلانيكه كوندره جكلريني بيلديرديلر
بو صون تكليفلريني قبول ايتدم . والله تعالى يه حمد ايتدمكه وايدرمكه دولت
عثمانيه يي وبوتون عالم اسلامي ابدي بر لكه اولاجغه اولان تكليفلريني يعني
اراضي مقدسه ده فلسطينده يهودي دولتي قورلمسني قبول ايتمه دم . ايشته
بوندن صكره اولان اولدي وبوندن دولاييده مولاي متعال حضرتلرينه حمد ايدرم
بو مهم مسئله ده شو معروضاتم كافيدر . وشو سوزلرمله مكتوبمه ختام ويريورم .
مبارك الريكزي اوپرك حرمتلرمي قبول بيورمكزي سزدن رجا واسترحام ايدرم
اخوان واصدقائك جمله سنه سلاملر ايدرم . اي همم معظم استاذم . بو بابده سوزمي
اوزاتدم . محافظ علم عالي سماحتبناهيلري وبوتون جماعتكزك معلومي
اولمق ايچون اوزاتمغه مجبور اولدم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢٢ ايلول ٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

تعريب الملحق رقم (٩)

قام بتعريب هذه الرسالة الشيخ احمد القاسمي
مدير عام الاوقاف السورية السابق سنة ١٩٥٧

يا هـــو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

أرفع عريضتي هـــذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية ، إلى مفيض الروح والحياة إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة .

بعد تقديم احترامي ، أعرض انني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين .

سيدي : انني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً . وأعرض انني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة .

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم ، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة ، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب مـا سوى أنني — بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الإتحاد المعروفة بإسم « جون تورك » وتهديدهم — اضطررت واجبرت على ترك الخلافة الإسلامية . إن هؤلاء الإتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة — فلسطين — ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هـذا التكليف . وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً ، فرفضت هذا

التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي : إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً — فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً — فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلن أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضاً .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك ، فقبلت بهذا التكليف الأخير هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين . وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فانني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال . واعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع المهم وبه أختم رسالتي هذه .

ألثم يديكم المباركتين وأرجو واسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي . سلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء

يا استاذي المعظم

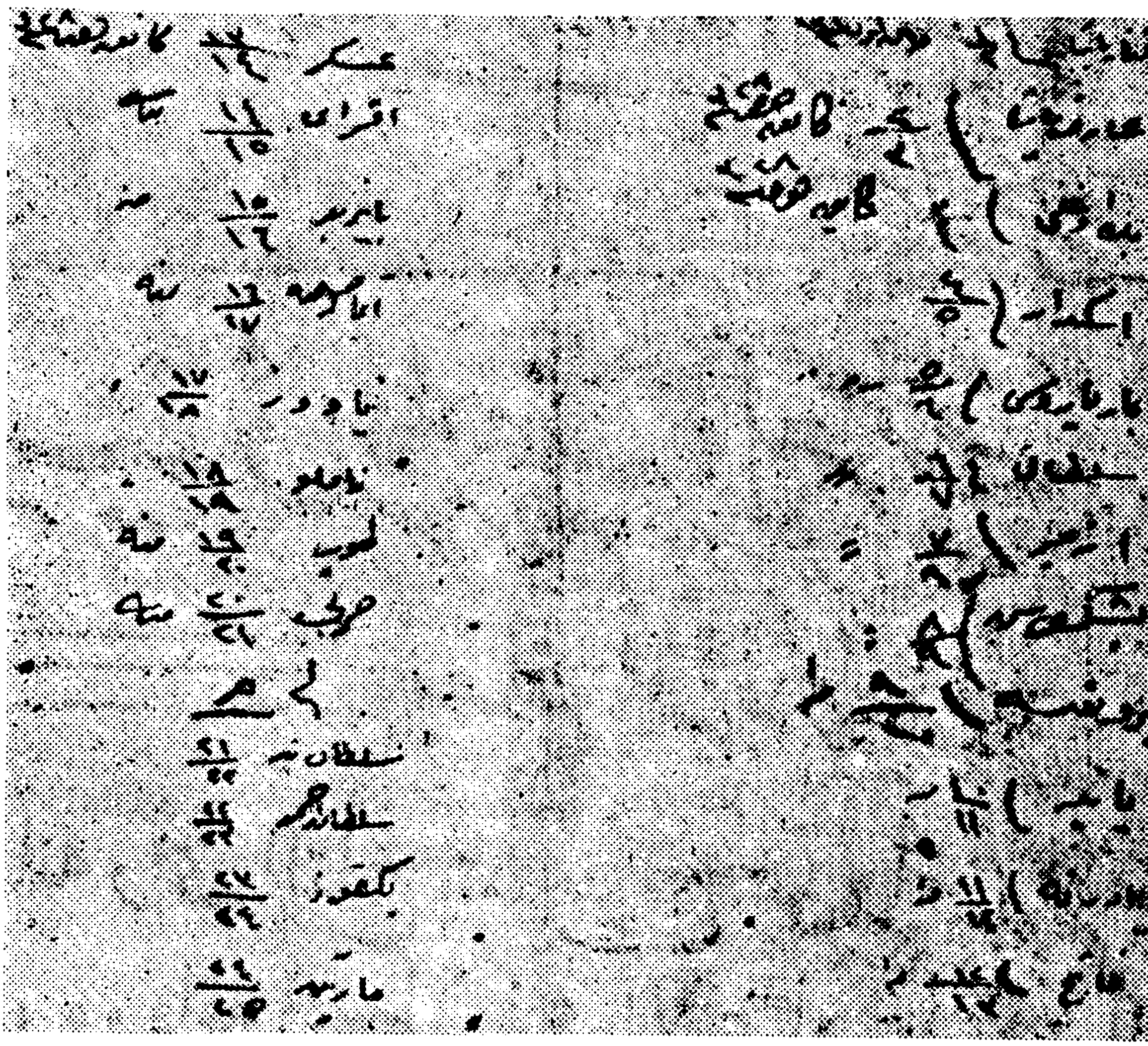
لقد أطلت عليكم البحث ، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علماً ، ونحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد المجيد

كانت التدابير المتخذة بحق السلطان عبد الحميد في معتقله بقصر « بكلربكي » شديدة وصارمة ، إذ عمد الاتحاديون في كل مساء الى استبدال كلمة السر التي لا يجوز لسوى عارفيها دخول القصر والخروج منه[١].



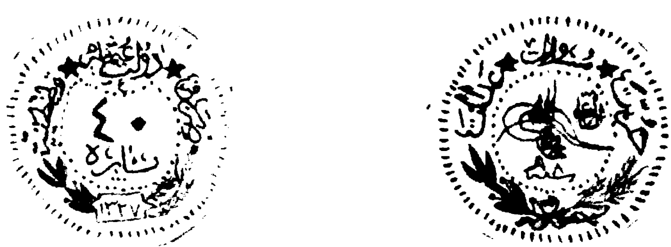
(١) نقلاً عن : دفتر رئيس حراس السلطان في قصر « بكلربكي » .

ملحق رقم (١١)

يظهر هذا الرسم شعار جمعية الاتحاد والترقي – معنوناً بعبارة بادشاهم جوق يشا أي عاش مولانا السلطان – ، وهو نفسه شعار الماسونية ، قارن بالملحق رقم (١٢)

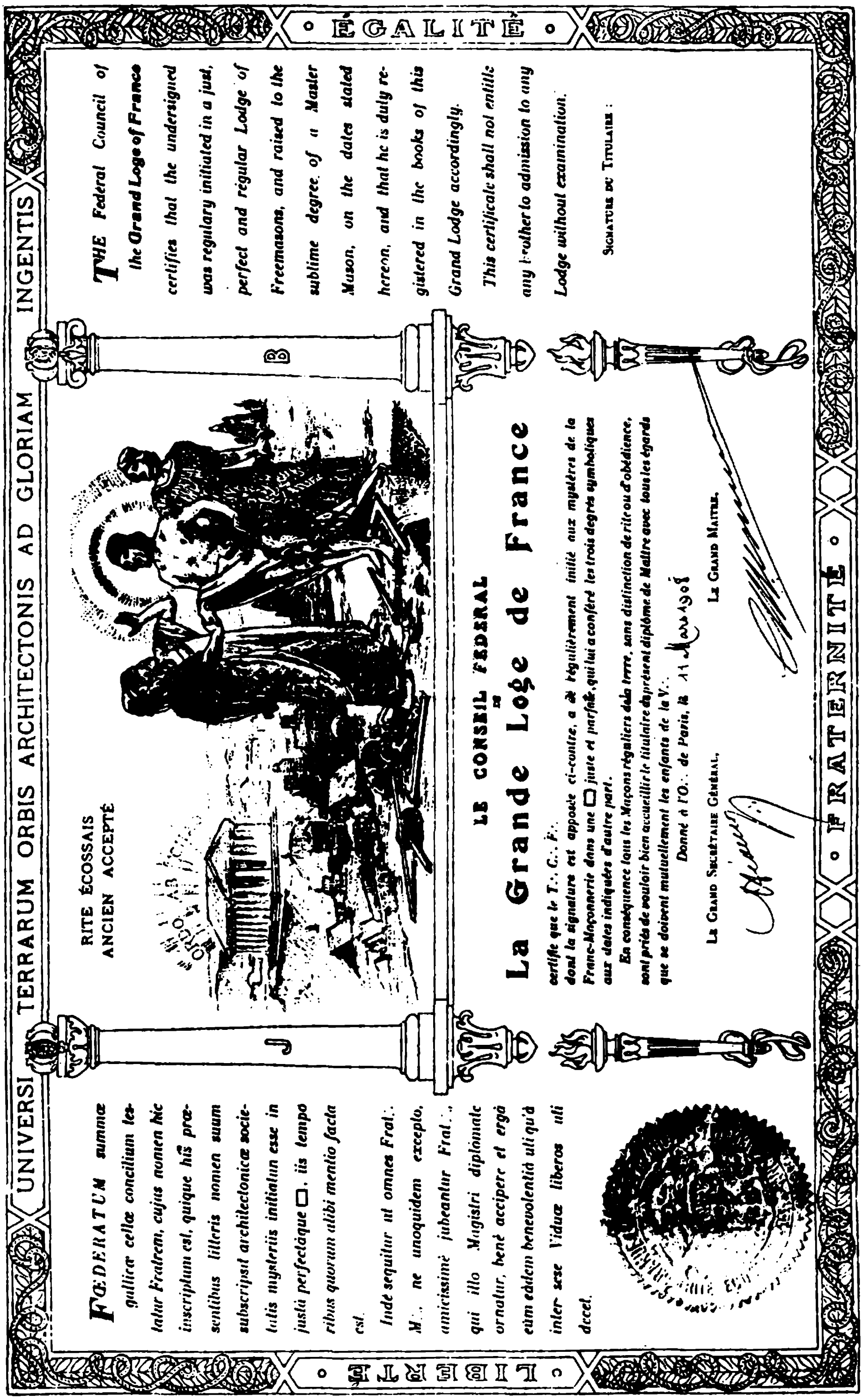


قطعة نقود تركية صدرت في أوائل عهد الاتحاديين وتحمل شعارات الماسونية : حرية – مساواة – عدالة .



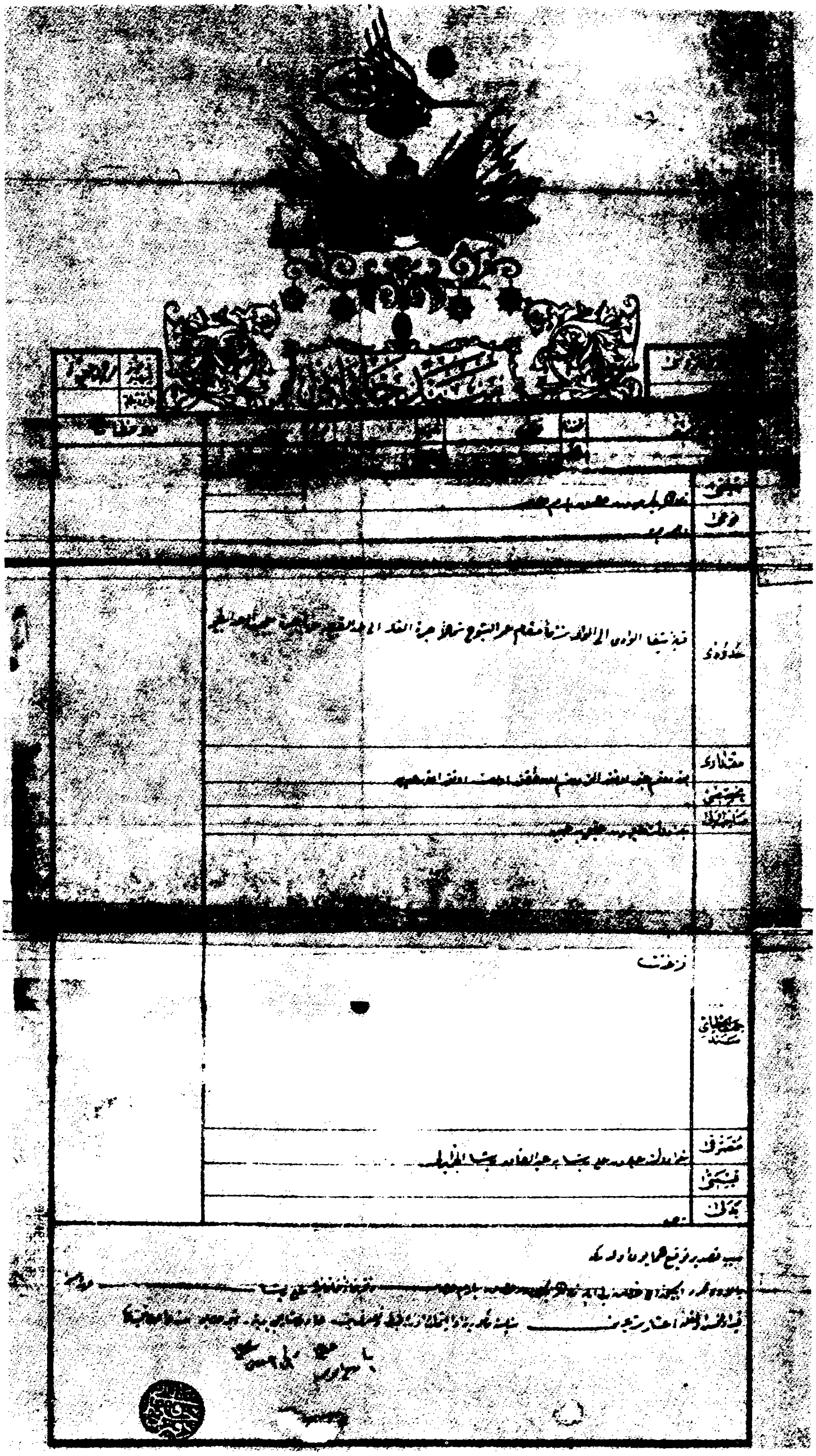
ملحق رقم (١٢)

صورة شهادة ماسونيّة اعطتها عمدة العشيرة من ذوي الطقس الاسكتلندي الى احد السوريين في ١١ آذار (مارس) سنة ١٩٠٨ . ويلاحظ في هذه الشهادة شعارات الماسونية وهي نفسها شعارات جمعية « الاتحاد والترقي » .



ملحق رقم (١٣)

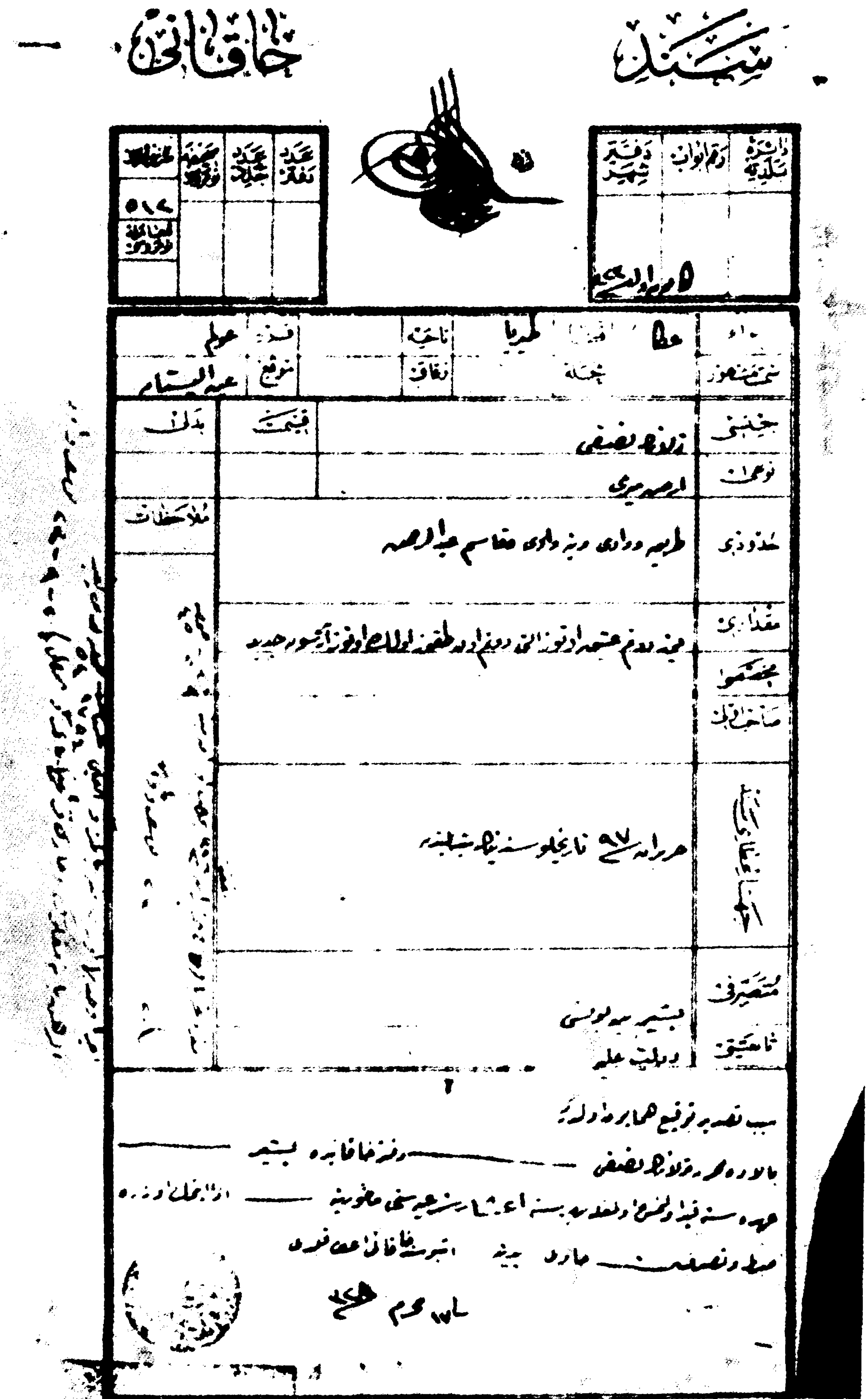
سند خاقاني يثبت بيع الاراضي الاميرية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[١]



(١) نقلاً عن : مجموعة مديرية الوثائق التاريخية في دمشق – غير مصنفة .

ملحق رقم (١٤)

سند خاقاني يثبت بيع الاراضي الاميرية في عهد السلطان محمد رشاد [1]


سند خاقاني

---

(١) نقلاً عن : مجموعة مديرية الوثائق التاريخة في دمشق – غير مصنفة .

ملحق رقم (١٥)

نماذج من احصاء عدد نفوس ألوية وأقضية - ولاية بيروت القسم الجنوبي -[١]

١ – احصاء نفوس عام ١٨٩٦

١ – لواء بيروت : ٦٣٩ ١٨٦ نسمـــة ويضم أقضية : بيروت ، صور ، صيدا ، مرجعيون .

٢ – لواء عـــكا : ٨٧٣ ١٣٨ نسمة ويضم أقضية : عكا ، حيفا ، الناصرة ، طبريا ، صفد .

٣ – لواء نابلس : ٥١٨ ١٣٧ نسمة ويضم أقضية : نابلس ، جنين ، بني صعب .

٢ – احصاء نفوس قضاء نابلس عام ١٣٢٧ هـ

المذهب	ذكور	أناث
إسلام	١٠ ١٠١	١٠ ٠٢٧
روم	٢١٨	٢٠٩
لاتين	٠٥٨	٠٥٠
بروتستانت	٠٩٣	٠٨٧
سامري	٠٩٤	٠٦٦
يهودي	٠١٣	٠٦٦
المجموع	١٠ ٦١٧	١٠ ٤٥٥ = ٢١ ٠٧٢ نسمة

٣ – احصاء نفوس قضاء عكا ١٣٢٥ – ١٣٣١ هـ

المذهب	عام ١٣٢٥ هـ	عام ١٣٣١ هـ
إسلام	٢٨ ٢٥٦	٣٢ ٢٤١
روم	٣ ٦٤٨	٤ ٠٠٠
كاثوليك	٤ ٠٩٧	٤ ٣٦٧
بروتستانت	٣٧٣	٣٣٤
لاتين	٢١٢	٢٧١
يهود	١٣٠	١٠٥
أرمن	٤	٤
المجموع	٣٦ ٧٢٠	٤١ ٣٢٢

(١) نقلا عن كتاب : ولاية بيروت القسم الجنوبي – جـ ١ .

٤ – احصاء نفوس قضاء صفد في أواخر القرن التاسع عشر

المذهب	عدد النفوس
إسلام	٢٢ ٧٤٧
يهودي	٦ ٠٧٩
كاثوليك	٢ ٠٣٧
ماروني	١ ٠١٩
أرثوذكس	٢٣٠
لاتين	٣
المجموع	٣٢،١٣٧ نفس

٥ – احصاء نفوس قضاء حيفا عام ١٣٢٧ ﻫ – ١٣٣٢ ﻫ

المذهب	عام ١٣٢٧ ﻫ	عام ١٣٣٢ ﻫ
إسلام	١٩ ٢٤٤	٢٣ ٨٢٣
يهودي	٩١٤	١ ١١٧
كاثوليك	٢ ١٠٩	٣ ١٢٤
روم	٧٨٢	٨٦٨
لاتين	٢٢١	٢٤٩
ماروني	١٢٥	١٩٦
بروتستانت	٤٥	٥٤
يانجي إسلام	؟	٦٨٦
يانجي غير إسلام	؟	٦٢٠
المجموع	٢٣ ٤٦٠	٣٠ ٧٣٧

ملحق رقم (١٦)

أوضاع المستعمرات اليهودية في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٧)[1]

زار الأب « لامنس » فلسطين في عام ١٨٩٧ بعد أن ازدادت الأنباء في الصحف التركية عن الهجرة اليهودية وذلك للإطلاع على أحوال المستعمرات اليهودية . وقد استقى معلوماته كشاهد عيان ومن مجلة « الجمعية الفلسطينية » وذكر بأن المستعمرات اليهودية في فلسطين هي خمس : مستعمرة يافا وضواحيها ، مستعمرة القدس الشريف وضواحيها ، مستعمرة صفد وبلاد بشارة ، مستعمرة حيفا وملحقاتها ، مستعمرة حوران وعبر الأردن .

١ – مستعمرات يافا وضواحيها

أنشأت الجمعية الروسية « مساعدة الفلاحين والصناع اليهود في فلسطين والشام » لجنة في يافا عام ١٨٩١ ولـّت تدبيرها المهندس « زيب تيومكين » وغاية هذه اللجنة النظر في أمور المهاجرين الإسرائيليين وتساعدهم أدبياً ومادياً في ابتياع أراضٍ واسعة يقوم باستثمارها الأفراد أو الجماعات منهم . والجمعية الروسية المذكورة ليست سوى فرع من جمعية أخرى يهودية ممتدة في بلاد كبيرة تدعى « أحباء صهيون » .

عدد اليهود في يافا ينيف على ٦٠٠٠ ، لهم محلة واسعة يدعونها المنشية . وفي ضواحي يافا مستعمرات أخرى هذه أسماؤها .

١ – « منزل إسرائيل » ... منشئها « شارل نتر» (Ch. Netter) سنة ١٨٧٠ كمكتب زراعي ويتخرّج فيه زهاء ستين شاباً من اليهود على الفنون الزراعيـة .

٢ – « عيون قارة » وفي العبرانية « رؤوس صهيون » [ريشون لوزيون] وهي مستعمرة يهودية باشر بها سنة ١٨٨٢ ستة إسرائيليين من الروس ، ثم دخلت في حمى البارون ادموند روتشيلد .

---

(١) ملخصاً عن : مقال للأب هنري لامنس في مجلة المشرق ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩ العدد ٢٣ .

٣ – « ملك راوبين » وهو وادي حنين والفضل في إنشاء هذه المزرعة لرباني اسمه « راوبين » كان حاخاماً في « خرشنة » (Cherson) وهي تحت نظارة لجنة يافا الروسية .

٤ – « خربة ديران » وفي العبرانية « السهول » وتقع بالقرب من بلدة الرملة ، وهي مستعمرة أحدثتها جمعية أعيان اليهود الروسيين سنة ١٨٩٠ .

٥ – « محطة عاقر » ويقال لها (عكرون) وهم يدعونها « تذكار بيت الله » وهي جنوب غربي الرملة . وهي أيضاً من مشروعات البارون روتشيلد سنة ١٨٨٣ .

٦ – « قطرا » من منشآت « أحباء صهيون » في سنة ١٨٨٤ ، موقعها على بُعد ساعة من عكرون المذكورة . وكانت الغاية من إنشائها إعانة بعض الدارسين الروسيين المهاجرين من روسيا ، حُتّم عليهم أن يجردوا أنفسهم للفلاحة .

٧ – « قسطينة » وتُعرف باسم (بئر طوبّا) أنشأها روتشيلد سنة ١٨٨٨ وخصصها ليهود بسّارابيا .

٨ – « أم لبيش » وتُعرف باسم (ملبس) وفي اصطلاح اليهود « فتح تقوه » وقد نزلها يهود القدس منذ سنة ١٨٧٨ فلم يستحسنوا هواءها ، ثم استوطنها المهاجرون الروس سنة ١٨٨٢ تحت نظارة جمعية « أحباء صهيون » .

٢ – مستعمرات القدس الشريف وضواحيها

١ – مستعمرة « بيت ناثان » أسسها السير مونتفيوري عند باب صهيون في القدس ، وقد خصصت ليهود شمال أوروبا (الأشكنازيم) .

٢ – « يمين موسى » أسسها أيضاً السير مونتفيوري في نفس المنطقة الأولى ، وقد خصصت ليهود جنوب أوروبا (السفارديم) .

ولمستعمرات القدس أحياء عديدة أقدمها :

« نحلة شبع » أنشيء سنة ١٨٦٩ ، « ابن يعقوب » أي (صخرة يعقوب) أنشيء سنة ١٨٧٠ ، « مساكن إسرائيل » أنشيء سنة ١٨٧٦ ، « مذكرة موشى » ١٨٨٠ ، « أهِل موشى » أي (خيمة موسى) أنشيء سنة

١٨٨٣ ، « سكوت شلوم » أي (مساكن السلام) ١٨٨٧ ، « بيت يهوذا » ١٨٨٨ ، « شعرفنا » أي (حجر الزاوية) ، « بيوت تيمن » ١٨٩٠ وقد أسس هذا الحي الأخير لليهود المهاجرين من اليمن .

٣ – مستعمرات صفد وبلاد بشارة

أُنشئت في بلاد صفد وبشارة عام ١٨٩١ جمعية تدعى « هجليليم » أي (الجليليين) تسعى في اقتناء الأرزاق ليمتلكها اليهود . أما مستعمرات اليهود في بلاد صفد فهي :

١ – « روش فنا » أسست عام ١٨٨٢ .

٢ – « عين الزيتون » ابتاعها اليهود عام ١٨٩٠ .

٣ – « مستعمرة محنايم » وهي أخصب قرى بلاد بشارة ، وتقع بين صفد وبحيرة الحولة .

٤ – « مستعمرة جسر الأردن » المعروف بجسر (بنات يعقوب) .

٥ – « مشمر هيردن » المعروفة باسم (حراسة الأردن) .

٦ – « خربة زبيد » ابتاعها اليهود الروس عام ١٨٨٣ .

٤ – مستعمرات حيفا وملحقاتها

١ – « مستعرة زمّار » اشترتها شركة روسية عام ١٨٦٢ .

٢ – « مستعمرة خضيرة » اشترتها أيضاً شركة روسية عام ١٨٩٠ .

٣ – « ضيعة كفرعنّا » تملكتها لجنة « أحباء صهيون » عام ١٨٩١ .

٤ – « مستعمرة أبا شوشة » وتخص اليهود القدسيين برغيم (Bergheim) وهم أصحاب مصرف في أورشليم . ولكن يقوم بشؤون هذه الأراضي فلاحون بلديون يؤدون ربع غلاتهم لأصحاب الملك .

٥ – مستعمرات حوران وعبر الأردن

إن أملاك اليهود في حوران أوسع من مقاطعة كبرى من مقاطعات الشام ، ولجنتهم الفلسطينية في باريس تمكنت في عام ١٨٩٢ من ابتياع ١٢٠٠٠ هكتار في جوار قرية شيخ سعد . وحاول اليهود شراء أراضي في بلاد جلعاد ومؤاب عبر الأردن إلا أن الدولة السنية لم تلب نداءهم ، فذهبت آمالهم أدراج الرياح .

ملحق رقم (١٧)

رسالة تأييد الى هرتزل عام ١٨٩٧ من الجمعية اليهودية في مصر[١]

« Barkohba »
Cairo — Egypte
Fondée le 1er Adar 5657
Février 1897
Siège Central

Monsieur Theodor Herzel [Herzl]
Rédacteur de la «Neue Freie Presse»
Vienne

Monsieur cher corréligionnaire en votre Etat Juif.

Il y a plus d'une année que le «Carmel» a été non seulement le 1er à saluer votre entrée solenelle dans les rangs sionistes, mais encore à encourager votre projet aussi génial que patriotique. Vous savez Monsieur, que c'était à [en] Bulgarie, que vous avez obtenu votre 1er succès, aujourd'hui encore la plupart de vos partisans, sont les sionistes de la Bulgarie.

Eh bien, Monsieur, vous serez heureux d'apprendre la fondation au Caire, à force de patience, de persévérance et d'activité, d'une société patriotique Sioniste «Barkohba» dont le programme et [est] celui qui a été tracé par le «Carmel».

Veuillez, Monsieur, nous vous prions, nous tenir au courant de tout ce qui se passe dans le monde Sioniste à Vienne en même temps de nous faire parvenir votre brochure «L'Etat Juif» traduction française s'il est possible.

Vive «L'Etat Juif»

Veuillez agréer Monsieur l'assurance de nos sentiments distingués. avec nos chaleureuses salutations de Sion.

Le Secret. Joseph Leibovich — Le Presid. J. Harmalin

Le Caire (Egypte) le 8 avril 1897.

---

(١) نقلا عن : J. Landau; Jews in Nineteenth Century Egypt

تعريب الملحق رقم (١٧)

باركوبا
القاهرة – مصر
تأسس في أول آذار ٥٦٥٧
شباط (فبراير) ١٨٩٧

السيد تيودور هرتزل

محرر صحيفة «Neue Freie Presse»

سيدي، شريكي العزيز في دولتك اليهودية.

منذ أكثر من سنة لم تكن «كرمل»[١] (Carmel) الأولى فحسب في تحية احتفال دخولك في صفوف الصهيونية، بل شجعت أيضاً مشروعك الذي تميز بالعبقرية كما بالوطنية. إنك تعلم يا سيدي انك حصلت على نجاحك الأول في بلغاريا، والآن أيضاً فان معظم مؤيديك هم بلغاريون.

حسناً، سيدي، ستسر عندما تعلم بتأسيس مؤسسة صهيونية «باركوبا» (Barkohba) – بعد صبر ومثابرة ونشاطات عدة – وبرنامجها هو المخطط له من قبل «كرمل».

نرجو منك سيدي، إعلامنا عما يجري في العالم الصهيوني في ڤيينا. وفي الوقت نفسه نرجو ان ترسل لنا كراسك «الدولة اليهودية» مترجماً إلى اللغة الفرنسية إذا كان ذلك ممكناً.

عاشت «الدولة اليهودية».

تفضل بقبول ثقة مشاعرنا المميزة، مع حرارة تحياتنا لصهيون.

السكرتير	الرئيس
جوزف ليوبوڤيتش	ج. هارمالين

القاهرة – مصر – ٨ نيسان (ابريل) ١٨٩٧.

(١) صحيفة صهيونية.

ملحق رقم (١٨)

رسالة هرتزل الى يوسف الخالدي
في ١٩ آذار (مارس) ١٨٩٩ (١)

يا صاحب السعادة

أدين للسيد «زادوك كان» (Zadok Kahn) بسروري، حيث أتاح لي قراءة رسالتك له. دعني أخبرك بأن مشاعر الصداقة التي أبديتها تجاه الشعب اليهودي أثارت لدي التقدير العميق.

كان اليهود ولا زالوا وسيبقوا من أحسن أصدقاء تركيا، منذ أن فتح السلطان سليم أبواب أمبراطوريته لليهود المضطهدين في اسبانيا. ولا تكون هذه الصداقة من الكلمات فحسب، بل نحن جاهزون لتحويلها إلى أفعال ومساعدات للمسلمين.

إن الفكرة الصهيونية – التي أنا خادمها المتواضع – ليس لديها مشاعر العداء تجاه الحكومة العثمانية، بل بالعكس من ذلك تماماً، فهذه الحركة مهتمة في إيجاد موارد جديدة للأمبراطورية العثمانية عن طريق السماح لعدد محدود من اليهود بالهجرة، محضرين معهم ذكاءهم وقدراتهم المالية ومشاريعهم الإنمائية للبلد. ولا يشك أحد بأن الصالح العام للبلد سيكون ذو نتائج إيجابية. ومن الضروري فهم ذلك وتعميم معرفة ذلك لكل إنسان. وكما قلتم جنابكم في رسالتكم للسيد «رابي» بشكل واضح أنه لا يوجد خلف اليهود قوة مقاتلة، ولا حتى هم بطبعهم شعب محب للحرب، وهم عامل سلام كامل وأمناء وقنوعين جداً إذا تركوا يعيشون بسلام، ولهذا لا يوجد شيء على الإطلاق يثير الخوف من هجرتهم.

مشكلة الأراضي المقدسة :

لا يفكر أحد بلمس هذه الأماكن – كما قلت وكتبت مرات عديدة – لقد فقدت هذه الأماكن وللأبد ملكيتها الكلية لدين واحد، لعرق واحد،

(١) نقلاً عن : W. Khaldi ; (Editor) From Haven to Conquest.

لشعب واحد . وستبقى هذه الأماكن مقدسة لكل العالم، للمسلمين وللمسيحيين ولليهود . والسلام العالمي الذي يتمناه كل البشر سيبقى المثال المحتذى في الوحدة الأخوية في هذه الأماكن المقدسة . وجنابكم ترون صعوبة أخرى تتمثل في مصير السكان غير اليهـــود في فلسطين . ولكن من يفكر في طردهم بعيداً عن فلسطين ؟ وجودهم وثرواتهم سنضاعفها بوجودنا وثرواتنا . هل تعتقد حضرتكم بأن العربي الذي يملك أرضاً أو بيتاً في فلسطين يقدر ثمنه بثلاثة أو أربعة آلاف فرنك سيغضب إذا ارتفع سعر أرضه في فترة قصيرة ؟. سترتفع إلى خمسة أو عشرة أضعافها في شهـور قليلة، وفوق ذلك سيحصل هذا بالضرورة عند وصول اليهود إلى فلسطين . هذا ما يجب أن يعترف به سكان فلسطين، لأنهم سيكسبون أخوة أذكياء، كما سيكسب السلطان مخلصين سينعشون الولاية التي هي أرضهم التاريخية .

عندما ينظر الواحـــد منا من هذه الزاوية – وهي صحيحة – سيكون صديقاً للصهيونية عندما يكون صديقاً لتركيا .

آمل يا صاحب السعادة أن تكون هذه التوضيحات القليلة مثيرة لمشاعر العطف عندك تجـاه حركتنا . لقد قلتَ لـ « زادوك » (Zadok) بأنه من الأفضل لليهود أن يذهبوا إلى مكان آخر، هذا ممكن حدوثه عندما لا تفهم تركيا الفوائد الضخمة التي ستقدمها حركتنا لها . لقد شرحنا أهدافنا وسياستنا باخلاص وولاء . لقد قدمت لجناب السلطان بعض المطالب العامة وأنا سعيد لاعتقادي بأن ذكاءه الحـــاد سيجعله يقبل الفكرة من حيث المبدأ، والتي من الممكن مناقشة تفاصيلها التنفيذية فيما بعد، وإذا رفضها سنبحث، وثق بأننا سنجد ما نبتغي في مكان آخر، ولكن عند ذلك ستكون تركيا قد خسرت الفرصة الأخيرة لتنظيم اقتصادها وإعادة النشاط إلى اقتصادها المنهار . وتذكر بأن من يقول لك هذه الأشياء هو صديق حميم للأتراك .

وتقبل حضرتكم أغلى آيات التقدير

د. تيودور هرتزل

ملحق رقم (١٩)

هرتزل في الاراضي المقدسة ومصر[١]



هرتزل مع مجموعة من اليهود في مستعمرة رحبوت في الاراضي المقدسة عام ١٨٩٨



هرتزل في استقبال الامبراطور غليوم الثاني في مستعمرة مكفا – اسرائيل عام ١٨٩٨

(١) نقلا عن : A. Chouraqui, Théodor Herzl Inventeur de L'Etat d'Israël.



هرتزل مع مجموعة من اليهود على متن احدى السفن
باتجاه الاراضي المقدسة عام ١٨٩٨



هرتزل في زيارة ابو الهول في مصر

ملحق رقم (٢٠)

شواهد على دور النظام الضرائبي العثماني ودور الربا اليهودي في بيع الممتلكات العربية في فلسطين

١ – النظام الاداري والضرائبي العثماني :

من دائرة إجراء محكمة بداية القدس الشريف[١]

قبلاً وضع بالمزاد العلني جميع الدار الكائنة في قرية لفتا المعلومة المشتملات والحدود ملك حمدان عوض نصار من أهالي القرية المذكورة لاستيفاء ما يطلب للخزينة العامرة من باقي بدل التزام أعشار قرية سبسليت عن سنة ٣٠٩ بموجب سند مصدق من محررية المقاولات وإعلام صادر عن محكمة بداية القدس الشريف مؤرخ في ١٥ تشرين أول سنة ٣١٢ تحت نومرو ٥١ مبلغ على الأصول محتوى الحكم بالإجراء الموقت . وقد تقررت الدار المذكورة عهدة علي أحمد الغوله بكفالة الحاج صالح قاسم كلاهما من لفتا بثمن قدره ستة آلاف غرش صاغ. ولانقضاء المدة النظامية سحب عليها القرار داده من قبل الرياسة العلية على أن يقبل الضم أقله بالماية خمسة مدة إحدى وثلاثين يوماً . فعلى الراغبين مراجعة دائرة الإجراء والدلال باشي محمد أبو عيد بالمدة القانونية اقتضى إعلان الكيفية .

في ٨ ذي القعدة سنة ١٣٤ ، في ٢٩ مارت سنة ٣١٣

٢ – رهن الأملاك العربية ودور الربا اليهودي في بيع الممتلكات[٢]

من مأمورية الدفتر الخاقاني بالقدس الشريف قد صار طرح جميع الدار الواقعة بقصبة بيت لحم التابعة لواء القدس المعلومة الحدود المباعة بيع بالوفا مع الوكالة الدورية بمبلغ خمس وستون ليرة فرنساوي بموجب السند النظامي الصادر من مأمورية الدفتر الخاقاني بالقدس نومرو ١ من دفتر تشرين اول سنة ٣١١ من طرف حنا بن عبدالله ابراهيم حقمان التلحمي إلى الخواجه

---

(١) ثمرات الفنون ، ١٩ نيسان (ابريل) ١٨٩٧ العدد ١١٢٥ .

(٢) ثمرات الفنون ، ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ العدد ١١٦٤ .

شمويل ويزمن بن حاييم ويزمن النمساوي ، للمزايدة لأجل بيعها لمن تتقرر لعهدته لإيفاء الذمة المذكورة وذلك بناء على إنتهاء المدة المقررة بالسند المذكور وطلب رب المال ذلك غب إخطار المديون المرقوم ولأجل أن يكون ذلك معلوماً لدى من يرغب من العموم شراء الدار المذكورة صار نشر هذا الإعلان من مأمورية الدفتر الخاقاني بالقدس الشريف .

في ١٦ كانون اول ١٣١٣

ملحق رقم (٢١)

مقال نجيب نصار «الأعشار والخزينة والأهالي» في فلسطين[١]

إن الفلاح يئن تحت نير ظلم الأعشار الثقيل والخزينة لا تستوفي حقوقها منه على التمام في بلدان كثيرة. هذه مسألة فيها نظر، يشتغل عشرة شهور في السنة، ونحو من ثلاث عشرة ساعة كل يوم هو وامرأته وبنوه، ويستدين الذرة ليقتات بها بدلاً من الحنطة، ويصرف ثمن كسوة عياله من ماله. فلو رأيته يحرث منكسراً في أرض تأكل أشواكها رجليه الحافية، ويزرع في يوم هبت عواصفه وهطلت أمطاره فبللت بدنه العريان، ويحصد في فصل اشتد حره فأحرقه، وكنت من محبي الإنسانية لبكيت حزناً عليه وأنكرت نفسك في المحاماة عنه.

... حقوق الخزينة وجنى الفلاح مستهلك في بطون قوم لا يعرفون الشبع، أولئك هم المستبدون، يوجد منهم واحد أو أكثر في كل قضاء، يحتكرون الأعشار فيستوفونها أخماساً وأرباعاً ويضيفون عليها هوالك وروابط ولقاطاً وأرضية، وما بقي يأخذونه بدل رشوة دفعوها عنه كذباً أو بدل دعوى تخليصه من دعوى لفقوها عليه بالاتفاق مع المأمورين وما شاكل ذلك من المنكرات المغضبات والعياذ بالله.

شكا الفلاح أمره مراراً فجوزي على شكواه واحتج فضُرب لأنه فتح فاه، فسكت سكوت المقهور ... فإذا هو عصى أوامرهم تهددوه بالدعاوى الزورية، ثم لو رفع ذلك المزاود أمره للحكومة لقي محاولة والتواء يجب إليه ترك حقوقه.

قال لي أحد أعوان حافظ باشا من جنين: لا نربح كثيراً من التزامات جفتلك بيسان، أما أرباحنا في قضاء جنين فتتراوح بين الثمانية والعشرة آلاف ليرة في السنة، وقدم لي مثلاً ثلاث قرى لا يزيد التزامها عن العشرين ألفاً وأرباحها تربو على الألف ليرة. في قضاء طبريا أربع قرى

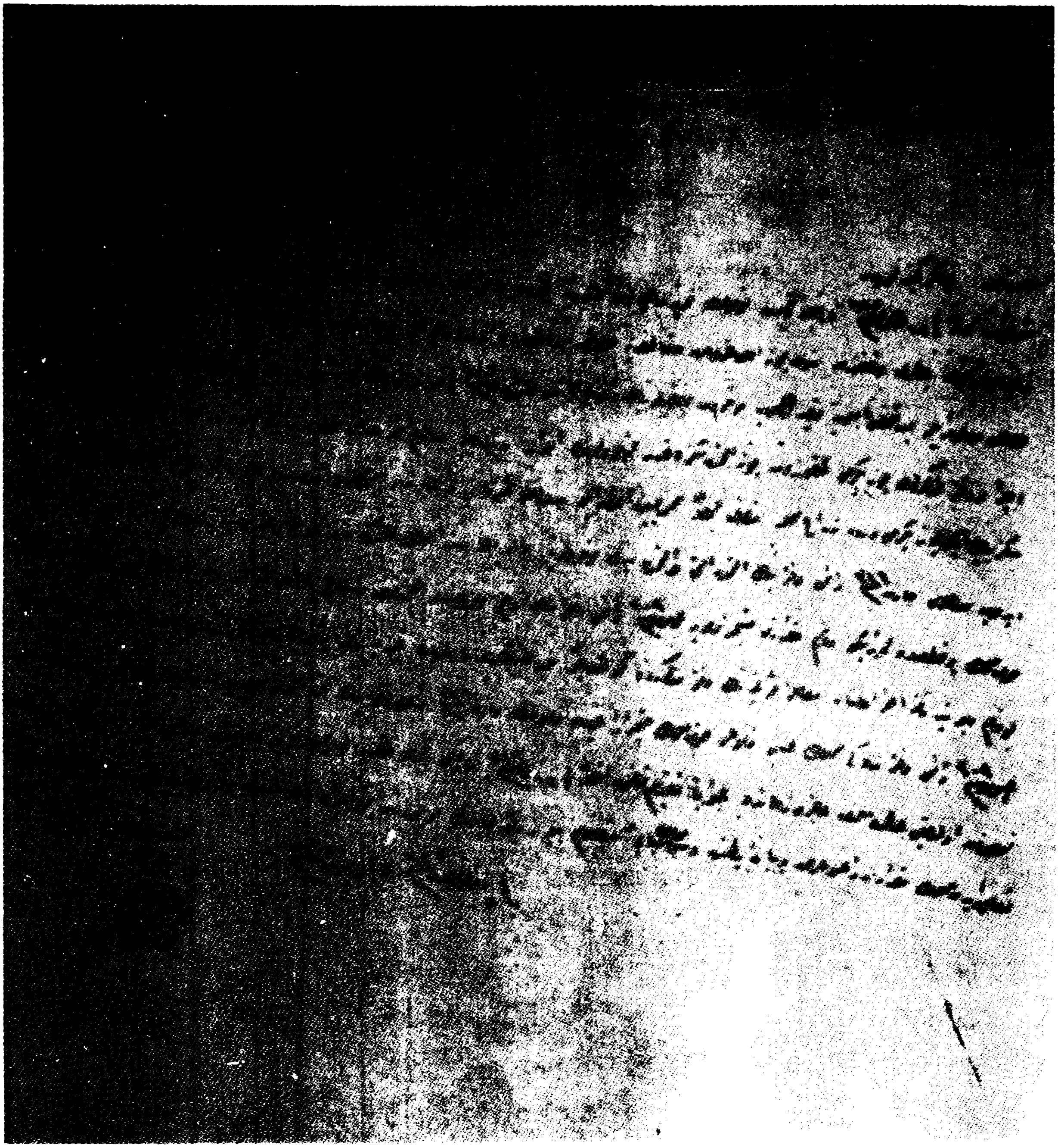
---

(١) ثمرات الفنون، ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ العدد ١٦٧٩.

للأمير علي باشا بدل أعشارها كلها لا يزيد كثيراً على نصف بدل حطين، ومساحة أراضي هذه تساوي أراضي واحدة من الأربع قرى. وهكذا قل في سارونة قرية سعيد بك الفاهوم وفي القرى التي يلتزمها مع كومبانية اليهود ... وجاءنا بعض أهالي قرية سمخ يتظلمون من اتفاق مشايخهم مع الملتزم على إعطائه عشرين مداً من الحبوب عن كل فدان رسم الهالك، فحررنا لهم عريضة لقومسيون الجفتلك بالشام والأمل أن يعاملوا بالعدل. أمثال هؤلاء المستبدين يضيعون حقوق الخزينة ويمنعون ثروة الشعب، ومن الغريب أنهم ما زالوا يحاولون السير على طرقهم القديمة.

ملحق رقم (٢٢)

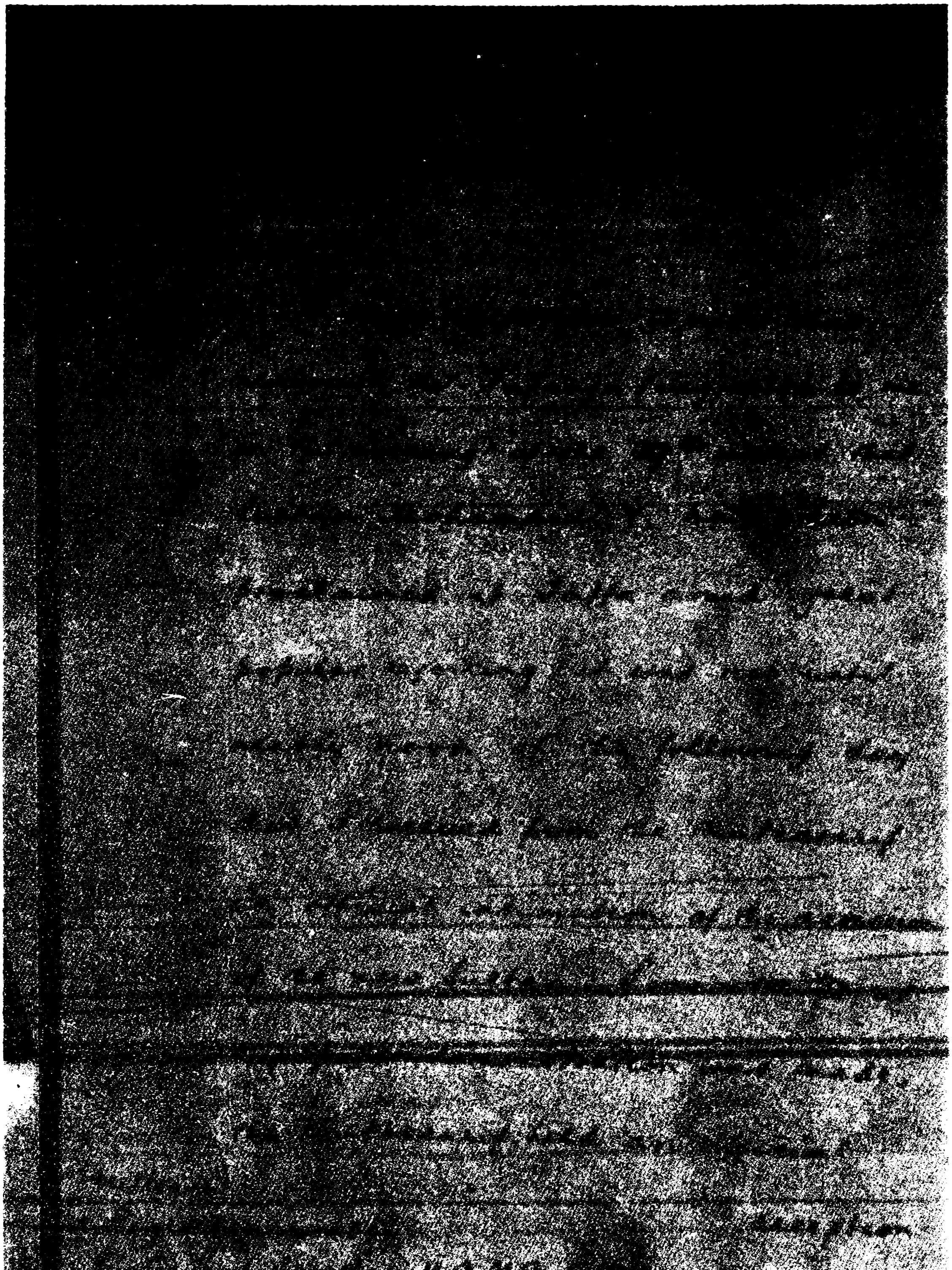
وثيقة تركية تشير الى تنازل بعض الاقطاعيين الفلسطينيين من آل الخالدي عن ارض هي وقف لزين موسى الخالدي للمطران جورج خرالتس بوفام بلايت البروتستانتي الانجليزي . وقد سجل التنازل بواسطة اليهودي الخواجة اسحق بن حايم اريا وبواسطة محمد افندي المزغر[١].



(١) نقلاً عن : Blesh to Marling, 24 Nov. 1909, No. 94, in F.O. 195/2331.
– وثيقة مرفقة بالتقرير –

ملحق رقم (٢٣)

تقرير عن الابتهاجات الانفعالية في فلسطين بمناسبة اعلان محمد الخامس سلطاناً على الدولة العثمانية[١].



(١) نقلاً عن : Blesh to Lowther, 29 April 1909, in F.O. 195/2321.

مَصَادِرُ البَحث

مصادر البحث

أولاً - وثائق ومخطوطات غير منشورة :

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في لندن :

(Public Record Office) وهي مصورة على ميكروفيلم في مركز الأبحاث (Research Centre) التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية — بيروت ومصنفة على النحو التالي :

A — Reports and Correspondences between British Consuls in the Ottoman Empire and the British Embassy in Constantinople: No. F.O. 195.

B — Reports and Correspondences between Foreign Office in London and British Consuls in Palestine and Constantinople: No. F.O. 78.

C — Reports and Correspondences between Foreign Office in London and British Embassy in Constantinople: No. F.O. 371.

٢ - مخطوطات المكتبة الظاهرية - دمشق :

أ — أعظم المآثر السلطانية السكة الحديدية الحجازية — الشامية ، إنشاء محمد عارف الحسيني عام ١٣١٨ هـ . مصنف تحت الرقم ١٠٨١٠ .

ب — سلاطين آل عثمان ، ج ٢٣ الخاص بالسلطان عبدالحميد الثاني مجهول المؤلف . مصنف تحت رقم ١٠٧٠٤ .

ج — في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية ، مجهول المؤلف . وهي جزءان:

ج ١ — آثار جبل الخليل مع بعض أوصافه ، مصنف تحت رقم ٤٩١٩ .

ج ٢ — أورشليم أو القدس الشريف ، مصنف تحت رقم ٤٩٢٠ .

٣ - وثائق مديرية الوثائق التاريخية - دمشق :

بعض سندات بيع الأراضي في فلسطين . القسم الخاص في المديرية ، وهي غير مصنفة .

٤ – **وثائق مديرية الوثائق التاريخية بالمتحف الوطني اللبناني – بيروت :**

وثائق خاصة باليهود تلقي الضوء على دور اليهود في الحياة الاقتصادية والصيرفة والربا في بلاد الشام ومصر ، مصنفة تحت أرقام عديدة وهي : ١٤٤١ ، ٥٦٥١ ، ٨٠٠٦ ، ٩٨٨٩ ، ٩٩٨٦ ، ١٢٠٥٥ .

٥ – **وثائق دار الكتب الوطنية – بيروت :**

أ – مخطوط : صراخ البري في بوق الحرية ١٨٩٠ – ١٨٩١ ، تأليف حبيب فارس مصنف تحت الرقم ٦٥٢ (معلومات وآراء غير منشورة في الكتاب المطبوع في مصر ١٨٩١ – ثلاثة أجزاء – تحت عنوان صراخ البري في بوق الحرية والذبائح التلمودية) .

ب – مخطوط : القول الصادق في الاستاذ نعوم فائق ، تأليف الكونت فيليب دي طرزي ، مصنف تحت الرقم ١٢٨ (معلومات عن بعض الأقليات في الدولة العثمانية) .

٦ – **كتاب : الاسلام وبنو اسرائيل :**

تأليف جواد رفعت أتلخان ، تعريب يوسف أور الكَبراي ، بدون تاريخ . مطبوع باللغة العربية على الآلة الكاتبة ، غير منشور وغير مجلد . وهو من بين مجموعة مفتي فلسطين المرحوم الشيخ أمين الحسيني ، ويضم وثائق وفرمانات سلطانية خاصة باليهود وفلسطين تنشر للمرة الأولى .

ثانياً – وثائق ومذكرات منشورة :

١ – Hyamson, Albert; The British Consulate in Jerusalem in Relation to the Jews in Palestine 1838 — 1914, 2 vols. (London 1939 — 1941) .

٢ – مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني . Sultan Abdül Hamit, in; Hatira Defteri. Sadelestiren ve Yayina Hazirlayan (Ismet Bozdag) Tercüman Gazetesi 1974.

٣ – السلطان عبد الحميد الثاني : خاطراتي السياسية : Sultan Abdül Hamit; Siyasi Hatiratim, Hareket Yayinlari, (Istanbul) 1974.

٤ – المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان : ١٨٤٠– ١٨٦١ – تقارير قنصلية – م ١ ، ٢ ، ٣ . وهي منقولة عن الكتاب الأصفر الفرنسي والكتاب الأزرق الإنجليزي ومعاهدات الباب العالي

لجامعه البارون دي تستا . تعريب فيليب وفريد الخازن ، جونيه – لبنان ١٩١٠–١٩١١ .
٥ – مذكرات رستم باز ١٨٩٧–١٩٠٢ . حققها وعلق عليها فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ١٩٥٥ .
٦ – ملف وثائق فلسطين ، جـ ١ (٦٣٧–١٩٤٩) – مصر . بدون تاريخ .
٧ – وثائق الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ١٢٥١–١٢٥٥ هـ. م ٣ ، ٤ . الأوراق السياسية لسنة (١٢٥١–١٢٥٥ هـ ، ١٨٣٥–١٨٤٠م) . جمعها وعلق عليها د. أسد رستم، بيروت، ١٩٣٤.
٨ – يوميات هرتزل ، إعـــداد أنيس صايغ ، تعريب هيلدا صايغ ، بيروت ١٩٧٣ .

ثالثاً – رسائل علمية ووثائقية منشورة : (ماجستير ودكتوراه) .

١ – أرنست رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ترجمـة صالح أحمد العلي ، قدّم له وراجعه نقولا زيادة ، بيروت ١٩٦٠ .
٢ – انجلينا الحلو: عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية، بيروت ١٩٦٧ .
٣ – توفيق برو : العرب والترك ١٩٠٨–١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٠ .
٤ – حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين جـ ١ ، القاهرة ١٩٧٣ .
٥ – خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ ، بيروت ١٩٧٣ .
٦ – عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤–١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٩ .
٧ – وليم فهمي : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، القاهرة ١٩٧١ .
٨ – Mardin, Şerif; The Genesis of Young Ottoman Thought (New Jersey, 1962).
٩ – Porath, Yehoshua; The Political Awakening of the Palestinian Arabs and their Land towards the End of the Ottoman Period (Jerusalem?).

رابعاً – مقالات منشورة :

١ – سعيد الافغاني : كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضة المملكة العثمانية ، مجلة العربي ١٩٧٢ ، العدد ١٦٩ .

٢ – لويس شيخو : السر المصون في شيعة الفرمسون ، مجلة المشرق العدد ٥ و ٨ ، بيروت ١٩١١ .
٣ – محمد روحي الخالدي : أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، المنار م ١١ ، ج ١١ ، ١٩٠٨ ، الهلال ، ج ٣ ، مصر ١٩٠٨ .
٤ – محمد موفاكو : البكتاشية ، مجلة العربي ، آذار (مارس) ١٩٧٧ ، العدد ٢٢٠ .
٥ – مؤلف مجهول : الاسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي ، نهضة العرب ، باريس ١٩٠٩ .
٦ – Mandel, Neville; Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine 1882 — 1914, St. Antony's Papers, No. 17. Middle Eeastern Affairs, No. 4, ed. by Albert Hourani (Oxford 1965).
٧ – Roi, Yacov; The Zionist Attitude to The Arabs 1908-1914 (Middle Eastern Studies, Vol. 4, No. 3, April 1968).

خامساً – كتب مصورة على ميكروفيلم بمركز الابحاث – بيروت :

١ – إيلي ليفي أبوعسل : يقظة العالم اليهودي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٤ .
٢ – عمر البرغوتي وخليل طوطح : تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٢٣ .
٣ – يوسف الحاج : هيكل سليمان أو الوطن القومي لليهود ، ج ١ ، بيروت ١٩٣٤ .

سادساً – الكتب العربية والمترجمة :

١ – ابراهيم الأسود : الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية ، بعبدا – لبنان ١٨٩٨ .
٢ – ابراهيم العابد : العنف والسلام – دراسة في الاستراتيجية الصهيونية ، بيروت ١٩٦٧ .
٣ – أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار ١٨٩٧–١٩٢٢ ، القاهرة ١٩٧٠ .
٤ – أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٠ .
٥ – أحمد غنيم وآخرون : اليهود والحركة الصهيونية في مصر ١٨٩٧–١٩٤٧ ، القاهره ١٩٦٩ .

٦ — أرنولد توينبي : فلسطين جريمة ... ودفاع ، تعريب : عمر الديراوي ، بيروت ١٩٦١ .
٧ — إسحق دويتشر : دراسات في المسألة اليهودية ، تعريب : مصطفى الحسيني ، بيروت ١٩٧١ .
٨ — أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى — دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، بيروت ١٩٦٨ .
٩ — اسمعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣١٤ هـ .
١٠ — أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، القاهرة ١٩٥٥ .
١١ — آلان تايلور : مدخل إلى إسرائيل — الأعمال التحضيرية للجريمة الدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧—١٩٤٧ . تعريب : شكري محمود نديم ، بغداد ١٩٦٥ .
١٢ — المر بيرغر : اسرائيل باطل يجب أن يزول ، تعريب : اميل خليل بيدس ، القاهرة ١٩٥٥ .
١٣ — الياس سعد : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، بيروت ١٩٦٩ .
١٤ — املي فرنسيس نيوتن : خمسون عاماً في فلسطين ، تعريب : وديع البستاني ، بيروت ١٩٤٧ .
١٥ — اميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٣ .
١٦ — أمين الحسيني : حقائق عن قضية فلسطين ، القاهرة ١٩٥٤ .
١٧ — أ. ن. بولياك : الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، تعريب : عاطف كرم ، بيروت ١٩٤٨ .
١٨ — اندره موروا : بريطانيا في عهد الملكة ڤيكتوريا — سيرة دزرائيلي — تعريب : متري نعمان ، بيروت ١٩٦٩ .
١٩ — أنيس صايغ وآخرون : الفكرة الصهيونية — النصوص الأساسية ، بيروت ١٩٧٠ .
٢٠ — أهارون كوهين : الشرق العربي ، تعريب : جبرا نقولا ، عكا ١٩٧٠ .
٢١ — ايڤانوف : حذار من الصهيونية ، موسكو ١٩٧٠ .
٢٢ — بولاك : اسرائيل أمة وتاريخها ، تعريب : رسمي بيادسه ، تحرير : الياهو أغاسي ، تل أبيب ١٩٧١ .

٢٣ – تهاني هلسه : أوراق في القضية الفلسطينية ، ١٩٦٧ .
٢٤ – تهاني هلسه : داڤيد بن غوريون ، بيروت ١٩٦٨ .
٢٥ – ج. جانسن : الصهيونية واسرائيل وآسية ، تعريب : راشد حميد ، بيروت ١٩٧٢ .
٢٦ – جفري بطرس غالي : فلسطين ، القاهرة ١٩٤٧ .
٢٧ – جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى ، بيروت ١٩٧٠ .
٢٨ – ج. م. ن. جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة ، تعريب : أحمد خليل الحاج ، مراجعة : محمد أنيس ، القاهرة ١٩٧١ .
٢٩ – جواد رفعت آتلخان : الخطر المحيط بالإسلام – الصهيونية وبروتوكولاتها – تعريب : وهبي عزالدين ، بغداد ١٩٦٥ .
٣٠ – جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب : ناصر الدين الأسد واحسان عباس ، بيروت ١٩٦٦ .
٣١ – جون هوب سمبسون : فلسطين – تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران ، القدس ١٩٣٠ .
٣٢ – حاييم وايزمن : التجربة والخطأ ، تعريب : يوسف حنا ، القدس بدون تاريخ .
٣٣ – حسن صبري الخولي : فلسطين بين مؤامرات الصهيونية والاستعمار ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٣٤ – الحكم دروزة : ملف القضية الفلسطينية والصراع العربي الاسرائيلي ، بيروت ١٩٧٣ .
٣٥ – خالد العظم : مذكرات خالد العظم ، ج ١ ، بيروت ١٩٧٣ .
٣٦ – خيري حماد : الصهيونية جذورها ونشأتها وأهدافها ، القاهرة ١٩٦٨ .
٣٧ – زين زين : نشوء القومية العربية – مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية – التركية ، بيروت ١٩٦٨ .
٣٨ – زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، بيروت ١٩٧١ .
٣٩ – ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ .
٤٠ – سبيريدوفيتش شيريب : حكومة العالم الخفية ، تعريب : مأمون سعيد ، بيروت ١٩٧٤ .
٤١ – سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨ – ١٩٢٤ ، بيروت ١٩٧٠ .

٤٢ ــ شاهين مكاريوس : حسر اللثام عن نكبات الشام ، القاهرة ١٨٩٥ .
٤٣ ــ شاهين مكاريوس : تاريخ الاسرائيليين ، القاهرة ١٩٠٤ .
٤٤ ــ صالح مسعود بويصير : جهاد شعب فلسطين ، بيروت ١٩٦٨ .
٤٥ ــ ضياء أويغور : جـــذور الصهيونية ، تعريب : ابراهيم الداقوقي ، بغداد ١٩٦٦ .
٤٦ ــ عادل اسماعيل واميل خوري : السياسة الدولية في الشرق العربي ، جـ ٣ ، بيروت ١٩٦١ .
٤٧ ــ عارف العارف : تاريخ القدس ، مصر ١٩٥١ .
٤٨ ــ عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث ، جـ ١ ، دمشق ١٩٦٠ .
٤٩ ــ عبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، القاهرة ١٩٦٥ .
٥٠ ــ عبد الوهاب الكيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، بيروت ١٩٦٦ .
٥١ ــ عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠ .
٥٢ ــ عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، جزءان ، لبنان ١٩٦٧ .
٥٣ ــ علي عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ، مصر ١٩٦٣ .
٥٤ ــ عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨ ــ ١٩١٤ ، الاسكندرية ١٩٧٢ .
٥٥ ــ عودة بطرس عودة : القضية الفلسطينية في الواقع العربي، القاهرة ١٩٧٠
٥٦ ــ فايز صايغ : الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، تعريب : عبد الوهاب الكيالي ، بيروت ١٩٦٥ .
٥٧ ــ فرانتس شايدل : إسرائيل أمـــة مفتعلة ، تعريب : محمد جديد ، دمشق ١٩٦٩ .
٥٨ ــ فرانك مانويل : بـــين أميركا وفلسطين ، تعريب : يوسف حنا ، عمان ١٩٦٧ .
٥٩ ــ فلاديمير لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، تعريب : عفيفة البستاني ، مراجعة : يوري روشين ، موسكو ١٩٧١ .
٦٠ ــ فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، تعريب : كمال اليازجي وجبرائيل جبور ، بيروت ١٩٥٩ .
٦١ ــ لوران غاسبار : تاريخ فلسطين ، تعريب : ابراهيم ميخائيل خوري ، دمشق ١٩٦٩ .

٦٢ – محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤–١٩١٤ ، القاهرة بدون تاريخ .
٦٣ – محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الأفغاني ، بيروت ١٩٦٥ .
٦٤ – محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني – أسباب إنحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها ، الكتاب الثاني ، بيروت ١٩٥٤ .
٦٥ – محمد خليفة التونسي : بروتوكولات حكماء صهيون ، بيروت ١٩٦١ .
٦٦ – محمد رفيق ومحمد بهجت التميمي : ولاية بيروت – القسم الجنوبي ، جـ ١ ، بيروت ١٣٣٥ هـ – ١٩١٧ م .
٦٧ – محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، جـ ١ ، صيدا – بيروت ١٩٥٩ .
٦٨ – محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء ، بيروت ١٩٧٢ .
٦٩ – محمد علي الزعبي : حقيقة الماسونية ، بيروت ١٩٧٤ .
٧٠ – محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مصر ١٨٩٣ (طبعة مصورة ، بيروت ١٩٧٧) .
٧١ – محمود العابدي : بن غوريون وبناة إسرائيل ، مراجعة : شكري المهدي وآخرون ، عمان ١٩٦٩ .
٧٢ – محمود منسى : تصريح بالفور ، القاهرة ١٩٧٠ .
٧٣ – مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، جـ ١ ، القسم ١ ، بيروت ١٩٦٥ .
٧٤ – مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، جـ ١ ، القسم ٢ ، بيروت ١٩٦٦ .
٧٥ – مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، الطبعة الأولى ، مصر ١٨٩٨ .
٧٦ – المكتب العربي : مشكلة فلسطين ، النشرة الثانية ، القدس ١٩٤٦ .
٧٧ – مكسيم رودونسن : إسرائيل واقع إستعماري ، تعريب : إحسان الحصني ، مراجعة : أنطوان مقدسي ، عمان ١٩٦٧ .
٧٨ – ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ – ١٩٤٨ ، بيروت – الكويت ١٩٧٤ .
٧٩ – ناصر الدين الأسد : محاضرات عن محمد روحي الخالدي ، القاهرة ١٩٧٠ .
٨٠ – نشرة عن مملتكات اليهود من الأراضي في فلسطين في مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت مصنفة تحت رقم Aa 80 .
٨١ – هاني الهندي : حول الصهيونية واسرائيل ، بيروت ١٩٧١ .
٨٢ – هربرت فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩ – ١٩٥٠ ، تعريب : أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨٣ – هنري كتن : فلسطين في ضوء الحق والعـــدل ، تعريب : وديع فلسطين ، بيروت ١٩٧٠ .
٨٤ – الهيئة العربية العليا لفلسطين : مذكرة عن خليج العقبة ومطامع اليهود السياسية والاقتصادية في الأقطار العربية وحوض البحر وشرقي افريقية ، ١٩٥٧ .
٨٥ – وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج ، تعريب : سعيد جزائرلي بيروت ١٩٧٠ .
٨٦ – يوسف الحكيم : سورية والعهد العثماني – ذكريات الحكيم –١ ، بيروت ١٩٦٦ .
٨٧ – يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد ، بيروت ١٩٧١ .

سابعاً : المعاجم والموسوعات العربية :

١ – معجم المطبوعات العربية والمعربة ، جزءان . جمعه ورتبه يوسف الياس سركيس – مصر ، ١٣٤٦ هـ – ١٩٢٨ م .
٢ – الموسوعة العربية الميسرة : إشراف : محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٥ .

ثامناً : المراجع الأجنبية :

1 — Azouri, Nagib; Le Reveil de la Nation Arabe dans L'Asie Turque (Paris 1905).
2 — Bein, Alex; Theodor Herzl - A Biography (Philadelphia 1940).
3 — Ben Gurion, D.; Rebirth and Destiny of Israel (New York 1959).
4 — Ben Gurion, D.; The Jews in Their Land (London 1966).
5 — Ben Gurion, D.; Memoirs David Ben Gurion (New York and Cleveland 1970).
6 — Catane, Moshé; Les Juifs dans le Monde (Paris 1962).
7 — Chouraqui, André; Théodor Herzl Inventeur de l'Etat d'Israël (Paris 1960).
8 — Chouraqui, André; L'Alliance Israélite Universelle et la Renaissance Juive Contemporaine 1860 - 1960 (Paris 1965).
9 — Cohen, Aharon; Israel and the Arab World (London 1970).
10 — Cohen, Israel; A Short History of Zionism (London 1951).
11 — Cohen, Israel; Theodor Herzl Founder of Political Zionism (New York - London 1959).

12 — Creasy, Edward; History of the Ottoman Turks (London 1878).
13 — De Bishoff, Norbert; La Turquie dans le Monde (Traduction de M. Bénouville, Paris 1936).
14 — Drumont, Édouard; La France Juive - Essai d'Histoire Contemporaine, Tome Second (Trente - Sixième Édition Paris ?)
15 — Esco Foundation for Palestine - A Study of Jewish Arab and British Politics, 2 Vols. (London - New Haven 1947 - 1949).
16 — Eversley, Lord; The Turkish Empire (Lahore - Pakistan 1917, Third impression 1959).
17 — Flaubert, Gustave; Voyage en Orient 1849 - 1851 (Paris 1925).
18 — Frankel, Joseph; Theodor Herzl a Biography (London 1946).
19 — Garnier, Jean - Paul; La Fin de L'Empire Ottoman (France 1973).
20 — Greenberg, Louis; The Jews in Russia (New Haven - London 1965, two volumes in one).
21 — Haslip, Joan; The Sultan - The Life of Abdul - Hamid II (London 1958, Reissued 1973).
22 — Hertzberg, Rabbi; Medzini, Moshe and Others; Zionism (Jerusalem 1973).
23 — Isaac, Jules; Genèse de L'Antisémitisme (Paris 1956).
24 — Kallen, Horace Meyer; Zionism and the World Politics (London 1921).
25 — Khaldi, Walid (Ed.); From Haven to Conquest (Beyrouth 1971).
26 — Landau, Jacob; Jews in Nineteenth Century Egypt (New York 1969).
27 — Lazard, Bernard; L'Antisémitisme (Paris 1894).
28 — Lewis, Bernard; The Emergence of Modern Turkey (London 1961).
29 — Louvish, Misha and Others; Immigration and Settlement (Jerusalem 1973).
30 — Miller, William; The Ottoman Empire and its Successor 1801—1913 (1927) New impression 1966.
31 — Parkes, James; A History of The Jewish People (London 1964).

32 — Pinon, René; L'Europe et L'Empire Ottoman (Paris 1909).
33 — Pinsker, Leo; Auto-Emancipation (London ?).
34 — Rappoport, Angelo,S; History of Palestine (London 1931).
35 — Seton-Watson, W; The Rise of Nationality in The Balkans (London 1917).
36 — Shaul, Esh and Others; La Vie Juive dans L'Europe Contemporaine (Belgique 1965).
37 — Sitton, Sholomo Israel; Immigration et Croissance (Paris 1963).
38 — Sokolow, Nahum; Bentwich, Herbert and Others; Zionism Problems and Views (Introduction by Max Nordeau, London 1916).
39 — Sokolow, Nahum; History of Zionism 1600 - 1918, Vol. 1 (London 1919).
40 — Soustelle, Jaques; La Longue Marche d'Israël (France 1968).
41 — Stein, Leonard; Balfour Declaration (London 1961).
42 — Thauraud, Jérôme et Jean; L'Histoire des Juifs (Paris 1927).

تاسعاً - الصحف والدوريات العربية :

١ — الأسرار (بيروت) ١٩٣٨ .
٢ — الأهرام (الاسكندرية) ١٨٩٠—١٨٩١ .
٣ — أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٦ .
٤ — تركيا الفتاة (باريس) ١٨٩٥—١٨٩٦ .
٥ — الثقافة العربية (بيروت) ١٩٥٨ .
٦ — ثمرات الفنون (بيروت) ١٨٩٣—١٩٠٨ .
٧ — الجنان (بيروت) ١٨٧٩—١٨٩٦ .
٨ — حمص (حمص) ١٩٠٩—١٩١٠ .
٩ — الخلافة (لندن) ١٩٠٠ .
١٠ — سركيس (القاهرة) ١٩٠٨ .
١١ — العصا لمن عصا (حيفا) ١٩٠٩ .
١٢ — العصر الجديد (الشام) ١٩٠٩ .
١٣ — الكرمل (حيفا) ١٩٠٩—١٩١٠ .

١٤ — لبنان (بعبدا — لبنان) ١٨٩٦ .
١٥ — لسان الاتحاد (بيروت) ١٩٠٩ .
١٦ — اللطائف المصورة (القاهرة) ١٨٨٦ .
١٧ — المباحث (بيروت) ١٩٠٩ .
١٨ — المجلة المصرية (القاهرة) ١٩٠٩ .
١٩ — المشرق (بيروت) ١٨٩٩—١٩١١ .
٢٠ — المقتبس (دمشق) ١٩٠٩—١٩١٠ .
٢١ — المقتطف (القاهرة) ١٨٩٥—١٩١٣ .
٢٢ — المقطم (القاهرة) ١٨٩٧ .
٢٣ — المنار (القاهرة) ١٨٩٨—١٩١١ .
٢٤ — المنهل (القاهرة) ١٩٠٤ .
٢٥ — النشرة الاسبوعية (بيروت) ١٨٩٧—١٩٠٣ .
٢٦ — النفائس (بيروت) ١٩١٠ .
٢٧ — نهضة العرب (باريس) ١٩٠٩ .
٢٨ — الهلال (القاهرة) ١٨٩٤—١٩٠٨ .

عاشراً — الصحف والموسوعات الاجنبية :

1 — The Jewish Encyclopedia (U.S.A. 1901.)
2 — Аврейская Энциклопедія (بطرسبرج) الموسوعة اليهودية الروسية
3 — Revue du Monde Musulman (Paris 1907 - 1909.)

فهرس الأعلام والأماكن

فهرس الأعلام (١)

(١) لم نذكر في الفهرس أسماء الأعلام التي وردت في أكثر صفحات الكتاب مثل : عبد الحميد الثاني ، هرتزل .

(ب)

(غ)

(ف)

(ي)

فهرس الأماكن (١)

(١) لم نذكر في الفهرس أسماء الأماكن التي وردت في أكثر صفحات الكتاب مثل : فلسطين .

(ب)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

c - Reports and Correspondences between the Foreign Office in London and British Embassy Constantinople, No. F. O. 371.

2 - Manuscripts of the Zahiriyya Library, Damascus.

3 - Documents of the Department of Official Documents, Damascus.

4 - Documents of the Department of Official Documents in the Lebanese Museum, Beirut.

5 - Documents of Dar Al-Kutub Al-Watania, Beirut.

6 - Manuscript: Islam and Banu Israïl.

7 - Sultan Abdul Hamit'in ; Hatira Defteri.

8 - Sultan Abdul Hamit ; Siyasi Hatiratim.

Among the conclusions of this study is that the Ottoman Empire had a positive policy, during the reign of Sultan Abdul Hamid II, toward Palestine, the Palestinian people, and the Arabs in general, and furthermore, that this policy strongly opposed the colonizing ambition of the Zionist movement and its allies .

Chapter V : *The Jewish Role in the Deposing of Sultan Abdul Hamid II 1908 - 1909.*

This chapter sheds light on the Islamic policy of Sultan Abdul Hamid II and his tolerant and positive treatment of the Jews on condition that they did not implement their colonizing and political ambitions in the Holy Land.

The Chapter also deals with the Sultan's foreign policy, his dislike of the Europeans in general and the British in particular because of the close relationship between Zionist and international ambitions and the objectives of the Committee of Union and Progress. They decided together to provoke the revolution of 1908 and his deposition from the throne in 1909. Jews and Freemasons played an important rôle in the revolution and dethronement.

This Study has made use of extensive primary documentation as well as contemporary Arabic and Western newspapers and periodicals ; in addition, large collections of unpublished and published documents and manuscripts from Arab, Turkish, British and Jewish sources were also used, including the following :

1 - Documents of the Public Record Office :

a - Reports and Correspondences between British Consuls in the Ottoman Empire and the British Embassy in Constantinople, No. F. O. 195.

b - Reports and Correspondences between the Foreign Office in London and British Consuls in Palestine and Constantinople, No. F. O. 78.

Chapter II : *The Attitude of the Ottoman Empire toward Jewish Immigration to Palestine in the Second Half of the Nineteenth Century* deals with this phenomenon between 1868-1896 and with Ottoman initiatives to check Zionist ambitions particularly during Dr. Theodor Herzl's repeated attempts in Ottoman official circles to convince Sultan Abdul Hamid II to grant a Royal Charter permitting unrestrained Jewish immigration .

Chapter III : *The Ottoman Empire's Attitude toward Zionist and International Activities from 1897 to 1904,* in which is treated the gap between official Ottoman legislation opposing the creation of a Zionist Homeland in Palestine and the behaviour of local administrators who succumbed to Zionist bribery and corruption .

In addition, the chapter brings to light the extent of Herzl's activities in both the international and Ottoman spheres to realize the colonization dreams of the Zionist Movement, which he pursued until his death in 1904.

Chapter IV : *The Attitude of the Ottoman Empire toward the Zionist - International Activities between 1905 - 1908,* deals with Ottoman policy which included several pieces of legislation opposing Jewish unrestricted immigration .

The Chapter also investigates the extent of Zionist and international cooperation to weaken the Ottoman Empire in order to fulfill the common objectives of Zionism and the imperialist nations. In this respect, the 1907 Campbell Bannerman Conference of London is a prime example of the close relationship between Zionism and the colonial powers that led to the formation of a buffer state between Arab Africa and Arab Asia .

This book investigates the attitude of the Ottoman Empire toward the Zionist Movement between the years 1897-1909.

This period is of particular importance to the Palestinian question because it witnessed the birth of two movements: the one, a political movement known as the Zionist Movement, and the other, a military-political movement known as the Movement of Union and Progress.

These two movements played an important rôle and exerted a powerful influence in determining the political future of Palestine, with Zionism laying the plans for its domination, whereas the Movement of Union and Progress helped in one way or other to realize the aims of Zionism. In addition, the two movements were extremely active in deviating the normal political course both in the Ottoman and the International spheres.

The author's study includes a preface and the following five chapters:

Chapter I : *The Zionist Movement and its Close Relationship with International Politics* treats the rise of Zionism from its origins and the formation of a nucleus of activity in Europe to its efforts in the Ottoman Empire to obtain an official Firman from the Wali of Egypt, Mohammad Ali, which would permit the creation of independent Zionist colonies. This chapter moves on to consider the relationship between the British purchase of the Suez Canal Company shares and the dominating ambition of the Zionists in the Holy Land.

THE ATTITUDE OF THE OTTOMAN EMPIRE TOWARD THE ZIONIST MOVEMENT 1897 - 1909

BY
Dr. HASSAN HALLAK

DAR ANNAHDA ALARABIYA